محمد جواد مغنية

مقالات مغمورة

إعداد وتحقيق

علي المحرقي



محمد جواد مغنية

مقالات مغمورة

الاهداء

((إلى روح والدي أهدي هذا الكتاب))

محمد جواد مغنية في العرفان

كان الشيخ محمد جواد مغنية شعلة من النشاط الفكري والاجتماعي، وكان يضرب بسهم وافر في أكثر من ميدان، ولكن من الواضح أن الكتابة الصحفية والدراسات الإسلامية هي التي استحوذت على النصيب الأوفى من اهتمامه ونشاطه، وأخذت الكثير من جهده، بل إننا نقع على مؤشرات ودلائل تشير إلى أن الشيخ كان يعد نفسه منذ البدايات الأولى إلى الانخراط في الكتابة الصحفية، ولم يكن يوماً ما راغباً، أو كان يحلم بالمرجعية، وأن يصبح فقيهاً تجبى له الأموال، ويسود الأوساط، ويشار له بالبنان، ويصبح مقلداً في الكثير من الأقطار الإسلامية، بل كان كل حلمه منصباً على البروز والتفوق في الكتابة الفكرية والأدبية، وإمداد المجلات والصحف بمقالاته المتميزة، والتي تلفت الأنظار بجدتها وإبداعها، وتميزها.

يقول : " كنت، وأنا طالب في النجف، أطمح إلى أن أكون عالماً مجتهداً يلبس ثوب العلم والدين باستحقاق وجدارة وأن لا يختلف اثنان في علمي وفضلي تماماً كما كان أبي الشيخ محمود وأخي الشيخ عبد الكريم، وغيرهما من علماء الأسرة التي يرجع تاريخها العلمي إلى أكثر من ثمانمائة سنة، كما في معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر.

هذا ما كنت أطمح إليه يوم كنت طالباً في النجف الأشرف سيراً على طريق الأجداد والآباء، كما أشرت، وصوناً لكرامتي من سخرية عابث، وضحكة هازئ .. وأيضاً كنت أعتقد أن مستقبلي ومصيري يرتبط بنجاحي كفقيه مجتهد. ومن أجل ذلك أقبلت بكياني كله على الدرس وإتقانه، وما خطرت المرجعية والرئاسة في بالي على الإطلاق مع أني شاهدت هالتها حول ابن عم والدي المقدس الشيخ حسين مغنية رئيس العلماء وثقة الأتقياء في عصره.

أجل كنت أتمنى أن أحسن الكتابة ونظم الشعر، لأنشر في الصحف، ويرى الناس اسمي مطبوعاً في صفحاتها، عسى أن أستحوذ على إعجابهم وتقديرهم "(التجارب-١٣٠).

وفي سبيل الوصول لهذه الغاية، ومن أجل تحقيق الذات بذل الشيخ جهداً جباراً منذ البداية وهو شاب يافع، ومنذ أن كان طالباً في الحوزة الدينية

بالنجف الأشرف، تمثل هذا الجهد في القراءة المتعمقة الغزيرة والمتواصلة لأهم الكتب الأدبية، والاتصال بأشهر الأسماء العلمية والأدبية في الأقطار العربية، وعلى الأخص في مصر وبلاد الشام، والاطلاع المركز على أهم المجلات والدوريات المشهورة والبارزة في تلك الفترة، ولم تشغله الدراسة الدينية الحوزوية عن تلك القراءات، ولم تؤثر فيه الدروس التقليدية وتجعله يقلل من القراءة العامة الثقافية، وعلى الأخص في الأدب، وكان اتصاله بالمجلات الأدبية عاملا مهما ً وبارزا ً في تعزيز اتجاهه للكتابة الصحفية، والبروز في كتابة المقالات المتنوعة في اتجاهاتها، وهذا ما يشير إليه في قوله شارحاً وضعه وهو طالب في النجف:

" تعطل الدروس في النجف يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وأيام الأعياد ووفيات الأئمة، والعشر الأول من شهر المحرم، وشهر رمضان، كنت أنتهز أيام العطل هذه وأتردد على مكتبة الحسينية العامة، وأقرأ ما تيسر، وأستعير من أخواني الطلاب ما عندهم من الكتب، ومازلت أذكر أهم تلك الكتب مثل تاريخ ابن الأثير، المسعودي، الأغاني، إحياء العلوم للغزالي. كتب المنفلوطي وطه حسين، العقاد والزيات وإسماعيل مظهر، وكتاب حديث عيسى بن هشام، كتب جبران خليل جبران، كتاب ملوك العرب للريحاني. أشعار المهاجرين اللبنانيين كأبي ماضي والقروي وفرحات ونعيمة، وشغفت بديوان اللزوميات للمعري (١). قرأت أيضا ً حاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان، والأبطال للفرنسي كورنيل (٢)، وعصر المأمون ومقدمة ابن خلدون، وغيرها، وغيرها كثيرا، أما الصحف التي كنت أقرأها في النجف فهي كثيرة أهمها مجلة العرفان لصاحبها المرحوم الشيخ

---

(١) تجد في الكتاب مقالة لمغنية حول عقيدة المعري بعنوان " عقيدة المعري من شعره " ص ٦٣.

(٢) كتاب الأبطال لتوماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨١) ، وهو أديب أسكتلندي وليس فرنسياً كما أشار مغنية، نشأ فقيراً ومريضاً، وهوى الأدب الألماني، وترجم بعضه للإنجليزية ، وخصوصا مؤلفات شيللر وجيته. ناهض الصناعة والعلوم المادية، ولم يؤمن بالديمقراطية ، التي أسماها حكم الغوغاء، وضخّم دور الفرد، وخصوصاً المصلح القوي، في تغيير مجرى التاريخ، تأثر به محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد، وحاكاه الأخير في العبقريات. ويعتبر كتابه " الثورة لفرنسية " أهم كتبه، ومن مؤلفاته الأخرى "حياة شيللر" في ١٨٢٣ ، و" عن الأبطال " في ١٨٤١ ، و " كروميل " في ١٨٤٥ ، و " فريدريك الأكبر " في ١٨٥٨ .

عارف الزين، وقد نشرت فيها شعراً ونثراً قبل رجوعي إلى جبل عامل، وأقرأ بانتظام جريدة الهاتف للخليلي، أما رسالة الزيات ومجلة العصور كانتا تصلان إلى بعض الطلاب فأستعيرهما منهم " (التجارب- ٣٤) .

من الجلي أن الأسماء التي اتصل بها مغنية في هذه الفترة كلها تتجه ناحية الكتابة الصحفية، والبروز في فن المقال، العقاد وطه حسين وهيكل ونعيمة وغيرهم، مما كان له انعكاسه منذ البداية على اتجاهه نحو الكتابة، بجانب تعزيزه للرغبة التي كانت كامنة في ذاته في أن يكون اسماً بارزاً في عالم الصحافة، والكتابة للمجلات الثقافية، ومعالجة مختلف الموضوعات العلمية والثقافية بأسلوب مركز دقيق ومختصر يتلاءم مع روح العصر، ويستجيب للتطور العلمي، ويؤثر في الشباب العربي. بجانب أنها عزّزت في روحه تقبل الآخر، والاطلاع على الفكر المخالف، والتعرف على مختلف الاتجاهات الأدبية والعلمية والثقافية، وعدم الانغلاق على الجو الحوزوي، والاكتفاء بكتب الفقه والدراسات الدينية التقليدية، مما هو شائع في ظل الحوزة الدينية النجفية، مما حركت فيه هذه القراءات الغزيرة الرغبة في مجاراة هذه الأسماء، والاتصال بالصحافة، وعلى الأخص بمجلة العرفان، ربما لأنها تصدر من بلده، أو لأنه وجد من الصعوبة بمكان أن يجد له مكاناً - وهو المغمور - في المجلات المصرية المعروفة كالرسالة والعصور والثقافة وغيرها، بجانب العقاد وطه حسين وهيكل، وأسماء أخرى كبيرة ومعروفة، أو لسبب مهم يتفوق على هذين السببين في رأيي، وهو حبه الجارف لمجلة العرفان، وإيمانه برسالتها العلمية والدينية والثقافية، مع حبه وإعجابه وإيمانه بصاحبه الشيخ عارف الزين، كل هذه العوامل والمبررات دفعت به إلى أن يبادر للكتابة في مجلة العرفان، وينشر أول مقال له في عالم الصحافة، والذي سيكون البذرة الأولى لمئات المقالات التي ستنشر له تباعاً بلا توقف، وبلا فتور، وذلك بعد مكوثه في النجف مدة ٦ سنوات (دخل الشيخ النجف عام ١٩٢٥) استغرقها في القراءات، والانكباب على الكتب والمجلات بنهم، وإعداد العدة لهذا اليوم المرتقب، وبذل الطاقة القصوى في التزود بالثقافة المتنوعة الغزيرة .

كتب الشيخ أول مقالة عام ١٩٣١، وكانت بعنوان " إنما الأعمال بالنيات "،

وقد نُشرت في مجلة العرفان (١)، ثم كتب المقالات التالية، وكلها نُشرت في العرفان قبل مغادرته النجف وعودته

حين التأمل في عمر الشيخ عند نشر مقاله الأول نجد أن عمره ٢٧ عاماً، وهو عمر متأخر نسبيا بالنسبة لكتّاب المقال في الأدب العربي والغربي معاً، فالعقاد نشر أول مقال وله من العمر ١٨ سنة، وطه حسين ١٩ سنة، والمازني ٢٢، وهكذا بقية كتّاب المقال، لا يتجاوزون هذا العمر كثيراً، ويفسر هذا التأخر لدى الشيخ بتأخره في الدراسة العلمية بشكل عام مقارنة بأقرانه من العلماء وأبناء العلماء، فقد انتظم في الحوزة العلمية وله من العمر ٢١ سنة، وظل يقرأ ويقرأ ويعد نفسه ثقافيا مدة ٦ سنوات قبل أن يشرع في الكتابة للعرفان.

وأنا أجري مسحًا لأعداد مجلة " العرفان " ومجلداتها المتوفرة لدينا في مكتبة مدينة عيسى العامة، وذلك تتبعاً لمعارك الشيخ العلمية ومساجلاته التي خاضها في حياته المباركة، والتي أرّختها في كتاب بهذا العنوان صدر قريبًا، أقول: وأنا أجري مسحًا دقيقا وجدت أن هناك عشرات المقالات العلمية التي نشرت للشيخ دون أن أجدها في واحد من كتبه المنشورة في حياته أو بعد رحيله، وهي مقالات تتسم بالأهمية والعلمية والتجديد، وذات ثقل ثقافي ومنهجي، وأجدها من الأهمية بمكان أن يطلع عليها المثقفون والمهتمون بتراث الشيخ وعلمه وتجديده، لذا ارتأيت أن أحصرها وأقوم بدراستها وأن أحققها في سبيل نشرها في كتاب يؤرخ لتراث الشيخ المجهول، والمطمور في بطون الدوريات القديمة المهملة.

---

(١) مجلد ٢١ ، ص ٥١٥ .

للبنان ، فقد نشرت له العرفان المقالات التالية :

١- " إلى الوراء تقوده " ، مجلد ٢١ ، ص ٨٣ .
٢- " نظر في الذخيرة " ، مجلد ٢٢ ، ص ٣٨٠ .
٣- " كيف لا تتأخر " مجلد ٢١ ، ص ٣٠٦ .
٤- " الأمر بالمعروف " ، مجلد ٢٣ ، ص ٢٨٤ .
٥- " سوّدت نفساً " مجلد ٢٣ ، ص ٥٤٩ .
٦- " أين أطباء النفوس " ، مجلد ٢٣ ، ص ٦١ .
٧- " من الظريف " ، مجلد ٢٦ ، ص ٥٩ .

استطعت أن أحصل على أهم مجلدات العرفان، ولكن افتقدت الكثير منها في المقابل، وعند السؤال وجدت أنه من الأساس لم تكن هذه المجلدات من ضمن مقتنيات المكتبة العامة، وهي في الأصل من بين الأعمال المهداة للمكتبة، وليست من بين مشترياتها، وقد استطعت الحصول على المجلد ٢٨ حتى المجلد ٥٨ منها، وافتقدت المجلدات التالية (١- ٢ -٣ - ٤ - ٥ — ٦ - ٧ - ٨ — ٩ — ١٠ — ١١- ١٢- ١٣- ١٤ - ١٥ — ١٦ —١٧- ١٨- ١٩ - ٢٠ - ٢١- ٢٢- ٢٣- ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٧ — ٣٤- ٣٥ — ٤٠). وأنا على يقين من أنني لو تمكنت من الحصول على بقية المجلدات لوقعت على الكثير من المقالات المجهولة للشيخ، والتي لم تنشر من قبل كبقية المقالات المدرجة في هذا الكتاب. صحيح أن مجلة العرفان كان لها النصيب الأوفى من مقالات الشيخ المنشورة، وكان يمدها بمقالاته بدون توقف حتى آخر حياته، وقبل رحيله بقليل، إلا أنني اكتشفت أن الشيخ كان غزير الإنتاج في فن المقال، كما هو غزير في إصدار الكتب والبحوث، فكان يمد أغلب الصحف والمجلات اللبنانية بمقالاته، وكذلك النجفية، بنسبة أقل، ولو كان لدينا في البحرين مكتبة عامة عامرة لا نقص فيها وتمتاز بالكمال لوقعت على كنز لا يقدر بثمن من أعمال الشيخ المغمورة والمجهولة، ولأصدرت مجلداً أو مجلدات من أعماله العلمية الثمينة، والتي نامت في طوايا النسيان في ظل هذه الأوراق الصفراء، فقد كتب في أهم الصحف والمجلات اللبنانية بجانب العرفان، وهي: (الآداب — العلوم — التلغراف — بيروت - الجريدة — النهار — السفير — الحياة — الشعب — المحرر — المحامي — السياسة — نداء الوطن — النشرة القضائية اللبنانية — الجهاد — الهدف — الأحد — العالم)، وكان ينشر في مجلة النجف النجفية، ومجلة رسالة الإسلام المصرية، وكيهان الإيرانية، وكان يذيع في الإذاعة أعمالاً في أغلب المناسبات الدينية والوطنية ، وبهذا يُعد الشيخ غزير الإنتاج ، وذا صلة بأغلب الصحف اللبنانية المهمة، وذا صوت وقلم مسموع وله نفوذ ودوي.

كان من ديدن الشيخ أن يجمع أهم مقالاته وينشرها في كتاب مطبوع، وقد اختط لنفسه هذا المنهج منذ البدايات الأولى، مع كتابه " مع الشيعة الإمامية " والذي صدر عام ١٩٥٥م ، وأعيد طباعته بعد عام واحد فقط ١٩٥٦م ، وذلك لما حققه الكتاب من ذيوع ونجاح كبير، وفي هذا يقول: " جمعت في هذه الأوراق بعض ما كنت أرسله في الصحف الحين بعد الحين من سنة

١٩٣٧ إلى هذا التاريخ، وقد أهملت ما نشرته قبل هذا التاريخ لأنه الباكورة الأولى ". وهذا يعني ببساطة أنه أهمل المقالات السبع التي أشرنا إليها سابقاً، والتي كتبها يوم كان طالباً في النجف الأشرف، والتي تعد بدايته الحقيقية في النشر في الصحافة. وكان يجمع المقالات بحرفية واختيار وعناية وتنسيق، وأهم كتبه التي سارت على هذه الخطة الكتب التالية: (من هنا وهناك – من ذا وذاك – صفحات لوقت الفراغ – الإسلام مع الحياة – الشيعة والتشيع – مع الشيعة الإمامية – علي والقرآن – علي والفلسفة – بطلة كربلاء – الحسين والقرآن – علم أصول الفقه – معالم الفلسفة الإسلامية – الوجودية والغثيان – مصطلحات ومذاهب فلسفية).

ولكني حين التنقيب والرصد في أعداد العرفان ورسالة الإسلام والعلوم والآداب وجدت أن الشيخ لم يهمل ما قبل هذا التاريخ فقط، بل أهمل عشرات المقالات التي نشرها بعد هذا التاريخ، ولم يثبتها في واحد من كتبه على كثرتها، ولا أدري ما المعايير التي يتخذها الشيخ في اختيارات مقالاته للنشر، ورفض الآخر، وما الأساس الذي يبني عليه رؤيته في إدراج المقال المنشور في كتاب مطبوع ورفض ما دونه من مقالات ؟! والمقالات المنشورة المغمورة والتي وقعت عليها ليست قليلة العدد، بل هي بالعشرات، وكلها لم تدرج في كتاب، هذه الأعداد من المقالات استطعت الحصول عليها من أربع مجلات فقط، ولا تدل على تراثه المغمور كله، وهذه المجلات هي: (العرفان – رسالة الإسلام – العلوم – الآداب)، أما بقية الدوريات التي كان يراسلها فإنني لصعوبة الوصول إليها لم أستطع الوقوع على ما فيها من مقالات مغمورة للشيخ.

في الكتاب ٨٠ مقالة متنوعة نشرها الشيخ على امتداد حياته، تبدأ من تاريخ ١٩٣٨/٣، حتى ١٩٦٩/٨ . وقد قمت بترتيبها حسب التسلسل الزمني، بدءاً من الأقدم حتى الأحدث من حيث تاريخ النشر، وذلك من أجل التعرف على تطور الشيخ العلمي. ولارتباط المقالة المتأخرة بالتي تسبقها في الغالب.

أصدر الباحث الدكتور عصام العيتاوي عام ٢٠٠٨ كتابًا مهما للغاية في دراسة سيرة وفكر الشيخ محمد جواد مغنية بعنوان" الشيخ محمد جواد مغنية .. دراسة سوسيولوجية في مشروعه الإصلاحي" أصدره مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت، معتمداً في الأساس على دراسة

فن المقال لدى الشيخ، وفي الكتاب يذكر الباحث أنه رصد للشيخ ٩٧٨ مقالاً منشورا في الصحافة (ص ٢٧٥)، وهذا الكم من المقالات يعني ببساطة أن هناك العشرات إن لم تكن مئات من المقالات المغمورة في صفحات المجلات والصحف دون أن تنشر أو تدرج في كتاب مطبوع، مما يعني أننا أمام تراث مجهول خطه يراع الشيخ، وربما مقالة واحدة من هذه المقالات تفتح مغاليق وأبواب موصدة من أبواب الفكر الإسلامي، وتدلنا على رأي صائب دقيق، فكيف بمئات المقالات التي ذهبت طي النسيان؟، وسيتعرف القارىء على مصداق هذا الحديث حين يقرأ بتمعن هذا الكتاب، ويتأمل في مقالات الشيخ التي تدل على عقل راجح، وفكر متجدد، ورأي صائب جريء، وعالم حر نزيه ينطلق في رؤاه من رؤية الإسلام المتجددة عبر العصور المختلفة.

يشخّص لنا الباحث القدير الأستاذ أنور الجندي (١٩١٧- ٢٠٠٢) مشكلة المقالات المغمورة لكبار الكتّاب في مصر في قوله :

" ذلك أن الحقل الأدبي ليس مفتوحا على النحو الذي يحقق العمل ببساطة. وبالرغم من كل ما قدم إليه من دراسات فإن هناك جوانب ما تزال غامضة، ومعقدة وفي حاجة إلى مجهود ضخم للكشف عنها، ذلك أن أغلب الأعمال الأدبية والفكرية قد بدأت على أيدي أصحابها دراسات أو كلمات نُشرت في الصحف، ثم استطاع عدد قليل من الكتّاب جمع آثارهم وإبرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات، حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازني والزيات وجبران وميخائيل نعيمة وهيكل وسلامة موسى قد بدأت في هيئة مقالات نشرت في الصحف والمجلات ثم جمعت في كتب ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول إن أدب الثلاثينات وما بعدها كان أدب مقالات مجمعة. وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم، وإنه فيما عدا الدراسات الجامعية والرسائل الأكاديمية فإن كل آثارنا الأدبية مقالات مجمعة وإن كان بعض الكتاب قد استطاع في ذكاء أن يربط بين المقالات المنوعة وأن يبرزها في وحدة وانسجام، وإن بعضهم الآخر عجز عن هذه المحاولة. هذا رأي قريب من الحق فيما أعتقد عن تجربة، وهو موصلي إلى الحقيقة التي أردت أن أكشف عنها، بأنه فيما سوى عشرة أو عشرين أو ثلاثين من الكتاب على الأكثر جمعوا آثارهم، فإن هذه الآثار ما تزال مدفونة في بطون الصحف والمجلات وإن في هذه المرحلة التي انتعشت فيها المقالة الأدبية والسياسية والاجتماعية يمكن أن يُقال إنه في خلال ستين عاماً (١٨٧١ – ١٩٣٩) باستثناء فترة الحرب العالمية

الأولى عندما توقفت الصحف أو انقطعت قد كتب ما لا يقل عن مائتي كاتب ممن لم يجمع أحد منهم آثاره، وإن كل كاتب من هؤلاء قد كتب في عشر موضوعات منوعة، فإننا إذ ذاك، أمام حصيلة لا حد لها تضم ألفي بحث أو ألفي كتاب.

هذا بالإضافة إلى عشرات الكتب الملخصة، والمترجمة، وذلك باستثناء المقالات الصحفية السياسية ذات الموضوع المحدود أو مقال الساعة أو الفكرة العارضة.

وإذا ظن بعض الكتاب أن في ذلك شيء (هكذا) من المبالغة فإني أذكر بالإضافة إلى ذلك أن هناك أكثر من خمسين كاتباً قد كتبوا خلال سنوات بلغت العشرين أو الثلاثين، كل يوم، أمثال داوود بركات وفارس نمر وعبد القادر حمزة وأمين الرافعي، وهيكل والعقاد وطه حسين وحافظ وعوض وعبّاس حافظ وأحمد وفيق وخليل ثابت ومحمد مسعود وسيد علي ومحمود عزمي وأحمد نجيب. وإذا أردنا أن نجتزئ بمثال واحد أو اثنين قلنا مثلاً إن داوود بركات رأس تحرير الأهرام ٤٠ عاماً، ونفترض أنه كتب افتتاحية الأهرام ٣٠ عاماً بواقع (ثلاث مرات كل ٤ أيام) فماذا تجد؟ نجد أنه كتب ١٠٩٨٠ مقالاً، وهناك مثال العقاد أو طه حسين أو المازني أو هيكل (١٩٢٢ -١٩٥٢)، المازني (١٩٢٢ — ١٩٤٩) ٩٨٠٠ مقال لكل منهم ضاعت في بطون الصحف وهي غير المقالات الأدبية التي جمعت.

وبعد هذا الاستطراد نعود فنقول إن صحفاً كالمقطم واللواء والمؤيد والأهرام والسياسة والمنبر وكوكب الشرق والوادي والبلاغ والجريدة، ومجلات كالمنار والضياء والمقتطف والجوائب والزهور والبيان والجامعة والعصور والمشرق والزهراء والسياسة الأسبوعية والعصور وأبولو والفجر والنهضة الفكرية والرسالة والثقافة (وهذا في مصر وحدها) قد أعطت محصولاً ضخماً لا حد لضخامته من الأبحاث والدراسات المنثورة المضيعة، ولذلك فإن مجال العمل الأدبي الحقيقي فيما أعتقد للكشف عن حقائق التطور الأدبي في العالم العربي في العصر الحديث مرتبطة إلى أبعد حد بالكشف عن هذه الآثار التي حاولت أن أصور أهميتها وخطورتها. ومن هنا فإن تجربة العمل الأدبي كما قلت تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة، لمن يريد أن يرسم صورة كاملة أو قريبة من الكمال للفكر العربي المعاصر في جوانبه المختلفة (الأدب، التاريخ، الاجتماع، الدين، السياسة، الاقتصاد)

فليس هناك فهارس كاملة لهذه الصحف والمجلات، وليس من اليسير أن يراجع الباحث في موضوع واحد كل هذه الصحف والمجلات.

وإنه لابد من أن تُعد فهارس كاملة (١- للصحف اليومية)للأهرام والمقطم واللواء والمؤيد والبلاغ وكوكب الشرق والسياسة والجريدة. و(٢- للمجلات) كالهلال والمقتطف والرسالة والثقافة والسياسة الأسبوعية والمنار، وهي أطول هذه الصحف والمجلات عمراً. " (شهادة العصر والتاريخ، ص ٩٧-٩٩ ، ط/١ ، دار المنارة ، ١٩٩٣).

وإذا قوض للعقاد وطه حسين وهيكل والمازني وغيرهم بعد سنوات من نشر هذا المقال من يراجع الدوريات القديمة، ويستخرج منها كل المقالات المغمورة لهؤلاء الكتاب الكبار، وينشر نتاج طه حسين والعقاد، أو يشار له في دراسات دقيقة تعطي صورة ساطعة لكلِ المقالات التي كتبها هؤلاء الكبار، فإن الشيخ محمد جواد مغنية لم يحظَ بمن يقوم بهذه المهمة الشاقة، ويحاول أن يراجع الصحف اللبنانية، والعراقية والمصرية، ليستخرج منها ذلك الكنز من العلم الذي بثه الشيخ من عصارة ذهنه ودراساته وقراءاته المستفيضة في الفكر الإسلامي والعربي والعالمي، لذا ارتأيت أن أقوم بهذه المهمة بنفسي، وأراجع ما توافر لدينا في المكتبات العامة والخاصة من مجلات ودوريات، وقد اقتصر التنقيب على ٤ مجلات كما قلت، استخرجت منها ٨٠ مقالة لم تنشر من قبل. وكم أخذتني الحسرة لعدم تمكني من الاطلاع على بقية الصحف والمجلات التي كان الشيخ يراسلها، ويكتب فيها، لكانت النتيجة كنزاً لا يمكن تقديره بثمن.

لاحظ الباحث الأستاذ عصام عيتاوي أن مقالات مغنية تدور في مجملها حول ١٨ محوراً، تتفاوت من حيث الكم والحضور، وقد عمل في ذلك جدولاً مهماً ودالاً، مع أعداد تشير إلى نسبة تواجد كل فن من الفنون الثقافية والأدبية والإسلامية في مقالاته، وكان الجدول كالتالي (٢٧٥) :

الرقم	اسم المحور	عدد العناوين	النسبة المئوية
١	الفقه	١٣٨	١٤.١١ ٪
٢	السيرة	١٣٥	١٤ ٪
٣	الإسلام	١٠٨	١١ ٪

٤	الأسلوب العلمي والآليات المنهجية	٩٢	٩،٤٠ ٪
٥	الأخلاق النظرية والأخلاق العملية	٨٥	٨ ، ٦٩ ٪
٦	العقائد	٧٥	٧ ، ٦٦ ٪
٧	الفلسفة ومصطلحاتها	٥٨	٦ ٪
٨	المؤسسة العلمية والعلماء	٤٥	٤ ، ٦٠ ٪
٩	التاريخ	٤٤	٤ ، ٤٩ ٪
١٠	النمو النفسي والوظيفي والموقف	٣٦	٣ ، ٦٨ ٪
١١	القضايا السياسية	٣٤	٣ ، ٤٧ ٪
١٢	القضايا الاجتماعية	٣٠	٣ ، ٠٦ ٪
١٣	العِلميات	٢٢	٢ ، ٢٤ ٪
١٤	التفاسير والقرآن	٢١	٢ ، ١٤ ٪
١٥	القضايا الاقتصادية	٢٠	٢ ، ٠٤ ٪
١٦	السيرة الذاتية	١٤	١ ، ٤٣ ٪
١٧	الأدب	١٢	١ ، ٢٢ ٪
١٨	الجغرافيا	٩	٠ ، ٩٢ ٪

إذا الفقه هو المحور الأهم في مقالات الشيخ مغنية، والذي نال النصيب الأوفى من اهتماماته، والكتابة في فروعه، وقضاياه، وذلك سعيا منه للتجديد، وربط الفقه بالحياة .

ومع هذه الخدمة الجليلة التي قدمها الباحث العيتاوي، ودراسته القيمة المهمة، والتي سدّت نقصاً في المكتبة العربية والإسلامية، والتي تناولت شخصية تحتاج منا إلى المزيد والمزيد من الجهد والاهتمام، مع ذلك إلا أنه وقع في مجموعة من الأخطاء، أود أن أشير إليها خدمة للباحثين، وذلك قبل أن أشرع في دراسة تلك المقالات الثمانين، وتسليط الضوء عليها، وعلى بنيتها الفكرية .

١- يذكر أن للشيخ مقالا بعنوان " الهجرة مفيدة أو مضرة " منشور في المجلد ٣٣ من العرفان ص ١٩٠، وعند المراجعة يتبين أن هذا المقال ليس للشيخ مغنية، وإنما هو لكاتب آخر .

٢- يشير إلى أن له مقالاً بعنوان " دعوة إلى الحق " نشر في ١٩٤٧ في العرفان، مجلد ٣٢ ، ص ٨٩٢ . والصحيح أن المقال نُشر عام ١٩٤٦ .

٣- يذكر أن الشيخ عام ١٩٤٧ عمره ٤٤، والصحيح أن عمره ٤٣، إذ هو من مواليد ١٩٠٤ .

٤- يبين أن للشيخ مقالاً بعنوان " الآباء في جبل عامل" نشر عام ١٩٤٧ ، مجلد ٣٣، ص ٨٥٩، واسم المقال ليس كما أشار، بل " الأدباء في جبل عامل " وليس الآباء .

٥- مقال " قصة أم فراس " المنشور عام ١٩٤٧ ، مجلد ٣٣، ص ٦٧٧، والصحيح اسمه " قصبة أم فرس " ونشر في مجلد ٣٣ ص ٣٧٧، والشيخ في هذا يشير إلى اللعبة الشعبية، التي يلعبها الصغار، ويستبدلون فيها العصي بالخيول.

٦- مقال " المتعة عند الشيعة " نشر عام ١٩٥١ ، مجلد ٣٧، ص ١٠٩٥ ، والصحيح اسمه كاملاً " المتعة عند الشيعة الإمامية " وقد نُشر عام ١٩٥٠ ، ج١٠ من العرفان .

٧- مقال " مركب النقص " نُشر عام ١٩٥١، مجلد ٣٨، ص ٣٢، والصحيح أنه نُشر شهر ١٢ / ١٩٥٠ ، ج١ .

٨- مقال " الإمامة عند الشيعة " نشر في عام ١٩٥١ ، مجلد ٤٣ من العرفان، ص ٦٠٧ . المقال نُشر في عام ١٩٥٦ ، ج٧ مجلد ٤٣ .

٩- مقال " لا ضرر ولا ضرار " نشر عام ١٩٥٢، مجلد ٣٨ ، ص ٧٤٠ . والصحيح عام ١٩٥١ .

١٠- مقال " بيني وبين القارىء نحو فقه إسلامي جديد " عام ١٩٥١، مجلد ٣٨، ص ٩٣٧ . والعنوان غريب جداً ولا يلتقي بالأصل !! والصحيح " بيني وبين الثائرين على نحو فقه إسلامي جديد " .

١١- مقال " كيف يجب أن نفهم العبادة " يذكر أنه نشر في عام ١٩٥٣، مجلد ٣٩ ، ص ١١٧٣. بينما الصحيح أن المقال نُشر عام ١٩٥٢ ، تحديدا شهر ٩ ج ١٠ .

١٢- مقال " محسن أهل البيت " والصحيح أن اسم المقال " محن أهل البيت " وقد نشره الشيخ فيما بعد في كتابه " أهل البيت .. منزلتهم ومبادئهم " .

١٣- مقال " الهدية في انتقاد الأزهر " وقد نشر في عام ١٩٥٤ ، مجلد ٤١ ، ص ٤٤٧ . ولا أعلم من أين جاء الدكتور بهذا العنوان !؟ المقال في أصله يحمل

عنوان " المهدية في الإسلام " وقد نشره الشيخ فيما بعد وأدرجه في كتابه " مع الشيعة الإمامية " ، وليس كما ذكر عيتاوي !

١٤ – مقال " هل الثورة على الظلم وقف على الشيوعيين؟ " نشر عام ١٩٥٥ بالعرفان، مجلد ٤٢ ، ص ٢٤٧ .وهذا يحتاج إلى تصحيح، فالعنوان هكذا "هل الثورة على الظلم وقف على الشيوعية ؟"، وهو في ص ٢٦٧ ، وقد نشره الشيخ في كتابه " الإسلام مع الحياة " تحت عنوان آخر ، وهو " الثورة على الظلم ".

١٥ - مقال " حب الله والجمال الحقيقي " ١٩٥٦ ، مجلد ٤٣ ، ص ٩٢١ . ولا أدري كيف يغير الدكتور هذه العناوين ؟ أينقل من مصدر، أم من المجلة نفسها؟ لا أعلم !! ، المهم أن المقال ليس هكذا ، وإنما عنوانه " حب الله والجمال والحقيقة " وقد نشره الشيخ بالعنوان نفسه في كتابه " الإسلام مع الحياة " ص ١٠١ .

١٦ - مقال " هل يعترف الفقه الإسلامي بقاعدة الانسداد " ١٩٥٦، مجلد ٤٤، ص ٩. والعنوان ليس هكذا، بل الصحيح " هل يعترف الفقه الإسلامي بقاعدة الإثراء بلا سبب؟ " وقد نشره الشيخ في كتابه " الإسلام مع الحياة " بالعنوان نفسه ص ٢٤٢ .

١٧ - مقال " أولاً العلماء " ١٩٥٧، مجلد ٤٤، ص ٤٧٦. صحيح العنوان كما في العرفان " أولاد العلماء " يتحدث فيه الشيخ حول ظاهرة انحراف بعض أولاد العلماء عن الجادة، وابتعادهم عن الدين، ويحلل أسباب ذلك، وقد نشره في كتابه " الإسلام مع الحياة " أيضا، ص ٢٦٧ .

١٨ – مقال " رجال يحاولون التعليم والإرشاد " ١٩٥٧، مجلد ٤٤ ، ص ٧٢١. العنوان الصحيح " رجال الدين يحاولون " ! تجد المقال في هذا الكتاب، لأنه من المقالات المغمورة والذي لم يُنشر من قبل .

١٩ - مقال " الشيعة يحترمون القاهرة ويستنكرون حملة التابعي " ١٩٥٩ ، مجلد ٤٥، ص ٨٩١ . والصحيح أن المقال نُشر عام ١٩٥٨، مجلد ٤٥، وقد أثبته فيما بعد في كتابه " الإسلام مع الحياة" ص ٦٩، ولكن تحت عنوان آخر وهو " التابعي وأهل البيت "، ونُشر المقال في الوقت نفسه في جريدة " التلغراف " عدد ٢٩ نيسان "أبريل" ١٩٥٨ .

٢٠ – " في جبل عامل " نُشر عام ١٩٥٩ مجلد ٤٦، ص ٣١٢. والصحيح أنه نُشر عام ١٩٥٨ ج ٤ من العرفان، شهر كانون الأول "ديسمبر". وقد ضمه الشيخ إلى مقالات كتابه " الإسلام مع الحياة " ص ٢٩٢. وهو واحد من ضمن مقالات متسلسلة كتبها الشيخ حول سيرته الذاتية، بضمير الغائب على طريقة طه حسين في الأيام، بجانب " من حياة اليتيم - إلى النجف – في القضاء الشرعي " وقد ضمها في عنوان واحد وهو " ترجمة المؤلف " تجده آخر كتاب " الإسلام مع الحياة ".

٢١- " إلى علماء الشرع في جبل عامل " ١٩٦٠، مجلد ٤٧ ، ص ٧٤ . المقال نُشر عام ١٩٥٩ ، ولم يدرجه الشيخ في واحد من كتبه مع نفاسته وأهميته، وقد قمت بإدراجه في هذا الكتاب.

٢٢ – " في القضاء الشرعي " ١٩٥٩، مجلد ٤٦ ، ص ٢٢٤ . المقال نُشر عام ١٩٥٨ ، وهو مدرج في كتاب " الإسلام مع الحياة " ص ٢٩٩ .

٢٣ - " الإسلام وحزب علي يوم الخندق " ١٩٦٠ ، مجلد ٤٧ ، ص ٥٦٤ . واسم المقال إن لم أكن مخطئاً " ضربة علي يوم الخندق " مجلد ٤٧ ، ص ٥٧٤ .

هذا بجانب بعض الأخطاء التي وقع فيها والتي تتعلق بتواريخ الطبعة الأولى لبعض مؤلفات الشيخ، وبعض الأسماء التي لها دخل بحياة ومسيرة الشيخ العامرة، ولا مجال الآن لاستعراضها ..

بعد هذه الإطلالة أنتقل الآن إلى دراسة المقالات المدرجة في هذا الكتاب في بعض جوانبها المختلفة.

تنوع وثراء:

يمتاز الشيخ في عرضه وكتاباته بالتنوع والثراء في العرض، والغزارة في الثقافة التي يبسطها في مقالاته، وهو يفاجئك بين مقال وآخر بما يكتبه، فهو يتنقل من الفقه للاجتماعيات إلى السيرة الذاتية ومنها إلى الأدب، مما يخلق تشويقاً لدى المتلقي، ولا يكرر نفسه أبداً، هذه الآفة التي تجدها لدى معظم كتاب المقال، حتى الأسماء البارزة منهم، وخصوصا في السنوات المتقدمة، الشيخ لم نجد لديه هذه المشكلة حاضرة، حتى أيامه الأخيرة، فهو متجدد، وثري، ومتنوع، بسبب قراءاته المتعمقة، والمتواصلة في الفكر بشتى

صوره واتجاهاته، وهو يواكب المكتبة ويتابع أحدث الإصدارات كل يوم، مما يمده بالجديد والمعاصر، ويحرك قلمه في يده بسيوله .

وللتدليل على ذلك لنتأمل المثال التالي :

في الجزء ٧ من مجلة العرفان الصادر في شهر ١٩٥٥/٥ يكتب " رسالة الإسلام .. دار التقريب بين المذاهب الإسلامية "، وفيه يعالج موضوع الوحدة الإسلامية بين المذاهب، واحترامها لبعضها وضرورة السعي للتقريب، وبعده يكتب في موضوع فقهي " التيسير في أحكام الأقارب والزوجين " والمنشور في ١٠ / ١٩٥٥ بمجلة " رسالة الإسلام ". وفي الشهر نفسه تنشر له العرفان موضوعًا مهمًا في أخلاق العظماء، وأن يكونوا مشاعل وقدوة ويسحقون ذاتهم كالأنبياء والمعصومين. وهو بعنوان " من أخلاق العظماء " في ج ١. وبعده بشهر، وتحديداً شهر ١١ تنشر له العرفان مقاله في أخيه الأكبر " الشيخ عبد الكريم مغنية " وهو موضوع في السيرة، نُشر في ج ٢. ثم يكتب " الإسلام والاقتصاد " في قضية خطيرة عالجها الفقهاء والعلماء والاقتصاديون، هل هناك نظرية اقتصادية متكاملة في الإسلام؟ وذلك في الجزء ٤ من العرفان، شهر ١ / ١٩٥٦ . بعد هذا الموضوع الدسم يكتب في العقيدة مقاله " الأصول الثلاثة والأخوة في الدين " في مجلة رسالة الإسلام، شهر ٤ / ١٩٥٦ . ثم ينتقل بعد شهرين ليستعرض كتاب جورج جرداق القيم في الإمام علي "ع" ولتنشر له العرفان مقاله " كتاب الإمام علي لجرداق " في ج ٩، شهر ٦ / ١٩٥٦، ثم يعالج موضوعا اجتماعيا في الإصلاح الديني ودور العلماء الخطير في التغيير الاجتماعي، ومحاولاتهم في لبنان في معالجة الانحرافات الدينية، والتقصير العبادي، وذلك في مقاله القيم " رجال الدين يحاولون " والمنشور في شهر ٤ / ١٩٥٧ في ج ٧ من العرفان، وأخيراً يكتب بعد شهر في موضوع ظريف في السيرة، حيث يعطي نبذة مختصرة لبعض علماء الطائفة ممن أسماؤهم إبراهيم، وذلك في مقاله المنشور في العرفان ج ٨، شهر ٥ / ١٩٥٧ بعنوان " إبراهيم ".

أرأيت إلى هذا الثراء والتنوع في الطرح، والقدرة على التغيير والانتقال في الموضوعات والعناوين من العقيدة للفقه للاجتماع للسيرة للتوحيد مما يذكرنا بقلم العقاد، الكاتب المصري القدير، والمفكر الموسوعي، ولا غرابة في هذا، فالشيخ من أشد المعجبين بفكر وسيرة العقاد، هذا التنوع الذي لا تشهد له مثيلاً عند علماء كثيرين من حملة الأقلام، ممن يتقولبون في موضوع واحد أو موضوعين، وهذا لا نقوله من باب النقد، ولكن نقوله من باب إثبات

التنوع لدى الشيخ، وقدرته الفائقة على الكتابة في محاور وأبواب متعددة ومختلفة الاتجاهات، مما أعطى صورة مشرقة لرجل الدين الذي يواكب الفكر المعاصر، ويتابع الثقافة بمختلف اتجاهاتها، ويعيش عصره، ويلتحم مع مجتمعه، ويكتب في قضاياه المعاصرة، لا أن ينفصل عن كل ذلك.

الشيخ في مقالاته يكتب في محاور عديدة، ولم يحصر نفسه في محور واحد كبعض رجال الدين المعاصرين، فهو منشغل بالمحاور التالية، والتي استحوذت على مقالاته واهتماماته: " المحور الأخلاقي – المحور الأدبي – المحور الإسلامي – محور المنهجيات – المحور الاجتماعي الفقهي – محور الشخصيات ".

نقدات أدبية :

يظهر للمتتبع لحياة الشيخ، ومسيرته العلمية والثقافية أن لديه اهتماماً بالأدب منذ أن كان طالباً في الحوزة الدينية بالنجف، وكان مولعاً بالشعر ونظمه وقراءته، وتتبع الشعراء، والمراسلات الشعرية مع أقرانه من طلبة الحوزة ممن لديه الميول نفسها للأدب والشعر، وفي تصوري أن الشيخ محمد جواد مغنية لولم يتجه للفقه والدراسات الحوزوية والدينية لكان واحداً من النقاد العرب في لبنان والوطن العربي، حتى أن الدراسات الدينية لم تشغله عن الكتابة في الأدب والنقد والشعر بين الفينة والفينة، وفي هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء سيجد أكثر من مقال من مقالات الشيخ التي تعالج هذا الفن، والتي تندرج تحت المقال النقدي القائم على الثقافة الأدبية، أما الشعر ونظمه فقد توقف عنه تماماً، وأخلص الود للمقالة والدراسات الدينية والفكرية، ففي العرفان المجلد ٣١ الجزآن ٥ و ٦ (أبريل - مايو) ١٩٤٥م، ص (٢١٤ - ٢١٧) ينشر مقاله " أبو فراس والمتنبي" عند العلامة السيد محسن الأمين والأديب الكبير الدكتور طه حسين ". في هذا المقال يعرض الشيخ إلى قضية أدبية ونقدية معاصرة مدارها علمين من أعلام الأدب، الأول د. طه حسين، والثاني السيد محسن الأمين، فكل من هذين العلمين ينتصر لصاحبه من الشاعرين العربيين الكبيرين، المتنبي وأبي فراس، فالسيد يرى أن أبا فراس هو الأفضل والأشعر، أما طه حسين فيرى أن شاعرية المتنبي أقوى، يقول الشيخ مغنية في مقاله: " ألّف السيد(أبو فراس) وقارن بينه وبين المتنبي، وكتب الدكتور طه حسين (مع المتنبي) وقارن بينه وبين أبي فراس، وكلٌ من الكاتبين فضّل صاحبه على صاحبه،

فحكم السيد لأبي فراس على المتنبي، وحكم الدكتور للمتنبي على أبي فراس، والذي أظنّه أنه لم يقرأ أحدهما ما كتبه الآخر ليعلم رأيه في الشاعرين.

والمقارنة بين هذين الرأيين وبيان أسبابهما والباعث عليهما بحث أدبي طريف، وعلمي مفيد، لأن السيد والدكتور تكلما بوحي العقيدة والوجدان من غير ميل وتعصب لأحد الشاعرين، فهما يرسمان لنا صورة صادقة عن الأدب القديم والحديث، وإن شئت فقل يصوران المنظار الذي ينظر فيه إلى الأدب قديماً وحديثاً. فالأدب لم يتغير من ناحية الحسن والقبح أولاً وآخرا، فهو أبداً ودائماً منه الجيد وغير الجيد كما يقول شوقي :

والشعر في حيث النفوس تلذّه لا في الجديد ولا القديم العادي

والاختلاف في وجهة النظر إليه وفي معيار الحسن والقبح . "

ثم ينقل الشيخ حجج كل من السيد والدكتور في الانتصار لشاعره، ولكن الذي يهمنا هنا رأي الشيخ مغنية نفسه في رأي كل من السيد والدكتور، ورأيه في أي الشاعرين أفضل في تصوره ورؤيته النقدية، يقول: " فالاختلاف بين السيد والدكتور لم يكن في طريقة المقاييس وتطبيقها بل في المقاييس نفسها، فمفاضلة السيد ومقارنته وقعت بين أسلوب وأسلوب، والدكتور بين روح وروح، والفرق بينهما كالفرق بين الوسيلة والغاية، وكل منهما مصيب في قوله، صادق في حكمه، بناء على صحة مبناه وصدق ما افترضه من المستند والمدرك، فشعر أبي فراس خال من التعقيد والغموض الذي يكثر في شعر المتنبي ويتسرب إلى الذهن بكل سهولة، ولا يحتاج إلى الشروح والتفاسير، مع إحكام الأسلوب وإبراز المعنى في أجمل قالب، حتى كأن الشاعر من عصرنا هذا، الذي عذبت فيه لغة الأدب ورقّت ألفاظه، فأبو فراس من هذه الناحية يفوق المتنبي، وبهذا الاعتبار فضّله السيد لأنه معيار حُسن الشعر عنده. والدكتور لعلّه لا ينكر ذلك ولا يجحده، ولكنه يرى أنه ليس هو الشيء الوحيد في حسن الأدب، ولا هو كل شيء في جمال الشعر، بل هناك مزايا يجب مراعاتها، ولا يجوز إهمالها .على أن أبا فراس لا يمتاز في الأسلوب فحسب، فإن شعره يفيض بالبطولة المنبعثة عن قوة نفسه وشجاعتها، ويزخر بالحماسة المستمدة من حريته وإبائه، إلا أنه ضيّق التفكير، غير واسع الخيال ولا بعيد الغور بالقياس إلى المتنبي. فالأبي غير العالم، والشجاع غير الغوّاص، وعند المتنبي سعة الخيال ودقة التصوير

وعمق الأفكار وتفاصيل جزئياتها والإحاطة بجميع أطراف الموضوع ونواحيه ومعرفة فروعه وحواشيه. وأبو فراس لا طاقة له بغي ذكر العام والكلي، فإنه ينظم القضايا ويرسلها إرسال البديهيات التي يشترك فيها العالم والجاهل ولا تحتاج إلى إجهاد فكر، ومثل هذا لا يروق للأستاذ العالمي في الأدب العربي الذي ينظر إلى روح الشاعر فيتصل بأفكاره ومكنونات نفسه وبواعثها، ويحس بشعوره ويشعر بإحساسه، ثم يضم ذلك إلى ما تفرضه قوانين الفلسفة الحقة والقيم الصحيحة، فقد تغيرت الحياة العقلية والنظريات العلمية أيّ تغيير، وتحولت إلى حقائق لم يألفها الأقدمون، فمن المستحيل أن يبقى النظر إلى الشعر كما كان، وأنه عبارة عن انسجام ورصانة، فاليوم يُنظر إليه أنه فكرة تمتزج فيها العاطفة والشاعرية، فتصبح حقيقة من الحقائق، تزيل الغشاوة عن إبداع الكون وجماله، وتظهر خفاياه وأسراره، وبهذا يرتفع مستواه عن الابتذال، ويكون له ما لأهم العلوم من الشأن والمنزلة، فالشاعر يجب أن يكون أكثر معرفة من غيره وأوسع إحاطة بخواص الأشياء، أما مقدرته على التصرف بالألفاظ ونظمها وتصدير كمية وافرة منها، فغير مجدٍ ولا مجزٍ، فالنظم الخالي عن الروح والفكرة لا يُسمى شعراً إلا من باب تسمية الجاهل بالإنسان ". ثم يشير بعد ذلك إلى رأيه بوضوح، وهو أنه يخالف السيد كل المخالفة في تفضيله لأبي فراس على المتنبي، بل هو من رأي طه حسين في أن المتنبي أشعر وأقدر وأفضل من أبي فراس، ويدل على هذا ما جاء به السيد نفسه دليلا على تفضيل أبي فراس، من مقارنته لقصيدتين من نفس الوزن و الروي والمعنى لكلا الشاعرين الكبيرين، " وقد قارن السيد بين قصيدتين للشاعرين متحدتين وزناً وقافية وموضوعاً، ومن الغريب أن هذه المقارنة التي جعلها السيد شاهداً ومؤيداً على تفضيل أبي فراس على المتنبي كانت سبباً في تفضيلنا المتنبي على أبي فراس، ومن بعض أبياتها استوحينا كثيراً مما كتبناه، وهي الباعث الأكبر على مخالفتنا للسيد وموافقة الدكتور، وأنقل للقرّاء تلك الأبيات تاركاً ذكر القصيدتين بالتمام حذار التطويل الذي لا يسوغه غلاء الورق وفقدانه. أما موضوع القصيدتين ففي مدح سيف الدولة ووصف الجهاد، ومطلع قصيدة المتنبي :

إذا كان مدحاً فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعراً متيم

وينتهي من المدح إلى وصف الخيل فيقول :

تباري نجوم القذف في كل ليلة   نجـــوم له مـــنهن ورد وأدهـم (١)
فهن مع السيـدان في البر عسـلٌ   وهن مع النينان في البحر عوَّم (٢)
وهن مع الغـزلان في الواد كمَّن   وهن مع العقبان في النيق حوَّم (٣)
وأدَّبـها طـولِ القـتـال فـطرفه   يشيـر إليـها مـن بعيـد فتفهم (٤)
تجـاوبه فعلا وما تسمع الوحـى   ويسمـعها لحـظا ومـا يتكلم (٥)

إذن تم لسيف الدولة أساطيله الثلاثة، وهذه الجياد التي ملأت البر والبحر والجو أطوع إليه من الطائرة والدّبابة والباخرة لمديرها، فلا تفتقر إدارتها في جبهة القتال ومجابهة الأعداء إلى تحريك يد أو رجل، بل تكفيها الإشارة باليد والإيماء بالطرف. ويقول في وصف الفوارس :

وكلُّ فتى في الحربِ فوق جبينه   من الضربِ سطرٌ بالأسنة معجمُ (٦)

---

(١) يصف المتنبي خيول سيف الدولة بقوله: إنها تنقض على الأعداء كالشهب المنقضة في الهواء في السرعة والشدة. والورد والأدهم من صفات الخيل، ونجوم سيف الدولة: أي خيله.

(٢)السيدان: جمع سيد وهو الذئب، وعسَّلٌ: جمع عاسل وهو الذي يضطرب في عَدوِه، والنينان: جمع نون وهو الحوت. أي أن خيله ملأت البر والبحر، فهي تعدو مع الذئاب في البر وتسبح مع الحيتان في الماء .

(٣) الواد أي الوادي فاجتزأ عن الياء بالكسرة وهو نادر، والنيق: أعلى موضع في الجبل. أي أنه لم يترك موضعاً إلا قرعه بحوافر خيله، فهو يكمن بها في الأودية فتجاور الغزلان، ويرهق بها الأعداء في رؤوس الجبال فتجاور العقبان.

(٤)الطرف: النظر . يقول : قد تأدّبت خيله على الحرب لطول ممارستها للقتال حتى صارت إذا أشار إليها بعينه من بعيد تفهم مراده .

(٥) الوحى: الصوت. أي أن الخيول تفهم مراد سيف الدولة بنظراته فقط فتجاوبه بفعلها من غير أن تسمع صوته ويفهمها مراده باللحظ من غير أن يتكلم .

(٦) الأسنة: نصال الرماح، والإعجام : التنقيط. أي وحول سيف الدولة فتيان من رجال الحرب على وجوههم آثار الضرب والطعن، وشبَّه أثر الضرب بالسطر لاستطالته وأثر الطعن بالإعجام لاستدارته.

يمدُّ يديه في المفاضة ضيغمٌ وعينيه من تحت الشريكة أرقمُ(١)

فأي شيء أدق في التصوير وأعمق في التفكير من هذه الرسوم والتصاوير، فهؤلاء الفتيان من رجال الحرب على وجوههم من كثرة القتال والنزال آثار الطعن والضرب، والضرب على جبينهم ممتد مستطيل كالسطر المخطوط ومن فوقه الطعن مستدير كالإعجام والتنقيط هذه هي الخبايا في الزوايا التي لا يهتدي إليها إلا العباقرة وأهل النبوغ الذين يظهرون للناس دائماً بالجديد المعجز.ومن قصيدة أبي فراس التي فضّلها السيد على قصيدة المتنبي :

سنضربُهُم مادام للسَّيف قائمٌ ونطعنُهُم مادام للرمح لهـذمُ (٢)

ونقفوهُمُ خلف الخليج بضُمَّرٍ تخوضُ بحاراً بعض خلجانها دمُ(٣)

ونجنبُ ما ألقى الوجيهُ ولاحقُ إلى كلِّ ما أبقى الجديلُ وشدقمُ

ونعتقل الصمَّ العوالـيَ إنـها طريقٌ إلى نيلِ المعالي وسلَّمُ

وأرماحُنـــا في كل لبَّة فارسٍ تُثَقبُ تثقيبَ الجمـانِ وتنظمُ

كلّيات في كليات تقولها عامة الناس عند الغضب والحماس، ولا تستعصي

---

(١) الضمير من يديه وعينيه للفتى، والمفاضة: الدرع الواسعة، والضيغم: الأسد، والتريكة: البيضة من الحديد .. ونلاحظ هنا أن الشيخ أخطأ في البيت، فجاء بلفظة الشريكة بدلاً من التريكة ، ولعله رجع إلى نسخة أخرى غير التي أمامي الآن . والأرقم : الحية الذكر. أي أن هذا الفتى في الشجاعة كالأسد، وفي حدة النظر كالأرقم، فإذا مدَّ يديه في الدرع فقد مدّهما أسد، وإذا مدّ عينيه من تحت الخوذة فقد مدّهما أرقم. (انظر " العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب " للشيخ ناصيف اليازجي، طبعة : دار صادر – بيروت، ص : ٧٦-٨١) د.ت

(٢) اللهذم: الحاد القاطع من كل ما هو كالسيف أو السنان أو الناب ج : لهاذم ولهاذمة.

(٣) مغنية في هذا البيت يورد لفظة بعد بدلاً من بعض، والصحيح ما أثبتناه أعلاه، الضُمَّر: الخيول المضمرة، وهي الخيول التي تُعلف قوتاً بعد سمنها، وتضميرها أن تُشد عليها سروجها وتُجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها. أي خيول معدَّة للحرب ومدربة على القتال.

وأعود إلى القول: إن المقارنة بين هاتين القصيدتين التي جعلها السيد أساساً لتفضيل أبي فراس هي أدل وأوضح على تفضيل المتنبي وتقدمه.

ثم إنَّ السيد الذي جعل شعر أبي فراس سالماً من السقطات يختار أبياتاً يذكرها تحت عنوان (المختار من شعر أبي فراس) منها في الغزل:

قد كان بدر السما حسنا ... والناس في حبه سواء
فزاده ربّه عذارا ... تمّ به الحسنُ والبهاء
لا تعجبوا ربّنا قديرٌ ... يزيد في الخلق ما يشاء

وأستغفر الله سبحانه وتعالى الذي يزيد في الخلق ما يشاء، وأسأله أن يحفظ السيد ويديم ظله للدين والعلم. " ولا شك أن عبارة الشيخ الأخيرة فيها نوع من التعجب والمخالفة لما ذهب إليه السيد من تفضيل أبي فراس على المتنبي، وعباراته النثرية.

يكتب الشيخ هذا الرأي في جرأة نادرة، وفي مجلة سيّارة لها نفوذ وانتشار، وله من العمر ٤١ سنة، بينما السيد له من العمر ٧٨ سنة، وقبل أن يرحل بسبع سنوات (١٨٦٧ – ١٩٥٢)، والشيخ مغنية في بداياته العلمية، بينما الأمين يملك الصيت والنفوذ العلمي، والشهرة الطاغية في الأوساط العلمية والعربية، وهذه تعد من حسنات الشيخ، ومما يُحمد له، إذ أنه متى ما آمن بشيء فإنه يعلنه دون تردد أو وجل، وإذا آمن بخلاف ما يعتقده الآخرون فإنه يعلنه كذلك بكل قناعة وإقدام، هذا في الدين والعقيدة، فكيف بالأدب والثقافة، فإنه فيهما أجرأ وأكثر إصراراً على أن يعلن ما يؤمن به، وكأنه بذلك يريد أن يضرب لنا مثلاً في أن الحب والإعجاب بالأعلام والعلماء ورجال الدين لا يعني أن أنقاد لكل أفكارهم وآرائهم، فهم بشر وأنا بشر، ولهم قناعاتهم ولي قناعاتي، ولا يجوز التقليد والانقياد في العقيدة وإنما يجب البحث والتقصي والاستقلالية في الرأي والقناعة، هذا في العقيدة والرؤى الدينية، فكيف بالأدب والنقد، وهو علم يقوم على الذوق وعلى بعض الأسس والمبادئ النقدية؟! . والشيخ محمد جواد مغنية من أشد العلماء إعجاباً وإيماناً بالسيد محسن الأمين، ويعد نفسه من مريديه، ومن مدرسته العلمية والإصلاحية، ولكنه أعلنها صراحة، أن الدكتور طه حسين أكثر قدرة على تذوق الشعر والأدب، وأكثر توفيقاً من السيد في أحكامه النقدية والأدبية، وأخبر منه في علم الأدب وتقييم الشعراء.

وفي مقاله " الشريف الرضي " يقع القارىء على آراء نقدية كثيرة على الرغم من قصره وإيجازه، وأنه في صدد عرض كتاب نقدي، وفي المقال يقوم الشيخ بعملية المزج بين آرائه النقدية والأدبية وبين نقده للكاتب الدكتور محفوظ.

الشيخ يثني على الدكتور الناقد ولكن يأخذ عليه الخروج أحياناً عن الاعتدال والإفراط في التحليل بما لا يتوافق مع الذوق، يقول: " ولم أر مثله في تحليل الشعر و بيان وجوهه الخفية، إلا أن تعمقه في بعض الأحيان يخرجه عن حد الاعتدال فيجعل الصورة الضعيفة الواهية التي تنبو عن الذهن والذوق في صف الصورة الصحيحة القريبة المعقولة التي يأنس بها الذهن ويستحسنها الذوق ".

كما أخذ عليه الإفراط في الاهتمام بعلم البيان والتعويل عليه كثيراً في تحليل الشعر، بجانب الاستغراق في الرمزية والإطالة في بيان محاسنها وترجيحها على غيرها حتى استغرق عشر صفحات، وقد أطال في معنى الرمزية وذكر أقسامها وبيان شروطها، ولا موجب لذلك التطويل ولا لبعضه بل ولا لجزء منه، فالرمزية أمر فطري يستعملها الشاعر والناثر بوحي الغريزة دون أن يلتفت إلى القيود التي قيدنا بها الدكتور.

ثم يسترسل الشيخ في نقد ابن الفارض وشعره بناء على رأيه الشخصي وذوقه الفني والنقدي في البيان، وذلك لما "جاء في الكتاب من ذكر لابن الفارض وشعره وردّ الدكتور على الزّيات القائل: إنه شاعر رمزي، واختار هو أنه شاعر من الدرجة المتوسطة، وأنّ شعره لا يخرج عن قواعِد علمٍ البيان المألوفة من التورية والإبهام والتوجيه، وأنه إنما جاء جامداً سقيماً لأنه علمي فقهي أخلاقي أقول: إن طريقة ابن الفارض في شعره ينكرها العلم ويأباها الوجدان والذوق، فكما أنه غير شاعر رمزي كما يقول الدكتور – وهو بهذا الفن أعلم – فشعره أيضاً غير جارٍ على سنن الفقه والأخلاق، ولا على قواعد علم المعاني والبيان، فأي فقهٍ وأي أخلاق يسوّغ استعمال لفظة ليلى والخمر الذي هو رجس من عمل الشيطان على ذاته تعالى الله عما يقول الظالمون، فإن أسماء الباري سبحانه توقيفية، ولا اجتهاد في قبال النص، والشرط الأساسي العام لجميع أبواب البيان هو استحسان الذوق للاستعمال وموافقته للطبع السليم، وهو لا يستحسن اعتباطاً بلا علاقة، فصحة الاستعمال لابد لها من منشأ تُنتزع منه، وسبب تستند إليه،

فالتأويل جائز في القرآن المجيد وكثير في كلام العرب ولكن على هذا الأساس والشرط. خذ مثلا: كان القبعثري جالساً في بستان مع بعض أصحابه والأوان أوان حصرم فجرى ذكر الحجَّاج، قال القبعثري: اللهم سوّد وجهه واقطع عنقه واسقني من دمه، فعلم الحجَّاج فطلبه وتهدّده، قال: أيّها الأمير أردت الحصرم، والذوق يرحب بهذا التأويل الحسن، لأن الحصرم يسود لونه عند النضوج ثم يُقطع ويُعصر للخمر، وقد سكر الحجَّاج من سلافة هذه البلاغة فتجاوز وأجاز، وكذا التورية فإنها تهز الأذكياء كالأبيات المأثورة عن مصباح رمضان، رأى جدنا يسبح في سبحة يسر فقال:

لا شك تسبيحه لله ينفعه في كل عسر لأن اليسر في يده

أما التوجيه فهو إيراد الكلام محتملاً لمعنيين بموجب دلالته التركيبية، كقول بشّار لعمرو الخيَّاط الأعور:

خــاط لــي عمــرو قبــاء ليــت عينيــه ســواء

والإبهام إجمال اللفظ وتردده بين معنيين أو أكثر، وينشأ التردد إما عن تعدد الوضع، كلفظ جون الموضوع للأبيض والأحمر والأسود، وأما عن الإعلال كالمختار فإنه بالأصل لفظان، اسم فاعل مفتعل بالكسر واسم مفعول بالفتح ثم قلبت الياء ألفاً فوقع الإجمال والإبهام، ولما كانت هذه الأسباب وأمثالها معقولة مقبولة كانت من أظهر مصاديق علم البيان، أما استعمال ليلى والخمر بالله تعالى كما فعل ابن الفارض فهو بعيد عن كل علم وعرف بُعد الباطل عن الحق، ولا يمكن تخرّجه على شيء من علم البيان، حتى المشاكلة التي يصح فيها استعمال الأضداد بعضها في بعض، كقول الشاعر العريان في جواب من قال له: اقترح علينا مأكولاً نجد له طبخه:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

استعمل الطبخ مكان الخياطة مع عدم العلاقة، ولكن النكتة وهي الإشارة إلى الأهم الأولى جعلت هذا النوع من أبلغ أنواع البيان، فشعر ابن الفارض يجب إهماله، ولا يؤتى على ذكره بشيء لأنه ساقط من حيث الفكرة والأسلوب".

بعد هذا يتجه الشيخ في نقده إلى نقد الكاتب في بعض استعمالاته اللغوية وهو الدكتور، فهو يخطئه في استعماله ولا سيما بدون الواو، وليس هو

فقط، وإنما يشمل في نقده صاحب العرفان نفسه الشيخ عارف الزين، " ثم إن الدكتور كرَّر في كتابه لفظ لاسيما بلا واو، جريا على طريقة أكثر الكتّاب، ومنهم صديقنا الجليل الأستاذ صاحب العرفان الأغر، والفصيح المشهور ولاسيما بالواو " وهذا صحيح، لأن الواو هنا استئنافية. ثم يقول ناقدًا الدكتور نقدًا لغويًا "كما رسم لفظة الدجا التي جاءت في شعر الشريف، رسمها في كتابه على صورة الياء – الدجى – والصواب كما في الديوان بالألف (وطفل الدجا في حجور البلاد – ودجا هتكت قناعه) لأنه دجو بالواو لا دجى بالياء. وذكر أيضاً طمست قناعه بدلاً عن هتكت والصواب الثاني، ومثل هذا سهل جداً، لا يخلو الكامل منه ويُعاب العالم عليه". وهذا يدل على ثروة لغوية يمتلكها الشيخ في جعبته، وحرص منه على الاستخدام الأفصح في كتابة اللغة العربية. ثم يبدي بعد ذلك إعجابه المفرط بالشاعر الشريف الرضي وبالكاتب الناقد الدكتور المحفوظ فيقول: " والحقيقة التي لا مرية فيها ولا محاباة أن الكتاب بجملته يدل على عظمة الشريف وعبقريته بما تناوله في شعره من المعاني الدقيقة التي صوَّرها في جلال الإعجاز، وقلبها في شتى أساليب المجاز، وجلاها على الدهر كله لا على عصره وحده، وأبدع في تلوين المعاني حتى استغرق جميع محاسن البلاغة، ولم يترك لأي بليغ شيئا سوى الدهشة والعجب العجيب الذي لا نهاية له. وإذا دلَّ الكتاب على عظمة الشريف فإنه على مقدرة المؤلف ونبوغه أدلّ، فإن الأعمى لا يبصر النور وفاقد الشيء لا يعطيه. وإني أتقدم له بالاحترام والشكر، وأعترف له بالفضل حيث أرشد إلى أسرار العظمة في لغة الديوان، وبيَّن أن الألفاظ العربية تسع كل ما حدث ويحدث من المعاني" .

وفي الأخير يخلص الشيخ إلى أن البلاغة رؤيته النقدية تؤخذ من القرآن الكريم ومن نهج البلاغة ومن دواوين فحول الشعراء كالشريف الرضي وأضرابه، ولا تؤخذ من معاجم اللغة كما يصنع المعجميون الذي يجمدون عليها: "ولو ترك أعضاء المجامع اللغوية قواميس اللغة (١) وكتب مفرداتها الموحشة الجافة، وتدبروا القرآن الكريم ونهج البلاغة وديوان الشريف

(١) الفصيح أن يقول: معاجم اللغة، لأنِ القاموس ما هو إلا واحد من المعاجم اللغوية المعروفة، ولكن لشهرته قيل ذلك اشتباها .

وكلام الشعراء وفحول البلغاء وعرفوا ما في هذه من أسرار الروعة والإبداع وما تشتمل عليه من جهات البلاغة وفنونها، كما فهم مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن، والدكتور محفوظ شعر الرضي لعلموا أن ضروب البلاغة لم تنته إلى ما انتهت إليه أئمة البيان، وأنه لم يتفق لهم منها إلا القليل.

وما من بليغ إلا وأحدث في لغته من المذاهب البيانية الجديد الرائع، واللغة العربية تتسع لهذا العلم بما يقوم بحاجات أي عصر من العصور مهما تنوعت وتعددت. أجل لو علم ذلك أعضاء المجامع لما وقعوا في مشكلة الضيق والعجز في ميزانية التسمية والوضع، ولظهر لهم الأثر الأكبر في أمدٍ قصيرٍ، والمقام يضيق بنا عن الكلام بهذا الموضوع الجليل، وسنفرد له مقالاً خاصا إن شاء الله".

أما مقاله " الشعر القصصي " فهو مقال ينم عن رؤية نقدية مبكرة، وحس نقدي واضح من الشيخ وهو عالم الدين، خريج النجف الأشرف، ومع هذا يكتب في قضية نقدية منتصراً للذوق السليم، ورافضًا لمن يرى أن في الشعر القديم شعراً قصصيًا، لافتقاره لأهم شروط الشعر القصصي الفني، محللاً قصيدتين للشريف الرضي وأبي فراس الحمداني، وهو في ذلك يرد على مجلة العرفان في نشرها هاتين القصيدتين عنوانًا للشعر القصصي. يقول بلغة مباشرة من أول المقال: "قرأت في مجلة العرفان الغرّاء ج٣ م٣٢ قصيدة لأبي فراس، وفي ج٤ المجلد نفسه قصيدة للشريف الرضي تحت عنوان الشعر القصصي. ولست بصدد بيان ما يوحيه هذا العنوان إلى ذهن القارئ والسامع من معنى القصة وموضوعها وقواعدها والغاية من وضعها، وهل هي موجودة في الشعر العربي، ومتى نشأت وهل انتقلت أو تجدّدت، لست بصدد شيء من هذا ولست بصدد أن السيد راعى ذلك أو لم يراعه.

إن الشيء الوحيد الذي أريد أن أوجز القول فيه خدمة للأدب والحقيقة، هو أن القصيدتين ليستا من الشعر القصصي في شيء ولا يمتّان إليه بصلة أو شبه صلة قريبة أو بعيدة".

وفي مقاله " عقيدة المعري من شعره " جال الشيخ وصال في الرؤى النقدية، وفي تحليل شعر المعري، وفي البحث في عقيدته، وكأني بالشيخ أخذ عهداً على نفسه أن لا يبحث في مقالاته في مجلة العرفان ويكتب إلا في المباحث

الشائكة، والتي هي محل خلاف بين الأدباء والعلماء والنقاد، ومن أهم القضايا الأدبية والنقدية التي استحوذت على اهتمام النقاد من القديم، وشغلت الكتاب والأدباء عقيدة المعري، وذلك لما وجدوه في شعره من تناقضات، واختلاف التوجهات الفكرية والعقائدية، وفي هذا المقال يحاول مغنية أن يطرح رأيه في هذه القضية، مبتدءاً برؤيته في أن لا يعتمد في الحكم على عقيدة المعري إلا من خلال ديوانه اللزوميات، لأنه آخر ما كتب من شعر، والإنسان بخاتمته، وقد تناول في هذا المقال فكرتين تتعلقان بعقيدة المعري، الأولى عقيدته الدينية وصحة إسلامه، والثانية اتجاهه المذهبي.

وقبل ذلك يحاول الشيخ أن يعطي تفسيراً حول اختلاف النقاد في عقيدة المعري دون سواه من الشعراء، فيقول: "لم نعلم أحداً اختلفت الأقوال في طريقته ومعتقده، وتعددت عليه الأحكام من حيث دينه ومذهبه كأبي العلاء المعرّي، فذهب فريق إلى كفره وجحوده، وآخر إلى إسلامه وتوحيده، وقال ثالث: إنه مشكك زنديق عارض القرآن المجيد، ويعود السبب في ذلك إلى أمرين:

الأول:- إن من القوم من وقف عند ما يعطيه الظاهر من بعض كلماته وجمد على معانيها الحقيقية، ولم يصرفها إلى ما جاء في كلام العرب من أبواب الفصاحة، مع أن المجاز أكثر دوراناً على ألسنة البلغاء من الحقيقة وأوسع باباً منها، والمعري أحد أعلام اللغة العربية العارفين بأسرارها وموارد استعمالها، وتنبأ المعرّي وصدق حدسه أن البعض سيلزمه بظاهر كلامه وما يحكيه لفظه من المعاني الحقيقية، ويحكم عليه بخلاف مراده ومعتقده، فاستدرك ودفع هذا التوهم :

لا تقيّد عليّ لفظي فإني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وليس على الحقائق كل قولي ولكن فيه أصناف المجاز

الأمر الثاني :- إن المعري كان على طريقة ثم عدل عنها واستأنف، وصدّق بأشياء وعندما ظهر له كذبها ومين قائلها استبصر ورجع إلى الحق، فاختلفت فيه الأقوال تبعاً لتغيير كلامه واختلاف طريقته، وأخبر عن نفسه بقوله :

أدين بربٍ واحدٍ وتجنبٍ قبيح المساعي حين يظلم دائن

لذلك فإنا نعتمد من أقواله على " اللزوميات " فحسب، لأنها خاتمة أقواله وآخر أشعاره " .

ومن خلال اعتماده على اللزوميات، واستقرائه الدقيق للأشعار التي وردت فيه، وتمثله لأقوال المعري فإنه تيقن من صحة عقيدته، ونقاء إسلامه، وإيمانه بكل ما جاء به النبي (ص)، وما جاء في القرآن، وما أتى به الدين الحنيف من أحكام. يلخص رأيه في عقيدة المعري في الأسطر التالية: "ومهما قيل عنه فإنا لا نشك أنه مسلم موحّد يعتقد أن للكون مدبراً قادراً وحكيماً عادلاً وأزلياً عالماً، وإن الإسلام صراط الله المستقيم ودينه الحق الذي أنزله على نبيه محمد (ص) وأنه جاءنا بخير الأمور، وأتانا بالشريعة السهلة السمحاء، وأن البعث والنشر والصحائف والحساب والعقاب حق، وأن المرء مجزي بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن الصلاة والصيام والزكاة من الأمور التي فرضها الله على عباده، كما حرَّم عليهم الزنا والخمر والظلم والكذب والغيبة والنميمة، وتجد ذلك كله في اللزوميات :

واللزوميات مشحونة بهذا النوع، وهو يثبت صدق ما ادّعيناه من إسلامه وصحة معتقده، ويبطل زعم القائلين بكفره وزندقته، وهل يخفى على من له مثل عقل المعري صدق الإسلام، وصحة قوانينه، وأنه دين العلم والسعادة.

بعد ذلك يكتب الشيخ في القضية التي هي أكثر خطورة، وشائكة بلا حد، ونعني بها مذهب المعري، والشيخ يلخص رأيه باختصار بأنه لا شيء لدينا واضحاً نستطيع من خلاله أن نحكم بأن المعري سني المذهب أو شيعي، فهو لا يشير بوضوح في هذه المسألة، ولعلّ الشيخ في هذا الرأي يخالف كثيراً من العلماء والنقاد، وخصوصاً رجال الدين الشيعة، فالمعري لدى الكثير منهم شيعي العقيدة، واضح المذهب. يقول الشيخ: " إنما الغموض والتعقيد في حقيقة مذهبه، وهل هو من فرق الشيعة أو السنة .. ليس في كلامه نص صريح أنه من إحدى الطائفتين، وهذا أحد أسباب تناقض الأقوال فيه.

كلام الشيخ في تشيع المعري كلام صحيح في مجمله، فليس هناك جزم ووضوح في عقيدة المعري المذهبية، فمما يكثر من ذكره، ويشتد في الأسف له، ويبرئ نفسه منه : الخلاف بين السنة والشيعة، وبين الشيعة والخوارج. وهو يشير إلى ذلك إشارة الآسف، حيث يقول :

شيَعٌ أجلَتْ يومَ خُمٍ ، وانثنَتْ		أُخرى تُعارِضُها بيومِ الغارِ

حديث الغدير هو الحديث الذي تتمسك به الشيعة وتبني عليه تقديم الإمام علي (ع) على أبي بكر لتولي الخلافة، ويوم غار إشارة إلى لزوم أبي بكر للنبي في الغار يوم الهجرة للمدينة، والسنة تعتبر أبا بكر أحق بالخلافة لأسبقيته في الإسلام. وإشارة المعري هنا إلى اختلاف الطائفتين حول الرجل الأحق بالخلافة، وما تبع ذلك من فروق. وقال في الحث على الترفع عن التشيع لأحدى الطائفتين :

اعبُدِ الله لا تَظاهَرْ لمن جا		ورتَ يوماً بسنةٍ أو برَفضِ

ربّ خَفضٍ أتاكَ من بعدِ بَأس		اءَ ، وبؤسٍ لقِيتَهُ بعدَ خفضِ

فالمعري يعبد الله من صميم فؤاده ويتجاوز عن هذا الخلاف .

وله في الخلاف بين الشيعة والخوارج :

والناسُ في ضد الهدى : متشيّعٌ		لزمَ العُلوّ، وناصبيٌّ شاري

والشاري أحد الشراة، وهم الخوارج، يسمون أنفسهم كذلك لأنهم يدّعون أنهم " شروا أنفسهم من الله "، أي باعوه إياها. وهذا الخلاف يعتبره المعري من مظاهر الضلال. قال :

وخالفكَ الناسُ في مَذهَبٍ		فقلتَ عليٌّ وقالوا عُمَرْ

وأنّى يُرَجّون غمرَ الهدى		وقد غرقوا في جَمامِ الغُمَرْ

فهو يرى أن هذه الاختلافات وأمثالها ضرب من الضلال .

وللمعري مثل هذه الأقوال في الفروق بين أنصار هاشم وأتباع أمية، وبين أهل السنة وأرباب التصوف. وهو ينبذ هذه الفروق كلها، ويؤثر عبادة الله ولزوم التقوى، كل هذا نجده في اللزوميات كما اشترط الشيخ مغنية، وكما لاحظ في عقيدة المعري ومذهبه .

والشيخ في هذا الرأي يخالف السيد حسن الصدر في كتابه الذائع " تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام "، والصنعاني في كتابه " نسمة السحر في من تشيع

وشعر "، وخالف كثيراً من العلماء الشيعة في ما يذهبون إليه من تشيع المعري، وأخذ هذا الرأي مأخذ المسلمات.

وفي مقاله" إلى شاعر الغدير " يستعرض سريعاً القصيدة المنشورة في مجلة العرفان الزاهرة عدد صفر ١٣٦٦هـ للشاعر المبدع الأستاذ إبراهيم سعود العلوي بقصيدته الغيرية الرائعة. وفي هذا المقال لم يكن للشيخ ذلك القلم الناقد كما كان في المقالات السابقة، فهذا المقال أداره بحس عقائدي مذهبي بعيداً عن الشعر والأدب، فهو ينوه فيه بالمذهب العلوي وبمعتنقيه، ومن ثم ينتقل للحديث حول أهمية الغدير وضرورة الاحتفال بهذا اليوم التاريخي المشهور. وينهي مقاله برجاء إلى صاحب العرفان يقول فيه: "وأتقدم إلى الكتّاب والشعراء بلسان أخي الجليل صاحب العرفان أن يُشرعوا من الآن في الكتابة والنظم ليساهموا بتحرير عدد خاص في الإمام يصدر في ذي الحجة إذا تمت مواده في أوّل ذي القعدة وكانت من الأدب الرفيع " .

وفي العرفان ج ٧ مج ٣٣ ينوه ويشيد بديوان "حمم" الصادر حديثًا، ويبدي إعجابه الشديد بصاحب الديوان ويطلق عليه صفة العبقرية " ديوان شِعر للشاعر العبقري الأستاذ أحمد (أبو سعد) في ٧٢ صفحة بقطع الربع طُبع بمطبعة العرفان، وصدره الأديب الكبير العلامة العلايلي بكلمة جاء فيها: "وإنه ليفعم نفسي غبطة أن أجد بين شباب شعرائنا من هم أوعى لرسالة الشعر وأرهف حساً بتلقي إلهاماتها ووحيها، ونجد – في هذا الديوان – الغنى والخصب في إحسان مِن نسيج البيان إلى تدفق في خطرات الإلهام". ولم يكن الأستاذ العلايلي مغاليا ولا محابياً في قوله، فمن قرأ آثار الشاعر وجد الغنى والخصب والإلهام بأجلى مظاهرها " .

وقد نشرة العرفان هذا المقال في باب " التقريظ والانتقاد ".

والغريب أن هذا الشاعر الذي أطلق عليه الشيخ لقب العبقرية بعد أربعة دواوين شعرية طلّق الشعر، ولم يعد إليه ، واختفى من حلبة الأدب، ليتجه للنقد والكتابة في التأريخ الأدبي، والنقد العام. وللتوضيح نكتب: ولد الشاعر أحمد أبو سعد (١٩١٨-١٩٩٩) في المغيريّة من إقليم الخرّوب، قضاء الشوف، ودرس فيها. ثم أكمل تعليمه في القاهرة، ثم عاد إلى لبنان وعمل مدرسًا.

مؤلفاته: *

قصائد دافئة " شعر، "حمم" شعر، "كلمات من القلب"، "هند أم معاوية" تمثيلية شعرية، "الشعر والشعراء في السودان"، "فن القصة"، "أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي"، "أغاني ترقيص الأطفال عند العرب"، "معجم الألعاب الشعبية اللبنانية"، "قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية"، "معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية"، معجم فصيح العامة"، "معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات عن تاريخ العائلات"، "شهادات وسيرة مصورة"، "حوار مع الصحافة ووسائل الإعلام"، "سبعة أعلام من لبنان"، "دليل الإعراب والإملاء"، "المفيد في الأدب العربي".

لا يتوقف الشيخ عند هذا الحد من كتابته النقدية، والبحث في الأدب، فبعد هذا العدد مباشرة يكتب ناعياً على الجميع الإهمال الذي يلقاه الأديب والشاعر العاملي، مع أنه يملك الموهبة والنبوغ والعبقرية الشعرية، ولا ينقصه إلا التنويه والدعاية، وشيء من الرعاية والالتفات، وهو لا يقل عن شاعر آخر موهبة وفنا. ثم ينهي صرخته برجاء يرفعه إلى أدباء جبل عامل أنفسهم ليكون مخرجًا من هذه المعضلة التي تطوق أدب الجنوب، والشيخ يرى أنه ما لم ينوه أدباء الجنوب أنفسهم بأدبهم، ويكتب الواحد منهم عن الآخر معرفًا وناقداً، وعدم انتظار الآخرين ليقوموا بهذه المهمة فإنه لن يلتفت أحد إلى هذا الأدب الراقي، وليأخذوا العبرة من أدباء مصر ونقادها الذين يكتبون عن الغث والسمين من إنتاج أبناء مصرهم .. يكتب :

" وبعد فماذا ترقب أيّها الأديب العاملي؟ وممن تنتظر التقدير والتشجيع؟ أمن الساسة أم من الأغنياء أم من شعبك الخامل الجاهل أم من أدباء مصر وبيروت؟ وهل احتفلت أنت بأدب قومك وحملة الأقلام في وطنك ليحتفل بك هؤلاء؟ إنَّ استخفافك بأهلك وذويك هو استخفاف بنفسك وثروتك، فكيف تطلب مِن الغريب البعيد أن يعاملك بما لم تعامل به نفسك وألصق الناس بك سبباً ونسباً ؟!

فجدير بك إذا أردت أن تحيا حياة أدبية كريمة أن تعتني بأدب أخيك القريب منك روحا وموطنا، فتتبع آثاره الفنية وتدرسها درساً وافياً، وتنقدها نقداً بريئاً وتبادله الثقة، فتعطيه لتأخذ منه .

وإني أدعو الكتّاب والشعراء في جبل عامل الذين لهم مكانتهم الأدبية إلى تأليف جمعية تتجرد أعضاؤها عن المنافسة والشهوات، وتتعالى عن العداوة والأحقاد، وترمي إلى غاية واحدة هي تشجيع كل عاملي هنا وفي المهجر تراه أهلاً للنمو والسير في طريق الأدب الرفيع والتحلي بمزايا الكمال، فتمده الجمعية بما لديها من وسائل القوة والنشاط ليواصل السير إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ إليه باستعداده وملكاته، فتشيد بذكره، وترشده إلى خطأه، وتنوه بصوابه، وتدل الناس على نبوغه وسمو مواهبه، ثم تعمل الجمعية على إخراج كتاب في كل سنة — على الأقل — تشترك في تأليفه زمرة من أهل الفضل وذوي الأفكار، يكون عنواناً للحياة الأدبية في جبل عامل، ودليلاً على نبوغ العامليين وسمو مداركهم، ولا شيء في ذلك يبعث على التشاؤم واليأس وخوف الفشل والخذلان، فلست أدعو إلى القيام بحركة تشبه الحركة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا، ولا إلى التهذيب الاجتماعي العام، ولا إلى تأسيس جامعة علمية، وإنما أدعو كل كاتب وشاعر في جبل عامل أن يدرس آثار قومه الأدبية، ويقرأها مع ما يقرأه من آلاف الكتب والمقالات المصرية وغير المصرية التي منها الطيب والخبيث والنافع والضار، وأن يتخذ من تلك الآثار وأصحابها مواضيع لمقالاته وقصائده، وأن يعتنق فكرة تشجيع الآداب العاملية كعقيدة يقدسها ومبدأ يعمل لنموه وتقدمه، وما ذاك على الأحياء بعزيز".

أخيرًا يكتب الشيخ عن ملحمة الغدير لبولس سلامة، وهنا نلاحظ على الشيخ في كتابته وتنويهه بالدواوين الصادرة يدور في أغلبه حول العقيدة، فكأنما يحركه في الشاعر الموضوع العقائدي لا الفن الخالص ولا الأدب الرفيع، بغض النظر عن الفكرة والاتجاه الفكري لصاحب الديوان، وهنا نجد الشيخ قد ذهب بعيدًا بعيدًا في إعجابه بسلامة، وأفرط كثيرًا في رؤيته النقدية، إذ يرى أن بولس أعظم الشعراء قاطبة من القديم والحديث، فهو أعظم من المتنبي وأبي تمام والبحتري وكل الشعراء، وحين نسأل الشيخ لم احتل هذه المكانة عندك؟ فلن يجبك بمقال تحليلي لشهره وملحمته، بل السبب في نقده الأدبي أنه لم يطلب مبلغًا من أحد على شعره خلافاً لبقية الشعراء، ولأنه مقعد مريض!!! . كل العجب من هذه الرؤية السطحية — إن صحّ التعبير -، فالأدباء والشعراء لا يقيمون بهذا المعيار، وإلا فإن أبا نواس ليس شاعراً لأنه شاذ يهوى الغلمان، والأخطل لا قيمة له لأنه مدمن على الشراب، ونزار أقل الشعراء أدباً لأنه تغزل في النهود، وآخر لأنه لا يصلي! .

ثم أن المقال ليس فيه أية نظرة نقدية أو تحليلية، بل هو في مجمله كلام إنشائي، دعائي للديوان ولصاحبه. يقول الشيخ :

"وبدلاً من أن يترك الشعر في نفسي ظلالاً وصوراً لجمال الفن، وروعة التصوير وإذا بالجو ينتقل بي إلى موضوع السياسة والأدب، وبتعبير أصح إلى تعاون السياسي والأديب، إلى أبي تمام والمعتصم والبحتري والمتوكل، والمتنبي وسيف الدولة وشوقي وعزيز مصر. إن هؤلاء الملوك لم يبقوا شيئاً في ينابيع شعرائهم ومناجمهم إلا استخرجوها بالعطاء والثراء، وبشتى الطرق والوسائل .

إذن بولس سلامة عظيم، بل هو أعظم موهبة من المتنبي الذي خاطب سيف الدولة: " وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا " ومن البحتري الذي يقول: " هو الخليفة إن أسر فعطاؤه خلفي " ومن أبي تمام القائل :

فما فاتني ما عنده من حبائه وما فاته من فاخر الشعر ما عندي

ومن شوقي الذي ردَّد مفاخراً : " شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب " .

نعم إن سلامة أعظم من هؤلاء جميعاً، وما قولك بمريض لا يعرف أميراً ولا وزيراً ولا ثرياً. بل لا يعرف سوى مرضه " المزمن الملازم منذ اثنتي عشرة سنة وقد تخللته تسع عشرة عملية جراحية فسمره على فرش الألم منذ تسع سنين ولما يزل " ما قولك بشاعر هذه حاله ثم يخرج على الناس بما اصطفاه الله إلى تأدية رسالة الفن والعلم والجهر بالحق بملحمته البكر التي لم يعرف العالم العربي لها مثيلاً من قبل .

ولو كان هذا الضرب من الشعر في عهد الرسول (ص) لما أنزل الله : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين " (يس:٦٩) لأن الشعر المعني بالآية تلفيق الخيال وأباطيله، أما ملحمة الغدير فهي حقائق تليق بالنبوة والقداسة، وأنوار تضيء سبل الهداية والرشاد، وآيات بينة تنطق بالعظمة والسمو ". (مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٣، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٨هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٤٩م، ص ٣١٤ -٣١٥) .

أبوذر والاشتراكية:

لعلَّ هذا الموضوع من أكثر الموضوعات التي تطرق إليها قلم الشيخ محمد جواد مغنية، مع أنه يمتاز بالتجديد في الطرح، وعدم طرح الموضوع ذاته أكثر من مرة، وهذا ما كان بالنسبة لموضوع أبي ذر والاشتراكية، فالعنوان واحد، ولكن في كل مرة كان الشيخ يتناوله من زاوية مختلفة، وقد استحوذ موضوع أبي ذر على اهتمام الشيخ بشكل واضح وظاهر لمن يتابع كتاباته ومقالاته وكتبه، ولا يكاد كتاب من كتبه يخلو من عنوان ذي صلة بالاشتراكية أو أبي ذر، ويظهر المقال اهتمامه المبكر بهذه الفكرة التي شغلت الرأي العام الأدبي والديني معًا، وصارت محط اهتمام المثقفين في الأقطار العربية كلها، حتى الأزهر والنجف كان لهما دور فيها، وفي النظر في بنيتها الفكرية والاقتصادية، وإعطاء الكلمة في الاشتراكية لأتباعهما، وقد نشر الشيخ هذا المقال المبكر في شهر ٣ عام ١٩٣٨.

الاشتراكية من الناحية العلمية تعني النظام الذي تؤول فيه ملكية الإنتاج والأراضي والآلات والمصانع للدولة، بمعنى آخر: فإن الاشتراكية على خلاف ما تقتضيه الرأسمالية، تقوم على الملكية الجماعية لعناصر الإنتاج المختلفة. أي أنه من المفترض في النظام الاشتراكي أن لا يملك واحد من الأفراد شيئًا من عناصر الإنتاج، لا يملك أرضًا ولا مصنعًا ولا آلات، وإنما كل ذلك ملك للدولة وجميع الأفراد يعملون لدى الدولة في القطاع العام، ونظير ذلك تقوم الدولة بسد حاجتهم من الطعام والشراب، وتوفير الخدمات المختلفة لهم من الصحة والتعليم وغير ذلك. وقد بدأ تطبيقها عمليًا في الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧، ومن ثم حاول الاتحاد نشرها في جميع أقطار العالم بديلا عن الرأسمالية، وقد استجابت بعض الأنظمة لهذا المذهب.

والغريب أن العرب حين أرادوا الدعاية للاشتراكية، والمناداة بها نظامًا سياسيًا واقتصاديًا للعالم العربي استشهدوا بالتاريخ الإسلامي، وأشاروا إلى أن أول من نادى بالاشتراكية هو أبوذر الغفاري في ثورته ضد عثمان، هذه الفكرة أمسك بها الشيخ محمد جواد مغنية مبكرًا، وأخذ يفندها في أكثر من دراسة له منشورة في الصحافة، وفي كتبه الكثيرة، تارة يبين براءة أبي ذر من الاشتراكية المزعومة، وتارة يبين أخطاء الاشتراكية، وبعد النظام الإسلامي عنها، وأنهما نظامان لا يلتقيان أبداً في أي شيء، حتى في المساواة التي تنادي بها الاشتراكية، ومن يحاول التوفيق بينهما فهو واهم.
يقول الشيخ في مقاله:

" وقد جاء في الآيات والأحاديث طرق شتى تبعث على الترغيب في بذل المال والسخاء به على الإحسان. فمن الآيات ما يعطي ظاهرها أن الباذل صاحب الفضلِ والمحسن الأكبر الذي وجب أجره علىٍ الله، وإن الله سبحانه أصبحِ مديونا له كقوله: " ومن يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له أضعافا كثيرة " (البقرة : ٢٤٥) ، ولسان بعضها يدل أن الذي في يد العبد من المال هو لسيده، ولا يملك قبضه ومنعه ، وإنما هو لله ومن فضله وإحسانه : " أحسن كما أحسن الله إليك " (القصص : ٧٧) ومنها ما تشدد النكير وتهدده بالعذاب الأليم: " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم " (التوبة : ٣٤) والغاية منٍ هذا التحريض على البذل وعدم الحرص كما لو أردت أن تستخرج شيئاً من إنسان بطريق الرفق واللين، ولك عليه فضل سابق فتطلبه منه وتعده بالخير إن فعل وتعدّه من المحسنين، فإن امتنع ذكرته بفضلك السابق عليه، فإن لم يجد أسمعته الوعيد والتهديد. وكما حبّذ الإسلام بذل المال ودعا أصحابه إلى السخاء به في سبيل المعروف أوجب أيضاً على الفقير وكافة الناس المحافظة على الأموال، وحرَّم عليهم التعرض إلى ما في أيدي الناس، وحكم بقطع يد السارق بعد أن أوجب عليه إرجاع المسروق، وضمن الطفل والمجنون والساهي مال غيرهم إذا أتلفوه، وأوجب عليهم دفع بدله الواقعي من المثل أو القيمة، وجاء في الشرع أن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وأنه لا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس. وقال الإمام زين العابدين (ع) يحث على حفظ الأمانة : "لو ائتمنني الشمر على السيف الذي قتل به أبي لأرجعته إليه " وأفتى علماء الإسلام بفساد الصلاة بالمكان المغصوب، أو الثوب المخاط بخيط غير مباح، وأوجبوا قطعها لو استلزم إكمالها تضييع المال وإتلافه، وقدموا الديون وصرّحوا بإخراجها من مال الميت قبل الإرث، وأبطلوا الصلاة في الملك الذي تركه الميت قبل إعطاء أرباب الدين حقهم وإرضائهم، إلى غير ذلك من الفتاوى الكثيرة والآيات والأخبار المتضافرة التي تنص على حفظ الأموال، وأنها بمنزلة الدماء والفروج التي يجب التثبت فيها والاحتياط والوقوف عندها. فالإسلام أمرٍ بحفظ المال من جهة للمحافظة على النظام، وعدم اختلال الأمن، وحذراً من وقوع الفوضى التي تودي بالثروة، وينتشر معها الفساد المضيع للمال الذي لا يمكن حفظ الحياة بدونه، ومن جهة بعث أرباب الأموال والمستطيعين على البذل والإحسان، كي لا ينقطع سبيل المعروف ويذهب الفقير وعياله ضحية الجوع والمرض، وينسد في وجه المعدم باب العلم والتهذيب، ويترتب على مجموع الأمرين نتيجة صالحة تعود

على البلاد وأهلها بالخير والنفع الدائم، ويحصل التعاون على البر والتقوى، ويجوز أن نسمي أنفسنا متمدنين ومتحضرين. فهذه هي الاشتراكية التي بني عليها الإسلام، ونشدها أبو ذر، ودعا الناس إليها ، وبعثهم على العمل بها، بعد أن استمدها من الإسلام وتسربت إلى نفسه من القرآن والأحاديث النبوية، حتى كأنه مطبوع عليها بفطرته، وهي التي جرَّت عليه الويلات، وسبَّبت له الأذى والخطوب. فأبو ذر اشتراكي ولكن بما ذكرناه من معنى الاشتراكية، أما الاشتراكية المتطرفة التي يقول بها الغلاة في إباحة الأشياء، وإن مثلها مثل الهواء والماء فأبو ذر بعيد عنها بعد السماء عن الأرض، ومن قرأ سيرته وتتبع آثاره عرف منه الصدق في النية، والنزاهة بالقول والفعل، فلم يتخذ الاشتراكية وسيلة لتحقيق مآربه، ويجرد منها حساما لمحاربة أعدائه، ويتطاول إليها عندما تقصر يده عن تناول ما يريد، شأن من يبغي الباطل من قول الحق، ودأب من ينتسب إلى الاشتراكية ليجعل لنفسه اعتبارا بعد أن سقط عن درجته. فالإسلام أول من شرع الاشتراكية الصحيحة وسنَّ قانونها، وأبو ذر من السابقين الأولين إلى هذه العقيدة والعارفين لفوائدها وحسن ما يترتب عليها من النتائج، وأكبر العوامل على انتشارها، ومن الذين أوذوا في سبيل إحيائها، وضحّوا بأعز ما لديهم تجاه نموها ورسوخها في نفوس الناس كافة".

لم يكتفِ الشيخ بهذا المقال، فله في الموضوع ذاته عشرات الكتابات، فهو موضوع أثير لديه كما أشرنا. فبعد هذا المقال ينشر مقالاً آخر في جريدة الجهاد عام ١٩٥٢ بعنوان "هل أبوذر اشتراكي" وقد عالج فيه المعنى نفسه، وكان صوته فيه أقوى، ونفيه لاشتراكية أبي ذر أكثر بياناً، يقول :

" من الآراء السائدة أنا أبا ذر الغفاري ممن آمن بالاشتراكية ودعا إليها وأنه لاقى من جرّاء ذلك أنواع العذاب، أما سبب هذا الرأي فيعود إلى كفاح هذا الصحابي الجليل في سبيل تنفيذ مبدأ الإسلام ومحاربة البؤس والشقاء.

لم يكن أبو ذر فيلسوفاً ولا صاحب مذهب خاص، بل كان رجلاً ساذجاً عاش في البادية يرعى الماعز والغنم، ثم صحب الرسول الأعظم وأخذ عنه تعاليم الإسلام، فآمن بها، ودعا إليها، فهو لا يعتمد في إيمانه ودعوته على غير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

على هذا الأساس، أساس روح الإسلام ومبادئه حارب أبو ذر قيام الترف والنعيم إلى جانب البؤس والشقاء ونادى بأعلى صوته: لا يحل للإنسان أن

يتمتع بثروة لا يحصيها العد والحساب وجاره جائع يعجز عن القوت، ومريض لا يستطيع التطبيب، وجاهل لا يجد السبيل إلى التعلم .

وإذا دفع الأغنياء من أموالهم ما يسد هذا الفراغ، بحيث تتيسر السبيل إلى الرغيف والدواء والدرس لطلابها فلهم أن يكسبوا الأموال ويجمعوها من حل ويتصرفوا بها كما يريدون ويشتهون مادامت تصرفاتهم لا تضر بصالح الأفراد ولا الجماعات .

وبعد فقرات ينفي الشيخ بشكل قاطع أية صلة تربط المذهب الاشتراكي بالإسلام كما يدعي بعض الاشتراكيين في دعوتهم، أو بعض رجال الدين، مسايرة لبعض رموز السلطة، ممن تبنى هذا المذهب خطاً للحكم، ومنهجاً للحياة والاقتصاد. يقول مؤكداً :

" ليس للإسلام مذهب خاص يسمى الاشتراكية أو الديمقراطية، وإنما هو دين وشرع يدعو إلى العدالة الاجتماعية والمحبة والمساواة، يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وقد تلتقي هذه الدعوة من بعض جهاتها مع المذاهب المادية والآراء الفلسفية، وتفترق عنها من جهات أخرى، ولا تعني هذه الملاءمة أن تلك الدعوة هي عين هذا المذهب وحقيقته " .

يتناول الفكرة ذاتها ولكن بأسلوب مختلف في كتابه " نفحات محمدية " - وهو من أواخر كتبه المطبوعة - ، مؤكداً أن لا اشتراكية على الإطلاق في الإسلام، وأن هذا كلام باطل لا يصح، وذلك في باب " الأغنياء والفقراء "، يقول :

" نقرأ في بعض الكتابات ألفاظاً لا مدلول لها ولا أساس في عالم الواقع مثل "اشتراكية الإسلام أو رأسمالية الإسلام" لأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية هي من صنع الإنسان وأفكاره، والإسلام الموحى به من الله سبحانه هو الدليل والميزان الذي يميز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، تماماً كالعقل، والفرق بعيد جداً بين الميزان والشيء الموزون، والحجة واللا حجة، والدين الذي يقول: " الناس مسلطون على أموالهم". "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، لا يحل دم امرئ ولا ماله إلا عن طيب نفس ". إن هذا الدين يحمي الملكية الفردية، فأين مكان الاشتراكية ؟

وقال قائل: الزكاة مظهر من مظاهر الاشتراكية ! .

ونقول في جوابه: إن لفظ الزكاة بنفسه دليل قاطع على الملكية وصرخة احتجاج على إلغائها حيث لا زكاة إلا في ملك، ولا نقش بلا عرش، والاشتراكية تلغي الملك أو تحده ببلغة الكفاف، ولا زكاة مع هذه القيود والحدود.

ثانيًا: كل المذاهب الإسلام لا تعطي الزكاة لغير المسلم، وإن كان فقيراً معدماً ووديعًا مسالمًا، علماً بأن الاشتراكية تطبق على الجميع دون استثناء، أجل تسوغ صدقة التطوع على غير المسلم، وما هي في شيء من الزكاة.

وقال آخر: إن حديث: " الناس شركاء في ثلاثة: (الماء ، والكلأ ، والنار) ". والملح في حديث ثانٍ — هو من نوع التأميم !.

ونجيب: بأن من نبع الماء في ملكه فهو له، ونفس الشيء إن سبق سابق إلى الكلأ، والملح المشاع، والحطب، والفحم، والنفط، والماء المباح، وأحرزه في وعاء ونحوه، ولا يسوغ لسواه أن تمسه يداه إلا بإذنه، فأين التأمين ؟ " (٢١٦، ط١ — ٢٠٠٦ ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي).

وفي مقال نشره في مجلة " العلوم " عدد كانون الثاني ١٩٦٠ بعنوان "الاشتراكية في الإسلام مبدأ أخلاقي وليست نظاماً اقتصادياً " يؤكد مرة أخرى بشكل قاطع أنه من المحال البحث عن الاشتراكية ومبادئها في الإسلام، فهما نظامان لا يلتقيان، وكل منهما يضاد الآخر، وهذه محاولة محكوم عليه بالفشل، يقول بلغة واضحة وبتعبير مشرق مباشرة يصل في معناه لجميع القراء:

" نطلب المحال إذا قصدنا إثبات الاشتراكية — بمعناها المعروف اليوم — في التشريع الإسلامي، أو في أي قانون سابق. إن اشتراكية اليوم تولدت من تقدم الصناعة، وتكدس العمّال، حيث أصبح العالم ملكًا لرجال الأعمال. إن قصة الاشتراكية كنظام إنما هي قصة التوسع الاقتصادي المدهش لأصحاب المصانع الحديثة.

وعليه يكون كلامنا عن الاشتراكية في الفقه الإسلامي، تماماً مثل بحثنا عن كتاب لسقراط في علم الجيولوجيا مع التسليم بأن هذا العلم لم يكن له في عهده عين ولا أثر. وإذا لم نجد الاشتراكية في التشريع الإسلامي

كنظام فأولى أن لا نجدها في الفقه الحنفي أو الشافعي أو الجعفري أو الحنبلي أو المالكي لأن الفرع لا يزيد عن الأصل.

أجل هناك بحث يتصل بالاشتراكية، وتتسع له مصادر التشريع والمذاهب الإسلامية، وهو :

هل يتقبل الفقه الإسلامي بأسسه ومبادئه الاشتراكية أو يرفضها ويتصادم معها ؟

وليس من شك أن الإسلام يقر كل جديد مفيد يحقق صالح الجماعة والفرد. قال الإمام جعفر الصادق: " كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز " . وهذا أصل من أصول التشريع عند أئمة المذاهب كافة. فتأميم الكهرباء وخطوط النقل والتعليم والطب، وما إلى ذلك مما فيه الخير العام جائز يقره الإسلام ويباركه " (الإسلام مع الحياة ، ص ٢٤٨). ثم يفصل القول بشكل دقيق من الناحية الفقهية مدى التقاء الإسلام والاشتراكية أو عدمه .

الشيخ يقر أنه يكتب أحياناً في هذا الموضوع بناء على رغبة بعض الأفاضل من الذين يتابعون كتاباته، وينتظرون رأيه في الشؤون الدينية والعلمية المعاصرة، فيستجيب لطلبهم كاتبًا في الاشتراكية، نافيًا أية صلة بينها وبين الإسلام:

" كتبت فصلا في كتاب " مع الشيعة الإمامية " بعنوان : " هل أبو ذر اشتراكي؟ " وفصلين من كتاب " الإسلام مع الحياة " طبعة ثانية: أحدهما بعنوان " الأرض لله ولمن عمرها " والثاني بعنوان " الاشتراكية في الإسلام مبدأ أخلاقي " أوضحت في هذه الفصول أن للإسلام نظاماً مستقلاً، لا هو بالاشتراكي، ولا بالرأسمالي المعروفين في هذا العصر، ولم أفكر أبدا في العودة إلى هذا الموضوع، ولكن بعض الأفاضل حين علم أني أكتب في فضائل الإمام رغب إليّ في العودة، والإشارة إلى ما يراه سيد الكونين بعد الرسول في هذا الباب.

وبديهة أن ما يراه هو عين ما نزل به القرآن الكريم، وثبت في السنة النبوية، فرجعت إليهما مرة أخرى، ولم أعتمد على معرفتي السابقة، عسى أن أهتدي إلى جديد، ولكن لم أنته إلى شيء سوى قوة الإيمان بأنه لا اشتراكية ولا رأسمالية في الإسلام، بل تعاون وتآزر .

لا اشتراكية، لأن الإسلام يقر بمبدأ الملكية الخاصة، ولا يعترف بديكتاتورية العمال، ولا يحتم أن يكون دخل الفرد مساوياً لعمله، أو لدخل سائر الأفراد، ثم أنه لم تبلغ الحال في عهد الرسول (ص) إلى أن يعمل عشرات الألوف من العمال السنوات الطوال في مصنع واحد لرجل واحد أو فئة معينة، كما هي الحال الآن، حتى تتولد فكرة الاشتراكية، فقد كان الرجل يستأجر معه شخصاً أو أكثر ليبني بيتاً، أو يغرس بستاناً في أيام معدودات، ثم يذهب العامل إلى شأنه، ومثل هذا لا يستدعي التفكير بالنظام الاشتراكي الذي يؤمن حياة العامل، ويضمن له معاش التقاعد.

ولا رأسمالية، لأن الإسلام لا يقر حرية التملك بدون قيد أو شرط المعبر عنها بـ" دعه يعمل "ويستغل مواهبه كيف شاء، ولا يعترف بسلطة أصحاب الأعمال والثروات على أحد من الناس عاملاً كان أو غير عامل، وينهى عن التكتلات الاقتصادية ذات الامتياز، ويحرم احتكار المشروعات العامة. (فضائل الإمام علي ، ص ٩٢).

مع أن الشيخ ذكر بأنه لا يفكر أبداً في العودة إلى هذا الموضوع إلا أنه عاد إليه بعد ذلك أكثر من مرة، فكتاب " فضائل الإمام علي " المذكور صدر عام ١٩٦١، إلا أنه عام ١٩٧٧ يكتب كتابيه " صفحات لوقت الفراغ " و " من ذا وذاك " وفيهما كتابات حول أبي ذر وحول الاشتراكية أيضًا، وهما من أواخر ما طبع للشيخ من كتب. ففي كتابه " صفحات لوقت الفراغ " كتب فصلا بعنوان " فلسفة أبي ذر " نلخصه في العبارة التالية التي وردت في الفصل نفسه. يقول :

" وبعد؛ فإن فلسفة أبي ذر فوق الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية، إنها قرآنية محمدية، لا شرقية ولا غربية، إنها عمل لبيت عند الله في جوار " النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " (ص١٠) .

أما في كتابه" من ذا وذاك " فتناول موضوع أبي ذر وصلة الإسلام بالاشتراكية معًا، في مقالين منفصلين، الأول بعنوان " أبو ذر " جاء فيه: "وإذن فثورة أبي ذر على الأغنياء كانت بدافع من حب العدل والإصلاح، وباعث من دينه وإيمانه بسنة الرسول (ص) وتعاليم الإسلام، وبقصد الحرص والمحافظة على حقوق المستضعفين وتقسيم الفيء بالسويّة على الجميع، لا بدافع من إيمانه بالاشتراكية وإلغاء الملكية " (ص٦٠). والثاني بعنوان " هل توجد علاقة بين الاشتراكية والإسلام " وهما عنوان صارخان

معبران عن موقفه من آراء من سبقه أو عاصره من العلماء والمفكرين ممن نادى بوجود الاشتراكية في الإسلام أو ادّعى بيقين أن أبا ذر أبو الاشتراكية وأول من آمن وعمل بها. يقول في مقاله الآخر: " أما القول: إن للإسلام نظامًا، وإن هذا النظام هو الاشتراكية أو الديمقراطية أو الرأسمالية فاعتباط وتمحل، وماذا نصنع لو أثبتت التجارب فساد هذه الأنظمة كلاً أو بعضًا، أو ظهر في المستقبل ما هو خير منها، فهل نعدل عن التفسير الأول، ونفسر الإسلام بالفلسفة الجديدة، ونقول كل يوم بقول! فخير ألف مرة للإسلام أن نقول: إن كل نظام عادل قديمًا أو حديثًا يرفع من مستوى الحياة يحارب الفقر والجهل والمرض فهو متفق مع الإسلام وأصول الإسلام ولا يضر بأحد " (ص ١٠٧).

ولعلّ سائلا هنا يسأل: لم هذا الاهتمام البالغ الذي أولاه الشيخ بموضوع الاشتراكية، وصلة أبي ذر بها من جهة، وصلة الإسلام بها من جهة أخرى؟! يتضح هذا الموقف وتفسيره من خلال الرجوع لتلك الفترة التي شهدت كتابات الشيخ، حيث سادت فكرة الرابطة القوية بين الإسلام والاشتراكية في الأوساط الثقافية، والغريب أن هناك مجموعة من رجال الدين عملوا على ترويجها، وتثبيتها، واستخراج الشواهد التاريخية على ذلك، ومنها أن أبا ذر يمثل الاشتراكية برفضه لتملك الخليفة الثالث عثمان للثروة وحيازته للمال، وعلى الأخص علماء من الأزهر الشريف من مصر، نظرًا لانتهاج الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الاشتراكية نظاماً للحكم، فجاءت الكتابات بغزارة لتدعم هذا النهج، وتأصله في البنيان السياسي والثقافي، بل وجدنا أن البعض من العلماء والكتاب حاول أن يذهب أبعد من ذلك، ويثبت أن النبي كان اشتراكيًا، وكذلك عمر وعثمان، في الوقت الذي يقولون أن أبا ذر ثار عليه لأنه يؤمن بالاشتراكية !! وما كان من الشيخ إلا أن يحارب هذا الاتجاه بقوة، ويكتب فيه بغزارة توازي غزارة الداعين له، محاولا بكل ما يملك من أساس فقهي وتشريعي وعقائدي وسياسي أن ينفي أية صلة لأبي ذر بالاشتراكية المعاصرة، وكذلك محاولة تنقية الإسلام من أية رابطة تربطه بالاشتراكية كما أراد لها أصحاب النظام الاشتراكي من الكتّاب العرب، أو من وعّاظ السلاطين من العلماء.

وقد رصد لنا الباحث العراقي عبد الجبار الرفاعي الكتابات التي دارت حول الاشتراكية في تلك الفترة في موسوعته المهمة " موسوعة مصادر النظام

الإسلامي"، وسوف نستعرض بعضها ليتعرف القارىء الكم الهائل من الكتابات المختلفة التي حاولت الربط بين الإسلام والاشتراكية وبينها وبين أبي ذر، ومن ثم نتفهم موقف الشيخ، والسر الكامن وراء كتاباته الغزيرة والمتكررة في هذا الموضوع دون سواه، وذلك منذ أن بدأ الكتابة وحتى آخر كتبه المطبوعة، مع ما عرف عنه من عزوف وابتعاد عن التكرار في الأفكار والموضوعات التي يطرحها في كتبه، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على قوة التيار الاشتراكي، ونفوذه في تلك الحقبة التي عاصرها الشيخ، وهو المعروف عنه مواكبته لقضايا عصره، ويكتب عن كل ما له صلة بالحاضر، ويربط كل ذلك بالفكر الإسلامي الأصيل .

الكتب :

١- الاشتراكية والإسلام، عبد الوهاب بن أحمد الأزرق. دمشق .

٢- مفهوم الاشتراكية في الإسلام، السيد مهدي البصري. النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٦٢ .

٣- الاشتراكية الإسلامية، محمود مهدي الاستانبولي. دمشق .

٤- دروس في الاشتراكية العربية، علي البارودي. الإسكندرية : مكتبة المعارف، ١٩٦٧ .

٥- النزعة الاشتراكية في الإسلام، أنور الخطيب. بيروت: دار العلم للملايين .

٦- نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام، محمد الحامد .

٧- المساواة والاشتراكية في الإسلام، عبد البديع حجازي .

٨- الاشتراكية والإسلام، أحمد محمد رضوان. القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٠ .

٩- اشتراكية الإسلام، مصطفى السباعي. دمشق: مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٩ .

١٠- الإسلام والأصول الفكرية للاشتراكية العربية، عبد المغني سعيد. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

١١- المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام، عبد الرزاق السنهوري . القاهرة.

١٢- مبادئ الاشتراكية في الإسلام، سعيد الشربيني الشرباصي. القاهرة: الدار القومية .

١٣- اشتراكية محمد (ص)، محمود شلبي. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٢ .

١٤- اشتراكية عمر، محمود شلبي. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٥ .

١٥- اشتراكية عثمان، محمود شلبي. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة .

١٦- الاشتراكية في المجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق، البهي الخولي.

١٧- الإسلام والاشتراكية، ميرزا محمد حسين. ترجمة : عبد الرحمن أيوب.

١٨- الإسلام دين الاشتراكية، عبد الرحيم فراج. القاهرة: الدار القومية، ١٩٦١ .

١٩- النزعات الاشتراكية في الإسلام، أنور الكاتب. بيروت: دار العلم للملايين.

٢٠- الإسلام والتفكير الاشتراكي، أحمد محمد المختار. العراق (الحلة): ١٩٦٤ .

٢١- حكم الإسلام في الاشتراكية، الشهيد الشيخ عبد العزيز البدري. المدينة المنورة: المكتبة العلمية ، ١٩٦٩ .

٢٢- الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية، البهي الخولي .

٢٣- الإسلام في مواجهة الرأسمالية والاشتراكية، مصطفى درويش. القاهرة: الجامع الأزهر، ١٩٥٩ .

٢٤- اشتراكيتهم وإسلامنا، بشير العوف. بيروت: مؤسسة الإنتاج الطباعي، ١٩٦٦ .

٢٥- لا ثورية ولا اشتراكية، بل نظام تطوري هادف في ظل عدالة اجتماعية ، إنسانية مؤمنة ، بشير العوف. بيروت : ١٩٦٧ .

٢٦- الإسلام والمناهج الاشتراكية، محمد الغزالي. القاهرة: دار الكتب الحديثة ، ١٩٥١ .

٢٧-الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين. القاهرة : مكتبة وهبة، ١٩٥٠ .

٢٨- موقف الإسلام من الاشتراكية، مناع قطان. الرياض .

٢٩- الإسلام البديل للرأسمالية والاشتراكية، جعفر حسن لاليوالا. مشهد .

٣٠- بلشفة الإسلام عند الماركسيين والاشتراكيين العرب، صلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٦ .

المقالات :

١- الاشتراكية في الإسلام، محمود أبو العينين. الأزهر.س٢٣ : ع ٢ (صفر ١٣٥١هـ)، ص ٨٩- ٩٥ .

٢- الاشتراكية، ميرزا محمد حسين. لواء الإسلام. س ١٤ : ع ٧ (أغسطس ١٩٦٠) ص ٤٤٣-٤٥٣ .

٣- الاشتراكية الإسلامية، شاكر الحنبلي. التمدن الإسلامي (دمشق) س١٣ : ع ٤ ، ٥ (ربيع الثاني ١٣٦٦هـ) ص ٥٥ -٥٦.

٤- الاشتراكية والدين، محمد رشيد رضا. المنار ، مج ٢١ ، ج ٥ (١٢٩٧هـ) .

٥- الإسلام والاشتراكية، سعيد زايد. الأزهر. س٢٢ : ع ٧ (رجب ١٣٧٠هـ)، ص ٦٦٥-٦٦٩ .

٦- الإسلام والاشتراكية، سعيد زايد. الأزهر.س٢٢:ع ٩ (رمضان١٣٧٠هـ) ،ص ٨٢٦-٨٢٨ .

٧- الإسلام والاشتراكية، سعيد زايد. الأزهر. س٢٢ : ع ١٠ (شوال١٣٧٠هـ)، ص ٩٢١-٩٢٣ .

٨- الإسلام والاشتراكية، سعيد زايد. الأزهر. س٢٣: ع١ (محرم ١٣٧١هـ)، ص ٦١- ٦٣ .

٩- جواب الإسلام على المسألة الشيوعية، مصطفى السباعي. المسلمون:ع ٧ (١٣٧٧هـ) ص ٦٧٩- ٦٨٧ .

١٠- اشتراكية الإسلام لا رأسمالية ولا شيوعية، مصطفى السباعي. المسلمون : ع ٧ (١٣٧٨هـ) ص ٦٧٩- ٦٨٧ .

١١- صورة عن اشتراكية الإسلام، محمود شرقاوي. الأزهر. س ٣٧ : ع ٤ (أكتوبر ١٩٦٥)، ص ٢٣٦- ٢٣٩ .

١٢- المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام، عبد الرحيم فودة. الأزهر. س ٣٧ :ع ٨ (فبراير ١٩٦٨) ص ٤٣٨-٤٤١ .

١٣- المجتمع الاشتراكي في ظل الإسلام، عبد الرحيم فودة. الأزهر . س ٣٧ :ع٩ (١٠ مارس ،أبريل ١٩٦٨) ص ٥٢٥- ٥٢٨ .

١٤- الاشتراكية الإسلامية أفضل حارس ضد الشيوعية، علي عبد الواحد وافي. الأزهر .س ٣١ : ع٢ (أغسطس ١٩٥٩) ص ٥٨- ٦٤ .

١٥- الاشتراكية الإسلامية أفضل حارس ضد الشيوعية، علي عبد الواحد وافي . الأزهر .س ٣١ : ع٣ (سبتمبر ١٩٥٩) ص ٩١- ٩٣ .

١٦- الإسلام والمذاهب الاقتصادية الحديثة، عبد المنعم النمر. البعث الإسلامي — س ٢ : ع ٨ (مايو ١٩٥٧) ص ٩- ١٤ .

١٧- مكانة الاقتصاد الإسلامي بين النظم الاقتصادية المعاصرة، محمد فاروق النبهان. مكة المكرمة : الندوة ، ٢٦فبراير ١٩٦٧.

١٨- موقف الإسلام من الشيوعية والرأسمالية، أبو الأعلى المودودي. الأزهر. س ٢٤ : ع ٤ (ديسمبر ١٩٥٢) ص ٤٥٨- ٤٦٠ .

١٩- الإسلام بين العوامل الاقتصادية المعاصرة، سالم البهنساوي. النور : ع ٦ ، ص ٥٧ .

٢٠- الإسلام والنظم الاقتصادية المعاصرة، عبد العزيز عبد الحق. الأزهر عدد نوفمبر ١٩٧٦م ، ص ١٣٧٧- ١٣٩١ .

٢١- الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد المعاصر، محمد عبد الله العربي. بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، ١٩٦٦م : ص ٢٠٩- ٣١٣.

٢٢- الاقتصاد بين المادية والإسلام، حسين غانم. النور : ع ٢٤ ، ص ١٦ .

٢٣- معالم الحل الإسلامي في الناحية الاقتصادية، يوسف القرضاوي. البنوك الإسلامية : ع ٢١ (١٤٠٢/٢هـ) ص ٢٠- ٤٢ .

٢٤- الاقتصاد الإسلامي، مقارنة بين الاقتصادين الرأسمالي والشيوعي الاشتراكي -٢، محمود اللبابيدي. المسلمون: ع ١٠ : ١٣٧٥هـ ، ص ٩٨١- ٩٩٤ .

٢٥- الاقتصاد الإسلامي، مقارنة بين الاقتصادين الرأسمالي والشيوعي الاشتراكي، محمود اللبابيدي. رسالة الإسلام: ع ٣ (١٩٥١)، ص ٢٥٨-٢٨٠.

٢٦- الإسلام والديمقراطية والاشتراكية، محمد المبارك. مجلة حضارة الإسلام (دمشق). س٣ : ع٥ (١٣٨٢هـ -١٩٦٢).

بجانب عشرات العناوين التي دارت حول الاقتصاد الإسلامي، والمقارنة بينه وبين الفكر الاشتراكي والشيوعي، وتحليل موقف الإسلام من الملكية الخاصة والعامة في كيان الدولة، كل ذلك وجد له مبرراً لأن يكتب الشيخ باندفاع وحماسة في الدفاع عن نقاء الإسلام وخلوصه من أية شوائب دخيلة من الأفكار الهدامة والتي لا تلتقي مع الإسلام، ومحاولة البعض إدخالها عنوة على الفكر الإسلامي حتى وصل بالبعض أن يلصق الاشتراكية بالخليفة الثالث نفسه، وأبو ذر الذي ثار على عثمان اشتراكي أيضاً في الوقت ذاته، فكلا الاشتراكيين يثور بعضهم على البعض الآخر في سبيل غاية واحدة وهي محاربة الاشتراكية، واحتكار المال!! .. وهذه قمة التناقض في الفكر عند البعض، مما حدا بالشيخ لأن يسل قلمه لفضح مثل هذه الكتابات الدخيلة، ومنها هذان المقالان اللذان أثبتناهما في هذا الكتاب، ولم يُنشرا من قبل في واحد من كتبه.

نظرات تجديدية :

عرف عن الشخصيات خصال كثيرة اشتهر بها، ولكن أهمها في نظري النزعة التجديدية التي تكمن في داخله منذ أن كان طالباً حوزوياً، وربما قبل ذلك بكثير، ولكن لا وثائق لدينا تشير إلى ذلك، وهذه النزعة التجديدية للفكر الإسلامي من جهة وللفكر المذهبي العقائدي من جهة أخرى صاحبتها جرأة عالي في الطرح والإعلان عن الإيمان بما يعتقد، وإن جرَّ عليه هذا الاعتقاد مصاعب ومتاعب عديدة من أبناء طائفته وأقرانه من العلماء، ما يهمه قبل كل شيء هو أن يدرس الفكرة من جميع أبعادها، ومتى ما آمن ببطلانها أعلن ذلك، وعلى صفحات المجلات السيارة. وليس في المجالس الخاصة، وكذلك متى ما آمن بفكرة واندفع لها، فإنه يعلن هذا أمام الملأ، ولا يهم بعد ذلك ما يكون.. وإلا من يجرؤ أن يكتب من علماء الدين الأسطر التالية وبكل جرأة في وقت حرج كالوقت الذي سطرت أنامله هذه العبارات :

" إن العادات والتقاليد المتبعة عند العوام لا يصح أن تكون مصدراً للعقيدة لأن الكثير منها لا يقره الدين الذي ينتمون إليه حتى ولو أيدها وساندها شيوخ يتسمون بسمة الدين، ومنها ما يفعله بعض عوام الشيعة في لبنان والعراق وإيران من لبس الأكفان وضرب الرؤوس والجباه بالسيوف في اليوم العاشر من محرم. فإن هذه العادة المشينة بدعة في الدين والمذهب، وقد أحدثها لأنفسهم أهل الجهالة دون أن يأذن بها إمام أو عالم كبير كما هو الشأن في كل دين ومذهب حيث توجد به عادات لا تقرها العقيدة التي ينتسبون إليها ويسكت عنها من يسكت خوف الإهانة والضرر، ولم يجرأ على مجابهتها ومحاربتها أحد في أيامنا إلا القليل من العلماء وفي طليعتهم المرحوم السيد محسن الأمين العاملي الذي ألف رسالة خاصة في تحريم هذه العادة وبدعتها وأسمى الرسالة " التنزيه لأعمال الشبيه" والذي أعتقده أنها ستزول بمر الأيام " (تجارب محمد جواد مغنية /٢٧٦).

كتب الشيخ هذا الكلام في عام ١١مايو ١٩٦٥ في جريدة الصفاء، وهي جرأة نادرة من عالم معمم شيعي في ذاك الوقت، الوقت الذي لا يجرؤ أي عالم أن ينتقد ضرب القامة مجرد انتقاد في وسط بيته أمام أقرانه وتلامذته ولو بالهمس، فكيف يجرؤ الشيخ أن يكتب هذا وبكل قوة في جريدة سيارة دون أن يخشى أن يصبح علكة يمضغ في ألسنة العلماء قبل العوام ؟!

والأخطر من ذلك حين يتكلم بقوة واندفاع حول نفوره من ألقاب العلماء، وانتقاده اللاذع للمسميات الفارغة التي تعطى لرجال الدين بعيداً عن العلم والعطاء والتغيير، مثل العلامة وآية الله ونائب الإمام وباب الأحكام وغيرها، يقول هذا في الوقت الذي تصبح هذه الألقاب من اللوازم التي تستعصي على التغيير أو المس فيها، وفي الوقت الذي يتبارى العلماء في الحصول عليها في الدراسات الحوزوية، ولا يفكر واحدٌ منهم في نقدها أو حتى الحديث حول تعديلها أو تغييرها، في هذا الوقت نجد الشيخ بكل اندفاع وبدون أدنى تحفظ يكتب حول هذه الألقاب عنوانًا فاضحًا ولاسعًا وهو " **جنة الأساطير** " جاء فيه :

" أنا أكره الألقاب وأشعر بنوع من الكراهية الصارمة لمن يحبها ويتهالك عليها، وأراه شيئًا غريبًا ومنفصلا عن واقعه، وكل إنسان ينفر بفطرته ممن يخرج عن الاعتدال إلى التطرف في أي شيء كان. إن معرفة النفس وتقديرها بما تستحق هي الخطوة الأولى في طريق النجاح وانسجام المرء مع نفسه وواقعه.

ومن أعطى نفسه فضائل ليست فيها فقد عاش في جنة الأساطير تماماً كذلك الطفل المدلل الذي سأل أباه أن ينزل القمر من كبد السماء ليلعب به "فطبولا" أو كهذا الشيخ الذي كتب بالخط الطويل العريض على ما جمع وطبع " تصنيف فلك الفقاهة، سلطان قلم التحقيق والنباهة، شيخ الطائفة، وقدوة مجتهدي الفرقة المحقة، نائب الإمام، وباب الأحكام، غياث المسلمين وحجة الإسلام، آية الله في الأنام، الفقيه المخالف لهواه، .. إلخ ". قطب وفلك وسلطان وغياث وباب وآية ونائب وحجة .. ولا مدلول وراء ذلك إلا الأحلام ومضغ الكلام ! . ولا أدري كيف وصف هذا الشيخ نفسه بالعلو والشموخ أو رضي به - على فرض أنه من غيره- وهو مخالف لهواه وزاه في الرفعة والجاه؟ . ولهذا الشيخ المغرق في المتاهات أكثر من شبيه. ويا للأسف ". (التجارب / ٢٨٧)

والشيخ بلا شك يستمد هذه الثورة على مثل تلك الألقاب التي شاعت وترسخت في أوساط العلماء والطلبة في بيئة الدراسات الحوزوية من سيرة ونهج الأئمة المعصومين (ع)، ففي الوقت الذي نرى صفة العلامة وآية الله وحجة الإسلام تعطى لبعض الرجال ممن درس بعض السنوات وهو بشر غير معصوم، نجد أن أمير المؤمنين (ع) وهو من هو يُكتفى في إيراد اسمه على لفظ علي بن أبي طالب، اسم مجرد من أي شيء، فسيرته تنطق عنه، وتعطيه الوسام الأعظم الذي يبوئه المكان المقدم على البشرية جمعاء دون رسول الله (ص)، وهكذا نقول في الحسن بن علي (ع)، والحسين بن علي (ع)، وبقية المعصومين .. فأيهما أولى بالألقاب والأسماء الرنانة ؟! الفقهاء أم الأئمة ؟! والمدهش في الأمر أن الشيخ محمد جواد مغنية قد أعطى درساً عملياً لهذا التوجه الذي تبناه منذ البداية، وهو محاربته للألقاب، والسعي نحو إثبات الذات، وفي ظني أن الشيخ أول عالم شيعي يكتفي باسمه مجرداً من أي شيء على غلاف كتبه وتحت مقالاته، وفي مراسلاته، فيكتب فقط "محمد جواد مغنية " دون آية الله أو العلامة أو الفقيه أو الحجة أو رئيس القضاة وغيرها، فكأنما هو لا ينفصل في حياته عن شعاراته التي يطلقها ويكتبها، لأنه يعرف أن الذي يبقى من العالم بعد كل شيء علمه وآثاره وليس ألقابه ومسمياته ومناصبه.

وفي عنوان آخر أكثر دلالة يشن حرباً ضد لقب علاّمة الذي ينتشر إلى اليوم للأسف الشديد في أوساط العلماء دون تورع أو توقف أمامه، حتى صار مشاعاً للجميع، من يستحق ومن لا يستحق، ففي كتاب التجارب أيضاً

يكتب تحت عنوان " **مهزلة المهازل** " ويقصد بها إطلاق لقب العلامة على كل من هبَّ ودب من طلبة العلم، يقول :

" في القديم لم يطلق لفظ علامة على رجل الدين إلا بعد أن يبلغ القمة في العلوم، ويفوق علماء عصره على الإطلاق، أما اليوم في هذا الزمن الرديء يُطلق لفظ "علامة" على كل معمم دونما استثناء، و " حجة الإسلام " على كل طالب غر، و " إمام " و " آية الله " على كل فارغ ومتزمت، و " مجتهد أكبر " على كل مدّع، و " صاحب السماحة " و " صاحب الفضيلة " على كل جاهل وسخيف.

قال السيد محسن الأمين في الجزء ٣٣ من " أعيان الشيعة " : " كثر في هذا العصر إطلاق لقب علامة على كل أحد، حتى أطلقه بعض المؤلفين في العراق على رجل عامي لا حظٌ له بشيء من العلم " . وإن دلت هذه الفوضى على شيء فإنما تدل على كثرة الدخلاء والأدعياء الذين دنّسوا العلم، ولوثوا الأخلاق، وأساءوا إلى الدين وأهله وعبثوا بقيمه ومقدساته " (٢٩١) .

أما في العقيدة فللشيخ آراء تعتبر سابقة لعصره، وفيها جرعة من التجديد والاستقلالية في الرأي الشيء الكثير، وفي النجف له آراء كذلك تعد هزة من عالم ديني تخرج من النجف، ولم يقل بما قاله أحد من العلماء، وبالصيغة التي طرحها في كتبه، وسنترك الحديث حول نظراته التجديدية لمقام آخر، وسنتطرق لآرائه التي وردت في هذا الكتاب الذي يضم مقالاته المجهولة.

نشير قبل كل شيء إلى أن صاحب العرفان الشيخ أحمد عارف الزين (١٨٨٤- ١٩٦٠) ومن خلال المقالات التي يوالي الشيخ محمد جواد مغنية نشرها في المجلة قد لمس بوضوح النزعة التجديدية التي تكمن في كيان الشيخ والتي تظهر بجلاء في كتاباته ومقالاته وآرائه التي يسطرها على صفحات العرفان، مما حدا به إلى أن يؤمن بقوة بأن وراء هذا الكاتب الشاب عالما مجددا ويُنتظر منه الكثير إلى أمته، والأخذ بها إلى طريق الإصلاح والتغيير، ومع أن الشيخ مغنية كان له من العمر ٤٢ سنة فقط، وقد نشر ٣٠ مقالاً في المجلة على امتداد ١٥ سنة تقريباً، ومع أن الشيخ عارف الزين له من العمر آنذاك ٦٢ سنة إلا أنه يكتب بحماس عن مغنية، ويطلق عليه لقب الشاب المجدد، وأظنه وساماً لم يطلقه عارف الزين إلا على القلة ممن ارتبط بهم، حتى الكبار من العلماء لم يحظوا بهذا الشرف الذي ناله الشيخ

مغنية بجدارة واستحقاق .. يكتب عارف الزين في هامش واحد من مقالات الشيخ مغنية في العرفان التالي :

"وضعنا هذه الترجمة في هذا الباب (المقصود باب المراسلة والمناظرة في مجلة العرفان والذي نُشر فيه مقال الشيخ) لتأخر ورودها، وقد تبيّن أن عالمنا الشاب المجدد (المقصود الشيخ مغنية) أرسلها من صور في البريد، أي فقدت بين صور وصيدا، فتأمّل وابك دماً على حالتنا الاجتماعية". مما يعني بكل بساطة أن الشيخ قد فرض وجوده وصوته في الأوساط الدينية والثقافية، وصار اسمه من الأسماء البارزة التي تحمل النزعة التجديدية في القطر اللبناني خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، وأصبح حديث العلماء والمفكرين والمثقفين، صوتاً بارزاً في الإصلاح الديني والاجتماعي، وقد برز هذا الاسم من خلال مقالاته المتتابعة التي ينشرها في العرفان وفي المجلات والصحف المختلفة، والتي تتسم بالخصوصية والتجديد، في اللغة والخطاب، وكذلك في التوجه الذي لا يشبهه توجه آنذاك، كأنما الشيخ صار نسيجًا وحده، وقلماً مختلفاً عما سبقه وعاصره من الأقلام على كثرتها، بجانب الجرأة والإصرار على الطرح في أية إشكالية دينية أو اجتماعية دون خوف من الحواجز أو الموانع، أو التوجس من العرف العام، والتفكير الشعبوي، أو النزعة التقليدية لدى أغلب العلماء من أقرانه ومجايليه. مما أصبغ مقالاته بنكهة ذات تميز مختلف تماماً عما عداه. وقد أطلق عليه الشيخ أحمد عارف الزين لقب الشاب المجدد في الوقت الذي لم يصدر لمغنية أي كتاب، ولم يدخل سلك القضاء بعد، ولم ينتقل لبيروت العاصمة العلمية والثقافية، فالشيخ كان آنذاك مازال منزوياً في قرية مغمورة تدعى" طير حرفا"، والتي بقي فيها منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٨. مما يعني أن الشيخ بنى مجده العلمي من خلال جهده الذاتي المضني، ومن خلال مقالاته التي ينشرها، وعلى الأخص في مجلة العرفان، والتي تنضح بالتجديد، والجرأة، والتميز، واللغة المميزة المختلفة عن لغة الشيوخ وعلماء النجف ورجالات الدين.

يقول الشيخ حسن الصفار: " التعبير عن الرأي في مجتمع قمعي وبيئة محافظة، يسبب ردود فعل مناوئة من مراكز القوة والنفوذ، وذوي المصلحة في استمرار واقع الجمود والتخلف، ومن خلفهم من الأتباع والمتملقين. وعادة ما تكون الضغوط من قبل هذه الجهات عنيفة قاصمة، لا يصمد أمامها إلا من يمتلك قوة الشخصية، وصلابة الإرادة. لقد اضطر

بعض العلماء للتراجع عن طرح آرائهم بفعل مثل تلك الضغوط، كما يتردد الكثيرون عن التعبير عن آرائهم تجنباً للمواجهة، واتقاء للضرر والخطر. لقد سحب الشيخ النائيني من الأسواق رسالته (تنبيه الأمة) التي تدعو إلى قيام حكم إسلامي على أساس المشاركة الشعبية، استناداً إلى إرادة الأمة، والتي أوضح فيها معالم النظام السياسي الشوروي، على ضوء الأدلة الشرعية.

ويُنقل عن السيد البروجردي حديثه عن التقية من الداخل، وأنها مورد ابتلاء للفقهاء والمراجع أكثر من التقية من الخارج.

أما الشيخ مغنية فقد عقد العزم على تحدي هذه الضغوط الداخلية، ولم يكن يأبه بها، ولا يكترث بصخبها، بل يتحدث عنها بنبرة التهكم والتحدي، كقوله مثلا: " لكن بعض الشيوخ رأوا في كتبي وأقوالي خروجًا عن الأصول وتقاليد العلماء الأبرار، وهنا تكمن البدعة والضلالة في نظرهم، فانبرى إليَّ العلماء والزعماء والرجعيون ".

وهو يبادر تلك الجهات بالهجوم على تخلفهم وتحجرهم كما يقول: " وكتبت عن لبنان وجنوبه المنكوب، ورسمت صورة لبعض الشيوخ المتبحرين في السخف والجهل ".

ويسجل بعض اتهاماتهم له قائلا: "واشتدت محاربتي من العملاء والرجعيين ... الرجعيون وأذناب الاستعمار في وجه الأشراف والأحرار ... واتهموني بأني يساري وشيوعي هدّام ".

وترتفع لديه نبرة التحدي تجاههم فيقول حين اتهم بحمرة شيوعية: " هذه الفرية وألف من أمثالها، لا تؤثر فيَّ، بمقدار تأثير الغبار في حذائي، لأني على يقين من ديني وإيماني وعدلي، وإني أحمده تعالى على حظي عند شرار خلقه" . " (شجاعة التعبير عن الرأي .. الشيخ محمد جواد مغنية نموذجاً، حسن الصفار، ص (٣١-٣٣)).

في هذا الكتاب يجد القارىء مجموعة من اللفتات التي تنضح بالتجديد، وذلك على الصعيد الإبداعي من جهة، وعلى صعيد الطرح والأفكار من جهة أخرى. فالشيخ في مقالاته وفي كل كتاباته بشكل عام يكتب بلغة تقترب من الجميع، وتخاطب كل المستويات، وتعالج التفكير بكل طبقاته، وهو يرفض أن يكتب بلغة المتخصصين من علماء الحوزة أو أصحاب

الدراسات العليا، ومغنية في هذا يسير على خطة مسبقة، وليس يمشي بعفو الخاطر، ويكتب بالبديهة، وإنما كان يكتب بهذه اللغة ليكسب أكبر عدد ممكن من القراء، وعلى الأخص الشباب منهم، وهو يعرف أنه في سبيل تحقيق هذه الغاية لابد من لغة قريبة من لغة الشباب، لا لغة مقعرة ومتعالية تقترب من لغة ملا صدرا وابن رشد، وإنما عليه أن يكتب بلغة العصر، اللغة التي تحيا في الصحافة، وتعيش في الدوريات اليومية، وتتنفس الخطاب اليومي للناس المثقفين على أقل تقدير، لغة تقوم على التركيز والإيجاز وصب المعنى العميق في أقل الكلمات. يقول الشيخ :

" لا أطيل التفكير، بل لا أفكر إطلاقًا في نقش الألفاظ وزخرفتها، وإظهار المهارة والبراعة في هذا الميدان، لأن التكلف والتصنع في التعبير أشبه بالرياء والنفاق في الدين.. وكثيراً ما أطيل التفكير أتحرى الإيجاز والوضوح مع التركيز على المعنى المقصود .

أبدًا ودائماً أضع نصب عيني هذه الأركان الثلاثة: التركيز والإيجاز والوضوح، وأراها ضرورية لنجاح الكتاب، لأن التركيز كالخط المستقيم لا ينحرف بالقارئ يمينًا وشمالا، ويجعله منسجمًا مع الموضوع لا يتأرجح بينه وبين غيره، أما الإيجاز فيبتعد بالقارئ عن الملل والضجر، وبالوضوح يدرك أدق الأفكار من غير جهد، ولهذا الركن أهمية قصوى، والوسيلة إليه أن يسير الكاتب على سجيته، ويستخلص ما أمكن كلماته من لغة الناس العاديين غير العامية طبعًا " (التجارب /١٣٣) .

وفي موضع آخر من الكتاب يتحدث الشيخ حول الكتاب الناجح، وأهم ما ينبغي أن يتوفر فيه من شروط النجاح والجاذبية، وكأنه بهذا يتحدث عن نفسه، أو كأني به يضع نفسه موضع القارىء وهو يسطر الجمل الأولى لكتبه ومقالاته المنشورة، إذ كل ما ذكره تكاد تجده في كتاباته، ثم أنه يدعو لأمر هو أول الساعين له في مقالاته وكتبه وأبحاثه . وفي هذا يقول :

" لا أستطيع المضي في قراءة صحيفة أو كتاب إلا إذا توافرت فيه العناصر التالية:

أن يكون التعبير بسيطًا واضحًا بعيدًا عن الزخرف والتضخم، واللف والدوران، وأن يكون الكاتب واقعياً يرتبط بعصره ارتباطًا كاملا، وأن يكون عالمًا بالتاريخ والأحداث وقوانين التطور، والأسباب والنتائج، ومخلصاً لا

يستوحي أقواله وأحكامه من رغبات رجعية أو أجنبية، وبقول أوضح إني أرغب في قراءة ما يقوّم المعوج من أفكاري، ويثبت لي بالأرقام والأدلة الحسية أني على خطأ في بعض ما أعتقد أو يرشدني إلى حقائق لم أعرفها ولم أسمع بها من قبل، أو يذكر لي الحلول السليمة لمشاكلنا السياسية والاقتصادية، أو يحدثني عن شعب كافح وناضل حتى تحرر من الاستعمار والاستثمار، أو عن عصامي لم يكن شيئًا فأصبح بفضل جهاده وشجاعته إنسانًا مذكورًا " (التجارب /١٢٤).

وقد جاءت كتاباته المختلفة انسجاماً لهذا التصور الذي حمله للكاتب الحر المجدد الذي يعطي للإسلام الجاذبية، وللفكر الديني التألق والتطور، وقد ظهر بتجلياته في جمله وعبارات التي يستخدمها سواء في مقالاته أو في كتبه وأبحاثه، في مقالاته العامة أو في بحوثه الفقهية الاستدلالية، وهو في هذا كله تراه يلجأ للعبارة القصيرة الرشيقة، بعيداً عن الإسهاب والإطالة، ويحاول قدر جهده أن يصب المعنى العميق في عبارة قصيرة، مختزلة، مجتنبًا العبارات الشاقة، والتي يصعب فهم مدلولها على القارىء، وهو في أحيان كثيرة كان يستبدل المصطلح العلمي بما يقابله من عبارات مفهومة للعامة تكون بديلا عنها، وتؤدي المعنى نفسه، ابتغاء كسب ود القارىء، وجلبه للفكر الديني، وربطه بكتابات العلماء، بدلا من الارتباط بكتابات اللادينيين، من المفكرين والأدباء والعلمانيين والماركسيين وغيرهم.

ومن يتابع الشيخ في كتاباته يجده قليل الاستشهاد بالنصوص الدينية من آيات وأحاديث وروايات إلا في الحد الذي يتطلبه النص، أو الموضوع الذي يتناوله الشيخ، وكان في المقابل يكثر من التحليل، ومحاولة الإقناع، لأنه يبتغي من وراء هذا أن يبرهن على أن الدين الإسلامي يقوم على الفكر، وعلى العقل، وعلى أنه دين قائم على الإقناع، ولا يقوم على التقليد، أو النصوص التي تخاطب العاطفة فقط، وما النص إلا داعم للفكر، ومساند للعقل. هذا المسلك جاء خلافا لما كانت عليه كتابات معاصريه من العلماء، وخريجي الحوزات الدينية، إذ كانت كتاباتهم تتكئ في الغالب على النصوص الدينية، من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وروايات عن أهل البيت، وأقوال السابقين من العلماء، ومن بعدها ينتهي المقال عند هذا الحد.. هذه المنهجية من الأسلوب في الكتابة كان الشيخ يرفضها بقوة، ولا يراها أسلوبًا ينسجم مع الفكر الديني الأصيل، ولا الدعوة للإسلام النقي. وأكبر مصداق على نظرته التجديدية للكتابة في الدين، وفي الفكر الإسلامي

المقال القصير والمدوي الذي كتبه في العرفان ع أيار(مايو) مج ٣٩ ، س ١٩٥٢، ص ٧٥٨ بعنوان ذي مدلول " إلى من يريد أن يكتب عن فوائد الصوم " . يقول الشيخ ناقداً الكتابات التي تكتب في كل عام بمناسبة شهر رمضان الكريم، وما يكتب حول فوائد الصوم:

" اعتاد فريق أن يكتبوا في كل سنة عن فوائد الصوم في عدد رمضان من مجلة العرفان الغراء، ونحن إذ نشكر العرفان التقية السخية، ولهذا الفريق حسن النية، نرجو ألا يكتب أحد في هذه السنة وفي السنين التالية الشيء الذي كان قد كتب في الأجيال الخالية، إن ما ينشرونه في كل عام، هو تكرار لما قيل وسطر من مئات الأعوام.

قالوا: إن فائدة الصوم تنقية المعدة، وفائدة الوضوء النظافة، وفائدة الصلاة الرياضة، وأنا أستغفر الله تعالى عن إخواني الأفاضل من هذا التعليل والتحليل، إن تناول حبة واحدة من الصيدلية لا تدع في المعدة كبيرة ولا صغيرة، وإن الغسل بالماء الساخن والصابون يغني عن عشرين وضوءاً من حيث النظافة، وإن حركة رياضية فنية تغني عن ألف ركعة من حيث الرياضة.

إن العبادة صلة خاصة بين العبد وربه، وفائدتها أخروية محضة، فلا يسوغ تفسيرها بأشياء دنيوية، ولا صلة لها بهذه الحياة سوى إظهار العبودية، والانقياد التام، والطاعة العمياء لله سبحانه، فكل ما يعود إلى العبادة يجب التسليم به من غير قيد ولا شرط، وقول كيف ولماذا ؟ عقوق، وهذا معنى قول الفقهاء إن العبادة من الأمور التوقيفية، أي يجب الوقوف منها عند أمر الله تعالى.

أما حديث " صوموا تصحوا " فلعله جواب لمن يزعم أن الصوم يمرض الصحيح، لا إنه يصحح المريض، ولهذا يحرم الصوم على المريض مع الضرر، وعلى الصحيح إذا أدّى به إلى المرض.

وقالوا: إن من فائدة الصوم أن يتذكر الصائم الفقير، ليتصدق عليه بالقرش والرغيف، ولو صح هذا لوجب الصوم على النواب فقط ليتذكروا الجياع والعطاشى الذين انتخبوهم، وجعلوهم نواباً " .

إنه يرفض ذلك الطرح التقليدي الذي سار عليه الكتاب من الشيوخ في كل عام حين يتناولون الصوم ويكتبون في شهر رمضان، وهكذا منهجية الشيخ

في كل الموضوعات الدينية، طرح متجدد يقوم على الأسلوب المركز، والعبارات القائمة على التفكير، والمقتضبة في جملها.

في مجلة العرفان، المجلد ٢٩ الجزء ٦، الصادر في رمضان سنة ١٣٥٨هـ الموافق تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٩م، ص (٥٨٩ - ٥٩٠) نشر الشيخ في هذا الوقت المبكر من عمره مقالا طريفا، ومختلفاً تماماً عن سنخ ما كان يكتب آنذاك بأقلام الفقهاء والعلماء، وخريجي الحوزة الدينية، المقال عنوانه " الإرادة وقوتها " كتبه بلغة أقرب للتحليل النفسي، وللتفكير المنطقي القائم على القراءات المعمقة والمتوسعة .. وبأسلوب أبعد ما يكون عن لغة أهل العلم من الفقهاء، و بلغة مباشرة مختصرة وبعبارات مركزة معتمدة على عصارة من الدراسات التي اطلع عليها الشيخ في هذا الموضوع، من الروايات والأبحاث المختلفة، يظهر هذا بجلاء في ثنايا الموضوع ذاته دون خفاء، أو عناء في البحث. يقول الشيخ :

" الإرادة ضد الكراهة، وهي من الصفات النفسانية والغرائز التي لا يتم نظام الإنسان بدونها والأمور النسبية المفتقرة إلى المراد، وقد تتعلق بذاتها، فكثيرا ما نريد من أنفسنا إرادة الخير وترك الشر.

أما مرتبتها فمتأخرة عن مرتبة العلم، فمتى حصل الاعتقاد والظن بالمصلحة حصلت الإرادة لذي المصلحة، ويصح التعبير عنها بالرضا والشوق والرغبة والميل والحب والاختيار، وهي غير الشهوة، فإن المريض يريد شرب الدواء ولا يشتهيه.

أما الأسباب التي تهيج الإرادة وتخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل فهي نوع من الجزئيات الخارجية التي لا يحصيها العدُّ والتتبع. ترى الفاكهة فتميل إليها نفسك، وتسمع بفضل العلم وفوائده فترغب فيه، وتشم الطيب فتود التطيب به، وتذوق الحلوى فتتوق إلى أكلها، وتلمس الثوب الناعم فتختاره على الخشن، وتتصور المستقبل ولوازم الحياة فتحب المال .. إلى غير ذلك من الأشياء التي فيها الصلاح وحصول المطلوب.

أما ضعف الإرادة وقوتها فيدور مدار العلم أو الظن بضعف السبب الذي يثير الإرادة الكامنة في النفس، فعلى قدر علمك بنتيجة العلم تكون رغبتك فيه، ولقوة اعتقادك بفوائد المال اشتد حبك له نظير خوفك من عدوك وحذرك منه فإنه يكون على قدر بأسه وشدة عداوته لك، ولذا كانت الأنبياء والأئمة

المعصومون وصالح المؤمنين أشد خوفاً من الله، وأعظم تقديراً لذاته من سواهم: " عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم " . ولما كانت الجزئيات الخارجية هي السبب الوحيد لتهييج الإرادة كان الرأي المنتشر أن البيئة تكيّف الإنسان، وتأتي باعتقاداته وأفعاله وأقواله على حسبها، وموافقة لترتيبها من أصح الأقوال وأصدقها، لأن الإرادة لها تأثير قوي في صدور الفعل وإيجاده، وهي جزء العلة التي عبّر عنها أهل المنقول بالمقتضي، فإن العلة التامة باصطلاحهم تتألف من وجود المقتضي، وهو الإرادة والشرط وهو القدرة وعدم المانع، والموانع لا يمكن حصرها، فإذا وُجدت هذه الثلاث وُجد الفعل وتحقق، وانتفاء أحدها وعدمه علة تامة في الانتفاء والعدم، فلا تنفع الإرادة مع انتفاء القدرة، كما لا تجدي القدرة مع عدم الإرادة، ولا أثر لاجتماعهما إن قارن وجود المانع، وإذا تكلم أهل التشريع عن حُسن الأفعال وقبحها، وسنوا لها القوانين، وأوجبوا الثواب والعقاب لفاعلها، وقسَّموها لحلال وحرام فيعنون بها الأفعال التي من هذا النوع، والتي توسطت الإرادة بين الفعل والفاعل، أما الأفعال التي لم تصدر عن إرادة واختيار فلا تتصف بالحسن والقبح، ولا يشملها موضوع كلامهم، وإذا أراد الإنسان عملاً ولم يقدر عليه فإن كان من نوع الشر والمكروه لم يستوجب العقاب والقصاص، فإن ذلك يترتب على وجود العمل وصدوره في الخارج والمفروض عجزه عنه، نعم ذلك يكشف عن خبث ذاته وسوء سريرته. وإن كان مريداً للإحسان، محباً للخير، عاجزاً عن عمله وإتيانه فهو في نظر الإسلام مثاب معدود من أهل الخير. فقد جاء في الشرع المقدّس: من أحبَّ عمل قوم شاركهم، لكل امرئ ما نوى. وقد يحدث في النفس إرادتان متناقضتان بحسب المتعلق ، فتتعلق إحداهما بفعل شيء، والأخرى بتركه، وليس ذلك ببعيد مع اختلاف الجهة، والمستحيل إرادة شيء وتركه مع وحدة الجهة، أما مع التعدد فلا بأس، فإنك تريد شرب الدخان لتسلية وتريد تركه لأجل الضرر الناشئ عنه، والمحال هو إرادته للتسلية وتركه لها ، وقد تريد الخيانة للنفع العاجل وتركها للضرر الآجل، ومتى حصلت الإرادتان وقع التصادم، وحصل الكسر والانكسار بينهما، فكل منهما تريد جر صاحب الإرادة إليها، وأن يطيعها ويعصي الأخرى، فهو فريسة على كل حال لإحدى القوّتين، إحداهما فيها صلاحه، والثانية فيها فساده، والتي يميل معها ويمتثل أوامرها هي الغالبة، وهذا الموقف هو من أظهر مصاديق قوة الإرادة وضعفها، فإن عمل بما فيه صلاحه كان قوي الإرادة، سليم العقل، صحيح التفكير، مالكاً لهواه، مطيعاً للحق. فقوة الإرادة ترجع إلى

ضعف إرادة الشر وقوة إرادة الخير، وإن عمل بالثانية كان ضعيف الإرادة، ساقطاً عن درجة الاعتبار والتقدير، قد اتخذ إلهه هواه: " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه "(الجاثية : ٢٣) وقد خرقت الشهوات عقله وأماتت قلبه، فإن سمع سمع بأذن صمَّاء، وإن نظر نظر بعين عمياء، وفي مثل هذا الموقف تُعرف الرجال، ويمتاز بعضها عن بعض، ويعلو بعضها على بعض. وعنه عبَّر النبي (ص) بالجهاد الأكبر، فإنَّ خضوع النفس وجماحها أصعب وأشد من خضوع الجسم، فالغضب والحقد وبقية الصفات البهيمية قد تجره إلى ما لا يُحمد عقباه، وقوي الإرادة من لا يخرجه الغضب عن الحق، ولا يتكلم ما يغضب الرب. ".

الموضوع موضوع يبحثه العلماء في الحوزة الدينية في أبحاث الأخلاق، أو العقائد، ولكن من الصعوبة بمكان أن تجده مطروحًا لدى عالم من علماء الحوزة بهذه السلاسة، وبهذه اللغة، وبهذا الإيجاز والعبارات المختصرة الدقيقة الموجزة. وهذا سر تجديد الشيخ في هذا الباب. حتى استطاع أن يستقطب آلاف الشباب والقراء المثقفين على اختلاف توجهاتهم، ومشاربهم لقلمه، لما وجدوه فيه من لغة مغايرة للغة أهل العلم من الفقهاء، والذين يتكلمون في الدين. وقس على هذا الموضوع عشرات الموضوعات التي يتناولها الشيخ، فقوته تكمن في لغته أولا، وفي تجديده في الطرح ثانيًا، وفي صدقه واستقلالية رأيه ثالثًا.

وفي مجلة العرفان، المجلد ٣١ الجزآن ١ و ٢ ، الصادرين في محرم وصفر سنة ١٣٦١هـ الموافقين كانون الثاني وشباط (يناير – فبراير) ١٩٤٢م، ص (٢٨ - ٣٠) ينشر مقالا في غاية الجمال والروعة، وفي غاية الصدق والواقعية، وكأنه طبيب يضع يده على الجرح تمامًا ليشخص الداء الدفين في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، المقال بعنوان " أخلاقنا "وهي أخلاق قائمة على النقيض من أخلاق الإسلام، وسيرة أهل البيت، وسنة رسول الله (ص)، لذا نعيش في مستنقع من الضياع والتخلف، ولو جاءت أخلاقنا على خلاف ما نحن عليه لكنا في مقدمة الركب الإنساني والحضاري. المقال طويل، وكله جمال وروعة، وهو مدرج في هذا الكتاب، ولم يُنشر من قبل في واحد من كتبه، وهذا من الغرابة.. وليرجع إليه القارىء ليجد فيه ذلك التجديد البين في أسلوب الشيخ، وفي قدرته على الكتابة بلغة مغايرة، ولينطبق عليه القول: " الرجل الأسلوب " .

ومن أبرز معالم المنهج التجديدي لدى الشيخ مغنية، والذي يجد القارىء شيئًا من ملامحه في هذا الكتاب الاندفاع الصادق الذي انطلق إليه الشيخ

بقوة منذ شبابه البكر في ميدان الوحدة للتقريب بين السنة والشيعة، وكان الشيخ من أقوى الأصوات الإسلامية التي نادت وبصوت مسموع ومدوي للتقريب، ولضم المذهبين معًا تحت مظلة الإسلام. كان للشيخ دور بارز وملموس في ميدان التقريب بين السنة والشيعة، وكان يجاهد بكل ما يملك من طاقة وعنفوان في سبيل تحريك هذا الملف للأمام، متحدياً في هذا كل العقبات، وصارخًا في وجه كل المثبطين والمنادين بالرفض والخذلان لاتحاد المذهبين، والمنادين باستحالة ذلك. وفي السياق ذاته نقرأ للشيخ عشرات المقالات التي تدور في فلك التقريب، مثبتة في كتبه الكثيرة، بجانب مساهمته الفعّالة والمشهودة في دار التقريب في مصر، وكان يمد مجلة رسالة الإسلام لسان دار التقريب لآخر عدد لها بالمقالات المتعددة، والتي لا تخرج عن نطاق الدعوة للتقارب بين السنة والشيعة، وبين المذاهب المختلفة، وضرورة التعايش بينها جميعًا، بلا تكفير ولا تسقيط، ولا تخوين أي طرف لآخر.

وكنت أعتقد أن مقالاته في هذا الميدان كلها مرصودة، ولم يهمل الشيخ شيئًا منها، وذلك لأهميتها، أو أن ولده الأستاذ عبد الحسين قد أثبتها في كتبه اللاحقة والتي طبعت بعد حياته، حتى اكتشفت مجموعة من المقالات المغمورة، ووقعت عيني على كمية لا بأس بها من المقالات الوحدوية، والتي تبحث في سبل التقريب والوحدة بين المذهبين، وقد أثبتها في هذا الكتاب. والفرق بين الشيخ مغنية وغيرها من العلماء أنه بادر وساهم وكتب بتفاعل وحرارة في هذا المضمار، بل إنه سافر لمصر والتقى بالعلماء وتحدث معهم في هذا السبيل، أمثال شلتوت، والتقى بأبي زهرة، وغيرهم من العلماء .. كان يغلب عليه الحماس والإيمان المطلق بالقدرة على التوحد بين الطائفتين الكريمتين، ولم يكن يومًا ما من الداعين للتكفير والتسقيط، والاستخفاف بالآخر، والدعوة للأنا، والقول بأننا الفرقة الناجية، والتهجم على رموز الفرق الأخرى، وأئمتها، وبعض الصحابة، بل كان شعاره " لكم دينكم ولي دين"، وأنا أحترم مذهبك وأنت تحترم في المقابل مذهبي وعقيدتي، وكان يدعو لأن تدرّس النجف الفقه السني بمذاهبه الأربعة لطلابها، ليتعرفوا على فقه المذاهب الأخرى، وفي المقابل طالب أيضًا الأزهر بأن يدرّس الفقه الشيعي لطلابه ومنتسبيه ليتعرفوا على الفقه الشيعي، وليعقدوا المقارنات بينهما، وليكونوا على بينة من الأدلة التي يقوم عليه الفقه الشيعي، والعقيدة الاثني عشرية. وهناك الكثير من المحطات في حياة الشيخ في باب التقريب لا يسع المجال لتدارسها في هذه الدراسة، وفي كلمة

كان لا يتوانى لحظة في التفكير في سبل التقريب واتحاد الطائفتين بصدق وحرارة في وجه الاستعمار ودعوات التشتت والعداء وإذكاء نار الفرقة والعداء والفتنة، وقد استمر يدعو ويكتب ويلح على مسألة الوحدة حتى آخر أيامه، وكأنه متشرب بها، ومتجذرة في كيانه.

ومن أقدم المقالات المجهولة في هذا الباب، والذي كتبه الشيخ مبكراً من حياته، وسار على منهجيته فيما بعد في مقالاته المقبلة ودراساته اللاحقة، مقاله المهم " الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة "، نشر المقال في مجلة العرفان، المجلد ٢٨ الجزء ٦، الصادر في رمضان سنة ١٣٥٧هـ الموافق تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨م، ص (٥٧٧ - ٥٧٩)، وكان الشيخ يبلغ من العمر آنذاك ٣٤ سنة، وهذا يحمل من الدلالات الشيء الكثير، فهو يشير إلى أن الشيخ كان يحمل اليقظة والإحساس بضرورة الوحدة والاندماج بين الشيعة والسنة منذ شبابه المبكر، وأظن أنه كان يحمل الهم بداخله قبل ذلك بكثير، وأيام تتلمذه بالحوزة الدينية بالنجف، في هذا المقال يشدد الشيخ على أن هناك عشرات الروابط التي تجمع بين الطائفتين، وعشرات الأسباب التي توثق عرى المذهبين، وما هذه الفرقة المزعومة إلا بسبب الأيدي الخارجية، ومبغضو الإسلام من الداخل، وهو يرى أن الوحدة لا تعني أن أصحاب كل مذهب يتخلى عن مذهبه ويدخل في المذهب الآخر، ليس هذا بوحدة، وإنما أن نوحد الصفوف، وأن يعترف كل منا بالآخر ولا يكفر أحدنا أخاه المؤمن. ثم يتوجه لشيخ الأزهر الذي يعقد عليه الآمال في تحقيق هذه الوحدة، ويدعوه بكل رجاء أن لا يلتفت لدعاة الشقاق والفرقة من علماء الفتنة والتمزق والتكفيريين أمثال النشاشيبي وموسى جار الله .

هذا المفهوم الناضج للوحدة بين الطائفتين ينم عن إدراك مبكر لهذا الشيخ الشاب لمكمن القوة في بنية الجسد الإسلامي، ويدل على الوعي التام لمفهوم الوحدة، والذي يقوم على التعايش والتلاحم بين أبناء الطائفتين، وهذا في حد ذاته يعد من أوليات الشيخ، ونضجه، وتجديده، والملفت والمفرح أن الشيخ لم يكن في هذا المنحى يحمل في ذاته نزوة سريعاً ما تموت، بل كانت الدعوة للوحدة تسيطر على كل كيانه، وتتغلغل في كل أنفاسه حتى آخر أيامه. وفي هذا الباب كان الشيخ يتابع بكل ما أوتي من قوة، وبطاقة هائلة كل ما تصدره المطابع من كتب ودراسات تدور حول المذهب الشيعي من جهة، وحول الوحدة بين السنة والشيعة من جهة أخرى، فإذا وجد فيها ما يُشتم منها إهانة للمذهب أو مغالطات أو تجريح أو معلومات زائفة سارع بالرد

عن طريق مقال أو كتاب أو دراسة، وإذا وجد فيها الدعم والإنصاف أثبت ذلك وأشاد بصاحب المقال، وله في هذا الباب عشرات المقالات والدراسات المستفيضة ، حتى برع في هذا اللون من الكتابة، والذي يحتاج إلى قلم رشيق، يملك الحجة والسيولة والرد النظيف الذي يبتعد عن التجريح، والذي يخاطب العقل والنقل معًا، وأظن أن الشيخ فيه كل هذا وأكثر من هذا .

بجانب هذا المقال سيطلع القارىء على سلسلة مقالاته في " الفقه الجعفري والفقه الحنفي " ،ومقاله " الحديث ذو شجون " ، و " الشيعة الإمامية وعلم الحديث " و " جعفر بن محمد الإمام الصادق (ع) " و " رسالة الإسلام .. دار التقريب بين المذاهب الإسلامية " و " الأصول الثلاثة والأخوة في الدين " و " الأزهر والفقه الشيعي والكنيسة الإنجليزية والشذوذ الجنسي " و "الشيعة في فلسفة الدكتور الجر والأب فاخوري " و " الأزهر وفقه الشيعة " .. كل هذه المقالات تدور حول محور واحد وهو محور التقريب بين الشيعة والسنة، وهذا مسلك جديد، ورؤية متجددة تنطلق لأول مرة بهذه الحرارة من رجل دين بوزن وثقل الشيخ محمد جواد مغنية، فمن يراجع الكتابات التي دارت حول مسألة الخلاف بين الطائفتين في الفترة الموازية لكتابات الشيخ أو قبله بقليل فسيجدها تنطلق من رؤية واحدة تقريبًا، وهو اندفاع الكاتب لإثبات ضلال وخطأ الفريق الآخر، وإثبات الحقائق التاريخية العقدية انطلاقاً من أحداث التاريخ، وذلك بنبرة أحادية تقوم على الحدية والانطلاق من الفرقة الناجية، مع الإصرار على أني صح لا أحتمل الخطأ وغيري خطأ لا يحتمل الصح .. أما الشيخ فيكمن تجديده على أن يعترف كل واحد منا بالآخر، ويتركه لعقيدته، وبدلاً من ذلك علينا أن نتوحد في وجه العدو والمستعمر وكتاب الفرقة والملحدين والعلمانيين .

أما تجديده في الفكر الديني فهذا يُعد باتفاق كبار العلماء من أبرز معالم مشروع الشيخ الحضاري والديني. يقول آية الله السيد محمد باقر الصدر في هذا المقام منوهًا بكتابه " فقه الإمام الصادق ":

" أكبر الظن أنها أول مرة أقرأ فيها لفقيه إسلامي، من مدرسة الإمام الصادق (ع) أوسع نظرية لعنصر الفهم الاجتماعي للنص، يعالج فيها بدقة وعمق الفرق بين المدلول اللغوي – اللفظي – للنص، والمدلول الاجتماعي، ويحدد للمدلول الاجتماعي حدوده المشروعة .

وبالرغم من أن الفقهاء - في ممارستهم للعمل الفقهي ومجالات الاستنباط من النص - يدخلون عنصر الفهم الاجتماعي ويعتمدون عليه في فهم الدليل، إلى جانب العنصر الآخر الذي يمثّل الجانب اللفظي من الدلالة، غير أنهم لا يبرزون في الغالب الجانب اللفظي من عملية فهم الدليل، والجانب الاجتماعي بوصفهما جانبين متميزين لكل منهما ملاكه وحدوده، بل يبرز الجانبان في مجالات تطبيقهم مزدوجين وتحت اسم واحد وهو الظهور .

كانت هذه المرة الأولى التي قرأت فيها ذلك عن عنصر الفهم الاجتماعي للنص، هي حين قرأت بعض أجزاء الكتاب المجدد الخالد " فقه الإمام الصادق " الذي وضعه شيخنا الحجة الكبير الشيخ " محمد جواد مغنية " الذي حصل الفقه الجعفري على يده في هذا الكتاب المبدع على صورة رائعة في الأسلوب والتعبير والبيان " (ومضات / ١٨٥) .

من الجلي أنه لو لم يلمس السيد بعقله الراجح، ودقة بصره، وخبرته في الفقه الجعفري هذا الغور العميق، والفكر التجديدي في كتابات الشيخ لما أعلن ذلك بهذه الحرارة والقوة في البيان، فالسيد كلامه مصداق عقيدته، وقلمه تعبير عما بداخله من إيمان صادق، وتصديقاً لهذه الرؤية من السيد للكتاب، ولما وجده العلماء والمفكرون من تجديد بين في الكتاب ومنهجيته قررت جمعية أصدقاء الكتاب أن تمنح الشيخ جائزة مالية وتقديرية. هذا الكتاب يبرهن بالدليل على أن للإمام الصادق فقهاً استدلالياً متكاملاً في الأبواب الفقهية كلها، وهو الفقه الذي يقوم عليه المذهب الشيعي، وذلك رداً على من يقول: أين فقه الإمام الصادق الذي يقول به الشيعة ؟ !

هكذا هو الشيخ في كل ما يكتب، دائماً يلهث وراء الجديد في الطرح، ويحاول أن يجدد في الرؤى والأفكار، سواء في العقيدة أو الفقه أو الفكر الإسلامي بشكل عام. يقول الدكتور حسن عواضة مؤكداً أن ظاهرة تجديد الشيخ مغنية من الأمور المجمع عليها بين العلماء والمثقفين ولا تحتاج لبيان وبرهان وتفصيل:

" هناك إجماع على أن الشيخ مغنية كان رجل دين من نوع جديد، حرر الفقه والمفاهيم الدينية من أسر الجمود والتقليد الأعمى اللذين طغيا عليها خلال فترة طويلة من الزمن، وأعادها إلى عصورها الذهبية من تراثنا القومي والديني. وقد برز منذ كتاباته الأولى، منسجماً مع التطور والظروف المتغيرة، مستوعباً مفاهيم الحياة العصرية في المرحلة الحاضرة من تاريخنا القومي والإنساني، منفتحاً على كل جديد بعقلية متنورة مقنعة بأسلوب بسيط محبب، مستخرجاً كل نفيس وغالٍ من البحار

المظلمة للكتب القديمة الصفراء، المستحيلة على القارىء الحديث ... مما قرّب روح الدين وجوهره الصالح إلى النفوس والأذهان " (التجارب / ٥٦٣) .

لعلّ عبارة الدكتور السابقة " كان رجل دين من نوع جديد " وعبارته الثانية " منفتحًا على كل جديد " توحيان بأن الشيخ منفلت في تجديده، وأنه لا يقيم اعتبارًا للدين، وأصوله، وهذا المعنى معنى غير مقصود على الإطلاق، ولم يكن الشيخ كذلك في تجديده، ويدل على ذلك ما كتبه بعد صفحات الشيخ محمد مهدي شمس الدين حول هذا المفهوم المتبادر للذهن لأول وهلة، موضحًا منطلقات مغنية في التجديد :

" يُفهم في كثير من الأوساط فقيدنا الجليل على أنه فقيه مجدد، أو على أنه إنسان عصري جعل الإسلام عصريًا أو جدّد الإسلام أو ما يشبه هذا. الحقيقة أن فقيدنا الجليل كان فقيهًا بارعا ً ومتعمقا، ولكن ليس بالمعنى الذي يفهمه ويريده البعض، أي أن الشيخ مغنية يحوّل الإسلام إلى مجرد مرحلة، أو أن يجعل الإسلام يتكيف مع أي عقيدةٍ أو نظرية غير إسلامية. كلا لم يكن الشيخ محمد جواد مغنية مجددًا حسب هذا المعنى وهذا المفهوم، لأن الشيخ محمد جواد مغنية كان مسلمًا مخلصًا لإسلامه. تجديد الشيخ محمد جواد مغنية هو أنه فهم أن الحياة تتغير وأن المتغيرات التي هي سمة الحياة في هذا العصر منها ما يقبله الإسلام ومنها ما يرفضه الإسلام، فكان فقيدنا الجليل يقبل أيضًا من التغير ما يقبله الإسلام ويرفض بشدة ما يرفضه الإسلام. وكتبه حافلة بالنصوص الصريحة التي يرفض فيها من هذه الحياة التي تنتشر بيننا كل ما يتناقض أو يتضاد أو يخالف شرع الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه (ص) وفقه أهل بيته (ع). تجديدية الشيخ محمد جواد مغنية في أنه كيّف الفكر الإسلامي بمقتضى النظريات العصرية ... بمقتضى الإسلام هذا مرفوض، وكان من أشد المعارضين وأصلب الرافضين له الشيخ محمد جواد مغنية نفسه" . (التجارب / ٥٨١) .

في هذه المقالات المغمورة نقع على بعض هذه اللفتات من التجديد الفكر ي الذي عُرف به الشيخ في الأوساط العلمية، ففي مقاله " الفقر وفضله في الحديث " الذي نُشر في العرفان، المجلد ٤٠ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٧٢هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٣م، ص (٨٥٧-٨٥٨) يشن حملة على الفقر، ويحبذ المال والإقبال على الدنيا، لأن في المال كل الخير مادام في يد المؤمن، والدنيا مادام يقام بها شرع الله، ويستشهد في هذا خلافًا لما ينقله العلماء بأحاديث كثيرة لأهل البيت تمدح المال والغنى وتذم الفقر والإفلاس، وهذا مفهوم جديد بالنسبة للعلماء، وللأوساط الإسلامية، حيث شاع أن الفقر هو المحمود، وأنه هو الذي يدخل صاحبه جنان الخلد ونعيم

الآخرة، بينما الغنى يؤدي بصاحبه إلى النار والحساب الشديد أمام الله يوم القيامة. وفي هذا الباب يرفض الشيخ كل الأحاديث التي تمدح الفقر وتحث عليه ولا يقبل بها، لأنها تناقض القرآن والحديث والعقل معاً.

يقول الشيخ : " وبعد هذا نستمع إلى بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الأعظم في فضل الفقر، ففي كتاب إحياء العلوم للغزالي باب الفقر عن النبي أنه قال : " إذا أحبَّ الله عبداً الحب البالغ لم يترك له أهلاً وولداً " ولو صحَّ هذا الحديث لكان علينا إذا حرصنا على طاعة الله ومرضاته أن نبتهل إليه، ونسأله أن يهلك الحرث والنسل، ويسلط علينا الفقر والمرض، أبهذا الحديث وأمثاله دعا النبي إلى الإسلام ؟! وأقنع الناس بصدقه ورسالته، ودخلوا في دين الله أفواجا ؟! لقد كان النبي والأنبياء من قبله، والأولياء من بعده يستعيذون بالله من الفقر، ومن بلاء الدنيا والآخرة. قال أحد الأصحاب المقربين من الرسول : اللهم إني أسألك الصبر، فقال له الرسول: لقد سألت الله البلاء، فاسأله العافية.

وفي كتاب الإحياء باب الفقر أيضاً عن السيد المسيح أنه قال: " لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانهم"، ولو رأى الاستعمار هذا الحديث لطار به فرحا، واتخذ منه حجة دامغة على العرب والشرق كافة، ودليلا قاطعاً على أن نفط إيران والعراق والحجاز هو ملك خاص به دون سواه، ولو صحَّ هذا الحديث لصدق قول لينين: " إن الدين أفيون الشعوب "، وقول القائل: " إن الدين يناقض العلم" ، وليس ببعيد أن يكون هذا الحديث وأمثاله هو الباعث على هذه الأقوال والآراء ".

وهو في المقال يذهب إلى أن الفقر ليس من صنع الله، بل لو كان الأمر كذلك لكان هذا هو الظلم بعينه، وهو ما لايتفق مع عدله، بل إن الفقر من صنع البشر، وبني الإنسان أنفسهم، وهو في سبيل تأكيد رأيه يستشهد بروايات وأحاديث مؤكدة، تشير إلى أن الفقر من صنع الإنسان وليس من صنع الله. يقول الشيخ: " أما الفقر فهو كالظلم والإعانة على الإثم خبيث بذاته لا يكون طيباً بحال من الأحوال، لأنه مصدر المرض والجهل، قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: الفقر هو الموت الأكبر، فكيف يرضى به العادل الحكيم لمخلوق! إن الله سبحانه يريد لعباده القوة والكرامة، ولا يريد لهم الضعف والهوان، وبإمكاننا أن نتصور التفاوت والتفاضل بين الناس في الرزق، وما يزيد عن قدر الحاجة لسبب معقول عند الله والعدالة، فيرزق هذا عشرة وذاك عشرين، أما التفاوت في أصل الرزق

والعيش، فيأخذ هذا مئات الملايين، ويُحرم الألوف من قوت يومهم فقضاء الله وعدله بريئان من هذا الظلم والإجحاف ".

هذا الرأي التجديدي جرَّ عليه كثيراً من المتاعب مع العلماء أنفسهم، ورجال الدين أكثر مما جرَّ عليه مع العوام من الناس، إذ لدى هؤلاء العلماء أن الفقر من صنع الله، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل أو النظر فيها، بينما الشيخ يعارض هذا بقوة ويحاربه بكل ما يملك من حجة وبرهان مستمد من الدين نفسه، ومن أقوال وسيرة المعصومين أنفسهم (ع)، فبعد هذا المقال يكتب مقالا آخر أكثر دلالة، وأكثر صراحة ووضوحاً وتعبيراً عن موقفه من أن الفقر من صنع الإنسان والحكومات الظالمة، وأننا مهما حاولنا فإننا لن نستطيع القضاء على الفقر في ظل المستغلين والسرّاق من البشر، هذا المقال نشر في العرفان بعنوان" الفقر وليد النظام الجائر ". وهو مقال جريء معبر صارخ لا يقوله بهذا الأسلوب إلا الشيخ مغنية نفسه، لا أحد غيره، وهو مقال مهم للغاية في كل مداخله، وقد حاولت أن أبتر منه الكثير لكني لم أستطع فسأنقل منه الكثير لأهميته، ولما جاء حوله من ردود أفعال من التقليديين من العلماء، وهو منشور في كتابه " الإسلام مع العقل " في هذا المقال يؤكد الشيخ في مقدمته أن هناك كثيراً من العقائد المتوارثة لسنوات في الفكر الإسلامي، والتي تسربت في الأوساط الدينية والشعبية ما هي إلا وهم وخيال، ولكنا صبغناها بصبغة الدليل، ودافعنا عنها باستماتة، ولم نقبل حتى مراجعتها، ومنها أن الفقر من الله وليس من الإنسان ...يقول الشيخ:

" لو رجع أحدنا إلى ماضيه يبحث عما كان يعتقد ويرى، ويقول ويفعل لتكشفت له أخطاء يتألم من مرورها في ذهنه، ويخجل من ذكرها وسماعها، ولو ارتكبها الآن غيره لأنكرها عليه أشد الإنكار. والويل كل الويل لمن يحاول إرجاعه إلى الرشد والصواب، كيف، وهو يعتقد أنه في عصمة من الجهل والزلل !.

ومن الجائز القريب أن تكون حاله اليوم شبيهة بحاله في الأمس، أن يكون على ضلال في بعض ما يرى، وفي عقيدته أنه على صواب في جميع آرائه ومعتقداته، سواء منها التي انتهت إليه من طريق المدرسة والإيحاء، أم من الوراثة والتقليد، وإذا التقت هذه العوامل الثلاثة: المدرسة والوراثة والبيئة، في التأثير بعقيدة ما، أصبح صاحبها مسيراً غير مخير، تقوده في جميع شؤونه قوة عمياء يستمد منها مشاعره، ويقيس بها الحقائق، ومن أجلها

يتعصب ويغضب، ولدينا غير قليل من هذه التقاليد التي شربناها مع الحليب، وسمعناها من القريب والبعيد، وقرأناها في أكثر من كتاب. وقد أحصاها علينا العدو، واتخذ منها برهاناً على أن لا نصلح للحياة. وهي السر في أنا لا نقرأ إلا ما يعبر عن مشاعرنا الخاصة، ولا نصغي لأي جديد، ولو دعمه العلم والتجارب، أو نصغي إليه، ولكن بروح التعصب والازدراء باذلين غاية الجهد لإظهاره بمظهر السخف والجهل .

ولو تشجعنا قليلا، وسألنا عن بعض ما ورثناه عن الأجداد من تقاليد، وبعض ما سمعناه من آراء سائدة عند جمهرة من الناس، وبعض ما قرأناه في الكتب، لو تساءلنا عن ذلك وعن مصدره، وفائدته وضرره، لو تساءلنا عن هذا الركود، عن تأخرنا وضعفنا، واستمعنا إلى الجانب الآخر بهدوء وروية، ودون خوف وذعر مما قيل ويقال، حول ما ورثناه وألفناه لتبين أن ما كنا نخافه ونخشاه هي حقائق يفرض علينا العلم والدين تقديسها وتطبيقها بدقة وأمانة، وأن بعض ما ألفناه لا يعدو الوهم والخيال "

بعد أسطر يتكلم حول موقف العلماء من الفقر، ورأيه في هذا الموقف :

" أما الفريق الثاني، وهم المتدينون فقد عالجوا التسول والفقر بإنشاء جمعيات خيرية، وقاموا بدور الوسيط بين الأغنياء والمعوزين يجمعون القرش من سارق ومراب، ويدفعونه إلى معدم محتاج، ويسمون ذلك بالمحسن الكبير، وهذا بالفقير المسكين. إن هذه الجمعيات جديرة بأن تسمى بالجمعيات التسولية، لا بالجمعيات الخيرية، إن الخير يكون بالقضاء على الفقر والتسول بجميع أشكاله وصوره، لا بالتخدير وإذلال النفوس التي أعزها الله وكرَّمها، وبمحاربة العدوان، لا بتشجيع الجريمة ونعت السارق بالمحسن، والمرابي بالمفضل ".

ثم بعدها يسطر الجمل التي جرّت عليه النقد والحرب من العلماء، إذا يؤكد فيها أن الفقر من صنع الناس وليس من صنع الله كما يشيعه رجال الدين في أوساط العامة :

" ليس الفقر من صنع الله، ولا من صنع الطبيعة، وإنما هو من صنع الإنسان، من هذه الأوضاع والأنظمة الجائرة التي لا تجدي في ظلها مشاريع إنشائية، ولا جمعيات خيرية، ولا شق طرقات، وبناء مدارس ومستشفيات،

ولا توليد كهرباء وجر المياه إلى الأراضي والبيوت، مادام هناك مستثمَر ومستثمِر.

إن الرسول الأعظم محمداً بن عبد الله (ص) لم يبنِ ميتمًا، ولا مستشفى، ولا مدرسة، ولم يشق طريقًا، ويجر نهرًا، لأن هذه لا تدفع عن الإنسانية بمعناها الشامل ضرًا، ولا تجلب لها نفعًا، وإنما دعا الرسول الأعظم لمحاربة الفقر والظلم، لقلب الأوضاع رأسًا على عقب، وبناء مجتمع يتعاون جميع أفراده تعاونًا أخويًا بنكران الذات على العمل لصالح الجميع، ومحال أن يتحقق هذا التعاون في ظل نظام يقسم المجتمع إلى سيد ومسود، وآكل ومأكول، إن أساس التعاون وأسبابه هي المساواة التامة التي تضمن لكل فرد حقه في العيش والتعليم والتطبيب والراحة والعمل " (ص ٧٧).

إن هذا الرأي المتفرد والجديد، وهذه اللغة غير المألوفة من أحد علماء الدين، وواحد من خريجي الحوزة الدينية، قابلتها ردود أفعال شديدة، وموقف رافض لما كتبه آنفاً من العلماء قبل العوام، لأن هذا الرأي لم يقل به أحد قبل الشيخ بهذا القطع، والوضوح، والنفي والتأكيد.

الشيخ نفسه يكتب حول موقف أحد الشيوخ من هذا الرأي :

" نشرت مقالاً بعنوان " الفقر وليد النظام الجائر " قلت فيما قلت : " ليس الفقر من الله، ولا من صنع الطبيعة، وإنما هو من صنع الإنسان والأوضاع الفاسدة " . . . فعاتبني أحد الشيوخ وقال: كيف تقول: الفقر من صنع الناس لا من صنع الله؟ . قلت له: هذا قول رسول الله وأهل بيته (ص) فقد روى عنهم جماعة من العلماء، منهم صاحب الوسائل في أول باب الزكاة: " إن الناس لو أدوا زكاة أموالهم ما بقي فقير . . وإنما يؤتى الفقراء من منع من منعهم من الأغنياء " . (التجارب/١٣٢).

وفي العرفان، المجلد ٤٤ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٧٦هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٧م، ص (٨٣٠-٨٣٣). نشر الشيخ مقالاً مهماً ينضح بالنظرات التجديدية، وبالفهم المستقل للآيات القرآنية المباركة، ولسنة الله في الكون، وفي العباد، ولمسيرة الحياة، هذا المقال بعنوان " **تغيير ما في النفس ومعناه** " (إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم) " آية ١١ الرعد "، في هذا المقال يرفض الشيخ التفسير الذي جاء في مجمع البيان والتبيان وغيرهما من التفاسير القديمة والمعاصرة لهذه الآية المباركة،

وللمفهوم المتداول لها، ولعلّ الشيخ هو أول من تنبه للمعنى الجديد للآية حسبما نتداوله الآن، وقد استمده من محاضرة للأديب اللبناني أمين الريحاني.

قال المفسرون: إن هذه الآية تدل على أنه إذا عاش قوم في نعمة فإن الله سبحانه لا يغيرها عنهم إلا إذا عصوا ربهم، وظلم بعضهم بعضاً. ولازم هذا التفسير أن النعمة تدوم وتزداد بالشكر والطاعة، وأنها تزول بالجحود والطغيان، وكان ومازال في نفسي شيء من هذا التفسير لأمور:

أولاً : إني رأيت المحتكرين والمستثمرين كلما نشطوا في الطغيان والسلب والنهب كلما كثرت أموالهم وربت.

ثانياً : إن هذا التفسير يأباه قول الله تعالى في الآية ٣٣ من سورة الزخرف: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمنِ لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسررا عليها يتكئون، وزخرفاً — أي ذهباً — وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين) (الزخرف:٣٣-٣٥)، إذن فالسعة في الرزق لا تدل على رضا الله كما أن الضيق في العيش لا يشعر بغضبه، لأنه لا يجزي الشاكرين بالذهب والفضة، ولا يعاقب العاصين بالحرمان منهما، بل الأمر على العكس، فقد جاء في القرآن الكريم أن الله يعاقب الجاحدين بكثرة الأموال والأولاد: (فلا تعجبك أموالهم وأولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (التوبة:٥٥) (١).

ثالثاً : إن قول المفسرين يتنافى مع ما هو مأثور ومشهور من أن المؤمن مبتلى وممتحن، وأن البلاء موكل بالمتقين، الأول الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل. ومن هذا يتبين أن تفسير المفسرين لا يستند على أساس من الصحة، وأنه لابدّ من طرحه، وتفسير الآية بمعنى جديد يتفق مع منطق الواقع، وعظمة القرآن، ولعلّ خير تفسير يتحمله لفظ الآية وتقره الحقيقة هو أن يقال:

إن المظالم التي تقع على هذه الأرض لا يتحمل مسؤوليتها القضاء والقدر، وإنما نحن جميعا المسؤولون، سواء الظالم والمظلوم، والغني والمحروم، والحاكم والمحكوم، هذا لسكوته وذاك لاعتدائه. إن الله لا يسمع الشكوى ويجيبها إلا من العاملين المجاهدين.

أما القوم الذين يرضون بعيش الذل والفقر، والجهل والظلم فإن الله لا يغير ما بهم من البؤس والشقاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخنوع والخضوع والقناعة وتقبل الضيم، فإذا نافقوا وصفقوا ومسحوا أجواخ الظالم، وباركوا طغيانه وعدوانه، فإن الله لا ينظر إليهم ولا يخفف عنهم العذاب، لأنهم حرب عليه وعلى أوليائه، وعون لألد أعدائه، أما إذا أطاعوا الله وجاهدوا وكافحوا لإزالة العراقيل، وتطهير الأرض من القراصنة، والإنسانية من الفساد فحاشا لله أن يخذلهم ويضيعهم، وليس أدل على هذا من أن الشعوب التي كافحت الاستعمار نالت ما تمنت، وعاش أهلها سادة مكرمين بعد أن كانوا أذلاء مستعبدين ، إن المظلوم إذا رضي بالظلم، ولم يستمت دون حقه فقد ظلم نفسه، وأعان غيره على ظلمه، وبهذا نجد تفسير قوله سبحانه: " إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون " (يونس:٤٤) .

وليس من شك أن شكر المنعم واجب شرعاً وعقلاً، سواء أكانت النعمة بالإيمان والهداية، أم بالعقل والعلم، أم بالصحة والجسم، أم بالمال والأهل، أم بالشهرة والجاه، ليس من شك أن على الإنسان أن يشكر الله إذا أنعم عليه بشيء من آلائه، ولكن ليس في الشرع ولا في العقل ولا فيما يقع تحت أعيننا، لا شيء أبداً يدل من قريب أو بعيد أن الله يمنح الشاكر في هذه الحياة جائزة نوبل أو شيكاً على البنك، بل الأمر على العكس كما تقدمت الإشارة.

وبالتالي فإن آية لا يغير الله ما بقوم تكمن فيها روح الشجاعة والثورة على فساد العادات والتقاليد، وفساد العقائد المبادئ، وعلى الفقر والجهل، وعلى الاستعمار والإقطاع، تكمن فيها روح الثورة على السادة الذين بنوا للظالم قصوراً من عرق الكادحين، وأعدوا سيارات من دموع المنكوبين، وحرموهم من كل شيء، حتى من قطرة الماء، وثمن الدواء، وحروف الهجاء، ولقمة الغذاء."

وهكذا هو الشيخ في كل ما يكتبه، ويسطره قلمه، متجدد دائما، ومستقل في التفكير، وحين يراجع القارىء مقالاته في هذا الكتاب فسيجد فيها كل الجدة والتفرد، وتستحق منا التأمل والقراءة والبحث، لأنها تنبع من عقل واع ، وإدراك واستبطان للدين في مصادره، وتنم عن ثقافة تغوص في التراث مع المعاصرة، وتستمد من القرآن والحديث كما تأخذ من العلم الحديث والأدب والتاريخ، فهي ثقافة اكتملت لدى صاحبها، ونضجت على شكل رؤية تجديدية للتراث الإسلامي.

وأتصور أن مصدر هذا التجديد لدى الشيخ، وتفرده عن أقرانه في هذه الرؤية المنفتحة هو قراءاته المبكرة حين كان طالبًا في الحوزة لكبار الأدباء في العالم العربي ، وهم معروفون بالنظرة التجديدية غير المنغلقة، كما أنه كان يتصل بالمجلات والكتب التي تخرجها مطابع مصر ولبنان والشام، مما انعكس عليه بالإيجابية، وقراءة الآخر وتفهم ما عليه الآخرون من رؤى ومفاهيم، حتى دعوته للوحدة بين السنة والشيعة أتصور أن مردها قراءاته المبكرة لكبار علماء السنة من مصر ولبنان وغيرهما من الأقطار، وخصوصاً المقالات التي كان يقرأها في كبريات الدوريات، فكان يقرأ للعقاد وطه حسين وهيكل وجبران والريحاني ونعيمة، وكان يقرأ في الرسالة والثقافة والعصور والأزهر، هذا في الوقت الذي كان شيوخ النجف يستنكفون حتى من قراءة الشعر العربي، وينغلقون على كتب الفقه، ولا شيء غير الفقه، فبالتالي هذا الانفتاح على الآخر، وما عنده من نظرات لا شك تغلغل في تفكير الشيخ، وصقل شخصيته المتحررة من كل قيد فكري، ومن كل موروث ثقافي، لأنه يملك العقل المستقل الذي يزن الأمور بميزانه، ويخرج بقناعة أن هناك من حولي قصراً متعدد الغرف، وليس غرفة مغلقة لا أرى ما عداها، وقد أثمرت هذه القراءات مجموعة من المقالات ذات الوزن الثقيل من التجديد والانطلاق الرحب نحو أفق واسع من التفكير الديني، مما جعل الشيخ يكون محل اتفاق بين العلماء والأدباء بأنه فريد بين الشيوخ في تجدده، وتطلعه نحو التجديد الديني في أغلب حقول الثقافة الدينية، مع امتلاكه لجرأة نادرة في النقد للموروث الديني والثقافي.

يقول الشيخ حيدر حب الله :

" أسهم العلامة مغنية إسهامًا ملحوظاً في نقد الفكر الديني السائد وفقاً لعصره ومحيطه، ولم يقتصر على نقد الأوضاع السائدة في زمانه ماديًا (الماركسية، الغرب . .) كما فعل أكثر المصلحين الإسلاميين في القرنين الأخيرين، بل مارس نقداً عنيفاً ولاذعًا للموروث الديني التقليدي، ولمؤسسة علماء الدين أيضًا، بل لم تكن باكورة مؤلفاته كتاب " الوضع الحاضر في جبل عامل " والذي نُشر عام ١٩٤٧م، سوى عمليات نقد واسع للوضع السياسي والاجتماعي لجبل عامل في ذلك الحين .

يمكن – وبكل ثقة – تصنيف الشيخ مغنية أحد الناقدين الدينيين في القرن العشرين، وفي تجربته التفسيرية " الكاشف " مارس نقداً صريحاً للأوضاع

القائمة في العالم الإسلامي، فكريًا، واجتماعيًا، وسياسياً . . . كما أدّى دوره في نقد الداخل الشيعي بغية إصلاحه، في أوضاع كانت أحيانا ً شديدة الإحراج ، كما يلاحظ في كتابه " الخميني والدولة الإسلامية " .

ومن هنا يمكن القول بتغلب الطابع النقدي على نتاجات مغنية، بما فيها تفسيره الكاشف ، أكثر من الطابع التأسيسي، رغم اشتمال أفكاره على الكثير من الإسهامات الفكرية والبنيوية الهامة .

وفي الحقيقة فإن موضوع النقد والموقف منه في الوسط الديني عموماً ينتابه شيء من الحساسية، ذلك أن الوسط الديني يعاني من مشكلتين مع النقد، فمن ناحية تطغى على بعض الشخصيات حالة ناقدة للتيارات والأفكار الأخرى إلى حد تلازم الآخر مع نقده، بحيث لا تبدو فيه علامات قابلة للأخذ والإقرار، وهذا ما يحكم عموماً العلاقات المذهبية، ويفرط الاتجاه الديني على هذا الصعيد حينما يستقبل كل جديد نشأ في غير مناخه (مناخ الاتجاه الديني الخاص) استقبالاً ناقداً وعنيفًا وشاكًا، لا أقل استقبال يشوبه القلق والريبة، الأمر الذي يمكن اكتشافه بسهولة لدى مطالعة العلاقة مع الغرب عموماً .

أما من الناحية الأخرى فيبدي الاتجاه الديني منحى تبريرياً وتسويغيًا إزاء قضاياه أمام الآخرين، فهو يسعى حتى إلى تبرير ما يراه أحيانًا أمرًا خاطئا، ويظن أنه مسؤول عن الدفاع عن آراء أي مفكر ديني أو عالم ديني يمثل الوضع القائم امتدادًا له بشكل أو بآخر، حتى لو كان الخطاب الداخلي يحتوي قدراً أكبر من النقد. " (مجلة الكلمة ، ع ٣٨ ، ص ٨٩).

وتبرز نظرته للتجديد وانحيازه للتطور والتطوير في مقاله المهم " المدرسة الجعفرية في صور " والمنشور في العرفان المجلد ٢٩ الجزأين ٨ و ٩ ، الصادرين في ذي القعدة والحجة سنة ١٣٥٨هـ الموافقين كانون الأول والثاني (ديسمبر- يناير) ١٩٣٩م ، ص (٨٠٤ – ٨٠٦) .. وفي سبيل التعرف على نزعة الشيخ مغنية نحو التجديد والتي برزت في هذا المقال لابد لنا من إيضاح ملابساته، والظروف التي كتبه فيها، وما الذي يشير له الشيخ بالمدرسة الجعفرية، وكيف استحقت منه أن يفرد لها مقالاً مستقلاً .

في يوم الثلاثاء ١٩٠٤/٥/٢٤ م، الموافق التاسع من ربيع الأول سنة ١٣٢٢هـ غادر السيد عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣-١٩٥٣) النجف منهيًا دراسته الحوزوية، ليعود إلى بلده جبل عامل بالجنوب .

حين عاد السيد إلى الجنوب صُدم بظاهرة ثقافية استوقفته طويلاً وأقضّت مضجعه، ولم تجعله يستقره حيث هو، من شدة ما كان يفكر فيها، إذ وجد أن الشباب العاملي يلتحق بالمعاهد الدراسية ويقضون فيها عددًا من السنوات في أحضانها بغية الحصول على معلومات ثقافية تمكنهم من مسايرة الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ولكن النتيجة بدت بوجه غير مقصود للطالب ونتيجة غير مطلوبة لوليه .

يخرج الطلاب من المدارس والمعاهد — التي أملتها يد الغرب — وهم مصاغون بروح العداء إلى الدين والخروج على القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية التي فرضتها التعاليم الدينية. الشيخ في مقاله يصف لنا الحالة بالمعايشة إذ يقول :

" يدخل التلميذ إلى المدارس العصرية فتلقفه بعض المبادئ، ولكن تغرس في نفسه آمالاً لا يؤيدها دليل ولا برهان، وتعطيه الشهادة بعد أن تتركه يتيه في فضاء لا حد له ولا نهاية، وتنعته الناس بالفيلسوف وهو يتخبط في ديجور مدلهم من الأحلام والأوهام، فلا يعرف شيئا عن الدين ولا عن أهله، ويجهل كل الجهل أن الدين مثل أعلى من الفضائل التي تحملها النفس، وضروري من ضرورات الطبيعة البشرية، يعمل لخير الإنسانية، ويعلم الشرف ومبادئ التضحية والخضوع لصالح الجماعة دون الفرد ".

هذا الفريق من الذين حاربوا الدين وابتعدوا عنه بسبب انتمائهم لهذه المدارس العصرية يقابله فريق آخر من الجنوبيين وهم المحافظون جدًا، والذين يفهمون الدين فهمًا سطحيًا يقوم على القشور دون اللب، ودون النظر إلى التجدد والاندفاع نحو التغيير والارتباط بالعلوم العصرية المتفجرة في الغرب بجلاء، وفي هؤلاء يقول الشيخ في المقال نفسه:

" أما المحافظون فقد حازوا شيئاً من الإيمان واليقين بأشياء ولكن من غير اجتهاد وتمحيص، لذلك لم تكن خالية من الحشو المفسد، ومنه نشأ التعصب والاعوجاج، فكلا الفريقين في أشد الحاجة إلى التطهير والتهذيب والتربية الصحيحة كيما يروا الأشياء على ما هي، فلا تنثال إلى قلوبهم ملبسة ولا

مدخولة، بل كما جاء بها الواقع واقتضتها الحقيقة، فيحصل حينئذ الربط وتتحد المشارب ويتجه الجميع إلى جهة واحدة "

هذا البعد عن الدين الذي أخذ يستفحل في نفوس اللبنانيين، وهذا الفهم الساذج للدين هو الذي فاجأ الشيخ وهاله وهو الفقيه العائد من أجواء النجف الدينية، مما جعله يسرع إلى العمل من أجل توفير حياة دراسية للطلاب تضمن لهم ثقافة المعاهد العصرية وتمتاز بروح التربية الإسلامية وأهدافها السامية ومثلها العليا. تمشياً مع حكمته القائلة (لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال).

على هذا عزم السيد، فهبَّ بروح ملؤها الشعور بالواجب الذي يدفعه للمحافظة على عقيدة المسلمين، فهرع إلى إخوانه المؤمنين في البلد واستصرخهم للأمر، وحفز للعمل إلى جنبه، حتى تمَّ له الحصول على بقية القطعة الفاضلة عن المسجد واستنقاذها - بعد أن تسلط عليها الفرنسيون عند الاحتلال- من براثن الاستعمار، الذي أجرى عدّة محاولات آنذاك من أجل التقرب لسماحته وللشعب، وللتكفير عن أذاه إبّان ابتداء سلطته على البلاد .

وبعد محاولات مستميتة من قبل السيد، وبعد مداولات في المحاكمات استمرت سنوات عديدة تسلم الإذن بالبناء في القطعة وأنشأ على سطحها داراً واسعة جعلها فيما بعد مدرسة أسماها (المدرسة الجعفرية) فتحت أبوابها للتعليم المجاني سنة ١٣٥٧هـ، الموافق أكتوبر لسنة ١٩٣٨م. وفيما بعد نمت هذه المدرسة وتوسعت وصارت (الكلية الجعفرية) .. وهي مدرسة تسير على خطة التجديد القائم على المزج بين دراسة العلوم العصرية والعلوم الدينية معًا، مما يؤهل الطالب علمياً، ويربطه بالدين والعقيدة من جهة أخرى .. هذه المدرسة بتوجهها الإصلاحي ونزعتها التجديدية أثارت الشيخ مغنية، وحركته لأن يتحمس لها، ويرى فيها النموذج للمدرسة العصرية المنشودة، مما دفعه لأن يكتب هذا المقال، والغريب في المقال ذاك أن الشيخ لم يشر إلى المؤسس بأية إشارة وهو السيد شرف الدين !! المهم ما كتبه الشيخ من أفكار في المقال تنبع من نظرته للتجديد العصري، وكأنما وجد افتتاح هذه المدرسة فرصة ثمينة للكتابة في التجديد الديني والحماسة له، والاندفاع له والدعوة بالقلم، وتحريك العقول ناحيته.

يقول في مقدمة المقال :

" منذ سنين طوال والصراع قائم بين طائفتين متباعدتين في الأسلوب والتفكير، ورغم تقادم عهد النزاع لم تصرع أحدهما الأخرى، ولم يلفيا أحدا من دعاة السلم يصلح ذات بينهما، بل وجدا من يداوي الاختلاف بالتفرقة، ويطفي النار بما يزيدها تأجّجا وسعيرا. وأعني بالطائفتين المجددين والمحافظين، فكل منهما راضية بما عندها، لا ترى له مثيلا ولا تعدل به بديلا، بل تنكر في عنف وسخرية ما عند الأخرى، فالمجددون ينكرون على المحافظين أسلوبهم ويسخرون من كل قديم، ويرونه العائق الأكبر في طريق نهضة الشرق، والمانع للحركة الفكرية، والسبب الوحيد لتحجّر العقل، أما المحافظون فنسبوا أولئك إلى النزق والطيش، ولم يسلموهم من الاتهام بالعقيدة. والحقيقة أنهما معا سقطا في الخطأ والاشتباه، فالمجددون يعادون كل قديم لا لشيء إلا لأنه قديم، ويوالون كل جديد لأنه جديد، بدون تأمل بمنافع ما يعادون ومضار ما يوالون، ولهم أساليب غريبة لا يعرفها العلم ولا تألفها أرباب المعرفة. ترى أحدهم متى شك طفر إلى الجزم بدون واسطة، والشك حق وجم الفوائد إلا أنه ينتقل منه إلى التماس الدليل ومنه إلى النتيجة، ويأبى المجددون إلا الطفرة وهي محال ".

ثم يشير الشيخ إلى الغاية التي من أجلها تأسست المدرسة، وهو بهذا يعبر عن نظرته للتجديد لا نظرته للمدرسة كما أظن .. يقول الشيخ : " وعلى هذا الأساس بنيت المدرسة الجعفرية في صور، فإنها المدرسة الأولى التي اعتنت بالدين وتعليمه على وجهه وكما هو في طبيعته، لا كما يفهمه المحافظون، وتعليم العلوم الزمنية التي لا يمكن الاستغناء عنها، فلا يرفضون كل قديم ولا يوالون كل جديد، يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وليس أولى بهذا العمل الجليل من رجال العلم والدين الذين لا شعار لهم إلا الصلاح والإصلاح، وليس المصلح من كتب وخطب وتعمم ووعظ، فإن المصلح من عقل الأمور وأسبابها، ودخل البيوت من أبوابها، فإن الأمة التي يسيطر عليها الجهل والهمجية لا تسيرها سوى العاطفة، ولا تنقاد لغير الأهواء، والدين عندها لا شيء إن خالف الشهوات ولم يلائم الأغراض ".

ملاحظات عامة :

(١) ملامح من السيرة الذاتية للشيخ :

تظهر لنا هذه المقالات الجديدة للشيخ الصورة الأخرى له، ونعني بها الصورة الشخصية، ومعالم من حياته الخاصة التي يحياها بعيداً عن الكتابة، وعن الورق المنشور، ولو قمنا بجمعها وترتيبها لخرجنا بكتاب أشبه بالسيرة الذاتية، وإن كان الشيخ قد أثبت أغلب ذلك وليس كله في كتابه الأخير " تجارب الشيخ محمد جواد مغنية ". ويلاحظ هنا أن الشيخ مغنية قد مال لهذا اللون من الكتابة الذاتية في مقالاته المتأخرة، وذلك حين أصبح له حضور قوي في المجلة، وصار اسمه مطلوباً بقوة لدى القارىء، وصار يتابعه بقوة، وكان صاحب المجلة يدرك هذا، فكان يلح عليه في الكتابة، ويعاتبه متى ما توقف أو أبطأ عن المجلة.

برنامجه اليومي :

فمن خلال مقاله " الإسلام والاقتصاد " نتعرف على أنه يخرج كل يوم صباحًا للمكتبات التجارية ويتفقد الجديد من الكتاب فيها، وأن له علاقة حميمية بأصحاب هذه المكتبات :

" من عاداتي أن أمر كل يوم على ثلاث مكتبات، مكتبة الأرز ومكتبة هاشم ومكتبة الأندلس، وقد ترك لي أصحابها حرية التصرف، فأستعرض الكتب وأقلبها، وأرفع وأضع، فإن رأيت كتابا يبحث في موضوع يهمني أخذته معي إلى البيت، فإن أعجبني أبقيته، ودفعت لصاحب المكتبة ثمنه، وإلا أرجعته إلى مكانه، وكانت تثير انتباهي واهتمامي الكتب التي تبحث عن الأوضاع الاقتصادية في الإسلام، كنت أقرأها بإمعان " .

هذا باختصار برنامجه الصباحي، لكنه يعود لهذا البرنامج الصباحي أو اليومي ليتوسع في شرحه وبيانه، ويضيف المزيد من الإضاءات حوله في مقاله " الأزهر وفقه الشيعة " لنخرج بصورة متكاملة لما عليه الشيخ منذ استيقاظه، وكأنه أمامنا يتحرك بوضوح .. يقول الشيخ :

" من عادتي أن أستمع كل يوم إلى نشرات الأخبار من محطات الإذاعة صباحا وظهراً ومساءا ، وأقرأ المجلات والجرائد الصباحية والمسائية يومياً، يأتيني في الصباح إلى البيت موزع الصحف بجريدة لبنانية، وفي الساعة

العاشرة قبل الظهر أذهب إلى المكتبات وأتصفح بقية الصحف، وفي الساعة الرابعة مساءً أذهب إلى رأس الخط "محطة الحرش" القريبة من داري في الشياح، وأشتري بعض الصحف المصرية اليومية، وأتصفح البعض الآخر، كما أني أتتبع الكتب الحديثة باهتمام، وأرقب صدورها بفارغ الصبر، وأشتري منه ما يستأهل العناية بأغلى الأثمان، وأبذل بإزائها كل عزيز، فإذا سمعت أو رأيت شيئاً يستحق التعليق كتبت حوله ما يخطر لي من الملاحظات والتأييد أو التفنيد، وقد تجمّع لدي من ذلك الشيء الكثير، نشرت بعضه في صحف مصر ولبنان والعراق، والبعض الآخر سينشر إن شاء الله تعالى ضمن كتاب الإسلام مع الحياة " .

صراحته ووضوحه في التعبير عما يعتقد :

وفي مقاله " من هنا وهناك " يشير إلى خصلة يعرفه بها كل من رافقه وعايشه، وهي الصراحة في آرائه، ووضوحه مع المقربين قبل الآخرين، فهو لا يتردد في أن يعلن رأيه أمام أي كان .. وفي هذا يقول عن نفسه في المقال مشيرًا إلى رأيه في العرفان نفسها، وهي المجلة التي احتضنته وأعلت اسمه في الأوساط الدينية والثقافية :

" وصاحب العرفان يعلم أني صريح معه إلى أبعد حد، شأني مع أصدقائي الخلص الذين أبادلهم العطف والوفاء، لهذا كان يتقبل ملاحظاتي بصدر رحب، ثقة منه برغبتي في الخير له، ولعرفاننا وعرفانه. كنت ألاحظ وأنتقد بيني وبينه، أو في حضور بعض إخواني وإخوانه، فيعترف، أو ينكر، أو يعتذر، والآن أعلن رأيي في المجلة على صفحاتها مقرضا وناقداً لا رغبة في الخير لها فحسب، بل وبياناً لحقيقة ذهل عنها من ينظر السيئات، ويعمى عن الحسنات، ويحكم على الشيء لجهة خاصة ذاهلاً عن جهات أظهر وأشهر " .

ثم يعدد عيوب المجلة بكل وضوح وصراحة .

نشاطه الاجتماعي الدعوي في قرى لبنان :

ونتعرف من خلال المقالات على نشاطه الديني الدعوي، وما كان عليه من نشاط اجتماعي وسعي مع مجموعة من علماء لبنان للدعوة والإرشاد، وهذا المقال يظهر لنا صورة الشيخ الأخرى، وأنه ليس كما يشاع أو يفهم عنه بأنه غارق في أكوام الكتب التراثية، والمراجع العلمية، ذاهلا عن مجتمعه

وقضاياه وهمومه، بجانب هذا فإن المقال يسلط الضوء على مرحلة مهمة من حياة لبنان الديني، وكيف كان العلماء يعالجون الوضع هناك في تلك البقعة الشيعية، ومَنْ كان الاسم الأبرز بين العلماء .. هذا المقال جاء بعنوان " رجال الدين يحاولون " أي يحاولون تغيير المجتمع، والقضاء على دائه المستشري، من البعد عن الدين، وتفشي سوء الخلق، والسرقات، وانتشار الجريمة، أمام هذا كله ماذا كان موقف الشيخ وأقرانه من العلماء؟ وماذا قرروا في سبيل الوقوف أمام هذا التيار الجارف؟ كانت الانطلاقة في بيت الشيخ حبيب آل إبراهيم، ثم يفصل القول في هذا بقوله آخر المقال :

"ثم قلت : لماذا لا نعمل ما نستطيع دون أن نكلف أحداً بفلس، نجتمع ونقرر أن يذهب كل واحد منا ليلتين في الشهر على الأقل إلى القرى الخالية من المرشدين، يفقه أهلها بالدين على أن لا يكلف أحداً بشيء، أو يتعرض لشيء خارج عن هذه المهمة، ونكرر الاجتماع لتحديد المكان الذي يذهب إليه كل منا ويقدم تقريراً بما أدَّى من عمل إلى الهيئة، مع إبداء ما يراه من الملاحظات، نبدأ من هنا حتى تتبين لنا السبيل إلى الخطوة الثانية، ولابدَّ أن تتبين بالاجتماعات المتوالية والتدارس المستمر، وهكذا ننتقل خطوة فخطوة فوافق سيادته على هذا الرأي، ودعا عدداً من الإخوان، وفي مساء ١٩٥٧/٢/١٠ اجتمع في بيته بالشياح السادة الأفاضل: الشيخ موسى شرارة والشيخ حسين معتوق والسيد هاشم معروف والشيخ عبد الكريم شمس الدين وأنا، وعيَّنا الأمكنة، وسمينا الهيئة " جماعة التعليم والإرشاد " وافترقنا على أن يذهب كلٌّ إلى البلد الذي عُين له، وأن يكون الاجتماع الثاني في بيت الشيخ حسين معتوق " بالغبيري " الساعة الثالثة بعد الظهر من ١٩٥٧/٣/١٠ .

وبالتالي فنحن موجودون لأننا نفكر.. والباب مفتوح لكل موجود.. فأهلاً وسهلاً ".

إصابته بمرض القلب بسبب الإفراط في التدخين :

من خلال مقاله القيم "الكلية العالمية السَّيارة"، ومن مقدمته تحديداً نتعرف على أن الشيخ ابتدأ شرب السيكارة وله من العمر ١٥ سنة، وظل يدخن بشراهة وما كانت السيكارة تفارق فمه إلا عند الأكل والنوم فقط كما يعترف بنفسه في المقال، كتب المقال عام ١٩٦٦ ، ويقول أنه يدخن مدة ٤٧ سنة، مما يعني أنه بدأ التدخين عام ١٩١٩م، هذه الشراهة في التدخين أودت بصحته، وجعلته يسقط مريضًا بالقلب، مما استدعى الإسراع بعلاجه،

وأمر الطبيب أن يترك التدخين مباشرة وإلا سيؤدي به إلى الوفاة، ويقر الشيخ أنه من الممكن والسهل لديه أن يمتنع عن كل ما في الحياة من ملذات إلا التدخين فهو ضعيف أمامه، ولا يستطيع التوقف عنه دقيقة !! . يفصل الشيخ قصة إصابته بالقلب بقوله :

نفثة مصدور :

ماذا أصنع بهذا القلب الذي يتفطر دماً كلما رأى أو سمع أو قرأ منكراً، أو شاهد في قومه تأخراً؟ ماذا أصنع به، وقد تمرد علي وعلى الخلص من إخوانه، وأبى إلا أن يحس ويشعر ويتوجع ويتألم من الباطل وأهله، ومن الادعاءات الفارغة الكاذبة وذويها، حتى أمرضني وأمرض نفسه، ودخلت المستشفى بسببه ولمعالجته.. حاولت أن أجنبه الاهتمام بالناس ومشاكل الناس، من أي نوع كانت أو تكون، وأن أشغله بشيء ينسيه كل شيء.

فاخترت الكتابة في فقه الإمام الصادق "ع"، هذا البحر الزاخر الذي له أول بلا آخر، على أن أخرجه في أجزاء مرتباً أبوابه على طريقة الفقهاء من أول الطهارة إلى آخر الديات عرضاً واستدلالاً، وأن أقضي معه جميع أوقاتي منصرفاً عن غيره انصرافاً تاماً.. وبالفعل باشرت بالكتابة، وكان عملي في اليوم والليلة يستغرق ست عشرة ساعة في أغلب الأحيان، وأخرجت المطبعة الجزء الأول والثاني والثالث بسلام، ولله الحمد، وفي نفس اليوم الذي سلمت فيه الجزء الرابع لدار العلم للملايين، بل وبعد ساعة بالضبط أصابتني نوبة قلبية حادَّة كادت تودي بحياتي لولا لطفه وعنايته جلَّ وعز، ولم تهدأ إلا في المستشفى، وبين يدي الأطباء، وإلا بالحقن المخدِّرة، وقد استمرت أكثر من خمس ساعات. سكن الألم، والفضل لله وحده، ولكن بقي الجرح عميقاً في القلب، واستمر التدقيق والفحص على الأشعة وتخطيط القلب والعلاج مدى أسبوع كامل، وبعده مرَّة في الأسبوعين، وآخر تخطيط أجراه أقدر وأشهر طبيب في القاهرة، وبعد التحقيق والتدقيق الشامل الكامل قال : القلب في تحسن، ولكنه مهيأ في كل حين للنكسة، وهي أصعب من الداء، وأشد خطراً، فاحذر وتحفظ، ثم أعطاني " روشتة " الدواء من أربعة أصناف، وكتب على ظهرها بخط يده ما نصه بالحرف :

" تجنب كل مجهود جسمي وعقلي والانفعالات النفسية، لا تتعرض للبرد، ولا تملأ المعدة بالطعام، قلل من الملح، امتنع عن البيض واللبن ومشتقاته،

والكبد والكلاوي والمخ، كل المسلوق من غير سمن، وضع عليه الزيت الفرنساوي، امتنع بتاتا عن التدخين ".

وليس من شك أن إصدار الأوامر سهل يسير.. أما العمل بها فحمل ثقيل، بخاصة إذا خالفت الهوى والمعتاد، والفرق بينهما تماماً كالفرق بين الأقوال والأفعال.. وإليه سبحانه أسلم أمري، وبه أستعين.

ومن السهل أن أدع أكل الكبد والمخ والبيض واللبن ومشتقاته كالزبد والجبن، حيث لا صحبة لي معها من قبل، ولكن كيف بالسيكارة، وقد مضى عليّ بصحبتها ٤٧ عاماً، ولم أدعها إلا لبضع دقائق، وعند النوم والطعام ؟ ".

سفره إلى قرية جبع والقرى المجاورة من أجل الإرشاد الديني :

يرسم لنا مقاله " إلى علماء الشرع في جبل عامل" خط سير الشيخ في يوم السبت ١٩٥٩/٦/٢٧م، الموافق ٢٠ ذي الحجة ١٣٧٨هـ ، حيث انطلق في هذا اليوم مع أهله وبمبادرة شخصية إلى قرى لبنان من أجل الدعوة والإرشاد، وتوعية الناس، وذلك في فصل الصيف، ويبدو أن هذه الرحلة كانت في إجازته، حيث كان في هذا العام يعمل في منصب مستشار في المحكمة الجعفرية العليا، وله من العمر ٥٥ سنة، وكان بإمكانه أن يعفي نفسه من عناء السفر وتكلفته، ولكنه أبى إلا أن يذهب احتساباً إلى الله، ورغبة في الدعوة، وإحساساً بالمسؤولية التي أولاها الله العلماء، ومن أجل مجتمعه، والسعي به إلى النهوض والتغيير، وعدم الاستغراق في الجهل والعمى، وعلى الأخص القرى النائية، ويشير في مقاله إلى هذا المعنى، حيث يكتب : " قلت له: إن الغاية من زيارتي هي الإرشاد "، ويلخص حرقته وألمه في آخر المقال بقوله: " لقد علمت أن بعض الوجوه في عاملة أرسل بعد اليأس من قومه كتاباً إلى شيخ الأزهر يطلب منه أن يرسل مبعوثين من خريجي الأزهر إلى جباع والقرى المجاورة لها، يعلمون الناس الحلال والحرام، لأن المنطقة خلو من العلماء ورجال الدين "الشيعة" ؛ فما رأي أولي الشأن في النجف وإيران وجبل عامل إذا تفضل شيخ الأزهر وتكرم بإجابة الطلب وبعث إلى جبل عامل علماء أزهريين؟! فهل يسكتون ويباركون أو يسخطون ويقاومون؟! فإن تكن الأولى فما هي الفائدة من تكدس العلماء والطلاب في مدارس قم والنجف ؟! ولماذا طلبوا العلم ؟! وإن تكن الثانية فلماذا لا يسدون الفراغ ؟! ".

في هذه الرحلة الدعوية كان الشيخ يسير تارة على قدميه متنقلاً بين القرى، وتارة يركب السيارة، وأحياناً على حمارة .. وقد تنقل بين القرى التالية داعياً ومرشداً ومدرساً ما يهم الناس من مسائل دينهم: جباع، عرمتى، الريحان، جباع، اللويزة، مليخ، كفرحوتة، كفر حتى، عين قانا .. في هذه القرى كان الشيخ يبيت أحياناً ليلة وفي بعضها يبيت ليلتين حسب الحاجة لبقائه في القرية.

رسائل:

في مقاله " اضحكْ وابكِ " يذكر لنا الشيخ أنه يتلقى في اليوم ألواناً من رسائل القراء، مما يعني أنه يحضى بمكانة لدى القارىء، وهذا ليس بمستغرب، متى ما لاحظنا أن الشيخ كتب هذا المقال وله من العمر ٦٠ سنة، أي أنه صار اسماً لامعاً، وقد أصدر عشرات الكتب إن صحّ التعبير .. وهي رسائل متنوعة بين الإعجاب والتهديد والطلب والسؤال والاقتراح وطلب الكتب وغيرها، بعضها بتوقيع وبعضها بدونه .. يقول الشيخ في هذا المقال المقتضب الظريف:

" لا يمر يوم إلا وتردني فيه رسالة، أو أكثر، وهي على أنواع:

" منها " تأييد ورضى عما أكتب نثراً – أحياناً – ونظماً حيناً. و" منها " أسئلة شرعية. و " منها " اقتراحات أن أكتب في موضوعات خاصة. و "منها " ما تلقي عليّ مسؤولية ظلم الرؤساء وجور الحكام، وانتشار السفور، لأني لو كتبت ونشرت لارتدع الجائر، وتاب الفاسق. و " منها " مغفلة بدون توقيع، أو بتوقيع مجهول، لأنها تهديد ووعيد لدفاعي عن الشيعة والتشيع.

و " منها " وهي أكثرها جميعاً يطلب أصحابها أن أقدم لهم كتبي ما تقدم منها وما تأخر بالبريد المضمون هبة مجانية، ويختلف أسلوب كتابها باختلاف أمزجتهم، فأحدهم يقول: أنا فقير ، وثان من إيران يؤكد قوله : " أنا أموت إن لم ترسل إلي كتبك " وقال ثالث من العراق: " أنت تدعو إلى الخير وإهداء كتبك إلي خير.. إذن فعليك أن تهديٍ " ورابع من الكوفة ختم رسالته بعد أن بالغ وأبلغ في الموعظة، ختمها قائلا: " والسلام على من اتبع الهدى ".. وليس من شك أن المهتدي في مفهومه من يلبي طلبه، ويشبع رغبته."

محل إقامته وسكنه ومناصبه العلمية :

كان الشيخ يذيل مقالاته بمحل إقامته، فيكتب مثلا طير حرفا نهاية المقال في جهة الشمال، مما يدلنا بسهولة على مكانه حين كتابة المقال ذاك، وهذا المكان كنا نلاحظ عليه التغير بين فترة وأخرى، مما يعني أن الشيخ كان يتنقل في محل سكناه، ولو لم نكن على دراية بالقرى التي عاش فيها الشيخ، ومن ثم انتقاله إلى بيروت لكفتنا هذه المقالات المؤونة، فهي خير خريطة لحياة الشيخ. ولم يكن هذا فقط، بل كانت المجلة تذيل المقال بالمنصب الذي يتولاه الشيخ، فحين عُين قاضيًا شرعيًا في بيروت بالمحكمة الجعفرية كتبت تحته: " محمد جواد مغنية قاضي بيروت الشرعي " وذلك تحت مقاله " من الفقه الجعفري والفقه الحنفي" المنشور في يناير ١٩٤٩م، ويُذكر أن المجلة كتبت تحت اسمه " مستشار محكمة الاستئناف الجعفرية " بعد أن كانت تكتب تحت اسمه قاضي بيروت الجعفري، بدأ هذا مع مقال " الإرث " المنشور في مج ٣٦ ج ١٠ الصادر في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩م ص ١٠٣٠ . وهذا ما يوافق حياته العملية ، حيث عُيّن مستشاراً في عام ١٩٤٩ .

قبل هذا أحب أن أشير إلى الأماكن التي استوطنها الشيخ وأقام فيها منذ عودته من النجف حتى رحيله، والمناصب التي تبوأها، وأبدأ بالأماكن :

١٩٣٦ قرية معركة، ١٩٣٩ طير حرفا، ١٩٤٨ بيروت .. وكان الشيخ في هذه السنوات يكتب اسم القرية والمدينة تحت المقال المنشور. أما المناصب فهي كالتالي :

١٩٤٨ قاضي بيروت الشرعي، ١٩٤٩ مستشار المحكمة الجعفرية العليا، ١٩٥١ رئيس المحكمة الجعفرية العليا، مستشار المحكمة الجعفرية العليا، ١٩٦٨ تقاعد من الوظيفة .

لعبت الوظيفة والبيئة دوراً كبيراً في توجهات الشيخ في مقالاته، ورؤاه الفكرية، فحين عُين قاضياً في المحكمة الجعفرية كتب مباشرة سلسلة مقالاته في الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية تحت عنوان " من الفقه الجعفري والفقه الحنفي " ومجموعة كبيرة من المقالات التي تدور في فلك الفقه وقضاياه المتشعبة، ونكاد نجزم ونقطع بأنه لو لم يُعين الشيخ محمد جواد مغنية في هذا المنصب، منصب القضاء لما كتب هذا الكم من المقالات التي يعالج فيها قضايا الفقه، ولظل على مقالاته الدينية العامة والتقريبية وفي إطار الفكر الإسلامي والمجتمع الديني واستعراض الكتب ونقدها،

وكذلك الأدب، ولكن دخوله في هذا السلك وفي هذا البحر حتّم عليه أن يخوض في لججه، ويكتب المقال تلو المقال، ومع هذا يرى أن هناك متسعاً من القول، فالفقه محيط واسع وعميق، من الصعب على من يدخله بشخصية وعقل الشيخ أن لا يكتب هذا الكم وهذا النوع من المقالات، ومن الممكن أن نذكر المقالات الفقهية التي نشرها بعد دخوله سلك القضاء كالتالي :

١- من الفقه الجعفري والفقه الحنفي (1) في الأحوال الشخصية
٢- من الفقه الجعفري والفقه الحنفي (2) في الأحوال الشخصية
٣- من الفقه الجعفري والفقه الحنفي (3) في الأحوال الشخصية
٤- من الفقه الجعفري والفقه الحنفي (4) في الأحوال الشخصية – الطلاق
٥- من الفقه الجعفري والفقه الحنفي (5) في الأحوال الشخصية- الطلاق
٦- الإرث
٧- من الفقه الحنفي والفقه الجعفري
٨- مفطرات الصائم عند السنة والشيعة
٩- أصول الفقه للشيعة الإمامية
١٠- تطليق القاضي لعدم الإنفاق
١١- بيني وبين الثائرين على نحو فقه إسلامي جديد
١٢- التيسير في أحكام الأقارب والزوجين
١٣- الإسلام والاقتصاد
١٤- الأزهر والفقه الشيعي والكنيسة الإنجليزية والشذوذ الجنسي
١٥- إلى علماء الشرع في جبل عامل
١٦- الأزهر وفقه الشيعة
١٧- مقتطفات من كتاب الجواهر
١٨- النظام الاقتصادي في الإسلام أو كتاب اقتصادنا للسيد الصدر

ومن الصعوبة بمكان أن تجد للشيخ مقالاً يدور حول الفقه ومتعلقاته قبل عام ١٩٤٨ العام الذي عُين فيه قاضياً .

حتى كتاباته في التشيع، لم تأخذ هذا المنحى من العرض والتناول إلا حين ذهب إلى بيروت، وتعايش مع مختلف الطوائف والأديان والتوجهات .

انغماسه في القراءة والكتابة :

من القضايا المسلمة للذين تابعوا ويتابعون حياة الشيخ مغنية ولعه بالقراءة، ونهمه وتعلقه بكل جديد تخرجه المطابع، وإن كلفه ذلك الشيء الكثير من الجهد والضنك والمال، وكان الشيخ يصرف أغلب ساعات يومه في القراءة والكتابة، وقد كتب في هذا المعنى عشرات المقالات التي دارت حول سيرته الذاتية، وبعث الكثير من الإشارات التي تؤكد أنه من أعظم القراء في العالم العربي، أقول هذا مع عدم حبي للعموميات، ولكن من الممكن أن نقول إنه نادر المثال في هذا الباب، يدل على ذلك قلمه ومقالاته وكتبه، وكذلك كل معاصريه والذين اقتربوا منه وعايشوه، والشهادات التي كتبت في تأكيد الحد الغريب والمدهش لقراءات الشيخ المتنوعة، منذ أن كان طالبًا نجفيًا، حتى قبل رحيله بساعات قلائل.

ما يهمنا هنا هذه المقالات المغمورة والتي تنشر لأول مرة، وما جاء فيها من كتابات الشيخ التي دارت حول تأكيده لولعه الغريب بالكتاب، ففي مقاله "ادفع بالتي هي أحسن " والمنشور في المجلد ٣٩ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧١هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢م، ص (٢٦٢-٢٦٤) من العرفان يكتب الشيخ العبارات التالية :

" إني أكرر القول مع القائل " لو أني مت ثم بعثت وخيرت في الحرفة التي أحترف لما اخترت خيرا من أن أقرأ وأكتب " أقرأ عن منهج هذه الحياة ومشكلاتها، وأنغمس فيها بقدر جهدي، ثم أكتب ما أحس وأشعر ولا أبتغي من وراء ذلك إلا أن أكون مع الأحياء، لا مع الأموات " .

ويدل على شدة تعلقه بالقراءة والكتب استعراضه الجديد من الإصدارات في مقالاته، في هذا يلاحظ عليه من خلال استقصاء مقالاته وكتبه أن استعراض الكتب الجديدة يأخذ مساحة كبيرة من إنتاجه، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على تتبعه للكتب بدقة، وحرصه على مشاركة القارئ إياه في قراءاته أولاً بأول، وكان حريصًا على التنوع في القراءة، فهي كتب تدور حول الأدب والفقه والعقيدة والتاريخ والشخصيات والفلسفة وغيرها من حقول المعرفة المتنوعة. وهو في هذا الباب يذكرنا

بالعقاد، وبينهما شبه كبير، فالعقاد يغلب على نتاجه، وعلى الأخص في سنواته المتأخرة استعراضه الجديد من الإصدارات المتنوعة في شتى حقول الفكر الإنساني، وما تخرجه المطابع، وهذا ما حاول أن يعيب عليه البعض من النقاد، ومن الممكن أن نذكر للقارئ أهم الكتب التي استعرضها الشيخ في هذه المقالات المجهولة، وهي كالتالي :

١- تاريخ الحسين : الشيخ عبد الله العلايلي
٢- عقائد المفكرين في القرن العشرين : عباس محمود العقاد
٣- اقتصادنا : محمد باقر الصدر
٤- الشريف الرضي : الدكتور محفوظ
٥- رد العامي إلى الفصيح : الشيخ أحمد رضا
٦- جعفر الصادق : عبد العزيز سيد الأهل
٧- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية : جورج جرداق
٨- هشام بن الحكم : الشيخ عبد الله نعمة
٩- الدين والضمير : محمود الشرقاوي
١٠- جواهر الكلام : الشيخ محمد حسن أكبر
١١- الإمام الصادق : الشيخ محمد أبو زهرة
١٢- رواد الفكر الاشتراكي : تأليف ج.هول- ترجمة : منير بعلبكي
١٣- تاريخ الفلسفة العربية : د. خليل الجر، أ. حنا الفاخوري

ويلاحظ هنا أن الشيخ في نقده للكتب الحديثة والقديمة أيضاً ينطلق من دافعين يحركانه نحو الكتابة حول هذا الكتاب أو ذاك، الدافع الأول شدة الإعجاب بالكتاب، كما نجد لدى كتاب الجواهر وكتاب اقتصادنا وهشام بن الحكم وغيرهم، أما الدافع الثاني فهو النقد العلمي للكتاب، حيث لم يعد الشيخ يتحمل ما يجده من أخطاء علمية، أو تهجم على الدين أو على العقيدة ويقف أمام هذا ساكتاً، فيمسك قلمه ليكتب مقالاً يستعرض فيه ما وجده من أخطاء تحتاج لمراجعة في هذا الكتاب، على الأخص إذا وجد أن الكتاب أصبح ذائع الذكر، ذا تأثير وشهرة لدى القارىء العربي، من ذلك كتاب الدين والضمير، وكتاب الله والإنسان وغيرهما.

هذا بالنسبة للكتب، أما بالنسبة للشخصيات التي يكتب عنها الشيخ في هذا الكتاب وغيره من كتبه الكثيرة، فإننا نجده لا يكتب إلا عن شخصية هو معجب بها، مؤمن برسالتها، متحمس لها، ويود أن ينقل هذا الإعجاب والانبهار للقارئ .. أبداً لم نجده يكتب مقالاً حول شخصية يذمها ويسفه فيها إلا الشخصيات التي تحارب الوحدة بين الشيعة والسنة، وذلك في عرض المقال، ولا يخصص له مقالا مستقلا، ويكتب عنها بلغة راقية مهذبة عفة، ككتاباته حول محب الدين الخطيب وغيره، وأبرز الشخصيات التي استعرضها وخصّها بمقال منفرد هي الشخصيات التالية :

١- السيدة زينب (ع)
٢- السيدة فاطمة (ع)
٣- الشيخ محسن شرارة
٤- الشيخ عبد الكريم الزنجاني
٥- الشاعر بولس سلامة
٦- أبو ذر
٧- الشيخ عبد الكريم مغنية (أخوه الأكبر)
٨- الشيخ أحمد عارف الزين
٩- الشيخ سليمان ظاهر
١٠- الشيخ أحمد رضا

من خلال هذه المقال نتفهم أن الشيخ يحمل كل الإعجاب بهذه الشخصيات، وتلعب دوراً في شخصيته، وبلورة أفكاره، وعلى الأخص سليمان ظاهر وأحمد رضا .

(٢) أخطاء في نقل الآيات القرآنية :

هناك ظاهرة غريبة استوقفتني كثيراً وأنا أراجع مقالات الشيخ المنشورة في العرفان، هذه الظاهرة أبعد ما يكون عنها رجل الدين، والعالم المفكر، أو هذا ما يجب أن يكون عليه الحال، ونعني بها ظاهرة الأخطاء في استشهاد الشيخ بالآيات، والغريب أن الشيخ لم يكن يخطئ في آية واحدة أو اثنتين، بل كان خطؤه يتكرر عشرات المرات، وفي آيات عديدة، مما استدعى انتباهي، ولفت نظري بقوة، وجعلني في حيرة من أمري، ولعلّ مرد ذلك كما أتصور هو أن

الشيخ ينقل النص القرآني استظهاراً، واتكاء على مخزونه من الحفظ، من دون أن يرجع للقرآن الكريم، ومن دون أن يتحقق من نص الآية، وسوف يجد القارئ الكريم في الكتاب كل الآيات التي أخطأ فيها الشيخ، مع تصحيحها حسب الآية والسورة في هامش الصفحة. وفي قبالة هذا نجد الشيخ يحرص أشد الحرص على توثيق النصوص التي يعالجها من كتابات الأدباء والمفكرين، وذلك حين ينقد كتابًا أو رأيًا، دون أن يغفل الطبعة والسنة والجزء والصفحة، فأيهما أولى بهذه الدقة والحرص على الاستيفاء في البيان، القرآن الكريم، كلام الله (ج) أم عبارات البشر من العلماء والمفكرين ؟!!. وهذه الظاهرة أعدها من هفوات الشيخ، ومن كبواته.

(٣) أخطاء لغوية :

مثلما دُهشت من أخطاء الشيخ في نقل الآيات القرآنية أصابتني الدهشة أيضًا حين وجدت الكثير من الأخطاء اللغوية لديه، أخطاء في النحو تارة، وأخطاء في اللغة تارة أخرى، والغريب أن الشيخ في بعض مقالاته النقدية حين ينقد بعض الكتب الحديثة يشير إلى أخطاء الكاتب اللغوية، مبدياً ضرورة حرص الكتّاب على سلامة اللغة، والجودة في الأسلوب العربي الفصيح، والذي يعيب عليه الكتّاب وجدنا الشيخ واقعاً فيه. وهي أخطاء من الغرابة بمكان أن يقع فيها كاتب بوزن الشيخ محمد جواد مغنية، كاتب قضى سنوات في ربوع الحوزة الدينية، وفي ثنايا القضايا النحوية واللغوية، وكنت أقول لعل في بعضها أخذته العجلة وليس الجهل بالحكم النحوي، وعدم معرفة القاعدة، لا يمكن تقبل هذا على الإطلاق، ولكن في بعضها الآخر أتصور أنه خطأ من الشيخ وليس عجلة منه.

ففي ص٦ : (وليس وجوب التعلم مختص) وأظن أن الشيخ يعلم أنه يجب أن يكتبها مختصًا لأنها خبر ليس، هذه قاعدة يعرفها عامة الطلاب والمثقفين، لذا التمست له العذر فيها، وقلت لعلّ مرد الخطأ العجلة في الكتابة، خصوصًا أن الشيخ يكتب بسرعة، ولكني أتفاجأ بعشرات الأخطاء، منها المشهور ومنها غير المشهور، والغريب أن الخطأ نفسه يكتبه كما هو، وتارة أخرى يستدرك الخطأ ويكتبه صحيحًا، ومن ذلك اسم إن المؤخر وجوبًا، فمن حقه النصب، بينما نجد الشيخ والمئات من الكتاب يكتبونه بالرفع ظنًا منهم أنه خبر إن .. وللقارئ بعض الأخطاء التي وردت في مقالات الشيخ من باب الاستشهاد :

- إنَّ هناك أمر (٢٧)
- كلا الجهتين (٢٨)
- إن في البيت سر مكنون (٢٩)
- ثارنا وثارك (يقصد ثأرنا وثأرك) (٣١)
- حيث ما يرسل بصره (٣٩)
- أي كان (٤٣)
- إنْ أصابه خيراً (٤٧)
- فعلى م (٧١)
- فكان في إنشائه نسيجٌ (٨٠)

وهناك عدا ذلك الكثير من الأخطاء في اللغة والإعراب، تذهل أن تصدر من عالم بوزن وثقل الشيخ محمد جواد مغنية !! .

(٤) مكانة الشيخ لدى إدارة المجلة :

كل الدلائل تشير إلى أن الشيخ محمد جواد مغنية يحظى بمكانة خاصة لدى الشيخ عارف الزين، ولدى القائمين على تحرير مجلة العرفان، وقد حظي بهذه المكانة نتيجة لجهده ونشاطه الملحوظ وغزارة إنتاجه والكم الكبير من المقالات والتعليقات والحماسة التي أبداها لهذه المجلة العريقة، وتشير الدلائل المعطاة كذلك إلى أن الشيخ عارف الزين كان مؤمنًا بقدرات الشيخ مغنية، ومتحمسًا له، ويرى فيه أمل الفقه الإسلامي، والإصلاح الديني، لذلك اندفع في الإعجاب به، وفتح صفحات مجلته بالكامل له، يكتب فيها كما يشاء، وكان عاملا ً مشجعًا، ولولا العرفان- باعتراف الشيخ نفسه- لما كان للشيخ كل هذه المكانة والبروز، فمقالاته المتلاحقة في المجلة عرّفت القارىء العربي به، وبقلمه وفكره، ونحن لا ندري أكان الشيخ يكتب هذه المقالات الغزيرة والدسمة بمقابل مادي أم أنه يكتب بلا أجر ؟؟

تمثلت مكانة الشيخ مغنية دون غيره من الكتّاب في المجلة في أكثر من مؤشر ، نبرزها في النقاط التالية :

١ـ التعريف بكتبه الصادرة أولا بأول :

نلاحظ هنا أن المجلة كانت تلاحق أي إصدار يخرج للشيخ، وتقوم بالتعريف به، وعرضه، وفي أي المكتبات يباع، ودعوة القرّاء لقراءته واقتنائه، والإشادة بمؤلفه العلامة الكبير الشيخ محمد جواد مغنية. وقد بدأت المجلة هذه الخطة مع الشيخ ابتداء بأول كتبه المطبوعة، وهو " الوضع الحاضر في جبل عامل " وانتهاء بآخر مؤلفاته المطبوعة، وبذلك تكون العرفان سجلا صادقاً ودقيقاً لمؤلفات الشيخ، وبالإمكان متابعة الطبعات الأولى وتواريخ صدور كتبه في أول إخراجها وبالشهر عن طريق هذه العروض التي تقوم بها العرفان. وللقارىء بعض العروض لكتب الشيخ موثقة بالمجلد والصفحة واسم الكتاب في أول طبعة له :

١- الوضع الحاضر في جبل عامل : (مج٣٣ : ٧٠٨ -٩٥٣ - ٧٠٩)

٢- الفصول الشرعية : (مج ٣٨ : ١٠٧ — ٨٢٣)

٣- مع الشيعة الإمامية : (مج ٤٣ : ٩٧ — ٦٠٧)

٤- أهل البيت منزلتهم ومبادئهم : (مج ٤٣ : ٨٩٢)

٥- الإسلام مع الحياة : (مج ٤٦ : ٤٩٤ — ٥٩٣)

٦- الله والعقل : (مج ٤٦ : ٥٩٥) (مج ٤٧ : ٩٧- ٩٩٥)

٧- الآخرة والعقل : (مج ٤٧ : ٥٠٤ — ٩٩٥)

٨- علي والقرآن : (مج ٤٧ : ٨٩١ — ٩٩٥)

٩- الفقه على المذاهب الخمسة : (مج ٤٨ : ٨٩)

١٠ — مفاهيم إنسانية في كلمات الإمام الصادق (ع) : (مج ٤٨ : ٨٩)

١١- معالم الفلسفة الإسلامية : (مج ٤٨ : ٣٩٥)

١٢- المجالس الحسينية : (مج ٤٨ : ٧١٩)

١٣- الزواج والطلاق : (مج ٤٨ : ٧١٩)

١٤- الشيعة والحاكمون : (مج ٤٩ : ٢٠٦) (مج ٥٠ : ٩٣٩)

١٥- فضائل الإمام علي "ع" : (مج ٤٩ : ٩٩٦)

١٦- فلسفة المبدأ والمعاد : (مج ٥٠ : ٢٢٤)

١٧- مع علماء النجف : (مج ٥٠ : ١٠١١)

١٨ – مع بطلة كربلاء : (مج ٥٠ : ١٠١١)

١٩- الشيعة والتشيع : (مج ٥١ : ١١٤)

٢٠- علي والفلسفة : (مج ٥١ : ٥١٦)

٢١- المهدي المنتظر والعقل : (مج ٥١ : ٨٨٧)

٢٢- هذه هي الوهابية : (مج ٥٢ : ١٤٧)

٢٣- بين الله والإنسان : (مج ٥٢ : ٥٨٣)

٢٤- فقه الإمام الصادق "ع" : (مج ٥٣ : ٦١- ٩٨٠) (مج ٥٤ : ١٤٦ – ٢٧٦ – ٣٠١)

٢٥- إمامة علي والعقل : (مج ٥٤ : ٢٢١)

٢٦- التفسير الكاشف : (مج ٥٦ : ١٤٦)

٢- تعدد مقالاته في العدد الواحد من العرفان :

على رغم الحجم الصغير للمجلة، وصفحاتها القليلة، وكثرة كتّابها والذين يمدونها بالمقالات والقصائد والتعليقات والمشاركات، وينتظرون طابورًا طويلاً من الأسماء المشاركة في التحرير، على الرغم من ذلك كله إلا أننا نفاجأ وفي أكثر من عدد بأن المجلة تفرد للشيخ أكثر من مقال، وما لهذا من تفسير إلا المكانة التي احتلها الشيخ في عقل وقلب صاحب العرفان، وإيمانه بأهمية ما يكتب، بحيث لا يحتمل التأجيل والتسويف والانتظار .. وهي مقالات تأخذ مساحات واسعة من المجلة، ففي مج ٣٦ ج٣ يكتب المقالين التاليين: من الفقه الجعفري والفقه الحنفي، ملحمة الغدير. وفي ج ٤ يكتب المقالين: من الفقه الجعفري والفقه الحنفي، السيد حسن محمود الأمين. وفي مج ٤٢ ج ٢ تنشر له المجلة المقالين التاليين: جعفر بن

محمد الصادق .. نقد كتاب، الشيعة الإمامية وعلم الحديث. وفي مج ٤٦ ج ٧ تنشر له: الشيعة وشيخ الأزهر، هشام بن الحكم.

٢- الحرص على نشر محاضراته :

لم تقف المجلة في الحماسة للشيخ عند نشر مقالاته، والحماسة لتعليقاته، وعرضه للكتب، بل كانت أسرة التحرير تحرص أشد الحرص على تتبع نشاط الشيخ خارج المجلة والنشر فيها، وذلك برصد محاضراته، ومن ثم نشر تلك المحاضرات في أعداد العرفان، ففي المجلد ٣٢ الجزء ٨ الصادر في شعبان سنة ١٣٦٥هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٤٦م، ص (٧٥٢ - ٧٥٥) تنشر له المجلة محاضرته " الدين والقومية .. لو لم أكن عربياً لتمنيت أن أكون " وتكتب تحت العنوان العبارة التالية "المحاضرة التي ألقاها في بهو كلية المقاصد الإسلامية في صيدا العالم الألمعي الشيخ محمد جواد مغنية " وفي العددين التاليين مباشرة ٩-١٠، الصادرين في شوال وذي القعدة سنة ١٣٦٥هـ الموافقين آب وأيلول (أغسطس وسبتمبر) ١٩٤٦م، ص (٨٩٢ - ٨٩٧) تنشر له المجلة محاضرة بعنوان " دعوة إلى الحق " ألقاها الشيخ مغنية على منظمة الطلائع في بيروت.

في الأخير أحب أن أدعُ القارىء بشدة وبحماسة إلى أن يقرأ الشيخ، ويتعرف على فكره الذي تمثل جزءٌ منه في هذا الكتاب الذي حاولت فيه أن أقدم للقارئ مقالات سيقرؤها لأول مرة، وفيها الغنى والفكر المتجدد الذي نحن في أمس الحاجة إليه في ظل هذه الأيام الذي يسود فيها الفكر المتطرف، والفهم الساذج للدين، والبعد عن النبع الصافي للفكر الديني الرحب، وتعاليم الأئمة (ع) القائمة على التسامح، والفهم العميق للرسالة والدعوة، نحن في حاجة ملحة لأن يسود فينا فكر الأعلام من المدرسة اللبنانية التي تقوم على العقل والتدبر والحكمة والسماحة، وعلى الفهم المتجدد والتطور في النظرة، والغوص في حياة الأئمة وربطها بواقعنا المعاصر، المدرسة التي يقودها السيد محسن الأمين، والسيد فضل الله، والشيخ محمد جواد مغنية، والشيخ محمد مهدي شمس الدين وغيرهم من العلماء الأفاضل رحمهم الله، ونفعنا من علمهم.

المقالات

(٢-١)- أبوذر والاشتراكية- (١)

في عصر الجاهلية عصر القحط بالرجال والعقم بالأفكار عاش رجل من أرض الحجاز في مكان يسمى الربذة قريب من يثرب، طويل الجسم، نحيف، أسمر اللون، خفيف العارضين، في ظهره انحناء، اسمه جندب بن جنادة بن قيس، وأمه أرملة بنت الوقيعة الغفارية، وآله بنو غافر. ولم يكن بصاحب المكان الرفيع، والمنزلة التي تعظمه في نفوس قومه، وترفعه مكاناً علياً، وتجعله طائر الصيت، وإنما شأنه شأن سائر أفراد أسرته العاديين، فإن الشهرة والصيت في عصره محبسة على أهل البطش والبسالة، والسيادة موقوفة على من أضاف الكرم إلى الشجاعة وجمع بين الأمرين، ومن اتصف بأحدهما فهو بالدرجة الثانية، وأما الذي يفقدهما معاً فهو في رأيهم من السواد. فإن القوة والسخاء هما كل الكمال، ومنتهى الفضائل، وإن استعملا في غير ما وضعا له. والقوة حسنة وإن أدَّت إلى سفك دماء الأبرياء، واختلال الأمن والنظام، والبذل ممدوح وإن صادف غير محله ووصل المبذول إلى غير أهله. وما أشبه عصرنا هذا عصر النور بعصر الجاهلية والظلمة، أليست اليد القابضة على زمام السيادة المطلقة هي التي سفكت الدماء في فلسطين والحبشة وأخرجتهم من ديارهم مظلومين وحلوا فيها ظالمين ؟! ألم نسمي أهل الكذب والخداع بالزعماء ونكبرهم أعظم الإكبار ونمنحهم الألقاب السامية، وننعت أهل الصدق والوفاء وأرباب الفطرة النقية بالبسطاء والسذج ونسقطهم عن درجة التقدير والاعتبار ؟!

إنا ضحكنا من الماضي ولا عجب | إن كان حاضرنا أضحوكة الآتي

وأبو ذر لم ينل حظاً من القوة البدنية، وشدة الساعد، وغاية ملكه بعض غنيمات لا يتجاوز عددها الستين، يغدو بها ويروح بنفسه، يعيش بألبانها ويكتسي بأصوافها. فإن ذهبت ذهب مصدر رزقه وحرفة معيشته وانقرض ملكه وزالت عنه الإمارة، فاعتنى بها كل الاعتناء وأرفق بها غاية الرفق، وحافظ عليها محافظة الإنسان على سبب حياته وعلة وجوده، يصبح شاكراً ويمسي قانعاً، يعرض عما في يد سواه ولا يريد أكثر مما في يده. قيل له: يا أبا ذر أبشر فقد ولدت غنمك وكثرت، قال: ما يسرني كثرتها وما أحب ذلك، فما قلَّ وكفى أحب إلي مما كثر وألهى .

سبب إسلامه :

أصغى أبو ذر يوماً إلى أحاديث الناس فسمعهم يقولون إن رجلاً من قريش يدعي النبوة، وإنه يأتيه الخبر من السماء، وإنه أرسل إلى الناس كافة، وهو يدعوهم إلى الإسلام. ولم يكن في نفس أبي ذر شيء من الشوائب التي تصرفه عن اتباع الحق، وليس لديه سيادة باطلة يخاف أن تأتي عليها الحقائق عند ظهورها. فالتفت إلى أخيه أنيس وقال له: اركب هذا الوادي واعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله. فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قول محمد (ص) ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر. فتزود أبو ذر، وحمل أدواته حتى قدم مكة، فأتى المسجد يلتمس النبي وهو لا يعرفه وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل فرآه علي بن أبي طالب (ع) فقال: كأن الرجل غريب؟ فقال: نعم. فذهب به الإمام إلى منزله وأحسن ضيافته ولم يسأل أحدهما صاحبه عن شيء، ولما أصبح أبو ذر رجع إلى المسجد، وعند المساء جاءه الإمام وقال له: أما آن للرجل أن يعرف منزله، وذهب به إلى داره، وبعد مضي اليوم الثالث قال له الإمام: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً أن ترشدني، ففعل الإمام وقص عليه أبو ذر قصته ففرح فرحاً شديداً وقال له: هو نبي ورسول الله حق، فإن أصبحنا تبعتني، فإذا رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت تبعتني حتى تدخل مدخلي. فانطلق أبو ذر يقفو أثر الإمام حتى دخلا على رسول الله وحيًّا النبي بتحية الإسلام — وهو أول من حيَّاه بها — وعرّفه بحاله وما جاء له، فأنس به النبي وعلّمه الشهادتين — وكان إسلامه بعد أربعة وقيل بعد ثلاثة — وقال له: ارجع إلى قومك وأخبرهم واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك. فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج ينادي بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فثار إليه القوم وضربوه حتى أوجعوه وأضجعوه وأتى العبَّاس بن عبد المطلب وأنقذه منهم قائلاً: ويلكم .. ألم تعلموا أنه من بني غفار وهم على طريق تجارتكم إلى الشام؟! وما أفلت من بين أيديهم حتى صاح بصوت أعلى من صوته الأول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فكروا عليه وزادوا على فعلتهم الأولى، فانكب عليه العبَّاس وخلصه ثانياً. وهذا أول بلاء يجره عليه الجهر بالحق والتفوه بالصدق، وفاتحة الخطوب التي يلقاها في سبيل تأييد الحق وإعلاء كلمة الدين

وشأن الإسلام، وفيه برهان صادق على أنه مفطور على الصراحة والنطق بالصواب ومندفع إليه بدافع الفطرة والغريزة وليس له أي عداوة مع الأشخاص، وإنما عداوته منصبة على نفس الباطل ولذات الضلال بما هو ضلال، وإن كل ما وقع منه بعد ذاك من معاندة الولاة والتمرد عليهم إن هو إلا مقاومة للظلم ونصرة للعدل، وما أصابه من مصيبة النفي والضرب لأنه لم ينحرف عن الصراط القويم ويكتم الحق ويضيع أمانة الله وأمانة رسوله التي هي في عنقه وعنق العلماء كافة، ولو نافق كما نافق غيره وباع آخرته بدنيا سواه لكان صاحب المقام الأرفع عندهم، ولأنزلوه منزلاً مباركا وقدّموه على كل من نسج على منوالهم، نظرا لجلالة قدره، وعظيم مكانته، وما سبق له من الصحبة، ولكن أبا ذر يربأ بنفسه عن ارتكاب الموبقات، ووقوعها في المهلكات، ولا يؤثر العاجلة على الآجلة، والفاني على الباقي، وفيه أيضاً شاهد قوي على كرم أخلاق الإمام وسخائه وما له من الأيادي البيضاء على الإسلام والمسلمين، وقد عرفها له أبو ذر ولم ينسها إلى آخر نقطة من حياته. وكيف ينسى الإمام وفضله وهو معينه الأول ومساعده الأكبر على هدايته بنور الحق، والتخلص من ظلمة الشرك والهلاك.

رجع أبو ذر إلى قومه إلى قومه وأخبرهم عن النبي الصادق والرسول العظيم، ودعاهم إلى الإسلام وقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وحذرهم سوء عاقبة التكذيب ومعاندة الحق. آب من مكة المكرمة وآب معه الوجد والحرقة لفراق النبي الجديد وصاحبه العظيم علي بن أبي طالب، وقد تركه قبل أن يتزود من تعاليمه، ويكسب الشرف والفخر بخدمته وحضرته، وبقي أياما غير قليلة في الربذة يغدو ويروح بغنمه، وليس ببعيد أنه حصر المرعى طيلة هذه الأيام في الناحية التي تشرف على طريق مكة يتطلع أخبار "ص" ويسأل عن مآل أمره، وربما دفعه الشوق إلى العزم على الذهاب إلى مكة بنفسه ثم يتذكر وصية النبي حيث أوصاه بالبقاء في بلاده إلى أن يظهر أمره، وينصر الله دينه، فتصرفه هذه الوصية عن العزم، ويمتثل مذعنا، ويكتفي بالسؤال متلطفاً. وبينا هو يفكر في أمر الرسول، ومعاملة قريش معه، وفي الوقت الذي يحظى فيه بحضرة النبي وإذا بقائل يقول: وصل محمد إلى المدينة ومعه ثلة من المهاجرين، وحوله الأنصار وقد بايعه الجميع على أن يمنعوا عنه بأنفسهم وأموالهم، ويدفعوا كل طارق يطرق بسوء. وما وقع الصوت في مسامعه حتى طار إلى المدينة، وعندما وصل إليها رأى البشر يطفح في الوجوه، وذكر محمد يتردد في الأفواه. دخل

على النبي وسلّم ثم جلس مع الجالسين، فبشّ له النبي وسأل عن حاله، فأجاب بالحمد وأخبره بالشوق المكنون.

شعر أبو ذر أنه مردد بين محذورين ولا سبيل من النجاة منهما، ولا محيص عن الوقوع قي أحدهما، إن لازم خدمة النبي وبقي في حضرته نال السعادة وفاز بالمطلوب، ولكن يفوته القيام على ماشيته، ولا يأمن عليها من وقوع الظلم وسوء معاملة الرعاة، إن سلمها بيد الغير، والظلم قبيح حتى ظلم الحيوانات والمواشي، فإنها من ذوات الأرواح التي تشعر بالألم، فائتمان غير مالكها عليها تسويف، وسبب للإعانة على الإثم، وإن قام عليها بنفسه أصبحت في حرز وأمان، ولكن كان عليه لزاماً أن يفارق ويحرم من فوائده، وتفوته السعادة المنشودة .. فأي الأمرين يرتكب، وأي المحذورين يجتنب. جاء إلى النبي وعرض إليه أمره، قال : يارسول الله إن لي غنيمات قدر ستين شاة، فأكره أن أبدو فيها وأفارق حضرتك وخدمتك، وأكره أن أكلها إلى راع فيظلمها، ويسيء رعايتها، فقال له: ابدو فيها، فبدا فيها أبو ذر وكان يتردد إلى المدينة بين البرهة والبرهة يستمع إلى أحاديث النبي، ويقتبس بقدر ما يتسنى له، ورب قليل أنفع من كثير إذا صادف نفساً ذكية، وقلباً صافياً، والمدار على الكيفية، أما الكمية فلا معول عليها إن عدمت النتيجة، وقلّ النمو، فلم يشهد أبو ذر بدراً وأحداً والخندق، ومضت سبع سنوات على النبي في المدينة وأبو ذر في البادية ولم تتسن له الهجرة إلا بعد ذلك، فهاجر ولم يفارق الرسول إلى أن مات، ورافقه في غزواته الأخيرة وإن لم يكن من رجال الحرب والقتال إلا أن الجهاد لم تنحصر أسبابه في السيف والرمح، ونصرة الحق لا تتوقف على منازلة الأبطال، ومقارعة الشجعان، فإن المشاركين لهؤلاء بالظمأ والمخمصة والنصب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والواطئين موطئا يغيظ الكفار لهم ما للمجاهدين من الثواب والدرجات العالية عند ربهم — ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح — فنفس أبي ذر وإن قنعت من حطام الدنيا باليسير إلا أنها تطمع في زيادة الثواب والقرب من الله، وتطمح نحو الكمال والخلد.

صحب النبي "ص" في غزوة تبوك، وكان أحد جنود جيش العسرة، وقد تأخرت ناقته، وضعفت عن المسير، وسبقه رسول الله والعسكر، فتركها في الصحراء وشأنها وحمل أدواته على ظهره ولحق بالنبي وأصحابه وقد أصابه العطش قبل الوصول إليهم، فانحرف عن الطريق يبحث عن الماء فلما

أصابه وجده بارداً صافياً فاستعذبه، وأبت عليه نفسه أن يشرب منه قبل النبي، فملأ ركوته وأسرع به إلى النبي، فلما نظره رسول الله رأى عليه أمارات العطش، فقال لأصحابه: أدركوا صاحبكم بالماء، وعند وصوله ناول ركوته إلى النبي، فقال له: تحمل الماء وأنت عطشانٍ يا أبا ذر ؟! فقال له : يا رسول الله كرهت الشرب قبلك لما وجدت الماء بارداً .

منزلة أبي ذر عند النبي والأصحاب:

كان رسول الله "ص" ينظر إلى جميع أصحابه بعين العطف والحنان، ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وإذا تكلم لم تعد عيناه عنهم، ومتى جلس إليهم لا يقوم ويدعهم ويبقى جالساً حتى يتركوه، وهذه هي آداب القرآن التي أدَّبه الله بها — ولا تعد عيناك عنهم — واصبر نفسك مع المؤمنين، فكان لهم أباً عطوفاً، وكانوا له أبناء أبرارا، ولبعضهم أخوة، متعاضدين، يتعاونون على البر والتقوى — محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم، لا فضل لبعضهم على الآخر، إلا السابق في الإسلام، ومن كان أقوى على خدمة النبي، ونصرة الدين، ومن نزلت فيه آيات المدح والثناء وأحاديث العظمة وعلو المرتبة، فمن اتصف بهذه أو بعضها كان المعظم في النفوس والمقدم في المجالس.

وأبو ذر من السابقين في الإسلام، والممدوحين في القرآن، والمثنى عليهم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين، لذلك قدّمته الصحابة، وحبوه الإكبار والتقدير في حياة النبي وبعدها، واتفقت كلمة جميع المسلمين على فضله وعلو منزلته، ولم يختلف في ذلك اثنان إلى يومنا هذا. فمن القرآن — والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار (التوبة : ١٠٠) والذين آمنوا وعملوا الصالحات (البقرة : ٨٢) والذينِ اتبعوه في ساعة العسرة (١) (التوبة: ١١٧) ومن الأحاديث المتواترة : " ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر " " أمرني ربي بحب أبي ذر " " أبو ذر يمشي بزهد عيسى بن مريم " " إن الجنة لتشتاق إلى أبي ذر " وقال الإمام (ع) : " أبو

---

(١)صحيح الآية بدون الواو، هكذا: " الذين اتبعوه في ساعة العسرة "، ولعلّ الشيخ أوردها اعتمادا على الذاكرة والحفظ من دون أن يراجع القرآن.

ذر وعاء ملئ علماً ثم أوكئ عليه " أي لم يضيع من شيئاً .. إلى غير ذلك مما كان بهذا المضمون والقريب منه .

ولأبي ذر صداقة خاصة مع سلمان الفارسي تسببت من تلاؤم الروحين، واشتراكهما في العقيدة والمبدأ، وقوة الإيمان الراسخ، وكانت نفس كل منهما تطيب بمسامرة الآخر، والاستماع إلى حديثه، والجلوس إليه، وكثيراً ما يشتركان في طعام واحد، وتجري بينهما النكات المستملحة التي يغلب وجودها بين الأحباب الذين تجمعهم الألفة والوداد، وقد آخى بينهما النبي "ص" لما آخى بين أصحابه. دعا سلمان أبا ذر إلى بيته فأتاه بخبز يابس فقال أبو ذر : ما أحسن هذا الطعام لو كان معه ملح، فأخذ سلمان ركوته (١) ورهنها عند أحد البقالين، وجاءه بالملح، فبلّ أبو ذر الخبز بالماء ثم ذر الملح عليه، وقال : الحمد لله الذي جعلنا من القانعين، فقال سلمان ممازحا: لو كنت من القانعين لم تكن ركوتي عند البقالين .

اشتراكية أبي ذر هي الاشتراكية الإسلامية:

لم تكن الاشتراكية في الإسلام منحصرة في جهة دون جهة، ومختصة بإحدى النواحي، وإنما هي عامة لجميع الأمور، وسارية في كل قانون شرّعه الإسلام، سواء كان في العبادات التي هي لوجه الله تعالى، أو المعاملات المتداولة بين الناس، أو كانت من شؤون الحياة الروحية ورقي الإنسان وتهذيبه، أو من أسباب الحياة المادية ونمو المعيشة والراحة، فليس العلم وقفاً على طائفة دون أخرى، وليس وجوب التعلم مختص (٢) بالذكر دون الأنثى. وقد بنى الحكم والسيادة على أساس العدل والمساواة والرفق بالمخلوق إنساناً .

كان أو حيواناً ، وخوَّل تولي الزعامة لكل من جمع الشروط ، وكان له الأهلية لتقلدها ، وألزم الملوك بالعبادة وإطاعة الرحمن على حد ما ألزمه الصعاليك والفقراء ، ويظهر لك ذلك في أفعال الحج ، وتشاهده كل يوم وآن في المساجد والمقامات المقدسة ، فإنك ترى باطن قدم الزَّبال الحقير محاذيا..

---

(١) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٢) الصحيح: مختصاً، لأنه خبر ليس، ومن المؤكد أن هذا سهو من الشيخ وليس جهلاً.

فلا مزية لرفيع على وضيع، ولا فضل لعربيٍ على عجمي إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق، وإذا كان المسلم لا يصير مسلما حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه كان الإسلام مبنيا على الاشتراكية العامة لجميع الخيرات والمنافع بدون استثناء ولا تخصيص. وأما المال فقد حثَّ الإسلام أصحاب الأموال ومن يزيد كسبهم وريع أملاكهم على مؤنتهم ومؤنة عيالهم على البذل والإنفاق في سبيل الخير، وشرع قانون الزكاة في الذهب والفضة، وفي قسمٍ من الحبوب والأثمار والحيوانات، وجعل الخمس في جميع أنواع النقد، ورقا كان أو حجرا، وتفصيل الشروط وبيان أجناس ما فيه الخمس موكول إلى محله، وأمر بقرض المال الذي أخرج منه حق الله لمن به إليه حاجة قرضا مجردا من الربا والفائدة، وأخرج مانع الزكاة والخمس من الإيمان و الإسلام، وحكم عليه بالكفر إن اعتقد قبحهما وعدم وجود المحسن مع وجود النص الثابت والدليل القطعي واطلاعه عليه بالفسق إن ترك عن تهاون وعدم مبالاة مع اعتقاد الحسن والوجوب. ووعد الجاعل في ماله حقا للسائل والمحروم بالخير والرضوان، وأن ذلك يطفئ غضب الرب، ويمحو الذنب، وخصَّ جهة الإنفاق في أوجه البر وما يعود على الإنسانية بالنفع من العلم والتهذيب وحفظ النظام ويسد به حاجة الفقير والمسكين الذي لا يستطيع القيام بقوته وقوت عياله، أو يزاول عملاً لا يفي بما يلزمه من المأكل والملبس والمسكن والتداوي وتعليم أولاده ورقيهم، وأوجب على الباذل نية الخير والقربة في بذله، وعدم المن والأذى وقصد الشكر والجزاء من المخلوق. وقد جاء في الآيات والأحاديث طرق شتى تبعث على الترغيب في بذل المال والسخاء به على الإحسان. فمن الآيات ما يعطي ظاهرها أن الباذل صاحب الفضل والمحسن الأكبر الذي وجب أجره على الله، وأن الله سبحانه أصبح مديونا له كقوله: " ومن يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له أضعافا كثيرة " (البقرة : ٢٤٥) (١)، ولسان بعضها يدل أن الذي في يدالعبد من المال هو لسيده، ولا يملك قبضه ومنعه، وإنما هو لله ومن فضله وإحسانه: " أحسن كما أحسن الله إليك " (القصص : ٧٧) ومنها ما تشدد النكير وتهدده بالعذاب الأليم:" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

---

(١) مرَّة أخرى يخطئ الشيخ –رحمه الله – في نص الآية ، و نصها كما جاءت في سورة البقرة : " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون " !

في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم" (التوبة : ٣٤) والغاية من هذا التحريض على البذل وعدم الحرص كما لو أردت أن تستخرج شيئاً من إنسان بطريق الرفق واللين، ولك عليه فضل سابق فتطلبه منه وتعده بالخير إن فعل وتعدّه من المحسنين، فإن امتنع ذكرته بفضلك السابق عليه، فإن لم يجد أسمعته الوعيد والتهديد. وكما حبّذ الإسلام بذل المال ودعا أصحابه إلى السخاء به في سبيل المعروف أوجب أيضاً على الفقير وكافة الناس المحافظة على الأموال، وحرَّم عليهم التعرض إلى ما في أيدي الناس، وحكم بقطع يد السارق بعد أن أوجب عليه إرجاع المسروق، وضمن الطفل والمجنون والساهي مال غيرهم إذا أتلفوه، وأوجب عليهم دفع بدله الواقعي من المثل أو القيمة، وجاء في الشرع أن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وأنه لا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس. وقال الإمام زين العابدين (ع) يحث على حفظ الأمانة: " لو ائتمنني الشمر على السيف الذي قتل به أبي لأرجعته إليه " وأفتى علماء الإسلام بفساد الصلاة بالمكان المغصوب، أو الثوب المخاط بخيط غير مباح، وأوجبوا قطعها لو استلزم إكمالها تضييع المال وإتلافه، وقدموا الديون وصرّحوا بإخراجها من مال الميت قبل الإرث، وأبطلوا الصلاة في الملك الذي تركه الميت قبل إعطاء أرباب الدين حقهم وإرضائهم، إلى غير ذلك من الفتاوى الكثيرة والآيات والأخبار المتضافرة التي تنص على حفظ الأموال، وأنها بمنزلة الدماء والفروج التي يجب التثبت فيها والاحتياط والوقوف عندها. فالإسلام أمر بحفظ المال من جهة للمحافظة على النظام، وعدم اختلال الأمن، وحذرا من وقوع الفوضى التي تودي بالثروة، وينتشر معها الفساد المضيع للمال الذي لا يمكن حفظ الحياة بدونه، ومن جهة بعث أرباب الأموال والمستطيعين على البذل والإحسان، كي لا ينقطع سبيل المعروف ويذهب الفقير وعياله ضحية الجوع والمرض، وينسد في وجه المعدم باب العلم والتهذيب، ويترتب على مجموع الأمرين نتيجة صالحة تعود على البلاد وأهلها بالخير والنفع الدائم، ويحصل التعاون على البر والتقوى، ويجوز أن نسمي أنفسنا متمدنين ومتحضرين.

فهذه هي الاشتراكية التي بني عليها الإسلام، ونشدها أبو ذر، ودعا الناس إليها، وبعثهم على العمل بها، بعد أن استمدها من الإسلام وتسربت إلى نفسه من القرآن والأحاديث النبوية، حتى كأنه مطبوع عليها بفطرته، وهي التي جرَّت عليه الويلات، وسبَّبت له الأذى والخطوب. فأبو ذر اشتراكي ولكن بما ذكرناه من معنى الاشتراكية، أما الاشتراكية المتطرفة التي يقول بها الغلاة في إباحة الأشياء، وإن مثلها مثل الهواء والماء فأبو ذر بعيد

عنها بعد السماء عن الأرض، ومن قرأ سيرته وتتبع آثاره عرف منه الصدق في النية، والنزاهة بالقولِ والفعل، فلم يتخذ الاشتراكية وسيلة لتحقيق مآربه، ويجرد منها حساماً لمحاربة أعدائه، ويتطاول إليها عندما تقصر يده عن تناول ما يريد، شأن من يبغي الباطِل من قول الحق، ودأب من ينتسب إلى الاشتراكية ليجعل لنفسه اعتباراً بعد أن سقط عن درجته. فالإسلام أول من شرع الاشتراكية الصحيحة وسنًّ قانونها، وأبو ذر من السابقين الأولين إلى هذه العقيدة والعارفين لفوائدها وحسن ما يترتب عليها من النتائج، وأكبر العوامل على انتشارها، ومن الذين أوذوا في سبيل إحيائها، وضحّوا بأعز ما لديهم تجاه نموها ورسوخها في نفوس الناس كافة.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٢٨ الجزء ١، الصادر في المحرم سنة ١٣٥٧هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٣٨م، ص (١٢-١٨).

(٢-٢)- أبو ذر والاشتراكية- (٢)

تشيع أبي ذر لعلي:

كان أبو ذر من شيعة علي (ع) ومحبيه، يرى وجوب طاعته على جميع العباد، ويرجع إليه بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل الأمور، لأن علياً من الذين يحبون الله ويحبهم، ومن أولي الأمر الذين أمر الله ورسوله بإطاعتهم، والراسخين في العلم ومن السابقين المقربين، ومن الذين لا تأخذهم في نصرة الحق والدين لومة لائم. مات النبي فبايع الناس أبا بكر وامتنع علي عن البيعة فامتنع أبو ذر، ثم بايع علي فبايع أبو ذر، ولما توفي أبو بكر وبايع الناس عمر جاء أبو ذر إلى علي وقال: هل أدعو الناس لك وأجمعهم حولك ومن أبى حاربناه؟ قال الإمام: أترى يجيبك من المائة عشرة؟ قال: إني لأرجو ذلك. فقال الإمام: ولكن لا أرجو أن يجيبك ثلاثة. وبعدما مات عمر وجعلها شورى طلب أبو ذر أن يدخلوه مع من رشّحهم عمر للخلافة فأبوا عليه، فسألهم أن يدخلوا رأسه من نافذة البيت الذي هم فيه، فأدخل رأسه وقال لعبد الرحمن بن عوف : أناشدك الله لا تعدو علياً ولا تبايع غيره، وذكره بأشياء تقوم بها الحجة عليه وعلى من سمعها. ومرض يوما فأوصى إلى علي (ع) فقال بعض من يعوده: لو أوصيت إلى أمير المؤمنين عثمان كان أجمل، قال: لقد أوصيت إلى أمير المؤمنين حقا، وسيد الأمراء قاطبة، وإلى ربّاني هذه الأمة، والله لو فقدتموه لأنكرتم الأرض ومن عليها، قيل له: إنا نعلم إن أحبهم إلى رسول الله أحبهم إليك، فأيهم أحب إليك؟ قال: هذا الشيخ المظلوم المضطهد حقه. ولّما نفي إلى الربذة أوصى أهل المدينة بقوله: عليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فإني سمعت رسول الله يقول له: أنت أوّل من آمن بي، وأوّل من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، والفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكفرة.

أما علي فكان شديد الحب له، وكثير المحافظة عليه، يدافع عنه ويناصره على قدر ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فصدّقه وبيّن صحة قوله في أحد المواقف التي كذّبه بها عثمان، ونادى منادي عثمان أن لا يشيع أبا ذر أحد من المسلمين لّما نفاه إلى الربذة، فشيّعه علي وأهل بيته، وكلموه بكلام العطف والحنان والتعريض بخصماء أبي ذر، وأنهم مخطئون معه، ظالمون

لحقه، وهو المصيب بفعله والمحسن بقوله. ومن أحب التفصيل فعليه بالمجلد الثاني من شرح النهج لابن أبي الحديد .

أبو ذر وعثمان:

قد أخذ الله ميثاقاً على العلماء أن لا يكتموا شيئاً من آياته وأن يجهروا بالحق: " إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم " (البقرة : ١٧٤) (١) " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس " (آل عمران : ١٨٧) ولم يكتف منهم بعقد القلب على الإيمان والتهليل والتكبير باللسان، وقد وعدهم بالفلاح والخيرات، وأن يفي بعهدهم إن وفوا بعهده، وبالذل والخذلان إن خانوا العهد والميثاق، وكانوا عن الأمر بالمعروف من المعرضين، وبالطرد عن ساحة الرحمة والرضوان إن صانعوا الخلفاء والأمراء، أو داروا أحداً من الزعماء، وليست قوّة المجرم عذرا شرعيا يسوغ معه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك من أظهر المصاديق التي توجب تأكيد الفعل وحرمة الترك. والإسلام قد جعل من قتل في هذا السبيل في زمرة الشهداء، ودوّن اسمه في محضر المجاهدين والسعداء، وما ضربت الذلة والمسكنة على المسلمين وبلاد الإسلام، وباءت العلماء بالوهن والضعف وعدم سماع الكلمة إلا لإهمالهم الأمر بالمعروف الذي هو ركن من أركان الإسلام، ولمماشاتهم للزعماء الأنانيين، وعدم صبرهم على الشدائد التي تعترض سبيل كل مصلح. وأما خوف الهلاك واحتمال الضرر فإن أباحا غض الطرف عن بعض منكرات الأسواق فلا يسوغان السكوت وعدم إنكار المنكر لو كان ملازماً لقتل الأرواح، وخراب البلاد، كما ترشد إليه سيرة الأنبياء والمصلحين. لذلك قام الصحابي الجليل أبو ذر منكراً على الخليفة الثالث طريقته المخالفة لسيرة الرسول

---

(١) للأسف الشديد فإن الشيخ مغنية وهو مَنْ هو في العلم والتحرز والدقة يقع للمرّة الثالثة في مقاله هذا في خطأ جسيم لا يغتفر لمثله في إيراده النص القرآني الكريم، فصحيح الآية ليس كما ورد في مقال الشيخ، وإنما الآية كما هي في سورة البقرة هكذا بتمامها : " إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم " أما الآية المشابهة لها، والتي جاء فيها لفظ " لا خلاق لهم " والذي اشتبه فيه على الشيخ فقد جاء في الآية ٧٧ من سورة آل عمران، ونصها : " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم "!

والشيخين في التصرف بفيء المسلمين، وتخصيص أموالهم بمروان بن الحكم وآل أبي العاص وتشييد القصور، ولم يمنعه خوف الإلقاء بالتهلكة عن قول الصدق وإعلان الحق، وبهذا ارتفع شأنه عند الله ورسوله، وعظمت منزلته في نفوس المسلمين، وكان عندهم محل التقديس والإكبار، وأخبره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بكل ما يقع عليه، وما يصيبه بعده من القوم، ولم ينهه بل أمر بالمسير والمثابرة، ووعده أن يفي له بالعهد . قال له : يا أبا ذر قل الحق ولو وجدته مرّاً تلقني على العهد. وكان إذا رآه النبي يذكر مصيبته وما سيناله من الأذى في سبيل الحق ونصرة الدين، فيرق له وتأخذه الشفقة عليه، ويقول له معزّياً: أنت المطرود عن حرمي بعدي لمحبتك لأهل بيتي، فتعيش وحدك، وتموت وحدك، ويسعد بك قوم من أهل العراق يتولون تجهيزك ودفنك، أولئك رفقائي في جنة الخلد التي وعد بها المتقون .

وإذا كان المتولي لتجهيزه سعيداً فما أُعد له أكبر وأعظم درجات، وما ذاك إلا لحبه لأهل البيت، ودعوته إلى الإصلاح ونبذ الباطل، وقد رأى إصلاح المسلمين بإفسادهم على عثمان، وتفرقهم من حوله مادام مصراً على مخالفة سنّة الشيخين من قبله. فمن جملة كلامه مع عثمان: اتبع سنة صاحبيك، فلا يكون لأحد عليك كلام، فقال له : ما أنت وذاك لا أم لك . قال أبو ذر : والله ما وجدت لي عذراً غير الأمر بالمعروف، فغضب عثمان وقال: أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذّاب، إما أن أضربه أو أقتله أو أنفيه، وكان الإمام (ع) مع الجالسين فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون: " فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب " (غافر : ٢٨) (١) وكذّب في موقف آخر على مسمع ومرأى من بعض الجشعين الذين يسكتهم الدرهم عن قول الحق، ويبعثهم الدينار على تحسين الباطل، حتى جاء الإمام العادل والقائم بالقسط فأثبت صدق أبي ذر وصوابه، وأن المكذب له مكذّب لحضرة الرسالة.

---

(١) نص الآية الكريمة لا يبدأ بحرف الفاء كما جاء في مقال الشيخ وإنما بحرف الواو : " وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب " !

دخل أبو ذر ذات يوم وكان عليلاً متوكئاً على عصاه على عثمان فرأى مالاً بين يديه، فقال له: ما هذا يا عثمان؟! قال: مائة ألف درهم حُملت إليّ من بعض النواحي وأريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيي، فقال أبو ذر: أتذكر يوم دخلت وإيّاك على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فوجدناه كئيباً ثم أتيناه في اليوم الثاني فوجدناه مسروراً، فسألناه عن سبب حزنه وسروره، قال: كانت عندي أربعة دنانير ولم أكن قسّمتها فخفت أن يدركني الموت وهي عندي، ولما قسّمتها استرحت منها، وتلا أبو ذر: " الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون " (التوبة : ٣٤-٣٥) ونقل حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آل أبي العاص: " إذا بلغوا ثلاثين رجلاً صيّروا مال الله دولاً وكتاب الله دخَلاً وعباده خولاً والفاسقين حزباً والصالحين حرباً " فكذّبه عثمان، وقال الحاضرون: لم نسمعه من رسول الله، فما كان إلا أن دخل الإمام (ع) فقال عثمان: يا أبا الحسن انظر ما يقول هذا الشيخ الكذّاب، فقال أمير المؤمنين: لا تقل كذّاب، سمعت رسول الله يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، فقال أصحاب رسول الله: صدق علي، قد سمعنا هذا من رسول الله، فبكى أبو ذر عند ذلك وقال: ويلكم، كلكم قد مدّ عنقه إلى هذا المال، زعمتم أني أكذب على رسول الله .. ضاق عثمان ذرعاً بأبي ذر، وأعياه أمره، وحاول إرضاءه بطرق شتّى، أرسل له مائتي دينار مع عبدين له، ولما جاآه قال لهما أبو ذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثلما أعطاني؟ قالا: لا قال: إنما أنا رجل من المسلمين، ويسعني ما يسع المسلمين، فقالا: إنه يقول هذا من صلب مالي، ما خالطه شيء من الحرام، قال: لا حاجة لي فيها، قد أصبحت في يومي هذا وأنا من أغنى الناس، فقال العبدان: أصلحك الله وعافاك ما نرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما يستمتع به ؟! قال: بلى عندي رغيفا شعير، فما أصنع بهذه الدنانير، وإني لغني بولاية علي بن أبي طالب وعترته الهادين المهديين والراضين المرضيين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون، هكذا سمعت رسول الله، وقبيح بالشيخ أن يكون كذاباً. أراد عثمان أن يفتن أبا ذر بالمال، ويصرفه عن حب أهل البيت، ويسكته عن الحق وبيان فضل أهل البيت، وعظم منزلتهم، فما كان من أبي ذر حتى دخل مع عبيده وبيّن للعبدين أن الغنى بولاية علي، وحب عترة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا بالصفراء والبيضاء، وحدّثهم بما سمعه عن النبي وأنه صادق بقوله، وصدق أبي ذر لا

يحتاج إلى برهان، فإن مقته للمال وعدم خداعه به لأوضح دليل على صدق لهجته، وحُسن نيته. فكر عثمان في طريق الخلاص من أبي ذر فلم ير وسيلة أجدى من النفي، أما القتل فيصرفه عنه جلالة قدره، وسابقته في الإسلام، فسيَّره إلى الشام حيث تسكن شيعة بني أمية، والأمير هناك أموي، فلا خوف على أهلها والعاقبة على سلامة، والشام في نظر أبي ذر مقدّمة على غيرها من البلدان غير المدينة، ولو جعل له الخيار في تعيين المنفى لما عدا الشام، لأنها الأرض المقدسة، وفيها قبور الأنبياء، وأرض الجهاد التي أريق عليها دماء المجاهدين في سبيل الله. دخل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً إلى المسجد فوجد أبا ذر نائماً فيه فضربه برجله، وقال : لا أراك نائماً في المسجد، قال : بأبي أنت وأمي غلبتني عيني فنمت فيه. قال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟ قال: ألحق بالشام فإنها أرض مقدسة وأرض الجهاد. وهناك يستطيع القيام بواجبه، وتأدية ما عليه من الحقوق اتجاه أمة محمد وأهل بيته الأطهار ويجد صاغياً لكلامه، ومستمعاً لقوله .. وصل أبو ذر إلى الشام ورأى أشياء لم يعرفها في المدينة وغيرها من قبل، رأى استئثاراً بالفيء، وتجبراً بالسلطان، وإعزازاً لمن أذلّ الله، وإذلالاً لمن أعزّ، وأموالاً تنفق على الملاذ والشهوات. فهذه القصور الشامخة وتلك المراكب الفارهة والملابس الفاخرة والخدم والحشم كلها للأمير وكلها من بيت مال المسلمين. وقف أبو ذر على باب دار معاوية وصاح: اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له، والعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، ودخل عليه بعدما بنى الخضراء وقال له: إن كان ذلك من مال الله فهي الخيانة، وإن كان من مالك فهو الإسراف، وأرسل له معاوية ثلاثمائة دينار يشتري سكوته بها، فأبى عليه وردّها إليه.

إن قلت كان اللازم على أبي ذر أن يحمل معاوية على الصحة لأنه من المجتهدين، وقد عمل بما أدّى إليه اجتهاده ، واقتضاه نظره ، فهو معذور ولا وجه للإنكار عليه ، قلنا في جوابه: إن هذا العذر لم يلتمسه أحد من المسلمين لمالك بن نويرة الذي استوجب القتل بمنعه الزكاة عن الخليفة، ولم يكن امتناعه عن جحود الوجوب وإنكار تشريع الزكاة، وكل ما قال: إن زكاة أغنيائنا نردها على فقرائنا، فكيف يلتمس هذا العذر لمعاوية وقد منع أموال المسلمين بأجمعها من زكاة وغيرها عن الخليفة وتصرّف بالبيضاء والصفراء؟!

شيعة جبل عامل وأبو ذر:

من المشهور قديماً وحديثاً على ألسن العامليين والكثير من أهل العراق وإيران أن مبدأ التشيّع في جبلٍ عامل مصدره أبو ذر، والشهرة بين العقلاء تكشف أن هناك دليلا صحيحا قد خفي علينا على نحو لو اطلعنا عليه كما اطّلع عليه أولئك العقلاء لأوجب لنا الوثوق والاطمئنان بأصل المشتهر وصحته، لأن العاقل الذي هو من ذوي البصائر والتمييز يعلم أن الحكم بلا دليل باطل، وأن استناد شيء لشيء بدون وجود الربط بينهما، والنسبة المصححة للإسناد قبيح، لا يسوغ للعاقل فعله، ولا التلفظ به، فمع علمه بقبح الكذب وعلمنا بصحة عقله والتفاته لا يجوز أن نجعله كاذباً بكلامه، ومبطلاً بقوله، لجهلنا بالسبب وعدم اطّلاعنا على الدليل، فالذي يوجبه المنطق الصحيح، وتقتضيه الحكمة حمل أفعال العقلاء وأقوالهم على الصحة ما لم يعلم الخطأ، وينكشف الفساد. وما قرّرناه هو من مرتكزات العوام حتى النساء والأطفال، فكثيراً ما يطلقون كلامهم في المحاورات مجرداً عن بيان السبب اعتماداً على شهرة العقلاء، فإذا قيل لهم: من يقول ذلك أجابوا أن الناس تقوله، فقول الناس حجة عندهم ومتبع في نظرهم، وإلى الآن لم يتبين لنا خطأ هذه الشهرة، ولم يتّضح كذب القول إن سبب التشيع أبو ذر، بل الاعتبار بعضد الشهرة، وربّما أيّدها الدليل، لأن الأخبار التي حدّثتنا عن نفيه نطقت أن النفي كان إلى الشام ولم تخصصه بدمشق أو بلد خاصّة، والشام اسم قطر وناحية تشمل بلادا كثيرة، ومن جملتها جبل عامل، وما كان أبو ذر بعد أن وصل إلى دمشق أن تفوته زيارة الأنبياء ومقاماتهم الموجودة في جبل عامل، كيوشع وشمعون وغيرهما. فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قال له: سيخرجونك من مسجدي هذا قال: أذهب إلى الشام الأرض المقدسة، ولم يكن التقديس المحبوب لأبي ذر محصور بدمشق ومقابرها، فإن لجبل عامل النصيب الأكبر منه، بما حواه من مقابر الأنبياء، فلا بدّ لأبي ذر من قصدها للزيارة والتشرف بمشاهدتها والتجول في تلك القرى والأرياف القريبة منها، وإرشاد أهلها إلى الحق الذي يعتقده من ولاية علي، والتمسك بحبل أهل البيت. وجاء حبيب بن مسلمة الفهري إلى معاوية قال له: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام فتدارك أهله إن كان لك فيه حاجة، وكتب معاوية إلى عثمان: أما بعد فإن أبا ذر يصبح إذا أصبح ويمسي إذا أمسى وجماعة من الناس كثيرة عنده، فإن كان لك حاجة في الناس قبلي فأقدم أبا ذر إليك، فإني أخاف أن يفسد الناس عليك .. وما إفساد الناس على معاوية وعثمان إلا الطاعة والولاية لأهل بيت النبي

الكريم الذي يروي عنه أبو ذر: " إن مثل أهل بيتي كسفينة نوح في لجة البحر، من تمسّك بها نجا ومن تخلف عنها غرق " ولم تبنَ المقامات في جبل عامل باسم أبي ذر كالمقام الذي في ميس القريبة من يوشع والصرفند ما لم يدخلها ويمكث فيها أيّاما، وأمّا بناؤها على اسمه لكونه من شيعة علي وصحابيا جليلا فهذا وحده غير كافٍ ، فإن سلمان الفارسي والمقداد وعمّارا من الذين تعتقد الشيعة فيهم ذلك، ويقدسونهم كتقديس أبي ذر. ولأي شيء اختاروا أبا ذر دون أصحاب الحسين (ع) الذين يقيمون له ولهم الذكرى كل عام عشرة أيّام، ويعقدون حفلات العزاء كل شهر وأسبوع؟ فشهرة العقلاء ودعوة أبي ذر لأهل البيت، وقول حبيب لمعاوية: قد أفسد عليكم أبا ذر الشام، وكتاب معاوية بذلك لعثمان، وتأسيس المقامات على اسمه، ومقابر الأنبياء في جبل عامل، كلها تدل أن السبب في التشيع أبو ذر، وإذا لم يفِ كل واحد من هذه الأمور بالمطلوب، بحيث تركن إليه النفس، فمجموعها وانضمام بعضها إلى بعض يحصل منه الوثوق والظن القوي لمن كان من أهل الإنصاف والإدراك القويم .

وروي عن أبي جهضم الأزدي عن أبيه أن أبا ذر في الشام كان يقوم في كل يوم فيعظ الناس، ويأمرهم بالتمسك بطاعة الله ويحذرهم من ارتكاب المعاصي، ويروي ما سمعه من رسول الله في فضائل أهل بيته عليه وعليهم السلام، ويحضّهم على التمسك بعترته، ويقول: أما بعد .. فإنا كنا في جاهليتنا قبل أن ينزل علينا كتاب الله ويبعث فينا الرسول ونحن نوفي بالعهد، ونصدق الحديث، ونحسن الجوار، ونقري الضيف، ونواسي الفقير، فلمّا بعث الله فينا رسول الله، وأنزل علينا كتابه كانت تلك الأخلاق يرضاها الله ورسوله، وكان أحق بها أهل الإسلام، وأولى أن يحفظوها، فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا، ثم أن الولاة قد أحدثوا أعمالا قباحا لا نعرفها، من سنّة تطفى، وبدعة تحيى، وقائل بحق مكذَّب، وأثرة لغير تقى، وأمين مستأثر عليه من الصالحين.

كتب معاوية إلى عثمان يخوفه من أبي ذر واجتماع الناس حوله، فكتب عثمان إلى معاوية: أن احمل جندباً إليَّ على أغلظ مركب وأوعره، فأرسله معاوية مع جماعة قساة القلوب، لا يعرفون معنى الإنسانية والرحمة، فأذاقوه أنواع البلاء في مركبه ومأكله حتى منعوه النوم، وما وصل إلى المدينة إلا بعد أن خارت قواه، وسقط لحمه عن جسده من الجهد، وحظر عثمان على الناس أن يجالسوا أبا ذر أو يكلموه، فمكث كذلك أيّاماً ثم أتي

به فقال أبو ذر: ويحك يا عثمان، أما رأيت رسول الله ورأيت أبا بكر وعمر، هل هديك كهديهم، أما أنك لتبطش بي بطش جبَّار، قال له عثمان: اخرج من بلادنا، قال أبو ذر: ما أبغض إلي جوارك فإلى أين أخرج ؟! قال: إلى حيث شئت، قال: أخرج إلى الشام، قال: إنما اجئتك منها لما قد أفسدتها، أفأردك عليها ! قال: إلى العراق، قال: لا.. إنك إن تخرج إليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن بالأئمة والولاة. قال: إلى مصر، قال: لا قال: إلى أين أخرج ؟! قال: إلى البادية قال أبو ذر: أصير بعد الهجرة أعرابياً ؟! قال عثمان: نعم .. وسأله عن أبغض البلاد إليه ؟ فقال: الربذة، فسيّره إليها على نحو ما سيّره معاوية من الشام، من خشونة المركب وسوء المعاملة. وقال الراوي: أخرجوه ملهوزاً (١)، مضروباً بالعصي، وقد تقدّم أن لا يشيّعه أحد من الناس، فبلغ ذلك أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فبكى حتى بلّ لحيته بدموعه وقال: أهكذا يصنع بصاحب رسول الله ؟! ، ثم نهض ونهض معه الحسن والحسين (ع) وعبد الله بن عبّاس، وجماعة من بني هاشم، ولحقوا بأبي ذر وشيّعوه، فلما بصر بهم أبو ذر حنَّ إليهم وبكى عليهم، وقال: بأبي وجوه إذا رأيتها ذكرت بها رسول الله، وشملتني البركة، ثم رفع يديه إلى السّماء وقال: اللهم إني أحبهم ولو قطعت إرباً إرباً في محبتهم ما زلت عنها ابتغاء وجهك والدّار الآخرة .. ارجعوا رحمكم الله، والله أسأل أن يخلفني فيكم أحسن الخلافة. فودَّعه القوم وودَّعهم وكلّ يبكي على فراق صاحبه .

لقد تتبعت سيرة أبي ذر، واستقرأت أفعاله وأقواله التي لم أنقل في هذا المختصر منها إلا اليسير نظراً لضيق المجال وعدم اتساعه للزيادة، فلم أجد حركة أو لفظة إلا وأحسُّ فيها تصريحاً أو ضمناً حب هذا الرجل لأهل البيت، وإخلاصه لهم، وبغضه لأعدائهم، حتى كأنه لقد تكوّن من حبهم، وجُبل على ولايتهم، وقد وقف أيام حياته واستغرق ليله ونهاره بذكرهم، فهو تحت الضرب يثني عليهم، وفي المنفى يبكي لفراقهم، ولا يسكته الإرهاب والشدة عن الدعوة لهم، وكأن منزلة بني هاشم بلغت من العظمة في قلبه إلى حد كاد يقارب درجته البغض الكامن في قلوب بني أمية لهذا البيت الطاهر. وقوله: اللهم إني أحبهم ولو قطعت إرباً إرباً في محبتهم أوضح دليل على أن ما ناله من الأذى إنما كان لمحبته لهم، وإن ولايتهم ونشر

---

(١) الملهوز : الذي خالطه الشيب ، واللهز : الدفع والضرب بجمع اليد في الصدر وفي الحنك مثل اللكز.

فضائلهم عهد لله في عنقه، وأمانة يجب عليه تأديتها، وكنه يقول لربه: قد أدَّيت أمانتك، وقمت بالواجب، وخرجت عن العهدة بالامتثال والإطاعة، وشاهدي نفيي وضربي وإهانتي في سبيل محبة أوليائك وأحبّائك .

أبو ذر في الربذة :

خرج أبو ذر إلى الربذة سامعاً ساكتاً كما أمره النبي: " إذا أخرجوك اسمع واسكت ولو لعبد حبشي" وقد عزَّ عليه فراقه لحرم الرسول وأهل بيته، وبعده عن المهاجرين والأنصار، وصعب عليه الإقامة في أرض لا أنيس فيها ولا سمير، وفي أرض كان فيها على غير الإسلام، وآلمته سكنى البادية، وأن يصير أعرابيا بعد أن كان صحابياً جليلا. هاجر إليها مع أهله وعياله، وتوالت عليهم الخطوب والأعراض، وعانوا أشدّ المصاعب والآلام، فمات فيها أهله، وهلكت غنمه بداء أفناها عن آخرها، وتوفي ولده الأكبر ذر، فوقف على قبره وقال: قد شغلني الاهتمام لك عن الاغتمام بك، اللهم إنك فرضت لك عليه حقوقاً ولي حقوقاً، وقد وهبت حقوقي له فهب له حقوقك، فإنك أولى وأكرم. ومات له في الربذة ولدان غير ذر، وما أهلك أهله وماشيته إلا الجوع وحرُّ البادية وبردها، حيث لا زرع ثمة ولا ضرع ولا ظل. فكّر أبو ذر بما آل إليه أمره وأمر ولده فلم يجد طريقاً إلا الرجوع إلى المدينة والمطالبة بحقه الذي فرضه الله له في كتابه، وجعله في بيت المال الذي مفاتيحه بيد عثمان، فخلف أهله في الربذة وقال: امكثوا ولا تحزنوا، سآتيكم من المدينة بما يسد حاجتكم من القوت والملبس، فسكّن روعهم وخفف من وجدهم، وأخذ عصاه وتوجه نحو المدينة يطلب عطاءه من عثمان، وانتظره أهله بفارغ الصبر، يتطلعون إلى الطريق بشغف وحرقة، لا يدرون متى يرجع إليهم بالطعام والكسوة. وصل أبو ذر إلى المدينة ودخل على عثمان والناس حوله، قال : إنك أخرجتني من أرض إلى أرض ليس بها زرع ولا ضرع إلا شويهات (١)، وليس لي خادم ولا ظل يظلني إلا ظل شجرة، فأعطني خادماً وغنيمات أعيش فيها، فحوّل عثمان وجهه عنه. قال له أحد الجالسين: لك عندي ألف درهم وخادم وخمسمائة شاة، فقال أبو ذر: أعط خادمك وألفك وشويهاتك إلى من هو أحوج مني، فإنما أسأل حقي في كتاب الله. رجع أبو ذر إلى الربذة كما خرج منها، وصفق أهله طرباً ، وصاحوا فرحاً لقدومه، وظنوا أنهم نالوا ما

---

(١) الشويهة : تصغير الشاة ، وهنا جمع .

كانوا يأملون، ولما أيقنوا أنه فارغ الجيب والجراب، وألفوه كما فارقهم، تبدَّل صياح الفرح بدموع الحزن، والتصفيق بالأكف باللطم على الوجوه. مرَّ على أبي ذر وأهله ثلاثة أيَّام لم يطعموا فيهن شيئاً، قال لابنته وقيل امرأته: قومي بنا نطلب القت(1) (نبت له حب) في الرمل، بحثا عنه فلم يجدا له أثرا، وقد غلب الجوع على أبي ذر، وأودى بقواه ولم يعد يستطيع الحراك لضعف بدنه وكبر سنه، فعمل وسادة من الرمل، ووضع رأسه عليها وانقلبت عيناه. أما ابنته فقد تغلب شبابها، وصغر السن على الجوع وبقيت مالكة لقواها، واستطاعت الذهاب والمجيء، وصاحت: وا أبتاه ، كيف أصنع بك وأنا وحيدة وفي فلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً ؟! فقال لها: اصبري وابصري الطريق، قالت: إني وقد ذهب الحاج، وكانت تشد إلى الكثيب فتنظر وتتبصر ثم ترجع إلى أبيها فتمرضه، وهكذا دواليك، حتى رأت رجالاً على رحالهم ورأوها، فتقدموا منها وقالوا: ما شأنك يا أمة الله ؟! قالت: امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه، قالوا : ومنقالت أبو ذر صاحب رسول الله ففدوه بآبائهم وأمهاتهم وأسرعوا حتى دخلوا عليه، فقال لهم: ابشروا، سمعت رسول الله يقول لنفر كنت فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك أحد إلا وقد هلك بين جماعة، والله ما كذبت ولا كذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها، وإني أنشدكم الله أن يكفنني رجل كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً (حاجبا)، وليس من أولئك النفر إلا قارف بعض ما قال إلا مالكا الأشتر، فإنه كان من جملة من كانوا مع الركب، قال: أنا أكفنك ياعم في ردائي هذا، وفي ثوبين من غزل أمي، قال: أنت تكفنني، فكفنه الأشتر وغسَّله وصلى في النفر الذين حضروه، وكان ثمن كفنه أربعة آلاف درهم. لم ينتقل أبو ذر من هذه الدار إلا بعد أن ألقى الحجة على كل عالم قد أهمل وظيفته، وسكت عن تلاوة آيات الله خوفا من شر المضلين، أو طمعاً في خيرهم، وإن سيرة أبي ذر سلوة وعزاء لكل مصلح أصيب بنفسه وولده وماله، فأبو ذر حجة على المهمل المتكاسل، وسلوة للمجاهد الصابر، وقدوة للجميع، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا .

---

(1) القت : حب بري يأكله أهل البادية بعد دقّه وطبخه. الواحدة: قتة.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٢٨ الجزء ٢، الصادر في صفر سنة ١٣٥٧هـ الموافق نيسان (ابريل) ١٩٣٨م، ص (١٤٠ - ١٤٧).

(٣) صورة من أخلاق رسول الرحمة
(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

كل نبي مرسل لا بدَّ وأن يظهر على يده بعد البعث وإعلان الرسالة الإلهية معجزة تشهد بنبوته وتدل على صدقه لتتم بها الحجة، ويؤمن من آمن عن بينة، ويكفر من كفر عن بينة، وشرطها أن تكون خارقة لعوائد الأمة المبعوث إليها، أما نوعها فيكون بحسب المصلحة وعلى طبق ما تقتضيه الحكمة، من ملائمة العصر وما يليق بأهله. فجاء موسى بما يشبه السحر بظاهره، حيث كان المعروف في عصره فن السحر وعمله، وأبرأ عيسى الأكمه والأعمى بإذن الله تعالى، لأن الطب في أيّامه أرقى العلوم وأهمها عند قومه، وكان القرآن معجزة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه لم يكن لشيء من التقدير والشأن عند العرب سوى الفصاحة والبلاغة، فالقرآن بفصاحته وبلاغته وما حواه من الأخبار والقوانين معجزة قاهرة وحجة دامغة.

أما محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فهو بنفسه المعجزة الوحيدة الملائمة لكل عصر، فإن وجود مثله منذ بدء الوجود إلى منتهاه خرق للمعتاد، فلم يشابهه عظيم، أو يماثله نبي، فهو نبي العظماء، وسيّد الأنبياء. وإذا كانت الغاية المنشودة من المعجز حمل الناس على الحق والتسليم له فإن الكثير منهم سمع كلام الله وقرأ آيات الذكر ولما يدخل الإسلام في قلبه، وما زادته إلا بعداً ونفوراً، وعندما شاهد أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وشمائله دخل في دين الله، وانقاد للحق قلبه، واطمأنَّت بالإسلام نفسه، فكانت مكارم أخلاقه وما تحلت به نفسه من الرفق والرحمة السبب الأكبر في انتصار دين الإسلام وانتشاره، ودخول الناس فيه أفواجاً، وكان أثرها في إعزاز الدين وعلو شأنه أعظم من أثر السيف والحروب وجميع المعاجز التي جاء بها. كان ليهودي دين على الرسول فتقاضاه، فقال له: يا أخا اليهود ما عندي ما أعطيك، قال: يا محمد لا أفارقك حتّى تقضيني حقّي، فجلس النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) معه إلى أن صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فتوعد الأصحاب اليهودي وتهددوه، فنظر إليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وقال: ما بعثني ربي حتى أظلم معاهداً ولا غيره، قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. لم يتغلب على قلب اليهودي واستخراج الكفر منه والصفات المذمومة ما شاهد من المعاجز العظيمة، وانقاد للين والرفق وطيب الأخلاق، معترفاً بفضل صاحبها، وصدق دعواه

عاملاً بكل ما يؤمر به. فمعاملة الرفق والإحسان كثيراً ما تكون طريقاً إلى بلوغ المقصود، ويكون لها الأثر الأكبر في الوصول إلى البغية، ولا يحسن بأهل السلطان والقوَّة أن يستعملوا العنف والشدة إذا أجدى الرفق وأفاد المعروف، فإنه أليق بالملوك، والإحسان أجدر بمقامهم، ولم يكن رسول الله في المرتبة التي رتبه الله فيها لولا أخلاقه الجميلة، ومحاسنه المشهورة.

إذا فقد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الرجل من أصحابه ثلاثة أيَّام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، يؤتى له بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسميه فيضعه في حجره، وربما بال فيصيح به بعض من حضر فيقول: لا تزرموا (١) بالصبي، فيدعه حتى يقضي، وإذا انصرف الصبي وأهله غسل ثوبه، وإذا كان مع الركب سار في آخره، يتفقد الضعيف والعاجز فيردفه خلفه، ويطايبه بالحديث، لا يثبت عنده درهم ولا دينار، فإذا فضل ولم يجد أحداً لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يدَّخر إلا قوت عامه من يسير ما يجد من التمر والشعير ثم يعود إليه فيؤثر منه فيحتاج قبل انقضاء العام، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، يخصف النعل ويرقع الثوب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم ويقطع اللحم، يجيب دعوة الحر والعبد ولو على اليسير من الطعام، لا يثبت بصره في وجه أحد، يقبل الهدية ولو جرعة من لبن، ويرد الصدقة مهما كانت، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، يأكل ما حضر ولا يسأل ما لا يوجد، يركب ما أمكنه من فرس وحمار وبغلة ويردف خلفه فإن لم يمكن مشى راجلاً ، يجالس الفقراء ويأكل مع المساكين ويناولهم بيده، يتألف أهل الشرف بالبر ويكرم أهل الفضل بالأخلاق، يصل الرحم من غير أن يؤثره على غيره إلا بأمر من الله، يقبل المعذرة ولا يتحامل على مخلوق، يكثر التبسم ويضحك من دون قهقهة، لا يرفع على عبده وأمته في مأكل وملبس ولم يشتم أحداً، وما قصده أحد بحاجة إلا وقام معه وصابره حتى تُقضى، يبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة، ويؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن جاء الثاني ولم يجد ما يجلس عليه ناوله ثوبه الذي عليه، لا يقول إلا حقاً في الرضى (٢) والغضب والجد والهزل، يأكل الصيد ولا يصيده.

---

(١) زرم الشيء : انقطع ، أي لا تقطعوا بول الصبي ، واجعلوه يكمل .

(٢) الأصح والأفصح: الرضا.

ولا تكثر هذه على الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويطهر النفوس من الدنس، كي تقدم على خالقها نقيةً من كل عيب، وترجع إليه راضيةً مرضية، ولا عجب أن كانت سبباً لتقوي الإسلام، وعلة لتفاني الأصحاب في سبيل نصرته والجود بالنفس والمال والولد تلقاء مرضاته، وقد خالط حب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لحمهم ودماءهم، وبلغ من تعظيمهم لشخصه الكريم (أنه لا يتوضأ إلا ابتدروه وضوءه، ولا يبصق أو يتنخم (١) إلا تلقوا بصاقه وتخامته بأكفهم ودلكوا بها وجوههم وأجسامهم، ولا يسقط منه شعرة إلا ويلتقطونها، وإذا أمر امتثلوا أمره، وإن تكلموا خفضوا أصواتهم، ولا يحدُّون النظر إلى وجهه تعظيماً له) وقد جمع بين أخلاق المساكين وهيبة الملوك. قال عروة بن مسعود: أتيت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد، ولما رأيته ارتعدت من هيبته، وقال البراء بن عازب: لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) عن الأمر فأؤخره سنين من الهيبة. فصاحب الإيمان القوي والنفس العظيمة أشد هيبة من أهل القصور وأرباب الذهب والفضة، لأن هيبتهم مستعارة من أمر زائل، وناشئة عن الجمادات والصور الخيالية من الإحساس والروح، تندثر وتزول عند أول حادث يعرض عليها، أما هيبة الإيمان وعظمة النفس فهي ثابتة الأصول والقواعد، باقية ببقاء خالقها، لا يقوى على إزالتها شيء في الوجود، وإن الجمع بين الرفق واللين والهيبة التي دونها هيبة الملوك والعظماء معجزة عظمى، ومن خوارق العادات وأشبه شيء بالجمع بين الضدين، والتآخي بين المتباعدين وفي ذلك سر عظيم، أما الهيبة فتدل على الجلال والعظمة، وأما الرفق والرحمة فتكشف عن العدل والإنصاف، وإن تلك العظمة عظمة واقعية، وذاك الكمال كمال حقيقي لا وهمي. هذه صورة بسيطة من أخلاقه الشريفة أخذناها من بعض ما ذكره العلماء وأهل السير والتاريخ، والجهة التي يهمّنا التعرض لها أكثر من باقي الجهات الأخرى العديدة المتعلقة بهذا الموضوع الجليل هي أن هذه الأخلاق والمزايا الفاضلة التي تحلت بها نفسية الرسول هل هي فطرية ناشئة عن صفاء فطرته، ومسببة عن ذاته المقدسة، بدون أن يكون لإرشاد المرشد، وتعليم المعلم مساس ولا ربط، أم أنها مكتسبة وإن للمؤدب والمربي يداً في أصل وجودها وتحققها؟، أما النتيجة من هذا البحث فهي إمكان وجود

---

(١) النخامة: ما يلفظ الإنسان من البلغم ونحوه من صدره أو من خياشيمه.

رجل كامل بفطرته، وكماله غير مأخوذ عمن سواه، هذا إن أوصلنا الدليل إلى أن أخلاق الرسول غير مكتسبة، وأما إذا كانت نتيجته أن كماله مكتسب عن التربية والتعليم كان من البديهيات المسلمة احتاج كل إنسان إلى معلم، وإن بلغ من عظمة النفس وصفاء الذات ما بلغ، فإذا احتاج النبي (ص) إلى مرشد كان غيره أشد حاجة ، وأعظم افتقاراً .

والذي نزل به القرآن، وأثبته منطوق الآيات الصريح أن أخلاق الرسول تسربت إلى نفسه الشريفة بواسطة التربية والتعليم، وإن كل من ينشد الكمال يفتقر إلى أستاذ، مرسلاً كان أو غيره، ولا يفترق الرسول عن سواه إلا في المعلم وتعيينه، فأستاذ الرسول هو الله سبحانه، وأستاذ غيره مثله في الإنسانية، أرقى منه علماً وكمالاً، ومتى كان التعليم صحيحاً، والأستاذ ناصحاً، يعلّم العلم للعلم، ونفس التلميذ خالصة من الشوائب والكدورات تحقق الكمال، واستند وجوده إلى كل من الأستاذ والتلميذ، وكانت الفضيلة ثمرة لجهود التلميذ وسلامة عقله واعتدال طبعه، وإلى اعتناء المعلم وصحة تعليمه. وأيّ نفسية أزكى من نفسية الرسول، وذات أنقى وأطهر من ذاته، وعقل أصدق من عقله، وأي تعليم أصح من التعاليم الإلهية، وأستاذ أشد اعتناء بتلميذه من الله برسوله وأمين وحيه، فأدّبه بتعاليمه القدسية، ونبّهه إلى كل حركة من حركاته: " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " (آل عمران : ١٥٩) " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (الأعراف : ١٩٩) " واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " (الشعراء : ٢١٥) " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " (فصلت : ٣٤) " فاصفح عنهم وقل سلام " (الزخرف : ٨٩) " واهجرهم هجراً جميلا " (المزمل : ١٠) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، والذي يلفت النظر كثرة الأوامر الواردة في القرآن التي تأمر النبي (ص) بالصبر: " واصبر وما صبرك إلا بالله " (النحل: ١٢٧) " فاصبر على ما يقولون " (طه : ١٣٠) فاصبر إن وعد الله حق " (غافر : ٥٥) " فاصبر لحكم ربك " (الإنسان : ٢٤) فاصبر صبراً جميلا " (المعارج : ٥) ومثلها آيات متعددة، وفيها دلالة واضحة على عظيم فائدة الصبر وحسن عاقبته وأنه من أمهات الفضائل .

فأخلاق الرسول لم تكن في المرتبة التي وصلت إليها لولا التربية الإلهية، وهو القائل: أنا أديب الله، ومن نسب الكمال لنفسه وادّعى لها الفضل ولم يكن له عهد بالتربية ولا سابقة بالتعليم، أو تعلّم علماً ناقصاً، أو كانت نفس

التلميذ غير نقية فقد ادّعى أمراً لا يصدقه العقل، وليس بإمكان العقلاء أن تعترف له بالكمال، أو بشيء من الفضيلة.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٢٨ الجزء ٤، الصادر في ربيع الآخر سنة ١٣٥٨هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٣٨م، ص (٣٤٠ - ٣٤٢).

(٤)الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة

(وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرَّق بينكم إلا خبث السَّرائر وسوء الضمائر) الإمام علي بن أبي طالب (ع)

يفكر رجال الإصلاح والعمل في مصر والعراق وبلاد عاملة الذين شهدت أفعالهم بطيب السرائر وحُسن الضمائر، يفكرون ليعملوا للوحدة الإسلامية، وتوحيد الصفوف بين فرقها، على الأخص السنة والشيعة، ويتبادلون الآراء، وتدور بينهم الأحاديث والرسائل، يبحثون عن الأبواب والطرق السهلة القريبة كي لا يضِلوا السبيل، ويدخلوا البيوت من أبوابها، وإنها فكرة حيَّة لم نعهد لها مثيلا في تاريخ الإسلام، وليس معنى عملهم للوحدة الإسلامية أن الروابط الدينية منتفية بين السنة والشيعة كما هو المفهوم من هذه الجملة لو خليت وطبعها، ولم تحف بالقرائن، وأن الخاصة تريد أن تبتدع عقيدة جديدة لم يقرها الإسلام والمسلمون، ثم يدعون السنة والشيعة إلى التدين بها، أو أنها تحاول جعل السنة شيعة أو الشيعة سنة كما قد يظن البعض، كلا فإن هذا بعيد عن أذهان القائمين بهذا المشروع كل البعد، لأنهم يعلمون حق العلم أن مثل هذا يتولد منه خطر أشد من الخطر الذي فيه المسلمون، وضرراً أعظم من الضرر الذي يراد دفعه، وإن طلب الوحدة من هذا الباب طلب للتفرقة وشتات المسلمين، وكيف يدعون للوحدة الإسلامية بالمعنى المذكور وهم على علم أن بين السنة والشيعة وحدات إسلامية لا وحدة واحدة.

وقد حد الله الوحدة الدينية في كتابه العزيز، وبيّنها بآية محكمة لا تشابه فيها، فلم يبق مجال لمفسد يحملها على آرائه، ويؤولها حسب أهوائه: " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين " (التوبة : ١١) والتوبة في الآية ترك الشرك، فركن المؤاخاة في الدين وقوامها أمران يرجع أحدهما إلى الأصول وهو ترك الشرك، والثاني إلى الفروع وهو إقامة الصلاة، وإتيان الزكاة، فمدار الوحدة عليهما، ويوجد التعدد بانتفاء أحد هذين، وإن كان النسب واحداً، قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان " (التوبة : ٢٣) وترك الشرك ووجوب الصلاة والزكاة من ضروريات الإسلام عند السنة والشيعة، وهناك روابط عديدة بينهما، يحملنا وضوحهما على تركها، فالإخاء الديني موجود، والروابط كثيرة، ولكن بترت آثارها السياسة، وحجبتها عن التأثير والنمو

يد العدو ومبغضو الإسلام، ورجال الإصلاح اليوم يريدون رفع ذلك الحجاب، وقطع تلك اليد العادية لتأخذ الوحدة الإسلامية بمفعولها، وتؤثر أثرها، وبتعبير أصح إن الوحدة الإسلامية بحسب طبعها توجب التعاضد والتعاون، كاليدين في الجسم الواحد، تغسل إحداهما الأخرى، فهي بنفسها لا نقص فيها ولا قصور ولكنها ليست بشيء لو نسبت إلى تقدم المسلمين ورقيهم ما لم يضف إليها العمل والإخلاص نظير غرس الشجرة في الأرض، فإنها بحسب وضعها تقتضي النمو وحمل الثمر، ولكنها تمسي حطباً بأقرب وقت إن فقدت السقي والحرث، ورجال الإسلام يعملون بإخلاص لإحياء الوحدة التي غرسها الدين لتثمر الطيب، وتحصل العواقب المحمودة، فالوحدة بلا عمل جزء العلة، وهي بمنزلة العدم، وهما معاً علة تامة والسبب الوحيد الذي ينتج المطلوب.

والمصلحة تقضي على جميع المسلمين، السنة والشيعة إجابة هذه الدعوة الصالحة، خاصة أهل العلم والدين، فسيكون لهم الحظ الأوفر من خيرها، ويتبدل الوضع الحاضر بخير منه، والشيعة أول المجيبين لهذه الدعوة، والعاملين بها عن إخلاص، وإن ما أبدته الشيعة اتجاه فلسطين من الإضراب والمظاهرة وجمع الإعانات والاحتجاجات من رؤساء الدين وزعماء البلاد، وما نادت صحفها به، وأبدته من شعائر الحزن إلا مظهر من مظاهر الوحدة الإسلامية، وما زالت الشيعة تتقرب إلى السنة وتدعوهم إلى الاتحاد والتعاون قولاً وفعلاً، قرأنا ذاك كله في مجلة العرفان الغرّاء، وشاهدناه عياناً من أفعال صاحبها المصلح العارف، ولم يبدر من أحدهم ما يشعر بالتباعد والعداء.

وإنّا نعلق أملاً كبيراً على المجلس الإسلامي الذي يدعو إلى تأليفه شيخ الأزهر للنظر في أحوال المسلمين، أمراضهم وعللهم، وسيكون له الأثر الجميل، والعاقبة الحسنة، هذا إذا لم يمتد إليه يد أناس ينتسبون إلى الإسلام في الظاهر ويبطنون الحقد عليه، ويهدمون الدين باسم الدين، كالنشاشيبي وموسى جار الله وأضرابهما من المستأجرين الذين هم أشد على الإسلام من جيوش الشرك، والعجب من الأستاذ الأكبر وشيخ الأزهر كيف لم يظهر استياءه من هؤلاء، وهم يعملون بكل قواهم لتفريق الكلمة، وتمزيق الشمل والوحدة التي يدعو إليها سماحته، وغداً يأتي النشاشيبي وجار الله يرفلان بثوب الإصلاح والإخلاص طالبين الدخول في هذا المجلس،

وجعلهما من الأعضاء العاملين، وأين(١) شيعي يطمئن قلبه إلى جار الله ومن يضرب على وتره وهو الذي نال من عقائد الشيعة وأئمتها وعلمائها، ونعتهم بأشنع الصفات، وعبَّر عنهم بأقبح الألقاب والأسماء، وطبَّق الآيات التي نزلت بالمشركين والمنافقين والكفار على الشيعة ورجالها، وأنهم هم الذين: " يحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون " (التوبة : ٥٦) وإن التشيع روحه النفاق وثمرته الكفر، ثم بعد هذا القول والحكم يحلف بالله أنه لا يريد إلا وجهه، وأنه لم يؤلف كتابه إلا لهذه الغاية، أي تكفير الشيعة، وإخراجهم عن روح العدل والإسلام، فالمجلس الذي يحوي أمثال هؤلاء كيف يقرب بين طوائف المسلمين ومذاهبهم، فإنهم إذا دخلوا أفسدوا على المسلمين مصالحهم وسعوا للخراب قدر جهدهم، ونحن نقول هذا تنبيهاً لأذهان الساعين للوحدة التي يحبها الله ورسوله ليكونوا على بصيرة من أمرهم، ويأتي عملهم بالنتيجة المطلوبة، وليس القصد أن أوجد من كلامي مانعا من التفاهم بين المسلمين، فإني من المتطوعين في هذا السبيل، وإنما غرضي أن أسد الطريق في وجه من يسعى في الفساد، ولا يتمنى للمسلمين إلا العثرة والنكابة.

---

(١) أتصور الشيخ يقصد " وأيُّ " ولعلَّه خطأ مطبعي، وذلك حسب ما يفهم من سياق الجملة.

❁ مجلة العرفان ، المجلد ٢٨ الجزء ٦ ، الصادر في رمضان سنة ١٣٥٧هـ الموافق تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨م ، ص (٥٧٧ - ٥٧٩) .

(٥) سيدة الطف
﴿ زينب بنت أمير المؤمنين ﴾

قد تصدى لدرس نهضة الحسين (ع) فلاسفة الشرق والغرب وكبار حملة الأقلام والعلماء من سائر الطوائف والأديان في مختلف الأقطار والعصور نظراً لما لها من الأهمية وعظم الأثر في الدين والسياسة والاجتماع، وبعد البحث والتحقيق اتفقت كلمة الجميع على الاستنتاج، ولم يختلفوا على الثمرة التي توصلوا إليها من درسهم وتنقيبهم، وهي أن غاية الحسين (ع) الوحيدة، والهدف الذي يرمي إليه من نهضته هو أن يظهر للمسلمين وللناس كافة الأسرار التي تضمرها بنو أمية، والكيد الذي تنويه للإسلام ونواميسه، ولنبي الإسلام وأهل بيته، وأن يزيد الذي تأَمَّر على المسلمين باسم الدين والإسلام هو منه براء، ويلعنه وأشياعه الدين والإسلام، وأنه ضال مضل لا يصلح أن يتولى أحقر أمر من أمور المسلمين، فضلاً عن هذا المنصب الخطير، الذي يملك به رقاب العباد، ويكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولهذه الغاية صحب معه الحسين (ع) إلى كربلاء نساءه وأطفاله، لتظهر بهنَّ أمية أحقادها، ولا يخفى على الأعمى والأصم ضلالها، وقد علم الحسين (ع) أن يزيد لا بد أن يقتله ورجاله، ويسبي نساءه وأطفاله، ثم يقوم هو وأشياعه يبررون أعمالهم، ويتأولون لقتله أنه خارجي خرج لطلب التأمر والإمرة على الناس، وسلب الأموال، وانتهاك الحرمات، وينشر الدعوة أن الحسين (ع) مستحق للقتل، مستوجب لكل ما حلَّ به، كما نراه ونسمعه في كل مكان وحين من عمل الحكومات المتمدنة من قتل المصلحين، وحبس الأبرياء باسم المجرمين، ومادة قمع الثوار، كما تفعله إنكلترا في فلسطين وأضرابها من الدول، يسحقون الحق بالقوة والماديات، ويلبسون الحق بالباطلِ بالدعايات الكاذبة وهم يعلمون، ولكن الله سبحانه لا يترك الحق مجهولاً، ولا يخلو الضعيف من ناصر، يقاوم المبطل بالبيان إن عجز عن حربهِ باللسان ينطق بالحق ويفوه بالصدق ويكشف عن وجه الحقيقة، ناعياً على المضلين عملهم، وعلى المفسدين ضلالهم، لا يداهن القوي مخافة قوته، ويسكت طمعاً برضاه وعنايته، نعم إن الحسين (ع) أيقن أنه مقتول لا محالة، وأن ابن زياد سوف يخطب من على منبر الكوفة والمسلمون بمشهد وبمسمع يقول: الحمد لله الذي قتل الكذَّاب ابن الكذّاب، ويجيب يزيد عندما يُسأل عن الرأس والسبايا إنه رأس خارجي يعثو في الأرضِ الفساد، ويأمرِ خطيبه في الشام بذم علي وأهل البيت، وتزين الشام فرحاً بالنصرِ، وسرورا بقمع الثائرين المخلين بالأمن الساعين بين العباد في الفساد. إذاً لا بد من

عالم قدير يعرف الحق ومَن أهله، وخطيب جريء لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يرهب القوة، ولا يهاب من ابن زياد وبطشه، ويزيد وطيشه، يقف في وجههما كاشفاً عن وجه الحق، وأنهما هما الطغاة الكفرة الخارجين من الإسلام، مُظهراً للمسلمين وجموع أهل الكوفة والشام أن الحسين (ع) قتل في سبيل الدين وإحيائه، وما خرج إلا على الظلم وأهله، ولم يمت إلا ليحيي العدل، ويستنقذ الأمة من الظلم والاستعباد، ويحرر رقابهم من العبودية والذل، ويغل يد الظالمين عن الظلم، ويرفع سلطة المستبدين عن الاستبداد، ويُعرِّف الناس بنوايا يزيد نحو الإسلام، وأن روح جده أبي سفيان فرعون محمد (ص) بين جنبيه. رأى الحسين أنه في حاجة إلى هذا المرشد الذي تجمعت فيه صفات الجلال والعظمة والجرأة والمقدرة، وأنه لولاه لذهبت الغاية المنشودة من جهاده واستشهاد رجاله، ولذهبت دماؤهم الزكية على غير جدوى وبدون طائل، ولكن من هو المبلغ لهذه الرسالة الكبرى، والمؤدي لتلك الأمانة العظمى؟ ولا يمكن القيام بهذا الحمل الثقيل إلا أحد أفراد أهل بيت النبوة ومعدن العدل والصدق، فإن الحمل الثقيل لا يقوم به إلا أهله، وأنها أمانة لا تقوى النفوس على حملها إلا من عصم الله وفطرت على الإيمان وطبعت على الحق، ولا تسلك منهجاً سواه. فكر الحسين (ع) بمن يؤدي هذه الرسالة ويقوم بهذا التكليف من أهل بيت الرسول وأبناء الوحي، أما الرجال فسوف لا يتركون إمامهم وسيدهم بل يردون مورده، ويستشهدون بين يديه، ولا يبقى منهم أحد، ووجد مطلوبه الذي لا تحصل البغية المنشودة إلا به، وجده في النساء، عند أخص الناس به وأقربهم إليه وأطوعهم لأوامره، أخته زينب بنت أمير المؤمنين علي، وبنت فاطمة بنت رسول الله (ص) التي ورثت العلم والبلاغة والصبر والجلد عن آبائها، والتي رسخ الإيمان في نفسها إلى حد لا تغلبه العاطفة، ولا تضعفه القوة والشدة، وهي وحدها التي بها الكفاءة أن تشاطر الحسين (ع) الجهاد، فيتولى هو جهاد السيف والسنان، وتجاهد هي في البيان واللسان، ويقومان معاً لتأدية هذه الرسالة العظمى، وإبلاغ الحجة التي بها إحياء الحق، وإماتة الباطل. فزينب هي التي ترد على ابن مرجانة ويزيد أباطيلهم، وتفند أقوالهم، وتلقي على أهل الكوفة والشام خطبها، ناشرة لدعوته، مبلغة حجته، وحينئذ يتم مطلوب الحسين (ع)، ويحصل له كل ما أراد، وتربح تجارته، ولا يكون مغبوناً بما نزل به وبأهله ما دامت أخته زينب كاشفة لأسرار نهضته، مبطلة للدعايات الكاذبة. إذاً لا بد وأن تكون رفيقته في سفره وعنده ساعة النزول والجهاد، ومع رأسه عند يزيد وابن زياد.

ثم إن هناك أمر (١) آخر له أهميته يقضي على الحسين أن يصحب معه زينب إلى كربلاء، أمر لا يقوم به غيرها، ولا يسد سواها مسدها. فالحسين (ع)لا بد وأن يصحب معه نساءه وأطفاله لتظهر أحقاد أمية بأجلى مظاهرها، وينكشف البغض الكامن في نفسها لدين الإسلام وأهله، ولا يبقى حجاب تستر به نواياها السيئة وطغيانها الممقوت، وإذا صحب الحسين عياله، ورأت الأطفال والنساء ما ينزل به من القتل، وبرجاله من الذبح، فلا بد أن تملكها الدهشة ويحل في قلوبها الذعر والخوف، فإن النساء والأطفال التي تفقد المعرفة والإدراك إذا شاهدت القتل نازلاً بوليها ملكتها العاطفة، وأهلكت نفسها من حيث لا تشعر، فإن لم يكن لها ولي يجمع شملها، ويدبّر أمرها هامت على وجهها في القفار، وألقت نفسها في الهلاك، وليس لهذه إلا من كانت لتلك، وهي ابنة والده زينب، فهي الولي العاقل والوصي المدبر والناصح الأمين والأم الحنون، فإن الصغار أولادها، والنساء إخوتها، وقد ألِفنها من قبل وتعوّدن على عطفها، فإذا فاجأهنِ الذعر والخوف لدن بها، وكانت لهن عزاء وسلوة، فتطيب خاطرهن وتُسكن لوعتهن، فوظيفة زينب يوم الطف القيام بهاتين الناحيتين، المحافظة على العيال، ونشر الدعوة الحسينية. وأنت إذا تأملت فيما يحتاجان إليه من المعرفة والمقدرة وقوة الإيمان والصبر، عرفت ما لهما مِن الأهمية والعظمة، وإنه ليأخذك العجب كيف يطلب من زينب أن تُسكن لوعة الأطفال والنساء عندما شاهدت المصيبة العظمى وإن وقع الرزية عليها أعظم، وإحساسها أشد وأقوى، وكيف تكون زينب لهن عزاء وسلوة، فإذا بمن يكون عزاؤها وسلوتها ؟! ثم أنك لا تستطيع وأنت الرجل العاقل الذي لا تربطك بآل الرسول رحم ولا قرابة لا تستطيع سماع تلك الرزية الكبرى، ولا تملك شعورك عند مرور صورتها في خيالك، إنك لا تستطيع سماع مصيبة كربلاء وقد مرَّ عليها ١٣٠٠ سنة، فماذا يكون حال زينب وهي بمشهدٍ ومرأى من كل ما وقع، من ذبح أخيها الحسين والعبَّاس قمر بني هاشم وأولاد أخيها علي الأكبر والقاسم، وأبناء عمها عقيل، وأولادها: محمد وعون وعبد الله أولاد ابن عمها عبد الله بن جعفر، وأنصارها مجزَّرين كالأضاحي، تصهرهم الشمس بحرّها. شاهدت ذلك كله ورأت المثلة والتشنيع، وما أصاب النساء والأطفال من العطش والسبي والسلب والحرق، وكانت تساق كالإماء والعبيد،

---

(١) الصحيح: أمراً، لأنه اسم إن مؤخر وجوباً، وحقه النصب لا الرفع، وهذا اشتباه عند الشيخ بكل يقين، أو عجلة في الكتابة دون مراجعة، وليس جهلاً منه.

معها رأس عمادها على رأس الرمح، إلى غير ذلك من المصائب والآلام، أليس عجيبا أن تبقى سيدة الطف في قيد الحياة بعد ذلك كله، جامعة لحواسها، مالكة لشعورها، محافظة على العيال، عاملة بوصية أخيها، قائمة بكلا الجهتين (١) أحسن قيام، وإن النساء لتبلغهن الرقة، وتملكهن العاطفة، وإذا قرأت وقعة كربلاء، ومرَّ بك أن سيدة الطف باغتت أخاها ليلة مقتله وهو يصقل سيفه ويقول :

يا دهرُ أف لك من خليلِ	كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحبٍ وطالبٍ قتيل	والأمرُ في ذاك إلى الجليل

فصرخت نادبة أخاها، ثم خرجت مغشية عليها، غائبة عن نفسها، ولم تفق حتى رشَّ الحسين (ع) من مدامعه على وجهها، إذا قرأت هذا ثم رأيت صبرها وتجلدها عند مشاهدة أخيها قتيلا يعبث ابن زياد ويزيد برأس أخيها، إلى غير ذلك من الأحزان والخطوب لعجبت من تلك الرقة والعاطفة وذاك الصبر والتجلد كيف اجتمعا في قلب واحد ؟! ماذا الذي بدَّل ذلك القلب الرقيق إلى أصلب من الصخرة الصمَّاء ؟! إن في البين سر مكنون (٢) لا تستطيع النفوس تحمّله، إلا إذا كانت ممن اختارها الله لأمانته، وجعلها موضع رسالته، وأمر عظيم لا يقوى على القيام به إلا نبيٍ أو وصي نبي. إن أهل الدين الذين أشبعت قلوبهم بالإيمان وملئت علما ويقيناً يخضعون لأمر الله وقضائه، ولو كان به ذهاب أنفسهم، ولا يخرجون عن أمره ولو قطعوا في جنب الله إرباً إرباً، وتراهم يتمزقون من الغيظ لأحقر الأمور إن كانت مما نهى عنها الرحمن، وأمر بها الشيطان، وقد أسر الحسين (ع) إلى أخته عندما أفاقت من غشيتها بكل ما يقع عليه، وأن ذلك عهد عهده الله إلى نبيه، وعهده النبي إلى وصيه، وعهده أبوه وأخوه إليه، وأسر إليها بأسرار نهضته، وآثار حركته، من نصرة الدين وإحياء الشريعة، وأنها لا بد أن تشاطره في مهمته، وإبلاغ حجته وتحمّل الخطوب وإلقاء الخطب في الكوفة والشام. فلا عجب إذا رضيت سيدة الطف

---

(١) الصحيح : بكلتا الجهتين ، لأن جهة مؤنث .

(٢) الخطأ يتكرر عند الشيخ، فصحة العبارة: إن في البين سراً مكنوناً. وهو خطأ يقع فيه الكثير من حملة الأقلام.

بقضاء الله وقدره، وصبرت على حكمه وبلائه، وقامت بوظيفة أخيها صابرة محتسبة بعد أن كان بأمر من الله، وفيه إحياء الحق وإماتة الباطل، وكيف لا تصبر وهي من أهل بيت النبوة، وابنة أمير المؤمنين، وأخت الذي يقول :

إذا كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ في الله أولى وأفضلُ

نعم تلقت زينب المصائب والخطوب، وشاهدت مصرع أخيها ورجالها، وتلقت ذلك كله بصبر عظيم، وتجلد لا يوصف، ولكن لعظم المصاب وشدة هوله فاضت نفسها عند امتلائها بالحزن والآلام، فاض الحزن من قلبها حتى وصل إلى العدو الذي قتل الحسين (ع)، ونفذ في أعماق نفسه، وفاضت عينه من الدمع عندما سمع صوتها تندب أخاها وتقول: (ليت السماء أطبقت على الأرض، وليتِ الجبال تدكدكت على السهل، اليوم مات جدي وأبي وأمي وأخي) نعم قتل محمد وعلي وفاطمة والحسن وجميع بني هاشم، قتلوا كلهم في يوم العاشر من المحرم في وقعة كربلاء، قتلوا بقتل لحسين (ع) ولذا كان مصابه أشد من مصاب جده وأبيه، فبالحسين كانت السلوى والعزاء عنهم. وكما أحرقت بكلماتها قلوب جيش الطغيان والضلال فقد أفهمتهم أيضاً سوء فعلهم وقبح عملهم، وأنهم قتلوا رسول الله (ص) ولم يقتلوا حسيناً وحده، لأنه كان أشبه الناس به خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً، قالت كلمتها ثم التفتت إلى النساء والأطفال فرأتهن من الخيام هاربين، وعلى وجوههن من الدهشة هائمين، وليس لهن ولي ولا كفيل، فعَدَت خلف عيالات الرسول وأطفاله تجمعهن من هنا وهناك، وتأمرهن بالصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، وتدير شؤونهن بروية وتجلد، ولم تنقص المصيبة من عزة نفسها وإبائها العلوي الحسيني. جاذبها أحد الطغاة رداءها فلم تخضع بالقول، وتخفض جناح الذل، وقالت له بعظمة وكبرياء: قطع الله يدك وأحرقك في الدنيا قبل الآخرة. وهكذا الأسود فإنها تقوى إذا خُدشت، وتزداد امتناعاً وتفورا إذا أريد أخذها بالقسر والغلبة . سارت زينب مع عيال أخيها بين كربلاء والكوفة، وبين الكوفة والشام، تتفقدهن وتحافظ عليهن، ولولاها لقتل بقية الصالحين وخليفة الماضين أبو الأئمة الإمام زين العابدين (ع) ولانقطعت العترة الطاهرة وانطمست أعلام الرسول (ص). عُرض السجاد (ع) على ابن زياد فأمر بقتله، فاعتنقته عمته قائلة: لا والله .. إن قتلته فاقتلني معه، قال : عجباً للرحم، والله إني لأظنها ودَّت أني قتلتها معه، دعوه. فسلمته من القتل وبقي حياً يؤدي أمانة جده محمد (ص) إلى

أمته، وإن في هذه النادرة وحدها لسيدة الطف من الفضل والسمو ما لا يقدر بمقدار، فمن هذا وأمثاله تستطيع العلم والحكم أنه لولا زينب لضاعت أطفال الرسول كما قتلت رجاله، ولم يبق من الذرية النبوية باقية.

أما الجهة الثانية ومشاطرة أخيها في الجهاد وإبلاغ الحجة وتكذيب الدعايات الأموية فيتجلى ذلك كله في خطبها على أهل الكوفة والشام، ومخاطبتها لابن زياد ويزيد . قال خزيمة الأسدي: رأيت زينباً وأهل الكوفة مجتمعون حولها، ومعها بقية السبايا، فأومأت إلى الناس بالسكوت فارتدّت الأنفاس، وسكنت الأجراس، وتكلمت بكلام لم أر والله أنطق منها، كأنما تنطق وتفرغ عن لسان أمير المؤمنين. ثم ذكر خطبتها البليغة وقد جاء فيها: (قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حربكم، ومعاذ حزبكم، ومقر سلمكم، ومفزع نازلكم، والمرجع إليه عند مقاتلكم، ومدره (١) حججكم، ومنار حجتكم. ويلكم أي كبد لمحمد فريتم، وأي عهد نكثتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي حرمة له هتكتم، وأي دمٍ له سفكتم) .

فأذكت هذه الكلمات بنفوسهم نار الحماس، وهزّت منهم الأفئدة، وتكهربت الأعصاب، وود الجميع لو كانوا لصاحب الرأس فدا ولعياله وقا ، وإن منهم من خفي عليه مكان السبايا ولم يدر من هو صاحب الرأس من تمويه الحقائق وتغطية الحق، فأوضحت لهم أن الرأس الذي هو على الرمح رأس محمد (ص)، والدماء المسفوحة دماؤه، والكريمات كريماته، وأنهم بقتل الحسين قتلوا مجدهم وعزّهم ومقر سلمهم، فلا سلم بعد قتله، ولا عز بعد هتك حرائره، ولا ملاذ بعد سفك دمائه، فرفعت نساء الكوفة بالعويل أصواتها، ولطمت الرجال وجوهها، وقال بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون . واجتمعوا حول الإمام زين العابدين قائلين له: مرنا بأمرك، نحن حرب لحربك وسلم لسلمك، مرنا لنأخذ بثارنا وثارك (٢) ممن ظلمك وظلمنا . من الآن أصبحوا يشعرون أن يزيد ظلمهم واغتصب حقهم، ويتطلبون استرجاع حقهم منه بالسيف، وعرفوا أن لا حرمة للأمة والإسلام بعد قتل ملاذ المسلمين، وسيد شباب أهل الجنة، أدركوا ذلك وأشعروا

---

(١) المدره : السيد الشريف ، زعيم القوم وخطيبهم المتكلم عنهم .

(٢) الصحيح : ثأرنا وثأرك بالهمزة .

به (١) وكانوا من قبله في غفلة وسبات. إن هذه البذرة هي التي يبغيها الحسين (ع) من جهاده، وينشدها من نهضته، ولا بد أن تنمو وتثمر وتمحي دولة الضلال وتذهب دولة الباطل. ولما أدخلوا سيدة الطف على ابن زياد قال: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم، فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد (ص) وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر وهو غيرنا. زعم ابن مرجانة أن باستطاعته إخفاء الحقيقة، وإفهام الحاضرين أن القتل فضيحة لأهل البيت، وتكذيباً لأحدوثتهم. ومن يقدر على ردّه وهو صاحب البأس والسلطان، ففضحته بنت أمير المؤمنين (ع) غير مكترثة بما حوله من الجند، ولا مبالية بقوته، مبرهنة أنها وأهلها بعيدون عن الكذب والفضيحة، مبرؤون من كل عيب ودنس، لأن الله أكرمهم وشرّفهم بمحمد (ص) وطهّرهم الرحمن من الرجس، وإنما الفضيحة لمن يتعاطى الزنا والفجور، ويشرب الخمر، ويرتكب الفسق والجور، وهو ابن زنا وأمه وأبوه. ولما وصلت السبايا إلى الشام، والشام عاصمة يزيد ومقر سلطانه، والعاصمة يروج فيها كذب الحاكم، ويكثر فيها أنصار الظالمين، فزيّنت أسواقِ الشام، وخرج أهلها بالطبول والأعلام، يتلون أناشيد النصر والظفر، ظناً منهم أنَّ الحسين (ع) خارجي، خرج لاختلال النظام، وثار على الأمن لسلب الأموال وسفك الدماء، رأت زينب ذلك كله ولم يخفَ عليها شيء منه، فتجدد في نفسها الحزن، وتراكمت على قلبها المصائب بعضها فوق بعض، وزاد الألم لما دخلت على يزيد ونظرته يعبثِ بالرأس الشريف، ويلعب به كما تلعب الأولاد بالأكر، مظهراً حقده هاتفاً بأشياخه، فلم تطق السكوت وخطبت في مجلس يزيد خطبة آية في البلاغة، ومعجزة في الفصاحة، فمن كلامها: (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة؟ أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوق بنات رسول الله سبايا ؟! ، فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك، ولتردن على رسول الله بما تحمَّلت من سفك دماء ذريته، ولئن جرَّت علي الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرَّى. فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان

---

(١) لعلّ الشيخ يقصد شعروا به ، وهو خطأ مطبعي ، فأشعروا لا محلّ لها هنا.

الطلقاء،ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدننا وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلا ما قدَّمت يداك وما ربُّك بظلاَّم للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعول. فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا ولا ترحض (١) عنك عارها).

ظن يزيد الجهل والغرور عندما رأى رأس الحسين (ع) بين يديه أن النصر قد وافاه، وأنه محا ذكر النبي وأمات وحيه وأخذ بثارات بدر وأحد، وأن الملك صفا له، وأنه لم يبق لسلطانه منازع، ولا لضلاله معارض، وخفي عليه سوء العاقبة ومغبة المنقلب، فأفهمته بنت أميرِ المؤمنين بخسران صفقته، وذهاب دولته، وأن قتل الحسين (ع) ليس انتصارا ليزيد، بل هو دمار وعار ولعنة إلى الأبد، وأن ما هو به من المناعة والقوة لا يرفع من شأنه، ومهما بلغ سلطانه فهو طليق ابن طليق، وأن ما أصابهم من القتل والأسر لا يخفض من شأنهم ومكانتهم العليا، ويحط من قدرهم السامي، فإنهم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأنها تستصغر قدره وتترفع عن توبيخه، وإن كثر جنده وقويت شوكته، وأنه دون أهل البيت وإن عوملوا معاملة العبيد والإماءِ، وأن قتل الحسين ورجاله ليس إطفاء لنور الله وإماتةٍ لسنة رسوله وطمساً لنواميس الإسلام، بل إحياء للدين والشريعة، وقتلاً للظلم والضلال. وقد تحقق كل ما قالته سيدة الطف، وصدقٍ كلامها، فنعى على يزيد عمله بعض من حضر، وأضربت الشام احتجاجاً على ما ارتكبه يزيد، وأنه قد أساء إلى الأمة والدين بعد أن أفهمتها الحقيقة كلمات زينب والإمام زين العابدين (ع) حتى اضطر يزيد أن يتبرأ من دم الحسين (ع) وينسبه إلى ابن زياد، ولكن سبق المقدر وجاء أمر الله وانمحت دولة الضلال وسقط سلطان الجور وقتل المختار والسفاح أنصار الظلم وعشرات الألوف من رجال الفساد، وتحققت أماني الحسين وربحت تجارته ونال عز الدنيا والآخرة وباء عدوه بغضب الله وخسرانٍ مبين ... فزينب قد شاطرت أخاها الحسين (ع) الفضيلة والجهاد، وتحمّلتً الخطوب وكابدت الآلام، وبارته بانتشار الدعوة ومحاربة الظلم بالخطابة واللسان كما نهض هو بالسيف والسنان.

طير حرفا (صور) علما الشعب.

---

(١) الرحض : الغسل ، رحضِ يده والإناء والثوب وغيرها يرحضها رحضاً : غسلها . أي أن عارك يا يزيد سيظل متسخا ولن يزيله أو يطهره شيء .

❁ **مجلة العرفان، المجلد ٢٨ الجزء ٩، الصادر في الثالث من ذي الحجة سنة ١٣٥٧هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩م، ص (٩١٨ - ٩٢٣).**

(٦) بيت فاطمة (ع)

دخل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بخمس عشرة امرأة أولهن خديجة بنت خويلد، ثم سودة بنت سمعة، ثم أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر، زينب بنت خزيمة، زينب بنت جحش، أم حبيب رملة بنت أبي سفيان، ميمونة بنت الحارث، زينب بنت عميس، جوية بنت الحارث، صفية بنت حي بنت أخطب، خولة بنت حكيم وهي التي وهبت نفسها للنبي، مارية القبطية، ريحانة الخندقية. وتزوج غير هؤلاء ولم يدخل بهن، فارق بعضهن بالطلاق وبعضهن بالموت، واجتمع عنده في آن واحد تسع زوجات في تسعة بيوتٍ حول المسجد في المدينة، ومدة حياته الزوجية وإقامته مع النساء ٢٧ حولاً. تزوج ابن ٢٥ وقبض وله ٦٣، وبقي بعد خديجة بدون نساء سنة واحدة، وعلى الرغم من طول هذه المدة وكثرة الزوجات لم يكن له من الولد ما يكون للرجل من الزوجة الواحدة التي لم تبلغ مدة إقامته معها إلى هذا الحد، حتى قال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: " إن شانئك هو الأبتر " (الكوثر : ٣) فعقمت أمهات المؤمنين ولم يعقب الرسول إلا من خديجة وماريا، فوهب الله له من خديجة ذكرين، القاسم وعبد الله وهما الطيّب والطاهر، وماتا صغيرين قبل النبوة، وقيل لم يعش كل منهما أكثر من سبع ليال. وأربع إناث كبرن ودخلن في الإسلام وزوّجهن الرسول: زينب، أم كلثوم، رقية، فاطمة .. كانت زينب مع أبي العاص بن الربيع، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، وتزوج عثمان رقية وأم كلثوم، وتوفيت الأولى في اثنتين من الهجرة، والثانية في سنة ثلاث. وتزوجت فاطمة ابن عم الرسول علي بن أبي طالب (ع) وبقيت بعد أبيها ٧٢ يوما على بعض الروايات، أما مارية فولدت له على الكبر إبراهيم، ومات في حياة أبيه وله من العمر سنة وعشرة أشهر وثمانية أيّام، فلم تحمل نساء الرسول غير خديجة ومارية، ولم يبق له من الولد سوى فاطمة، فهي العزاء لنفسه، والسلوة لقلبه، ومن ذريتها انتشر نور النبوة حسباً ونسبا، لذلك بلغت فاطمة من قلب الرسول مكانا علياً، فإن ما يتركه موت الولد من الأسى والحزن في قلب الوالد ينقلب حبا لأخيه على الأخص بعد أن بلغ الرسول سن الكبر وعقمت أمهات المؤمنين سنين متتابعة وانقطع أمله من الولد بنات وبنين، ففاطمة حبة قلب الرسول وسواد عينه وأول ولده وآخرهم، كان يشمها ويقول: كلما اشتقت إلى الجنة شممت ابنتي

فاطمة، إن ريح الولد من ريح الجنة. رأته عائشة يقبلها فقالت: أتحبها يارسول الله؟ قال: أما والله لو علمت حبي لها لازددت لها حباً، وقال: فاطمة بضعة مني، يرضيني ما يرضيها ويغضبني ما يغضبها. وإذا رجع من السفر فيكون أول بيت يدخله بيت فاطمة، وإذا أراد السفر فآخر بيت يخرج منه بيتها، وأدّبها الرسول بآداب الله، وعلمها الدين وأسراره، وسلك بها سبيل النبوة والإيمان حتى طبعها بطابعه الخاص. قالت أم سلمة: فوَّض إلى النبي أمر ابنته فاطمة، وكنت أؤدبها فأجدها والله أأدب مني، وأعرف بالأشياء كلها. وما بلغت فاطمة مبلغ الزواج حتى تطاولت إليها الأعناق، واشرأبت نحوها النفوس، ومن الذي لا تكون فاطمة أمنيته ومثله الأعلى وهي وحيدة محمد، وأشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً بأبيها ؟! قال جابر: ما رأيت فاطمة تمشي إلا ذكرت رسول الله، فخطبها رؤساء العرب وصناديد قريش، وكان الرسول (ص) يجيب بكلمة تُسكت الجميع فلا يستطيعون المعاودة: " ليس لي من الأمر شيء، أمرها بيد الله " وقد اختارها الله سبحانه لعلي واختاره لها، فليس لها كفو سواه وليس له كفو سواها. نزل الوحي على الرسول يعلمه أن الله زوّج فاطمة من علي، فأنس النبي بهذه البشارة وطابت لها نفسه، والخالق أعرف بخلقه وأعلم بشؤونهم في اختيار الصلاح والخير كله، فامتثل الرسول أمر ربه سبحانه، وأسكنها مع بعلها في بيت ملاصق لبيته الذي كان ينفرد فيه بنفسه، وعاش أبو السبطين مع البتول سعيدين قريري العين قائمين بالواجبات الزوجية ومستحباتها، بعيدين عن الشقاء والكدر، لا يعرفان سوى الهناء والسرور، والنبي (ص) مغتبط بسعادة وحيدته، ثلج الصدر لصفو حياتها مع ابن عمه ووزيره. ولكن لم تزل في نفس الرسول حاجة لم تُقض، وغاية لم تحصل، ربما كدَّرت عليه عيشه، وأشعر بها المسلمون رجالاً ونساء، يتحدثون فيما بينهم متأسفين أن لا يكون لنبيهم الكريم الذي خُلق الكون لأجله خليفة يحيي ذكره، ويكون به العزاء والسلوة من بعده. ولما مضى على زواج فاطمة تسعة أشهر جاء البشير إلى النبي مهنئاً بالحسن ومن بعده بأشهر بالحسين عليهما السلام، فنهض النبي إلى بيت فاطمة ليرى نعمة ربه وبضعة كبده، فرأى فيهما العوض المبارك، والبدل العظيم، والخلف الذي يمثله، ففاضت غبطته لله حمداً، وغمر الابتهاج قلب الرسول، وحلَّ الأمل فيه محل اليأس. امتلأ ذلك الفراغ الذي أحدثه فقد أولاده، وفرح المؤمنون لفرح الرسول، وتحققت أمنيتم التي كانوا يرجونها من قبل. وعندما وُلد الحسين (ع) قال للقابلة وهي صفية بنت عبد المطلب: يا عمة هلمي بابني' قالت : يا رسول الله لم ننظفه بعد،

قال: أنت تنظفينه ؟! الله نظّفه وطهّره، فأخذه وقبَّل ما بين عينيه ووضع فاه في فيه. فبعد الحسن والحسين أصبح النبي يجد حاجته، وأضاء عاطفته القلبية عاطفة القلب للولد في بيت فاطمة (ع)، ولم يمضِ عليه يوم في المدينة إلا ويدخله، فإذا دخل وجلس وضع الحسن على فخده الأيمنٍ والحسين على فخده الأيسر، يقبّل هذا مرة وذاك أخرى، وأجلس علياً وفاطمة بين يديه يعلمهم الرسول علم ما كان وعلم ما يكون ويبشرهم بعظم منزلتهم عند الله سبحانه، ويخبرهم بما ستفعله أمته بهم من بعده، ولا يلتذ في طعام إلا في بيت فاطمة، مع ابنته وبعلها وبنيها، وكما كانت تضمهم مائدة واحدة كان يجمعهم فراش واحد، وحديث الكساء مشهور. ويحمل الحسن والحسين على كتفيه فيعترضه أبوهما عليٍ والأصحاب ليحملاهما عنه، فيأبى ويجد في نفسه لذة عظمى وارتياحاً كبيراً. خطب يوماً في المسجد والمسلمون من حوله مصغون لحديثه العذب الذي يملأ النفوس نوراً إذ حانت من النبي التفاتة فرأى الحسن والحسين يمشيان ويثران بأذيالهما قاصدين جدهما نبي الرحمة، والناس في غفلة قد تعلقت أرواحهم بالنبي وحديثه، لا يشعرون بشيء سواه، فلم يشعروا إلا والنبي (ص) يقطع كلامه وينزل عن المنبر، وقد هالتهم هذه المفاجأة، فنظروا فوجدوا النبي (ص) يحمل الحسن والحسين على صدره وهو يقبلهما، ثم صعد المنبر وأجلسهما بين يديه وتلا قوله تعالى: " إنما أولادكم وأموالكم فتنة " (التغابن : ١٥) وقال: رأيت ولدي هذين يعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي. وتسابق الأصحاب إلى خدمتهما وتسارعوا إلى إكرامهما تقرباً إلى الله ورسوله، ولما مرض النبي مرض الموت وقع الحسن والحسين على الرسول وهما يصيحان ويبكيان، فأراد علي أن ينحيهما فأفاق ثم قال : يا علي دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودان مني. وبالغ النبي بالوصية بأهل بيته، وأبدى الاهتمام بشأنهم، وحثَّ أمته على المحافظة عليهم، ولم يترك علياً وهو زوج البتول وأبو السبطين بدون أن يوصيه بالرفق بأهل بيته، ولم يعتمد على حنان الأبوة وعطف الزوج على زوجته وشريكة حياته، وعلي بالمكان الذي هو فيه من الرقة والرحمة على كل ذي روح ، فكيف بأهل بيته وأحب الناس إليه ؟! قال له : يا علي إن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي، وهي أول من يلحقني، فأحسن إليها بعدي، وأما الحسن والحسين فهما ابناي وريحانتاي وسيدا شباب أهل الجنة فليكرما عليك كسمعك وبصرك. فأهل بيت الرسول هم أهل بيت فاطمة الذين أعلن لأمته بفضلهم، وجاهر بعظيم منزلتهم عند الله، وأمر أمته

بالتمسك بحبلهم، وأن التمسك بهم يوازي التمسك بكتاب الله سبحانه، وقد شبَّههم بسفينة نوح (ع) وجعلهم باب النجاة، إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة التي بهذا المضمون، كل ذلك للاهتمام بشأنهم والتأكيد لحفظ حقوقهم ، وقد كرما على علي كسمعه وبصره، ورفع منزلتهما على سائر أولاده وأوجب لهما الطاعة عليهم، وأمرهم بالخضوع والاتباع لأوامرهما، وكان يبعث أولاده إلى الحرب ويلقيهم في طرق المخاوف ويحافظ على الحسنين، حتى عاتبه على ذلك ولده محمد، فقال له الإمام: أنت ولدي وهما ولد رسول الله (ص) وأمانته. وجاء للإمامِ ظروف سمن وعسل، وتعهد الإمام الظروف حسب عادته فوجد فيها نقصاً، ففحص فعلم بما كان من أمر الحسين (ع) فغاظه ذلك ورفع يده ليضرب ولده فتذكر أنه أمانة الرسول وريحانته، فقال له: لو لم أرَ جدك يقبّل فاك لضربته، فقال له الحسين : إن لي بها سهماً كما للمسلمين، والذي أخذته من أصل سهمي، فقال أبوه : إن لك سهماً ولكن ليس لك أن تتصرف قبل سواك من المسلمين، وتأكل قبل أن يأكل غيرك، وكما تدلِ هذه النادرة على عمله بوصية الرسول ومحافظته على أمانته فقد دلّت على عدل الإمام وقوّة إيمانه وشدّة تمسكه بدين الله تعالى. وجاءت جماعة تزعم أنها من أمة محمد (ص) نبذت وصيةِ الرسولِ (ص) ولم تحفظه في قرابته، فهدمت بيته الذيِ من دخله كان آمناً، وحطمت سفينة نوح التي من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هوى، فماتت قرَّة عين الرسول وثمرة فؤاده حزينة، وقتل ابن عمه ووزيره وهو قائم بين يدي ربه، ولم يتوفَ ريحانته الحسن حتَّى تقيّأ كبده من السم، ولا يوم كيوم الحسين، فقد أنست رزيته الرزايا السالفة، وهوَّنت الرزايا الآتية. حاولت هذه الفئة أن تمنع عباد الله من سكنى البيت الطاهر، وتصدهم عن الركوب في تلك السفينة، وقد انعكس الأمر ودارت الدائرة عليهم، فخربوا بيوتهم بأيديهِم، ونحروا أنفسهم بخناجرهم، وما ازداد آل الرسول إلا عظمة وشرفا، وبيتهم إلا علواً وارتفاعاً، وكانت نتيجة عملهم أن أصبح الراكب في تلك السفينة على بيّنة من أمره ، وأمان على نفسه من الغرق والهلاك بعد أن بانت الحقيقة ، وقضى أهل البيت (ع) ما بين مسموم ومنحور في سبيل الحق والدين .

طير حرفا علما الشعب

❁ مجلة العرفان ، المجلد ٢٩ الجزء ٣ ، الصادر في الثالث من ربيع الأول سنة ١٣٥٨هـ الموافق نيسان (أبريل) ١٩٣٩م ، ص (٢٦٣ - ٢٦٦) .

(٧) الإرادة وقوتها

الإرادة ضد الكراهة، وهي من الصفات النفسانية والغرائز التي لا يتم نظام الإنسان بدونها والأمور النسبية المفتقرة إلى المراد، وقد تتعلق بذاتها ، فكثيرا ما نريد من أنفسنا إرادة الخير وترك الشر .

أما مرتبتها فمتأخرة عن مرتبة العلم، فمتى حصل الاعتقاد والظن بالمصلحة حصلت الإرادة لذي المصلحة، ويصح التعبير عنها بالرضا والشوق والرغبة والميل والحب والاختيار، وهي غير الشهوة، فإن المريض يريد شرب الدواء ولا يشتهيه .

أما الأسباب التي تهيج الإرادة وتخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل فهي نوع من الجزئيات الخارجية التي لا يحصيها العدُّ والتتبع. ترى الفاكهة فتميل إليها نفسك، وتسمع بفضل العلم وفوائده فترغب فيه، وتشم الطيب فتود التطيب به، وتذوق الحلوى فتتوق إلى أكلها، وتلمس الثوب الناعم فتختاره على الخشن، وتتصور المستقبل ولوازم الحياة فتحب المال .. إلى غير ذلك من الأشياء التي فيها الصلاح وحصول المطلوب .

أما ضعف الإرادة وقوتها فيدور مدار العلم أو الظن بضعف السبب الذي يثير الإرادة الكامنة في النفس، فعلى قدر علمك بنتيجة العلم تكون رغبتك فيه، ولقوة اعتقادك بفوائد المال اشتد حبك له نظير خوفك من عدوك وحذرك منه فإنه يكون على قدر بأسه وشدة عداوته لك، ولذا كانت الأنبياء والأئمة المعصومون وصالح المؤمنين أشد خوفاً من الله، وأعظم تقديراً لذاته من سواهم: " عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم " . ولما كانت الجزئيات الخارجية هي السبب الوحيد لتهييج الإرادة كان الرأي المنتشر أن البيئة تكيّف الإنسان، وتأتي باعتقاداته وأفعاله وأقواله على حسبها، وموافقة لترتيبها من أصح الأقوال وأصدقها، لأن الإرادة لها تأثير قوي في صدور الفعل وإيجاده، وهي جزء العلة التي عبّر عنها أهل المنقول بالمقتضي، فإن العلة التامة باصطلاحهم تتألف من وجود المقتضي، وهو الإرادة والشرط وهو القدرة وعدم المانع، والموانع لا يمكن حصرها، فإذا وُجدت هذه الثلاث وُجد الفعل وتحقق، وانتفاء أحدها وعدمه علة تامة في الانتفاء والعدم، فلا تنفع الإرادة مع انتفاء القدرة، كما لا تجدي القدرة مع عدم الإرادة، ولا أثر لاجتماعهما إن قارن وجود المانع، وإذا تكلم أهل التشريع عن حُسن الأفعال وقبحها، وسنوا لها القوانين، وأوجبوا الثواب والعقاب لفاعلها،

وقسّموها لحلال وحرام فيعنون بها الأفعال التي من هذا النوع، والتي توسطت الإرادة بين الفعل والفاعل، أما الأفعال التي لم تصدر عن إرادة واختيار فلا تتصف بالحسن والقبح، ولا يشملها موضوع كلامهم، وإذا أراد الإنسان عملاً ولم يقدر عليه فإن كان من نوع الشر والمكروه لم يستوجب العقاب والقصاص، فإن ذلك يترتب على وجود العمل وصدوره في الخارج والمفروض عجزه عنه، نعم ذلك يكشف عن خبث ذاته وسوء سريرته. وإن كان مريداً للإحسان، محباً للخير، عاجزاً عن عمله وإتيانه فهو في نظر الإسلام مثاب معدود من أهل الخير. فقد جاء في الشرع المقدّس: من أحبَّ عمل قوم شاركهم، لكل امرئ ما نوى. وقد يحدث في النفس إرادتان متناقضتان بحسب المتعلق، فتتعلق إحداهما بفعل شيء، والأخرى بتركه، وليس ذلك ببعيد مع اختلاف الجهة، والمستحيل إرادة شيء وتركه مع وحدة الجهة، أما مع التعدد فلا بأس، فإنك تريد شرب الدخان لتسلية وتريد تركه لأجل الضرر الناشئ عنه، والمحال هو إرادته للتسلية وتركه لها، وقد تريد الخيانة للنفع العاجل وتركها للضرر الآجل، ومتى حصلت الإرادتان وقع التصادم، وحصل الكسر والانكسار بينهما، فكل منهما تريد جر صاحب الإرادة إليها، وأن يطيعها ويعصي الأخرى، فهو فريسة على كل حال لإحدى القوّتين، إحداهما فيها صلاحه، والثانية فيها فساده، والتي يميل معها ويمتثل أوامرها هي الغالبة، وهذا الموقف هو من أظهر مصاديق قوة الإرادة وضعفها، فإن عمل بما فيه صلاحه كان قوي الإرادة، سليم العقل، صحيح التفكير، مالكاً لهواه، مطيعاً للحق. فقوة الإرادة ترجع إلى ضعف إرادة الشر وقوة إرادة الخير، وإن عمل بالثانية كان ضعيف الإرادة، ساقطاً عن درجة الاعتبار والتقدير، قد اتخذ إلهه هواه : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " (الجاثية : ٢٣) وقد خرقت الشهوات عقله وأماتت قلبه، فإن سمع سمع بأذن صمّاء، وإن نظر نظر بعين عمياء، وفي مثل هذا الموقف تُعرف الرجال، ويمتاز بعضها عن بعض، ويعلو بعضها على بعض. وعنه عبَّر النبي (ص) بالجهاد الأكبر، فإنَّ خضوع النفس وجماحها أصعب وأشد من خضوع الجسم، فالغضب والحقد وبقية الصفات البهيمية قد تجره إلى ما لا يُحمد عقباه، وقوي الإرادة من لا يخرجه الغضب عن الحق، ولا يتكلم ما يغضب الرب. علما الشعب طير حرفا .

❁ مجلة العرفان، المجلد ٢٩ الجزء ٦، الصادر في رمضان سنة ١٣٥٨هـ الموافق تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٩م، ص (٥٨٩ - ٥٩٠).

(٨) المدرسة الجعفرية في صور

منذ سنين طوال والصراع قائم بين طائفتين متباعدتين في الأسلوب والتفكير، ورغم تقادم عهد النزاع لم تصرع أحدهما الأخرى، ولم يلفيا أحدا من دعاة السلم يصلح ذات بينهما، بل وجدا من يداوي الاختلاف بالتفرقة، ويطفي النار بما يزيدها تأجّجا وسعيرا. وأعني بالطائفتين المجددين والمحافظين، فكل منهما راضية بما عندها، لا ترى له مثيلاً ولا تعدل به بديلاً، بل تنكر في عنف وسخرية ما عند الأخرى، فالمجددون ينكرون على المحافظين أسلوبهم ويسخرون من كل قديم، ويرونه العائق الأكبر في طريق نهضة الشرق، والمانع للحركة الفكرية، والسبب الوحيد لتحجّر العقل، أما المحافظون فنسبوا أولئك إلى النزق والطيش، ولم يسلموهم من الاتهام بالعقيدة. والحقيقة أنهما معا سقطا في الخطأ والاشتباه، فالمجددون يعادون كل قديم لا لشيء إلا لأنه قديم، ويوالون كل جديد لأنه جديد، بدون تأمل بمنافع ما يعادون ومضار ما يوالون، ولهم أساليب غريبة لا يعرفها العلم ولا تألفها أرباب المعرفة. ترى أحدهم متى شكّ طفر إلى الجزم بدون واسطة، والشك حق وجمُّ الفوائد إلا أنه ينتقل منه إلى التماس الدليل ومنه إلى النتيجة، ويأبى المجددون إلا الطفرة وهي محال، وسأعطي القارئ مثلاً وإن لم يكن في حاجة إليه لأنه واجده حيث ما (١) يرسل بصره: جمعتني الصدف بتلميذ يحمل الشهادة الابتدائية، أبوه مزارع بإحدى قرى جبل عامل، فأراد أن يفهمني أنه من حاملي الشهادات، ولكن من طريق المجادلة في المواضيع التي لا يسوغ التكلم بها إلا للبحّاثة الاختصاصي، ثم يتبع كل جملة من كلامه: هذا رأيي وفي نظري. أردت أن أقنعه بالحسنى أن الرأي والنظر لهما مقدمات وأهل، وإن شاء الله تكون من أهل الرأي في المستقبل، فيأبى إلا الطفرة، ومن لفظه لو وجد خالق لرأيناه، قلت : بلى، قد أصابه أحد مكتشفي الغرب في المعمل، وعندما اختبره تبين أنه لا معرفة له إلا بصنع البقر والحمير. ومن أساليبهم أن بطلان الدليل يستلزم بطلان المدلول، وعدم وجدانهم للشيء دليل على عدم وجوده في الأرض والسماء، فإذا سألوا دينيا عن معتقده وعجز أو أساء التعبير أو أنهم أساؤوا الفهم اتخذوا من ذلك حجة على فساد معتقده وبطلان مذهبه، وإن قلت لم:

---

(١) كان الأولى أن تكتب العبارة هكذا: حيثما، لأن أصلها حيث، ولحقتها ما الزائدة فصارتا كلمة واحدة مبنية على السكون، وهي اسم شرط جازم فعلين.

ما نجهل أكثر مما نعلم سخروا منك ومن قولك لأن هذه عبارة قديمة. وقد أخطأ المحافظون أيضا، لأنهم ينفرون من كل جديد ومجدد، بزعم أن الدين يرفضه ولا يثبته، ويقولون ذلك ولو تناول الجديد ناحية غير الناحية الدينية، فيخلطون بين ما يقرّه الدين وما يرفضه، ويدخلون في الدين ما هو خارج عنه، ويسقطون في البدعة والضلال من حيث أرادوا الفرار منهما، ولو بحثت عن السبب لظهر لك الجهل والتعصب بأجلى مظاهرهما.

يدخل التلميذ إلى المدارس العصرية فتلقفه بعض المبادئ، ولكن تغرس في نفسه آمالاً لا يؤيدها دليل ولا برهان، وتعطيه الشهادة بعد أن تتركه يتيه في فضاء لا حد له ولا نهاية، وتنعته الناس بالفيلسوف وهو يتخبط في ديجور مدلهم من الأحلام والأوهام، فلا يعرف شيئا عن الدين ولا عن أهله، ويجهل كل الجهل أن الدين مثل أعلى من الفضائل التي تحملها النفس، وضروري من ضرورات الطبيعة البشرية، يعمل لخير الإنسانية، ويعلم الشرف ومبادئ التضحية والخضوع لصالح الجماعة دون الفرد. والوشائج متصلة بين العلم والدين، فالأنبياء والرسل من حق التاريخ والقرآن الكريم من متناول الأدب وكثير من العلوم، فمن يحمل مثقال ذرة من العلم لا ينسب قول الدينيين إلى التضليل والخداع، ومن الأمور التي تؤاخذ عليها بعض المدارس تباعدها في الأصول واختلافها في طرق التهذيب، تجد المسلمات المقررة عند تلامذة مدرسة ينكرها بعنف وسخرية تلامذة جارتها، أما المحافظون فقد حازوا شيئاً من الإيمان واليقين بأشياء ولكن من غير اجتهاد وتمحيص، لذلك لم تكن خالية من الحشو المفسد، ومنه نشأ التعصب والاعوجاج، فكلا الفريقين في أشد الحاجة إلى التطهير والتهذيب والتربية الصحيحة كيما يروا الأشياء على ما هي، فلا تنثال إلى قلوبهم ملبسة ولا مدخولة، بل كما جاء بها الواقع واقتضتها الحقيقة، فيحصل حينئذ الربط وتتحد المشارب ويتجه الجميع إلى جهة واحدة .. وعلى هذا الأساس بنيت المدرسة الجعفرية في صور، فإنها المدرسة الأولى التي اعتنت بالدين وتعليمه على وجهه وكما هو في طبيعته، لا كما يفهمه المحافظون، وتعليم العلوم الزمنية التي لا يمكن الاستغناء عنها، فلا يرفضون كل قديم ولا يوالون كل جديد، يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وليس أولى بهذا العمل الجليل من رجال العلم والدين الذين لا شعار لهم إلا الصلاح

والإصلاح، وليس المصلح من كتب وخطب وتعمم ووعظ، فإن المصلح من عقل الأمور وأسبابها، ودخل البيوت من أبوابها، فإن الأمة التي يسيطر عليها الجهل والهمجية لا تسيرها سوى العاطفة، ولا تنقاد لغير الأهواء، والدين عندها لا شيء إن خالف الشهوات ولم يلائم الأغراض، فالقوانين العقلية والمسائل الدينية لا تجدي نفعاً، ولا تدفع ضرراً، وما تصارع الدين والعاطفة إلا خرج الدين مقهوراً، والعاطفة منتصرة، إلا من عصمه الله وهو قليل، وليس أدل على ذلك مما شاهدناه في النجف الأشرف التي هي عاصمة الدين والعلم، ومنها تخرجت مشايخ المسلمين، وتقوم فيها الخطباء والمرشدون طوال أيام السنة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومع ذلك لم تخل من ارتكاب الموبقات والجرائم، وما ذلك إلا أنه لا سبيل لدى المرشدين إلا الترغيب بالمدح والثواب، والتخويف من الذم والعقاب، وهذا لا يكون كافياً لمحاربة العاطفة التي تسيّر المستمعين كيف شاءت ومتى أرادت، فإن كثيراً من المجرمين لا يردعهم تعجيل العقوبة، وأخذهم بالشدة من الحبس ونحوه، فضلاً عن العقوبة الآجلة التي يراها أمراً مغيباً، فطلب إصلاح الأمة التي تقودها العاطفة والشهوات من طريق الوعظ والحث على التمسك بالدين طلب للشيء من غير سبيله، وقد أجاد الأستاذ العلايلي حيث أسند فشل سياسة أمير المؤمنين (ع) إلى أنه يسوس قوماً لا دين لهم بالسياسة الدينية، بينما كانت سياسة خصومه مشتقة من طبيعة الأطماع وروح الاستمالة، فإذن انحصرت طرق الإصلاح في تربية الناشئة تربية دينية، وتهذيبهم على ضوء التعاليم الحقة، كما فعلت المدرسة الجعفرية ، وكما كانت تريد أن تفعله جمعية العلماء العامليين، فحينئذٍ تخف وطأة العاطفة وتنكسر شوكتها، فيؤثر الإرشاد أثره، ويتسنى لرجال الدين أن يحملوا الناس عليه ويعملوا به .

طير حرفا .

❀ مجلة العرفان ، المجلد ٢٩ الجزآن ٨ و ٩ ، الصادران في ذي القعدة والحجة سنة ١٣٥٨هـ الموافقان كانون الأول والثاني (ديسمبر- يناير) ١٩٣٩م ، ص (٨٠٤ - ٨٠٦)

(٩) تاريخ الحسين (ع)

للأستاذ الشيخ عبد الله العلايلي

كتبنا في الجزء ٧ من مجلد ٢٩ من العرفان الأغر كلمة عما جاء في الحلقة الأولى من تاريخ الحسين للأستاذ العلايلي، وأشرنا فيها إلى ما دلّ عليه قلم الكاتب من منزلته العلمية والبيانية، والجهر بالحق المعاضد للحقيقة ومذهب العدل مع الإلماع إلى بعض محتويات الكتاب من المباحث المهمة، ووعدنا بالحلقة الأولى أن يخرج لنا الثانية، وقد وفى بوعده، وها هي الآن تسند الورقة التي أرسم عليها هذه الكلمات، كما صدق بحديثه، وأدّى وديعة العلم ولم يخن أمانة الله التي ائتمنه عليها. ولا عجب فإن المؤمن إذا وعد وفى، وإذا حدّث صدق، وإذا اؤتمن لم يخن، ونسأله سبحانه أن يمده بعنايته وتوفيقه لإنجاز وعده والمضي في وضع الأجزاء الثلاثة في سيرة أمير المؤمنين (ع) والأجزاء التي في سيرة باقي الأئمة الاثني عشر (ع)، وبذلك يقدم للأمة أجلّ الأعمال وأعظمها نفعاً، ويملأ فراغاً لا يقوى على سده إلا أمثاله، فقد فتح أبواباً في التاريخ مازالت موصدة منذ أعوام وقرون، ومهّد أمام الباحثين طرقاً واضحة مستقيمة لا غموض فيها ولا التواء.

قرأت الحلقة الثانية من تاريخ الحسين بعد أن قرأت عنها كلمة العرفان الأزهر، وبعد أن جاء فيها الثناء على المؤلف بما هو أهله، ورد فيها ملاحظتان: ١- الأغلاط المطبعية، والحقيقة أنها تجاوزت حد المعتاد، فلو قرأ الكتاب (الشيخ أبو نقطة) ارتبك وارتجّ عليه، ومرّت عليه في كل لحظة غلطة. ٢- صدق ما قيل في تفسير الرازي: فيه كل شيء إلا التفسير على ما جاء في الحلقة الثانية ولكن بلباقة وكياسة. وربما يكون هذا القول محل الظن عند النظرة الأولى، وبعد الإمعان والتأمل نرى أن كل ما ذكره تمهيد ومقدمات لها الأثر الأكبر في لب الموضوع، وتتصل به اتصالاً وثيقاً. وذهول من تقدمه عن هذه الأبحاث ذهب بهم مذاهب شتّى صرفهم عن الغرض الأصلي والوصول إلى الحقيقة. والمحيط الذي يكتب له العلايلي بعدُ لم يبلغ من الثقافة ما يجعله غنياً عن مثل هذه الشروح والإيضاحات، وإذا كان حرياً بالمؤلف أن يعرض نتائجه فبالأحرى أن يعرض الطريقة التي تأتّى بها إلى اصطناع هذه النتائج، وأن يحيط بالأفكار والبواعث التي هي علة الحوادث. فالعلايلي بما ذكره من المقدمات ينتقل بالقارئ من مقدمات طبيعية إلى نتائج طبيعية، ولا يتعدى حكم السنن التي تتصرف

بالإنسان وتميل به إلى ما يلائم نفسيته وتربيته، وهذا ما تصطلح عليه أهل المعقول بالمبادئ التصديقية التي يتوقف عليها الإذعان والجزم. والكتاب كما قال عنه : ليس ترجمةٍ حياة بل تاريخ حياة ، والحسين (ع) من الرجال الذين يعبّرون تعبيراً وافياً عن أجيالهم، ويُكتفى بدرسهم عن درس عصرهم، فالضرورة تلزم الباحث إلى الإطالة وذكر كل ما له مساس وأدنى ملابسة، أمّا تعرضه لعصر الرسول (ص) والخلفاء فإنه تعرّض لحياة الحسين في عهد الرسول والخلفاء، لأنهم عهدهم يقع في جزء من حياته، ففي عهد الرسول ذكر ولادة الحسين وطباعه الثابتة المنتقلة إليه بالوراثة التاريخية الانفعالية، وتربيته النبوية الإلهية، وفي عهد الخلفاء ذكر غزواته والأثر المتولد في نفسه من سياسة العنف والشدّة وطموح الحسين وشعوره أن منصب الخلافة حق لازم لأبيه لا يجوز لغيره الجلوس فيه، وهكذا إلى آخر الكتاب، فإنه لم يذكر شيئاً أجنبياً عن الموضوع، ولا أدخل في المعنون ما هو خارج عن العنوان، وقد مضى في تقرير نتائجه بدون نظر إلى مخالفتها للعرف التاريخي الشائع، وتجرد إلى إعلانها حسب الخطة التي رسمها المنطق، وأيّدها العلم الصحيح، وليست الشهرة عنده بحجة، ولا قلة الأنصار وإعراض الأصحاب بموهن، لأن الشهرة لم تكن عنوان الحقيقة، والحق لا يُنال بالتصويت، والانتخاب مِن عمل الطبيعة وهي لا تغالط نفسها. فمن تلك النتائج أن عمر بن الخطاب عندما جعلها شورى في ستة لم يكن مالكاً لحواسه، وكان يهجر من أثر الطعنة ونزيف الدم، وكان مصمماً على انتخاب الإمام (ع) واختياره للخلافة عندما كان صحيح الجسم مجتمع الأعصاب، ولما تأكد الأمويون ذلك مِن الخليفة فكروا وأجمعوا أمرهم بينهم على اغتياله قبل أن يعلن شيئاً مما يدور بخلده. وإنه لو أسندت الخلافة والسلطان الأعلى من أول الأمر إلى علي (ع) لأجمعت عليه العرب أكثر مما اجتمعت على غيره كما شهد عمر بذلك، ولكانت السلطة أكثر انسجاماً مع الروح العربية البعيدة عن مذهب الحكم.

مراقبة:

وإنما سمعوا للنبي واستسلموا له لأنهم ينظرون إلى القيادة التي في يده أنها دينية محضة وذخيرة أخروية، وإذا مارس السلطة الزمنية فإن الصبغة الدينية كانت تغمرها وتخفي بوادي الحكم، وليس الخليفة كذلك إلا إذ كان من أسرة النبي (ص) ومن أهل بيته، فإنهم ينظرونه كما ينظرون

الرسول، ومتى انحرفت عن القربى فمعناه عند العرب أن الخلافة تجرّدت من كل شيء إلا الحكم والسلطان، ونفوس العرب تأباه ولا تستسلم له، وأن قريشاً التي تولت الحكم بعد النبي (ص) لولا إسناد السلطة إليها لخرجت على خليفة الرسول أيّ كان (١)، كما خرج أهل الردّة الذين حاربتهم قريش، وثارت كما ثاروا، ولم يمنعها عن الردّة والخروج إلا تصرفها بالحكم وإسناد الخلافة إليها. وإن من الغلط الفاحش ما هو مشهور أن معاوية بن أبي سفيان من الدهاة العريقين بالسياسة، وما هو إلا رجل عادي وسياسي بسيط، وإن السياسي العريق في بني أمية عبد الملك بن مروان، ولو تعرّض معاوية لما تعرّض له عبد الملك لفشل فشلاً ذريعاً، وكيف يكون سياسياً ولم يعمد إلى مداواة بقايا الزوبعة الكامنة من كل نفس، بل إلى استثارتها بشتّى الوسائل، ولم يبرد الحفيظة بل أذكى اشتعالها بسن بدعة سب علي (ع) وقتل رجالات الإسلام والأبرياء الصالحين. فنجاحه لم يستند إلى مقدرته السياسية بل جاء عفواً، والأدلة التي استند إليها العلايلي تفرض علينا الجزم والإذعان بأقواله، ولكن هذا الرأي الأخير مخالف لما أورده في الحلقة الأولى من أن نجاح معاوية مستند إلى سياسته: (لأنها مشتقة من طبيعة الحوادث ومن طبيعة الأطماع ومن روح الاستمالة، وجدير بهذه الخطّة أن تسمى سياسة حبّية) والمفهوم من لفظ استمالة وحبّية مع قرينة السياق أن معاوية كان يميل مع الجماعات وأفراد الشعب كيفما مالوا، ويتبع أهواءهم وأغراضهم لا أنه يستثير حفيظتهم بشتّى الوسائل كما جاء في الحلقة الثانية. ولعلّ هذا عدول منه عن القول الأول واتّباع للصواب عند ظهوره له بعد أن خفي عنه، والعدول ديدن الباحثين المدققين والعلماء المنصفين الذين لا تقف أفكارهم الوثّابة عند حد. يحكمون بصحة أمر متى ظهرت لديهم جهة الصحة ثم يعيدون النظر فيظهر لهم خطأ تلك الجهة ومعارضتها بأخرى أقوى منها فيستدركون ولا يمضون على الباطل.

ولعلّ المؤلف يذهب إلى أن معاوية استعمل السياسة الحبية قبل أن تستتب له الأمور ويملك السلطة المطلقة، ولما قُتل الإمام (ع) وتم له الأمر وانقادت إليه الأشياء وأمن نفوذه استعمل الشدة والعنف، وربما يُلاحظ عليه قوله في صفحة ٨٦ بعد أن نقل دهشة المقريزي من حرمان بني هاشم من التعيين في

---

(١) الصحيح: أيّاً كان .

عهد الخلفاء بينما كانت مغمورة في العنصر الأموي: (وقد ساعده – أي بني أمية – على اكتساب ثقة الخلفاء أنهم الأسرة السياسية العريقة) ونحن نشك باختصاص السياسة العريقة بالأمويين دون بني هاشم، وأين هي مظاهر هذه السياسة في بني أمية، ومتى ظهرت وبمن تمثّلت ؟! بعثمان أو مروان أو الوليد أو يزيد أو معاوية الذي عبَّر عنه الكاتب بالسياسيين اليوميين، وعلى فرض تسليم الاختصاص فهذا القول إنما يبرر تعيين الأمويين في الوظائف لإبعاد الهاشميين عنها، وهذا أبو موسى الأشعري وأبو الدرداء وأمثالهما الكثيرون تعيّنوا ولم يكونوا من الأسر العريقة بالسياسة، ولا من ذوي المواهب الدينية الموروثة، وهل يجوز أن نُحكم عدو الدينٍ وخصم الإسلام والمسلمين برقاب العباد وأموال البلاد بمجرد كونه سياسيا أو من أسرة عريقة بالسياسة؟! والذي نعتقده في إبعاد الهاشميين عن الحكم هو اعتقاد الخلفاء في بني هاشم أنهم الحزب المعارض المعتدل الذي يؤمن ضرره ولا تخشى عواقبه على الحكومة لاهتمامه بمصالح الإسلام وتقدم المسلمين، وهذا ما يُعبر عنه بالعدو العاقل، بخلاف الحزب الأموي المتحرر من كل قيد اتجاه أغراضه ومآربه، فاستمالوه بالمال، وأسكتوه بالوظيفة. وعلى كلٍ يجدر بالقرّاء أن يوسعوا صدورهم لكل ما يكتبه الأستاذ العلايلي، ويتقبلوه بقبول حسن، كما يجدر بنا نحن رجال الدين أن نقدم له الشكر، ونعترف له بالسبق والفضل، ونهنئ به أنفسنا، فإن السكوت عقوق، وجحود الفضل من أقبح الجهل.

❋ مجلة العرفان ، المجلد ٣٠ الجزآن ٦ و ٧ ، الصادران في شعبان ورمضان سنة ١٣٥٩هـ الموافقان أيلول وتشرين الأول (سبتمبر – اكتوبر) ١٩٤٠م ، ص (٤٦٨-٤٧٠)

(١٠) أخـــلاقنـــا

كما أن دين الإسلام عام بأحكامه وقوانينه إلى الإلهيات وأفعال العباد وصفاتهم النفسية، ففيه نزعة ذاتية تدعو إلى الاعتدال في جميع الأحوال، وعدم الإفراط والتفريط في العقائد والأفعال، وهذه الصفة لازمة له لا تنفك عنه في أصوله وفروعه، ولا تفارقه في أمر ولا زجر. فالقول بإنكار الخالق كالقول بتعدده كفر وضلال، والعدل – الوحدانية – والقول إن الله يعاقب المحسن والمسيء على السواء كالقول إنه لا يعاقب أحدا، والعدل أنه يثيب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، والاعتقاد أنه ليس لله أنبياء ورسل وأن مدَّعي الرسالة كاذب كالاعتقاد أنهم آلهة، والعدل أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، إلا أنهم مبشرون ومنذرون معصومون عن الخطأ والزلل. وكما لا يجوّز لك الدين ترك العبادة في جميع الأوقات لا يطلب منك أن تستغرق جميع أوقاتك فيها: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) ومثله القول في الأخلاق وصفة النفس: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (الإسراء: ٢٩) هذا هو دين الحق الذي ننتسب إليه ويجب علينا التعبد بأحكامه .

أما أعمالنا فعلى الضد وأخلاقنا فعلى العكس تبعد عن الاعتدال بُعد السلامة عن المريض، والحقيقة عن البطلان.

من أخلاقنا: إذا افتقر أحدنا لا يرى لله عليه فضل ولا نعمة إلا في مطعم أو ملبس، أما العقل والإيمان والصحة والأمان وغير ذلك من نعم الله التي لا يحصي لها الإنسان عداً فليست بشيء عنده من المعروف والإحسان، ولا يستوجب واهبها الشكر، ويعمى عن نعمة السلامة في العقل والجسم، وإن المال وإن عظم يبذل في سبيل الحصول عليها والمحافظة على بقائها، وإذا رأى من بيده شيء من الدنيا أعطتك نفسه صورة لأقبح المخلوقات وأخسَّها لما يبديه من المسكنة والتضرع، فهو عبد للدنيا ولمن حاز عليها، يركع للدرهم ويسجد للرغيف، ومتى استغنى بطر وكفر وقال: إنما أوتيته على علم عندي وأخذته العزَّة، وأذهب المال برشده وأعمى العجب والكبرياء قلبه ولبَّه، وأصبح ينظر إلى سواه بعين الاحتقار والسخرية، فهو في كلتا الحالتين كافر بأنعم ربه، جاحد لبره في عسره ويسره.

ولا شيء أحب إلى الله سبحانه من الشكر والتواضع مع الغنى والعفة والصبر مع الفقر، جاء في الحديث الشريف: (إن من حق الله على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يحدث لهم نعمة) وقال الإمام (ع): (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله) فواجب الفقير النزاهة والصبر والسعي مع الاتكال على الرَّزَّاق الكريم، والرضى بما قدَّر وقسَّم، وواجب الغني التواضع والشكر وأداء ما في ماله من حق، وليس معنى التواضع عدم محافظة المرء على كرامته والذود عن حقوقه، فإن حد التواضع الذي هو فضيلة بحق أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم من الرياء والمداهنة.

ومن أخلاقنا أنَّا لا نبالي بما نقول وما يُقال لنا، حقّاً كان أو باطلاً، نسرع إلى الحكم على عمرو وزيد بلا تورع وروية ولا حجة سوى الظن والتهمة، نطريه شاهداً ونأكله غائباً، إن أصابه خيراً (١) حسدناه، وإن ابتلي خذلناه، نحصي عليه العثرات، ونعمى عن الحسنات، ونعيّره بما لا نستطيع تركه، والويل إن بدر منه ما يخالف شهواتنا، ولم يوافق أغراضنا، نقول فيه بما لا نعلم، ونسلبه جميع حقوقه، وننسب إليه ما هو بعيد عنه، ونظلمه ونحن نشكو من ظلمه لنا، ونبيع الدين والشرف بالمقت وذم السيرة، ونفقد الرشد والحكمة.

والذي يفرضه علينا الدين كما نطقت به الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة إذا فعل أحدنا شرا أن نرشده إلى الخير، ونبذل الجهد في إصلاحه، ولا ينقلب بعضنا لفعله إلى العداوة لذاته، والله يحب كتمان الفاحشة، فإنَّ وزر من عملها على من أفشاها، والسر في ذلك أنَّ نسبة كل شخص إلى مجموع الإنسان كنسبة العضو من الجسد الواحد، فإذا مرض أحد الأعضاء أسرع الألم إلى سائر الجسد، وإنَّ روح جميع الأفراد استمدت من روح واحدة ومبدأ واحد عزَّ وعلا. فإن أرواح الخلق أشد اتصالاً بالله من اتصال شعاع الشمس بالشمس، فإذا تمرَّض عضو من أعضاء الإنسان وجب عليه مداواته وإزالة الألم منه، وكذا إذا فسد أحد الأفراد وجب على الجميع إصلاحه وإرجاع السلامة إليه، ومن لم يستطع المداواة فعليه الكتمان وعدم الإذاعة، لأن إظهار الموبقات موجب لانتشار الفساد في النّاس وكثرة العمل به وسريانه بالعدوى، فإن أعمال ضعفاء العقول تبعث غالباً عن التقليد

---

(١) صحة العبارة : إن أصابه خيرٌ، لأن (خير) موقعها فاعل ، فيجب رفعها لا نصبها.

والمحاكاة من لوازم طباعهم، والتقليد هو المبرر الوحيد لأفعالهم، والحجَّة الكبرى التي يدعمون بها أقوالهم، ويسندون إليها أحكامهم، فميزان حُسن الفعل لديهم ارتكاب الغير له، وكتمان الفاحشة خنق لآثارها وقتل لحركتها وامتدادها، لذلك أمر به الشرع وندب إليه العقل وحثَّ على التعاضد والمؤاساة والعمل الصالح المجموع، كما أنَّ عمل العضو يعود بالعمل على سائر الأعضاء .. وقد أمر الصادق (ع) شيعته بالبراءة ممن لا خير فيه لأمته، ونفى عنه الإسلام، وسُئل عن خير الناس فقال: إن خير الناس وأحبهم إلى الله أنفعهم للناس، وشرُّ الناس وأبغضهم إلى الله من تخاف (١) الناس من شره. ومن أخلاقنا أنه لا شيء أثقل على نفوسنا من تحمّل الحق، وأصعب من سماعه والنطق به، ولا شيء أسهل من مخالفته وأخف من كتمانه وسحقه، فابن أمك أخوك تكرمه ويكرمك، ومن منحته المودَّة صديقك تحفظه ويحفظك، ما لم يطلبك أو تطلبه بحق مادي أو أدبي، ويشهد عليك أو تشهد عليه بحق يلزمك أو يلزمه، ومتى دخل الحق بينكما أعلنت الحرب وانقلبت الأُخوّة والصداقة إلى العداوة والبغضاء، فكأن القرابة والصداقة مبنيان على الباطل وهو الرابط الوطيد بينكما، فلمّا جاء الحق زهق الباطل وزال كل شيء. ونُقدم على اضطهاد الحق والاستخفاف به بكل جرأة وشجاعة متى التهبت في أحشائنا نار الغضب، أو لاحت أمامنا بروق المطامع، ونأتي بكل ما يدعو إليه الغضب والطمع من الرذائل كالكذب والغيبة والظلم والحسد والرياء والذل برغبة وطيب نفس، وسببه أن قلوبنا قد تزلزلت برذيلة الشهوات والأهواء، واسودَّت من ظلمة الأغراض والشقاء. والحق فضيلة ونور، فلا شبه بينه وبين نفوسنا ولا جامع يجمعهما، ومن هنا جاء التنافر والتناكر، وأنكرنا الحق كما أنكر الذباب محل النظافة والطيب، وألفنا الباطل كما ألف الجيف والأوساخ، ولم تُشرّع الشرائع الإلهية، وتُنزَّل الكتب السماوية، وتُرسل الرسل إلا لتناصر الحق وتدعو إليه. ولم تقم الحكومات وتُؤلف الكتب وتُؤسس المدارس والجامعات إلا لهذه الغاية، وليس العقل والوجدان قلباً نفذت أشعته إلى الخارج، وظهرت آثاره على الأعضاء والجوارح بعمل والعلم والإيمان والحرية والأخلاق إلا جنود الحق وأنصاره، وليس أبلغ في ترويض النفس وتزكيتها من حملها على العمل به، والحقُّ نور متى حلّ الخير والفضيلة،

---

(١) لعلّ الأنسب من سياق الحديث : من تخافه الناس، لكني لم أقع على الحديث.

تظهر على اللسان بحمله على الأدب وإكرامه عن الخيانة والكذب، وإعفائه عن الفضول، فإنه الشاهد الوحيد على العقل، والدليل الصادق على نقصه وكماله، وتظهر على السمع والبصر بأن لا يجعلهما طريقاً وباباً إلى القلب، إلا إلى ما يحدث فيه خلقاً كريماً، وتظهر على اليد والرجل بما يعم نفعه دنيا ودينا.

طير حرفا علما الشعب

✽ مجلة العرفان، المجلد ٣١ الجزآن ١ و ٢، الصادران في المحرم وصفر سنة ١٣٦١هـ الموافقان كانون الثاني وشباط (يناير – فبراير) ١٩٤٢م، ص (٢٨ - ٣٠)

(١١) أبو فراس والمتنبي

" عند العلاّمة السيد محسن الأمين والأديب الكبير الدكتور طه حسين "

العلاّمة الأمين عَلَم من أعلام الدين ومن كبار علمائه المشهورين، والدكتور قطب من أقطاب الأدب وسيّد أساتذة المفكرين، وهما يعيشان في عصر واحد يستطيع كل منهما أن يعلم ما عند معاصره، ويطلع على أفكاره وآثاره، كما عاش أبو فراس وأبو الطيب في زمن واحد وبيئة واحدة، وسمع كل واحد من صاحبه وتعرف إلى شعره وأدبه، وتنافسا في المضمار، وأدّى التنافس بينهما إلى الخصومة والشجار. ألف السيد (أبو فراس) وقارن بينه وبين المتنبي، وكتب الدكتور طه حسين (مع المتنبي) وقارن بينه وبين أبي فراس، وكلٌّ من الكاتبين فضّل صاحبه على صاحبه، فحكم السيد لأبي فراس على المتنبي، وحكم الدكتور للمتنبي على أبي فراس، والذي أظنّه أنه لم يقرأ أحدهما ما كتبه الآخر ليعلم رأيه في الشاعرين.

والمقارنة بين هذين الرأيين وبيان أسبابهما والباعث عليهما بحث أدبي طريف، وعلمي مفيد، لأن السيد والدكتور تكلما بوحي العقيدة والوجدان من غير ميل وتعصب لأحد الشاعرين، فهما يرسمان لنا صورة صادقة عن الأدب القديم والحديث، وإن شئت فقل يصوران المنظار الذي ينظر فيه إلى الأدب قديماً وحديثاً. فالأدب لم يتغير من ناحية الحسن والقبح أولاً وآخراً، فهو أبداً ودائماً منه الجيد وغير الجيد كما يقول شوقي:

والشعر في حيث النفوس تلذّه لا في الجديد ولا القديم العادي (١)

والاختلاف في وجهة النظر إليه وفي معيار الحسن والقبح. ونحن ننقل للقرّاء كلام السيد والدكتور، لنعرض عليه مقدمات استنتاجاتنا وطريق حكمنا على كلا الرأيين ليستنتجوا ما استنتجناه، ويحكموا بما حكمناه ويصح عندهم ما صحّ عندنا.

---

(١) البيت ترتيبه (٣٥) من قصيدة شوقي التي قالها في تحية الأديب اللبناني المعروف أمين الريحاني، وذلك عام ١٩٢٢م، ومطلع القصيدة :

قف نـاجِ أهرام الجلال ونـادِ هـل من بُنـاتك مجلسٌ أو نادي

وشوقي في بيته السابق يشير إلى أن الشعر ليس بقديمه ولا جديده، ولكنه يُقدر بارتياح النفوس إليه .

قال السيد في كتابه (أبو فراس) ص ٦٢ : (من فضَّل أبا فراس على المتنبيليس مبالغاً، فإن المتنبي وإن ساواه أو فضَّله في أبعاض من شعره إلا أنه لا يكاد يساويه في مجموع شعريهما، فإنك لا تكاد تجد في شعر أبي فراس ما يعاب أو يُنتقد ، بل كله مهذب مصفى في غاية الانسجام والبلاغة والرقة والمتانة، هي وحدها ميزان التفضيل عند السيد، وهي وحدها المعيار لحسن الشعر وقبحه، فمعها يحوز الشاعر قصب السبق، ولمن يجيدها في شعره وسام الشاعرية. وهذا كله يعود إلى نفس الديباجة والتعبير من غير نظر إلى روح الشاعر وأفكاره وفنه وتصويره وتنوع معانيه وخوالج نفسه البعيدة.

ويقول الدكتور في المجلد الثاني من كتابه (مع المتنبي) ص ٣٢٥ و ٣٢٦: (ولكنك واجد في وصف المتنبي للجهاد قوّة وفتوّة ونشاطاً وعنفاً لا تجدها في شعر أبي فراس الذي ظهرت فيه دقة الحس ورقة العاطفة) إلى أن قال : (وأنت واجد حين تقرأ هذين الشاعرين فرقاً بين القوة التي ترتفع بك إلى أقصى ما تستطيع أن تبلغ من أمل وثقة وعنف، والضعف الذي ينحط بك إلى الحضيض ولكنه يحتفظ بك معلّقاً في الهواء، لا تبلغ الأرض فتمشي عليها ولا تبلغ أعلى الجو فتحلق فيه تحليق النسر) وليس في هذا الكلام أي مساس بالأسلوب والصناعة بل هو متوجه إلى الفكرة والروح، فالاختلاف بين السيد والدكتور لم يكن في طريقة المقاييس وتطبيقها بل في المقاييس نفسها، فمفاضلة السيد ومقارنته وقعت بين أسلوب وأسلوب، والدكتور بين روح وروح، والفرق بينهما كالفرق بين الوسيلة والغاية، وكل منهما مصيب في قوله، صادق في حكمه، بناء على صحة مبناه وصدق ما افترضه من المستند والمدرك، فشعر أبي فراس خال من التعقيد والغموض الذي يكثر في شعر المتنبي ويتسرب إلى الذهن بكل سهولة، ولا يحتاج إلى الشروح والتفاسير، مع إحكام الأسلوب وإبراز المعنى في أجمل قالب، حتى كأن الشاعر من عصرنا هذا، الذي عذبت فيه لغة الأدب ورقّت ألفاظه، فأبو فراس من هذه الناحية يفوق المتنبي، وبهذا الاعتبار فضَّله السيد لأنه معيار حُسن الشعر عنده. والدكتور لعلّه لا ينكر ذلك ولا يجحده، ولكنه يرى أنه ليس هو الشيء الوحيد في حسن الأدب، ولا هو كل شيء في جمال الشعر، بل هناك مزايا يجب مراعاتها، ولا يجوز إهمالها. على أن أبا فراس لا يمتاز في الأسلوب فحسب، فإن شعره يفيض بالبطولة المنبعثة عن قوة نفسه وشجاعتها، ويزخر بالحماسة المستمدة من حريته وإبائه، إلا أنه ضيّق التفكير، غير واسع الخيال ولا بعيد الغور بالقياس إلى المتنبي. فالأبي غير العالم، والشجاع غير الغوّاص، وعند المتنبي سعة الخيال ودقة التصوير

وعمق الأفكار وتفاصيل جزئياتها والإحاطة بجميع أطراف الموضوع ونواحيه ومعرفة فروعه وحواشيه. وأبو فراس لا طاقة له بغي ذكر العام والكلي، فإنه ينظم القضايا ويرسلها إرسال البديهيات التي يشترك فيها العالم والجاهل ولا تحتاج إلى إجهاد فكر، ومثل هذا لا يروق للأستاذ العالمي في الأدب العربي الذي ينظر إلى روح الشاعر فيتصل بأفكاره ومكنونات نفسه وبواعثها، ويحس بشعوره ويشعر بإحساسه، ثم يضم ذلك إلى ما تفرضه قوانين الفلسفة الحقة والقيم الصحيحة، فقد تغيرت الحياة العقلية والنظريات العلمية أيّ تغيير، وتحولت إلى حقائق لم يألفها الأقدمون، فمن المستحيل أن يبقى النظر إلى الشعر كما كان، وأنه عبارة عن انسجام ورصانة، فاليوم يُنظر إليه أنه فكرة تمتزج فيها العاطفة والشاعرية، فتصبح حقيقة من الحقائق، تزيل الغشاوة عن إبداع الكون وجماله، وتظهر خفاياه وأسراره، وبهذا يرتفع مستواه عن الابتذال، ويكون له ما لأهم العلوم من الشأن والمنزلة، فالشاعر يجب أن يكون أكثر معرفة من غيره وأوسع إحاطة بخواص الأشياء، أما مقدرته على التصرف بالألفاظ ونظمها وتصدير كمية وافرة منها، فغير مجدٍ ولا مجزٍ، فالنظم الخالي عن الروح والفكرة لا يُسمى شعراً إلا من باب تسمية الجاهل بالإنسان.

وقد قارن السيد بين قصيدتين للشاعرين متحدتين وزناً وقافيةً وموضوعاً، ومن الغريب أن هذه المقارنة التي جعلها السيد شاهداً ومؤيداً على تفضيل أبي فراس على المتنبي كانت سبباً في تفضيلنا المتنبي على أبي فراس، ومن بعض أبياتها استوحينا كثيراً مما كتبناه، وهي الباعث الأكبر على مخالفتنا للسيد وموافقة الدكتور، وأنقل للقرّاء تلك الأبيات تاركاً ذكر القصيدتين بالتمام حذار التطويل الذي لا يسوغه غلاء الورق وفقدانه. أما موضوع القصيدتين ففي مدح سيف الدولة ووصف الجهاد، ومطلع قصيدة المتنبي:

إذا كان مدحا فالنسيب المقدم   أكل فصيح قال شعرا متيم

وينتهي من المدح إلى وصف الخيل فيقول :

تباري نجوم القذف في كل ليلة نجـوم له منهـن ورد وأدهـم (١)
فهـن مع السيـدان في البر عسّلٌ وهن مع النينان في البحر عوّم (٢)
وهـن مع الغـزلان في الواد كمّن وهن مع العقبان في النيق حوّم (٣)
وأدّبـها طـول القتـال فطـرفه يشير إليها من بعيد فتفهم (٤)
تجـاوبه فعـلا وما تسمع الوحـى ويسمعها لحظا ومـا يتكـلم (٥)

إذن تم لسيف الدولة أساطيله الثلاثة، وهذه الجياد التي ملأت البر والبحر والجو أطوع إليه من الطائرة والدّبابة والباخرة لمديرها، فلا تفتقر إدارتها في جبهة القتال ومجابهة الأعداء إلى تحريك يد أو رجل، بل تكفيها الإشارة باليد والإيماء بالطرف. ويقول في وصف الفوارس:

وكلُّ فتى في الحربِ فوق جبينه من الضربِ سطرٌ بالأسنة معجم(٦)

---

(١) يصف المتنبي خيول سيف الدولة بقوله: إنها تنقض على الأعداء كالشهب المنقضة في الهواء في السرعة والشدة. والورد والأدهم من صفات الخيل، ونجوم سيف الدولة: أي خيله.

(٢)السيدان : جمع سيد وهو الذئب، وعسَّلٌ : جمع عاسل وهو الذي يضطرب في عَدوِه، والنينان : جمع نون وهو الحوت ز أي أن خيله ملأت البر والبحر، فهي تعدو مع الذئاب في البر وتسبح مع الحيتان في الماء .

(٣) الواد أي الوادي فاجتزا عن الياء بالكسرة وهو نادر، والنيق: أعلى موضع في الجبل. أي أنه لم يترك موضعا إلا قرعه بحوافر خيله، فهو يكمن بها في الأودية فتجاور الغزلان، ويرهق بها الأعداء في رؤوس الجبال فتجاور العقبان .

(٤)الطرف: النظر. يقول: قد تأدّبت خيله على الحرب لطول ممارستها للقتال حتى صارت إذا أشار إليها بعينه من بعيد تفهم مراده .

(٥) الوحى: الصوت. أي أن الخيول تفهم مراد سيف الدولة بنظراته فقط فتجاوبه بفعلها من غير أن تسمع صوته ويفهمها مراده باللحظ من غير أن يتكلم .

(٦) الأسنة: نصال الرماح، والإعجام: التنقيط. أي وحول سيف الدولة فتيان من رجال الحرب على وجوههم آثار الضرب والطّعن، وشبَّه أثر الضرب بالسطر لاستطالته وأثر الطعن بالإعجام لاستدارته .

يمدُّ يديه في المفاضة ضيغمٌ   وعينيه من تحت الشريكة أرقمُ (١)

فأي شيء أدق في التصوير وأعمق في التفكير من هذه الرسوم والتصاوير، فهؤلاء الفتيان من رجال الحرب على وجوههم من كثرة القتال والنزال آثار الطعن والضرب، والضرب على جبينهم ممتد مستطيل كالسطر المخطوط ومن فوقه الطعن مستدير كالإعجام والتنقيط هذه هي الخبايا في الزوايا التي لا يهتدي إليها إلا العباقرة وأهل النبوغ الذين يظهرون للناس دائماً بالجديد المعجز. ومن قصيدة أبي فراس التي فضّلها السيد على قصيدة المتنبي :

سنضربُهُم مادام للسّيف قائمٌ   ونطعنُهُم مادام للرمح لهذمُ (٢)
ونقفوهُمُ خلف الخليج بضُمَّرٍ   تخوضُ بحارا بعض خلجانها دمُ (٣)
ونجنبُ ما ألقى الوجيهُ ولاحقٌ   إلى كلِّ ما أبقى الجديلُ وشدقمُ (٤)
ونعتقل الصمّ العواليَ إنها   طريقٌ إلى نيل المعالي وسلمُ
وأرماحُنا في كل لبة فارسٍ   تثقبُ تثقيبَ الجمان وتنظمُ

كلّيات في كليات تقولها عامة الناس عند الغضب والحماس، ولا تستعصي معانيها على من ضاق تفكيره، وإن عجز تعبيره أن يصوغها في قالب اللفظ الموزون.

---

(١) الضمير من يديه وعينيه للفتى، والمفاضة: الدرع الواسعة، والضيغم: الأسد، والتريكة: البيضة من الحديد .. ونلاحظ هنا أن الشيخ أخطأ في البيت، فجاء بلفظة الشريكة بدلا من التريكة، ولعله رجع إلى نسخة أخرى غير التي أمامي الآن. والأرقم : الحية الذكر. أي أن هذا الفتى في الشجاعة كالأسد، وفي حدة النظر كالأرقم، فإذا مدَّ يديه في الدرع فقد مدّهما أسد، وإذا مدّ عينيه من تحت الخوذة فقد مدّهما أرقم . (انظر " العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب " للشيخ ناصيف اليازجي، طبعة: دار صادر – بيروت ، ص : ٧٦-٨١) د.ت

(٢) اللهذم: الحاد القاطع من كل ما هو كالسيف أو السنان أو الناب ج: لهاذم ولهاذمة.

(٣) مغنية في هذا البيت يورد لفظة بعد بدلاً من بعض، والصحيح ما أثبتناه أعلاه، الضُمَّر: الخيول المضمرة، وهي الخيول التي تُعلف قوتاً بعد سمنها، وتضميرها أن تُشد عليها سروجها وتُجلّل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها. أي خيول معدَّة للحرب ومدربة على القتال .

(٤)جنبه: قاده مربوطاً إلى جنب فرسه، والوجيه ولاحق والجديل وشدقم: أفراس مشهورة، وأراد بألقى: أنتج

وأعود إلى القول: إن المقارنة بين هاتين القصيدتين التي جعلها السيد أساساً لتفضيل أبي فراس هي أدل وأوضح على تفضيل المتنبي وتقدمه.

ثم إنَّ السيد الذي جعل شعر أبي فراس سالماً من السقطات يختار أبياتاً يذكرها تحت عنوان (المختار من شعر أبي فراس) منها في الغزل:

قد كان بدر السما حسنا ... والناس في حبه سـواء

فـزاده ربّـه عـذارا ... تمّ به الحسنُ والبهـاء

لا تعجبـوا ربّنا قديرٌ ... يزيد في الخلق ما يشاء

وأستغفر الله سبحانه وتعالى الذي يزيد في الخلق ما يشاء، وأسأله أن يحفظ السيد ويديم ظله للدين والعلم.

❁ مجلة العرفان ، المجلد ٣١ الجزآن ٥ و ٦ ، الصادران في جمادى الأولى والثانية سنة ١٣٦٤هـ الموافقين نيسان وأيار (أبريل - مايو) ١٩٤٥م ، ص (٢١٤ - ٢١٧)

(١٢) الشريف الرضي

للدكتور محفوظ

الدكتور محفوظ معروف عند أدباء سوريا ولبنان لأنه من أسرتهم، ومندرج في بطاقة إعاشتهم، ومن لم يساعده الحظ مثلي لقراءة شعره ومعرفة حقيقة أدبه فإنه يعلم عن طريق السماع والشهرة أنّ محفوظاً من الشعراء العامليين والأدباء اللامعين، وأنه لاقى في سبيل دعوته ما يلقاه كل أديب جريء... أما الآن بعد أن نشر كتاب الشريف فقد اكتشفنا فيه الكثير عن طريق الدرس والاطلاع: ١ – شدة تمسكه بقوميته العربية مع رغبته بالتجدد الصالح، فلا هو من الشبّان الجاهلين ولا من الجامدين المحافظين، فالقومية عنده الأصل الأول والأساس المتين الذي يبني عليه كل جديد مفيد. ٢ – أن هذا التمسك والإخلاص لم يكن عن تعصب وجهل بل عن علم وإيمان بما عند قومه من القوة والفضل. ٣ – أنه الفرد الوحيد في معرفة الصور الكثيرة لمعاني الكلام، ولم أر مثله في تحليل الشعر و بيان وجوهه الخفية، إلا أن تعمقه في بعض الأحيان يخرجه عن حد الاعتدال فيجعل الصورة الضعيفة الواهية التي تنبو عن الذهن والذوق في صف الصورة الصحيحة القريبة المعقولة التي يأنس بها الذهن ويستحسنها الذوق كما فعل عند تحليل قول الشريف في وصف القلم :

وأهيــف إن زعزعته البنا نُ أمطر في الطرسِ ليلا أحم

قال: إن الشريف يريد تشبيه القلم بالجبل، استنتج ذلك من زعزعته، واللوازم البعيدة تستدعي التعقيد المخل بالبلاغة حيث تفتقر إلى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المقصود، كما نبَّه عليه علماء البيان وضربوا له مثلاً قول ابن الأحن :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

والدكتور مغرم بعلم البيان كما يظهر من كثرة استشهاده بقواعده، وذكر عند تفسير بيت الشريف:

كم فيك من مهجة معذَّبةٍ هجيرها بالنسيم يلتطمُ

اثنتي عشرة صورة بيانية للفظة الهجير وحدها، ثم أخذ بالتدليل وإثبات كل صورة ومحاسنها وترجيحها على غيرها حتى استغرق عشر صفحات، وقد أطال في معنى الرمزية وذكر أقسامها وبيان شروطها، ولا موجب لذلك التطويل ولا لبعضه بل ولا لجزء منه، فالرمزية أمر فطري يستعملها الشاعر والناثر بوحي الغريزة دون أن يلتفت إلى القيود التي قيدنا بها الدكتور، وقد قرأ لي الصديق الأستاذ ابن البادية كثيرا من هذا النوع نثرا وشعرا، وآخر ما سمعته منه قصيدة رقيقة يرمز بها إلى انهيار الألمان وانتصار الحلفاء. وأطال أيضاً في مقام المقارنة بين الشريف من جهة ومشاهير أدباء العرب والإفرنج من جهة حيث يختار بيتين لشاعرين ثم يقارن بينهما، أو بين جملة وجملة منهما أو لفظة ولفظة، وبالرغم من فصاحة الأسلوب وسعة الخيال وقوة الحجة عند الدكتور فإن هذا النحو غير مألوف، وجاء في الكتاب ذكر ابن الفارض وشعره وردّ الدكتور على الزّيات القائل: إنه شاعر رمزي، واختار هو أنه شاعر من الدرجة المتوسطة، وأنّ شعره لا يخرج عن قواعد علم البيان المألوفة من التورية والإبهام والتوجيه، وأنه إنما جاء جامداً سقيماً لأنه علمي فقهي أخلاقي. أقول: إن طريقة ابن الفارض في شعره ينكرها العلم ويأباها الوجدان والذوق، فكما أنه غير شاعر رمزي كما يقول الدكتور — وهو بهذا الفن أعلم — فشعره أيضاً غير جارٍ على سنن الفقه والأخلاق، ولا على قواعد علم المعاني والبيان، فأي فقه وأي أخلاق يسوّغ استعمال لفظة ليلى والخمر الذي هو رجس من عمل الشيطان على ذاته تعالى الله عما يقول الظالمون، فإن أسماء الباري سبحانه توقيفية، ولا اجتهاد في قبال النص، والشرط الأساسي العام لجميع أبواب البيان هو استحسان الذوق للاستعمال وموافقته للطبع السليم، وهو لا يستحسن اعتباطاً بلا علاقة، فصحة الاستعمال لابد لها من منشأ تُنتزع منه، وسبب تستند إليه، فالتأويل جائز في القرآن المجيد وكثير في كلام العرب ولكن على هذا الأساس والشرط. خذ مثلاً : كان القبعثري جالساً في بستان مع بعض أصحابه والأوان أوان حصرم فجرى ذكر الحجّاج، قال القبعثري : اللهم سوّد وجهه واقطع عنقه واسقني من دمه، فعلم الحجّاج فطلبه وتهدّده، قال : أيها الأمير أردت الحصرم، والذوق يرحب بهذا التأويل الحسن، لأن الحصرم يسود لونه عند النضوج ثم يُقطع ويُعصر للخمر، وقد سكر الحجّاج من سلافة هذه البلاغة فتجاوز وأجاز، وكذا التورية فإنها تهز الأذكياء كالأبيات المأثورة عن مصباح رمضان، رأى جدنا يسبح في سبحة يسر فقال :

لا شكَّ تسبيحه لله ينفعه   في كل عسر لأن اليسر في يده

أما التوجيه فهو إيراد الكلام محتملاً لمعنيين بموجب دلالته التركيبية، كقول بشَّار لعمرو الخيَّاط الأعور:

خاط لـــي عمرو قباء   ليت عينيه سواء

والإبهام إجمال اللفظ وتردده بين معنيين أو أكثر، وينشأ التردد إما عن تعدد الوضع، كلفظ جون الموضوع للأبيض والأحمر والأسود، وأما عن الإعلال كالمختار فإنه بالأصل لفظان، اسم فاعل مفتعل بالكسر واسم مفعول بالفتح ثم قلبت الياء ألفاً فوقع الإجمال والإبهام، ولما كانت هذه الأسباب وأمثالها معقولة مقبولة كانت من أظهر مصاديق علم البيان، أما استعمال ليلى والخمر بالله تعالى كما فعل ابن الفارض فهو بعيد عن كل علم وعرف بُعد الباطل عن الحق، ولا يمكن تخرّجه على شيء من علم البيان، حتى المشاكلة التي يصح فيها استعمال الأضداد بعضها في بعض، كقول الشاعر العريان في جواب من قال له: اقترح علينا مأكولاً نجد له طبخه :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

استعمل الطبخ مكان الخياطة مع عدم العلاقة، ولكن النكتة وهي الإشارة إلى الأهم الأولى جعلت هذا النوع من أبلغ أنواع البيان، فشعر ابن الفارض يجب إهماله، ولا يؤتى على ذكره بشيء لأنه ساقط من حيث الفكرة والأسلوب. ثم إن الدكتور كرَّر في كتابه لفظ لاسيما بلا واو، جرياً على طريقة أكثر الكتّاب، ومنهم صديقنا الجليل الأستاذ صاحب العرفان الأغر، والفصيح المشهور ولاسيما بالواو، كما رسم لفظة الدجا التي جاءت في شعر الشريف، رسمها في كتابه على صورة الياء – الدجى – والصواب كما في الديوان بالألف (وطفل الدجا في حجور البلاد – ودجا هتكت قناعه) لأنه دجو بالواو لا دجى بالياء. وذكر أيضاً طمست قناعه بدلاً عن هتكت والصواب الثاني، ومثل هذا سهل جداً، لا يخلو الكامل منه ويُعاب العالم عليه.

والحقيقة التي لا مرية فيها ولا محاباة أن الكتاب بجملته يدل على عظمة الشريف وعبقريته بما تناوله في شعره من المعاني الدقيقة التي صوَّرها في جلال الإعجاز، وقلبها في شتى أساليب المجاز، وجلاّها على الدهر كله لا

على عصره وحده، وأبدع في تلوين المعاني حتى استغرق جميع محاسن البلاغة، ولم يترك لأي بليغ شيئا سوى الدهشة والعجب العجيب الذي لا نهاية له. وإذا دلَّ الكتاب على عظمة الشريف فإنه على مقدرة المؤلف ونبوغه أدلّ، فإن الأعمى لا يبصر النور وفاقد الشيء لا يعطيه. وإني أتقدم له بالاحترام والشكر، وأعترف له بالفضل حيث أرشد إلى أسرار العظمة في لغة الديوان، وبيَّن أن الألفاظ العربية تسع كل ما حدث ويحدث من المعاني.

ولو ترك أعضاء المجامع اللغوية قواميس اللغة (١) وكتب مفرداتها الموحشة الجافة، وتدبروا القرآن الكريم ونهج البلاغة وديوان الشريف وكلام الشعراء وفحول البلغاء وعرفوا ما في هذه من أسرار الروعة والإبداع وما تشتمل عليه من جهات البلاغة وفنونها، كما فهم مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن، والدكتور محفوظ شعر الرضي لعلموا أن ضروب البلاغة لم تنته إلى ما انتهت إليه أئمة البيان، وأنه لم يتفق لهم منها إلا القليل.

وما من بليغ إلا وأحدث في لغته من المذاهب البيانية الجديد الرائع، واللغة العربية تتسع لهذا العلم بما يقوم بحاجات أي عصر من العصور مهما تنوعت وتعددت. أجل لو علم ذلك أعضاء المجامع لما وقعوا في مشكلة الضيق والعجز في ميزانية التسمية والوضع، ولظهر لهم الأثر الأكبر في أمدٍ قصيرٍ، والمقام يضيق بنا عن الكلام بهذا الموضوع الجليل، وسنفرد له مقالاً خاصا إن شاء الله .

---

(١) الفصيح أن يقول: معاجم اللغة، لأن القاموسِ ما هو إلا واحد من المعاجم اللغوية المعروفة، ولكن لشهرته قيل ذلك اشتباها.

❁ مجلة العرفان ، المجلد ٣١ الجزآن ٩ و ١٠ ، الصادران في رمضان وشوال سنة ١٣٦٤هـ الموافقين آب وأيلول (اغسطس - سبتمبر) ١٩٤٥م ، ص (٥٥٠ - ٥٥٢)

(١٣) العلماء والزعماء في جبل عامل

في العام الماضي تكلمت في العرفان الأغر (ج ٧ و٨ و ٩ و ١٠ م ٣١) تحت عنوان (علماء الدين)(١) وقد رغب إلي جماعة من ذوي الفضل والفهم، المتحفزين للنهوض والتقدم أن أتابع السير في طريق الدعوة إلى الخير، رغبة في الإصلاح وبلوغ الأماني، فاستجبت لدعوتهم ولصوت الضمير الذي يستحثني على الإخلاص في القول والعمل.

العلماء .. وأخص خطابي بالسيدين العظيمين اللذين لهما الشأن الأكبر والمركز الأول، وبالأعلام الفضلاء أرباب القرائح السامية والروح الوثّابة التي تنزع إلى العمل وتتوق إلى الجهاد، أما الذي تخرَّج من مدرسة البزّاز والخيّاط ولم ينتسب إلى العلم والدين إلا باللقب والزي فليس إلى الحديث معه من سبيل. وما أساء أحدٌ إلى الدين وعلومه كعلماء الدين أنفسهم، فتركوا روضة العلم من غير سياج ورقيب، يرتع الجاهل فيها إلى جنب العالم، ويختلط الحابل بالنابل، ويلتبس الحق على العامة، ويلحق الفاضلِ الأصيل دنس الجاهل الدخيل، وتصبح الهيئة العلمية الدينية محلاً لضحكة الجاهل الساخر، وغطرسة الفاسق الجائر. أيجرأ أحد أن ينتسب إلى إحدى الجمعيات الصغيرة أو الكبيرة، أو يتزيى بزي أبناء الهيئات الرسمية وغير الرسمية وهو غريب عنها؟! ولماذا يعاقب القانون هذا الشخص المنتحلِ ويترك ذاك المدجل الكذاب؟! وهل التعدّي على حرمة الدين أقل خطراً من التعدي على الحقير التافه من أمور الدنيا وشؤونها؟! وفي عقيدتي لم تحق كلمة الخذلان على العلماء إلا لحشر هؤلاء الدخلاء في زمرتهم، فإذا حاولِ العلماء الذين هم علماء بالمعنى الصحيح أن يقوموا بواجباتهم، ويؤدوا شيئاً من وظائفهم ثُبّطوا وشُككوا، فيحجم العلماء والأسف يدمي قلوبهم والأسى يمزق أحشاءهم. وحيث كنّا على بينةٍ من جهلهم وضعفهم، وعلى ثقة من أنفسنا وأعمالنا فعلينا أن نمضي قدُماً غير مكترثين ولا مبالين، وغير مراعين ولا متسامحين، لنا رسالة يجب أن نؤديها ونجاهد في سبيلها، وعلينا تبعة يجب أن نعذر ونخرج عن عهدتها. وإذا أخفقت جمعية العلماء ومات مشروعها فلا يسوغ لنا نحن أن نهمل

---

(١) مقاله " علماء الدين.. مالهم وما عليهم " مدرج في كتابه " الوضع الحاضر في جبل عامل " فراجع.

ونحجم، بل يلزمنا أن نتجنب الوسائل التي أوقعتها بالأخطاء المؤدية إلى فشلها، ونتخذ منها دروساً تفيدنا في طريق السير لبلوغ العمل المنتج.

لعبت بالجمعية يدُ المفسد العاتي، واستطاع أن يستغل صفاء بعض العلماء وذاته الطيبة، فعلينا أن ننتبه فنحذر ونحترس. واختلف أعضاؤها على المكان في صُور أو في النبطية، ونجتمع نحن للسير في طريق العمل الذي يرضي الجميع، ويقره كل فرد، فلا نأتي على ذكر المكان واسم الرئيس والأستاذ وشرطه وشروطه ليقع التشاؤم، ويوجس في نفسه هذا خيفة، وينسج ذاك الشكوك، ويؤلب الصغير على الكبير، ويعلو الصياح والصراخ، فيشتبه المحق بالمبطل والصالح بالطالح.

ينقسم جبل عامل إلى ساحل جبل شقيف وما يلحق به، كالصرفند وجبع وتوابعها، وإذا راعينا كل واحد منفرداً وجدنا في الساحل — بمساعي المرجع الأكبرِ حجة الإسلام السيد عبد الحسين شرف الدين — نهضة علمية وأعمالا خالدة يكثر نفعها ويكثر فضلها. ففي صور المدرسة الجعفرية التي قصر عن إنتاجها أعظم المدارس اللبنانية، والتي ستصبح كلية تضم ٥٠٠ طالب في أقرب وقت إن شاء الله تعالى. وفيها النادي الكبير والميتم الإسلامي العاملي الذي باشر السيدِ بإنشائه، ووضع حجره الأساسي بيده، ولو تم كما يشاء السيد لكان علماً لعز البلاد العاملية ونصرها، ودليلا على عظمة الطائفة وفخرها. ولكن التمام على الخطة المرسومة، ومتابعة السير في العمل له وللمدرسة يفتقر إلى المال، وبدونه لا يجدي العزم والجهود. وفي النبطية جمعية المقاصد وعلى رأسها العلامتان المصلحان الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، ولها مدرستان إحداهما للذكور والثانية للإناث. وقام أعضاء المقاصد بمساعٍ عادت على المدرستين بالتقدم والنجاح، والداء أو الدواء واحد، فالمال شرط في الدّوام والبقاء، كما هو شرط في الحدوث والإنشاء على حد تعبير الأصوليين والفقهاء، أما الجبل فلا شيء. والسر في العدم هنا والضعف هناك هو توزيع القوى وانحلال الأجزاء، ولو اتفقت الكلمة واجتمعت القلوب على الإحساس المتحد وأجمع العلماء كافة على تأليف جمعية تعمل لإنشاء مدرسة في تبنين أو بنت الجبيل، ولحفظ الجعفرية ونموها وإكمال الميتم وتجهيزه، ومساعدة المقاصد وتقدمها، لقام العلماء بأسمى الأعمال وأجل الآثار. تقوم الجمعية على هذا الأساس من جمع المال وإنفاقه في هذا السبيل على أنِ يبذل مال كل ناحية في مشروعها الخاص على نحو اللامركزية. فأموال الجبل لمدرسة تبنين،

وأموال الشقيف لمدرسة النبطية، وساحل صور للجعفرية والميتم الأعظم. فتضع الجمعية المخطط وتؤلف اللجان وتوظف لكل ناحية لجنة خاصة تعمل باسم الجمعية الكبرى، وهذا الأسلوب باعث قوي على الحماسة والرغبة في أن يقوم كل قطر بعمل يفوق به الآخر. وتنظر الجمعية في إرسال وفد إلى المهجر لهذه الغاية، فإن رأته خيراً شرعت بالتنفيذ، كما تنظر بعد وجودها وظهور دلائل النجاح والتوفيق في إنشاء صحيفة تبحث في التربية والتعليم، وفي شؤون مشاريعها الخاصة، وتبث الدعوة في القرى العاملية وبين المهاجرين، ومثل هذا المشروع الجليل لا يفتقر إلى شيء سوى العزم والتصميم والإخلاص في العمل، فلا خطر ولا خوف. وبذلك نؤدي رسالتنا الدينية ونحل كثيراً من مشاكل الأمة، ونقوم بحاجات شعبنا الفقير.

أتقدم بفكرتي هذه لتنظر بها العلماء والأمة العاملية، وبالأخص المهاجرين الذين على عاتقهم تقوم المشاريع الخيرية والأعمال الحيوية، وإليهم وحدهم تتوجه القلوب والأبصار، وبهم تتعلق آمال العلماء وآمال الأمة.

أما الأمة فقد بعدت الشقة بينهم وبين العامليين، فعم الاستياء جميع الأفراد وتجاوز المتعلمين وأهل الأفهام إلى رجل الحقل والشارع. والنوّاب هم الذين سبّبوا هذا السخط والاشمئزاز، فلم يبلغوا منصب النيابة حتى أعلنوا الحرب على بعضهم بعضاً، وأطلقوا العنان لغرائزهم، ونسوا الأمة التي منها استمدوا قوتهم ونفوذهم. إن صالح الأمة يحتم عليهم الاتفاق والعمل يداً واحدة في سبيل الحصول على حقنا المغتصب لنصل إلى بعض ما نالته الطوائف التي يضمها لبنان، ويكون جبلنا المنكوب جزءاً قولاً وعملاً من جمهوريته المحروسة. قرأت في جريدة أخبار اليوم المصرية عدد ٦٤: (ما تزال الحكومة اللبنانية ماضية في ملء المراكز الشاغرة في السلك الخارجي، وعما قريب يصبح التمثيل السياسي موازياً لأضخم إمبراطورية على وجه الأرض). ثم قرأت في آخر مجلة العرفان الزاهرة ج٢ م٣٢: (من غريب أمر تعيينات السلك الخارجي أنه لم يوجد فيها شيعي واحد) (١) ولم يكن هناك

---

(١) نص الخبر لم يرد في العرفان هكذا ، وإنما جاء كالتالي بنصه في المجلد ٣٢ج٢ ص ٢٠٦:(من غريب أمر تعيينات السلك الخارجي أن الحكومات الثلاث التي تعاقبت على الحكم لم تجد إلى الآن بين الشيعة من يصلح للمفوضية العراقية أو الإيرانية أو=

حادثة واحدة بل فضائع وفجائع. لم يمر دور من أدوار التاريخ على جبل عامل سنحت فيه فرصة العمل مثل هذا الدور الذي أضاعه النواب بالتناحر والمناورات. إن انقسامهم لم يسبب إهمال البلاد وضياع حقوقها فحسب، بل أساء إلى سمعتها وشرفها، وأعان على إظهار ما تنطوي عليه نفوسهم من النزعة إلى الاستغلال وجمع المال وحب الشهرة والسلطان الذي أثار في قلوبهم الغل والأحقاد. والذي يفعم القلوب حيرة ودهشة، ويملؤها تلهفاً وكآبة أن يقع بينهم الخلاف على غير مبدأ، أو وضع نظام يبرر أعمالهم ولو في الظاهر، فلم يتحفظوا ويتكتموا بالأهوال التي ارتكبوها في عهد الحرية والاستقلال، ظنّاً أن الذين اختاروهم للنيابة يفقدون ملكة الشعور والتمييز بين الطيب والخبيث، ولقد وقع هذا الظن في غير موقعه، فلم يعد الاستياء طفيفاً ينحصر في الكلام، فقد تراكم حتى أصبح حقيقة منقوشة على قلب كل عاملي. وعلينا نحن أرباب الأقلام أن نعمل على نضوجه ونموه ليكون ذا نتائج فعّالة، فنثير عواطف الشعب الذي منه يستمدون قوتهم، فنبدي له الحقيقة، ونفهمه أن الزعماء وحدهم هم السبب في جميع الحوادث المكدرة، وأنه يستحيل أن نتنسّم ريح الحرية ونور العدالة ما داموا على كرسي النيابة. إن العاقل إذا جرَّب وأخفق يضطر إلى الإحجام والتحفظ، وقد جرَّبنا أولاً وثانيا فما زادهم إلا عتوّاً ونفورا. إن المكروبات القاتلة يمكن استئصالها قبل استفحال المرض، وبعده لا تجدي الوقاية والعلاج. إن أهم ما يتوجب على أرباب الأقلام والأفهام أن يتأهبوا لإعلان الحقيقة، ويبينوا كيف يجب أن يكون النائب، وأن يخلقوا في الأمة شعورا بكرامتها وسلطانها.

لقد اشتد الضغط وأوغرت الصدور وامتلأت القلوب وتحطّمت الأخلاق وهلك الحرث والنسل فيجب أن ننتبه من هذا السبات الطويل العميق، ونخرج من هذا الصمت الطويل إلى التفوه بالحق، الحق المهضوم المأكول المغتصب وإلا فنحن مشرفون على الخراب والدّمار.

ياويلتا .. أنبقى كما نحن نتخبط في ظلمات الجهل والفقر؟! أيبقى الفلاّح

=غيرهما ، بل لم يُعين منهم لا قنصل ولا معاون قنصل ولا ولا الخ ، ومع ذلك يريدون إلغاء الطائفية، وطائفة زعماؤها ونوابها متشاكسون يجب أن تُهضم حقوقها بل تُمحى من سفر الوجود).

العاملي يشرب الطين والزبل المذاب (١)، ويذوق من الأمراض ألوان العذاب ؟! أنبقى صاعدين في جبل، هابطين إلى واد تمزق ثيابنا الأشواك وأجسامنا الأوعار؟! أتبقى أطفالنا على المزابل تلعب مع القطط والكلاب؟! أتبقى رجالنا منبوذين في زوايا الإهمال والخمول والنّواب وأذنابهم يركبون السيَّارات الفارهة، ويلبسون الثياب الفاخرة، ويتنعمون بأطايب العيش، ويسيحون للنزهة، ويقضون أوقاتهم في المقاهي والملاهي على حساب العامل الفلاح الذي يكابد حمارة الصيف (٢) وصبَّارة الشتاء (٣)، ويعاني في جميع أدوار حياته البؤس والشقاء ؟! .

طير حرفا (علما الشعب) .

---

(١)الزبل: أرواث الدواب ورجيع المواشي تُستصلح به الأرض . الواحدة: زبلة

(٢)حمارة الصيف: شدة الصيف. والصحيح أنها بالميم المفتوحة وليس المشدَّدة كما أوردها الشيخ.

(٣)صبارة الشتاء: شدته . وما قلناه أعلاه نقوله هنا أيضاً، فهي بالفتح لا التشديد.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٢ الجزء ٤ ، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٦٥هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٤٦م ، ص (٣٦٢ - ٣٦٥)

(١٤) الشعر القصصي

قرأت في مجلة العرفان الغرّاء ج٣ م٣٢ قصيدة لأبي فراس، وفي ج٤ المجلد نفسه قصيدة للشريف الرضي تحت عنوان الشعر القصصي. ولست بصدد بيان ما يوحيه هذا العنوان إلى ذهن القارئ والسامع من معنى القصة وموضوعها وقواعدها والغاية من وضعها، وهل هي موجودة في الشعر العربي، ومتى نشأت وهل انتقلت أو تجدّدت، لست بصدد شيء من هذا ولست بصدد أن السيد راعى ذلك أو لم يراعه .

إن الشيء الوحيد الذي أريد أن أوجز القول فيه خدمة للأدب والحقيقة، هو أن القصيدتين ليستا من الشعر القصصي في شيء ولا يمتّان إليه بصلة أو شبه صلة قريبة أو بعيدة.

ينقسم الشعر إلى ثلاثة أنواع:

(١) الغنائي أو الوجداني، وهو أن يستمد الشاعر من عقله وقلبه ويعبر عن شعوره وخوالجه .

(٢) التمثيلي، وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيجعل لها أشخاصاً تجري الحادثة على أيديهم – وهم أبطال الرواية – ثم ينسب إلى كل واحد ما يلائمه من الأقوال والأفعال.

(٣) الشعر القصصي، وهو نظم الوقائع والحوادث في شكل قصة، على أن تكون القصة مقصودة للشاعر، وأن يبتدئ من أول الحادثة وينتهي بانتهائها، كما لو أراد أن يحكيها المتكلم ويحررها الكاتب، فيصبح من كان يجهلها خبيراً بها، عالماً بموضوعها وغايتها، أما ذكر اسم الواقعة في الشعر وحده مجردا عن كل شيء فلا يجعل الشعر قصصياً، وإلا كانت أشعار العرب المشتملة على لفظ داحس والغبراء وذي قار وبدر وأحد وأمثال هذه من الشعر القصصي.

فأخصّ ما يفترق به الشعر القصصي ويتميز به عن غيره أن يتجرد الشاعر عن نفسه ويتجه إلى الواقعة ذاتها، فلا يستمد من طبعه ويعبر عن شعوره، ومتى فعل شيئاً من ذلك كان شعره من نوع الشعر الوجداني أو الغنائي.

والشريف في قصيدته يصف آثار منازل النعمان وما كان في الحيرة من المقاصر والمفاخر، ويصف شعره وتأثره بمناظرها وما بعثته في نفسه من الزفير والجزع، وكيف سبّبت له البكاء والمدامع، ثم يخاطب مقاصر الغزلان وملاعب الأنس، ويقول لها: غيَّرك البلى وطواك الردى. أما قصيدة أبي فراس فأبعد عن القصة من قصيدة الشريف، لأن أبا فراس لا ينسى نفسه لحظة واحدة في قصيدته، وتظهر شخصيته في كل بيت من أبياتها ظهوراً واضحاً لا لبس فيه ولا التواء، فهو يفخر ويتحمس ويمدح ويعتب ويستعطف ويحث على الاستعداد للحرب، ويخبر عن جيش الروم ويحذر، وأي صلة بين هذه والشعر القصصي؟!.

أما الأسماء التي في القصيدتين كابن ذي يزن والمغيرة وآل جفنة واليرموك والبسوس وقيس وحذيفة فلم يقصد الشاعران منها القصة والحكاية، وإنما ذكراها من باب التمثيل والاستشهاد الذي يؤدي غرضهما، ولذا لم يقصّا علينا شيئاً بل ألقيا اللفظ والاسم إلى السامع ومضيا ثقة بفهمه وسابق علمه، جريا على عادة العرب، حيث يكتفون في أشعارهم باللمحة الدّالة على الواقعة، ويأخذون المثل المعروف منها ليكشفوا عن مقاصدهم ويقربوا المعنى إلى أذهان السامعين.

وبعد.. فإن القصة عند الغربيين تتبوأ أسمى مكانة ، فبها يعبّرون عن خفايا النفس ويخرجون سرها الدفين من مكمنه، وبها يداوون الأمراض الخلقية، ويربون النشء تربية صحيحة فاضلة، ويدعون بها إلى الأخلاق الحميدة، ويوجهون الأفكار إلى المثل العليا، ويُسيّرون المجتمع حسب ما يشتهون من حيث يدري ولا يدري.

ومهما قيل أو يُقال فإن الأمر سهل يسير لا يدعو إلى الإسهاب والتطويل ولا يكلف شيئاً سوى تغيير العنوان وإبدال كلمة بكلمة، فنجعل الشعر الوجداني مكان الشعر القصصي.

❃ مجلة العرفان، المجلد ٣٢ الجزء ٥، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ الموافق نيسان (ابريل) ١٩٤٦م، ص (٤٦٩ - ٤٧٠)

(١٥) عقيدة المعري من شعره

لم نعلم أحداً اختلفت الأقوال في طريقته ومعتقده، وتعددت عليه الأحكام من حيث دينه ومذهبه كأبي العلاء المعرّي، فذهب فريق إلى كفره وجحوده، وآخر إلى إسلامه وتوحيده، وقال ثالث : إنه مشكك زنديق عارض القرآن المجيد، ويعود السبب في ذلك إلى أمرين:

الأول: إن من القوم من وقف عند ما يعطيه الظاهر من بعض كلماته وجمد على معانيها الحقيقية، ولم يصرفها إلى ما جاء في كلام العرب من أبواب الفصاحة، مع أن المجاز أكثر دورانا على ألسنة البلغاء من الحقيقة وأوسع باباً منها، والمعري أحد أعلام اللغة العربية العارفين بأسرارها وموارد استعمالها، وتنبّأ المعرّي وصدق حدسه أن البعض سيلزمه بظاهر كلامه وما يحكيه لفظه من المعاني الحقيقية، ويحكم عليه بخلاف مراده ومعتقده، فاستدرك ودفع هذا التوهم:

لا تقيّد عليّ لفظي فإني ... مثل غيري تكلمي بالمجاز
وليس على الحقائق كل قولي ... ولكن فيه أصناف المجاز (١)

الأمر الثاني: إن المعري كان على طريقة ثم عدل عنها واستأنف، وصدَّق بأشياء وعندما ظهر له كذبها ومين(٢) قائلها استبصر ورجع إلى الحق، فاختلفت فيه الأقوال تبعاً لتغيير كلامه واختلاف طريقته، وأخبر عن نفسه بقوله:

أدين بربٍ واحدٍ وتجنبٍ ... قبيح المساعي حين يظلم دائن (٣)
لعمري لقد خادعت نفسيَ برهة ... وصدّقت في أشياء من هو مائن (٤)

---

(١) لم أهتدِ لهذا البيت في اللزوميات!

(٢) المين: الكذب .

(٣) أدين: أعبد. دائن: من يُقرض غير . يقول: إنني أُدين بوحدانية الله وبالابتعاد عن قبيح الفعال والشرور، في حين يدين غيري بالظلم مرتكبا المعاصي.

(٤) المائن : الكاذب. يقرّ بأنه مرَت فترة كان فيها على ضلال، فصدَّق بعض الأمور لأمور الكاذبة مخالفا بذلك عقله، مخادعا نفسه عن الحقيقة، ولكنه عاد إلى الصواب.

لذلك فإنا نعتمد من أقواله على " اللزوميات " فحسب، لأنها خاتمة أقواله وآخر أشعاره.

ومهما قيل عنه فإنا لا نشك أنه مسلم موحّد يعتقد أن للكون مدبراً قادراً وحكيماً عادلاً وأزلياً عالماً، وإن الإسلام صراط الله المستقيم ودينه الحق الذي أنزله على نبيه محمد(ص) وأنه جاءنا بخير الأمور، وأتانا بالشريعة السهلة السمحاء، وأن البعث والنشر والصحائف والحساب والعقاب حق، وأن المرء مجزي بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن الصلاة والصيام والزكاة من الأمور التي فرضها الله على عباده، كما حرَّم عليهم الزنا والخمر والظلم والكذب والغيبة والنميمة، وتجد ذلك كله في اللزوميات:

أفملة الإسلام ينكرُ منكرُ ... وقضاء ربك صاغها وأتى بها
فتبارك الله الذي هو قادرٌ ... تعيا وتقصر دونه الأوصافُ
فلتشهد الساعات والأنفاس لي ... أني برئت من الغوي الجاحد
لم يحص أعداد رمل الأرض ساكنها ... وكل ذلك عند الله محصور
قال المنجم والطبيب كلاهما ... اتُحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحّ قولي فالخسار عليكما
ونادى المنادي على غفلة ... فلم يبق في أذن من صمم
وجاءت صحائف قد ضمنت ... كبائرَ آثامهمْ واللمم
خذوا سيري فهنّ لكم صلاح ... وصلوا في حياتكم وزكوا
إذا صلوا فصلِ واعف وابذل ... زكاتك واجتنب قالا وقيلا
دعاكم إلى خيرِ الأمورِ محمدٌ ... وليس العوالي في القنا كالسوافلِ (١)
حداكم إلى تعظيمِ من خلق الضحى ... وشهبَ الدجى من طالعاتٍ وآفلِ(٢)
وألزمكم ما ليس يُعجزُ حملُهُ ... أخا الضعفِ من فرضٍ له ونوافلِ (٣)

---

(١) في اللزوميات وردت أعلى بدلاً من خير، العوالي: أسنَّة الرماح، السوافل الأطراف السفلية للرماح، وفيها حديدة لا تجرح. وفي الكلام تفضيل للرسول محمد (ص) على سائر الأنبياء. لقد دعاكم نبي الإسلام إلى الحق والمعالي، وهو خير الرسل.

(٢) في الديوان الذي أمامي على تعظيم بدلاً من إلى تعظيم، حداكم: دفعكم، ساقكم. الطالعات والآفلة: النجوم. لقد دعاكم إلى عبادة الله خالق السماء والأرض والليل والنهار والكواكب السيّارة.

(٣) الفرض: الواجب، النافل: وجمعه نوافل: الزائد، وهو يقصد هنا المستحب من العبادات. وفرض عليكم شريعة معقولة، يسهل حملها على الضعيف.

فصلّى عليه الله ما ذرَّ شـارقٌ وما فتَّ مسكاً ذكره في المحافلِ (١)

واللزوميات مشحونة بهذا النوع، وهو يثبت صدق ما ادّعيناه من إسلامه وصحة معتقده، ويبطل زعم القائلين بكفره وزندقته، وهل يخفى على من له مثل عقل المعري صدق الإسلام، وصحة قوانينه، وأنه دين العلم والسعادة.

مذهب المعري: أما إسلامه فكما علمت من البداهة بمكان لا يحتاج إلى كبير تأمل، وإنما الغموض والتعقيد في حقيقة مذهبه، وهل هو من فرق الشيعة أو السنة .. ليس في كلامه نص صريح أنه من إحدى الطائفتين، وهذا أحد أسباب تناقض الأقوال فيه، نعم هناك بعض النقاط الجوهرية التي ميَّزت بين الفريقين وذهب كلٌ إلى ما يخالف الآخر، ينحاز المعري فيها مع الشيعة، ويدين بما يدينون به، ويقول بقولهم: أغلقت السنة باب الاجتهاد(٢) وقيَّدت العالم والجاهل بقول أحد الأئمة الأربعة، فهم وحدهم أبطال استعمار العقول، فلا يحق لعقل أن يستقل أو يطالب بحريته، وإن بلغ من الرقي والعلم الحدّ الأقصى، فإن الاسترقاق من لوازمه التي لا تنفك، والخضوع لحكم هؤلاء محتم عليه. أما الشيعة فإنهم يوجبون التقليد على الجاهل الذي لا يستطيع معرفة الأحكام واستخراجها من مظانّها، كما أن " القانون " يخوّل أن تكون الأمم المتوحشة بوصاية الأمم المتمدنة. أما العالِم الذي له ملكة الاستنباط ويمكنه معرفة الأدلة على حقيقتها، ويستطيع إرجاع الفروع إلى أصولها فيمنحوه الاستقلال التام، ويحرّمون عليه التقليد كما يُحرم على أمة متمدنة استعباد أمة مثلها في التمدن. أدرك المعري هذه الحقيقة، بل لم تخفَ على من هو دونه بمراتب، فهو لا يُصغي إلا إلى وحي العقل، ويدعم كل فرع من فروع معتقده به أو بما ينتهي إليه، ويطلق له الحرية التامة أن يتكلم بلغته الحقيقية، فيترجم عن الحقائق كما هي، ولا ينتحي له أسلوباً مخالفاً لأسلوبه وطريقته، فليس للمعري إمام سوى عقله، وهو لم يأمره باتباع أحد هؤلاء الأربعة:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي

(١) لم أجد هذا البيت في الطبعة التي أمامي وطبعات أخرى.

(٢)إن الأدلة على فتح باب الاجتهاد متوفرة من الكتاب والسنة والعقل، وأقواها حجة ما يرجع محصله أن الأئمة الأربعة المقلدون (هكذا ورد بقلم الشيخ =

وينفر عقلي مغضباً إن تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

وهناك مسألة أخرى من أمهات المسائل التي وقعت محلاً للخلاف بين السنة والشيعة، وهي المسألة المعروفة بالجبر والتفويض أو العدل والجور، قال الأشاعرة – وهم أكثر أهل السنة – بإضافة أفعال العباد إلى الله تعالى خيرها وشرها، وإنَّ نسبتها إلى الإنسان كنسبة الطول والقصر إليه. وقال المفوضة: إنَّ الله أقدر عباده، ثم فوَّض إليهم الاختيار والمشيئة، وهم مستقلون بإيجاد الأفعال على وفق مشيئتهم وقدرتهم، وليس لله في أعمالهم صنع، وأفسدت الشيعة كلا القولين لأنهما إفراط وتفريط، وأخذت بالعدل وهو الوسط، وصحة أمر بين الأمرين، ويرجع محصّله أن الله أقدر الخلق على أفعالهم ومكنهم من أعمالهم، ثم أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر، فإن فعل العبد خيرا كان مطيعا لله، مثابا على انقياده له، وتصح نسبة الخير ولإضافته إلى الله وإلى العبد أيضاً، يُنسب إلى الله حيث رضي به ورغب فيه ووعد بالثواب عليه، ويُنسب الخير إلى العبد لأنه اختار فعله مع قدرته على تركه وإتيان الشر، ومتى فعل العبد شراً فلا يُنسب إلا إليه، ولا يُسوّغ العقل نسبته إلى الله سبحانه حيث نهى عنه، ولم يرضه لعباده وخوَّفهم بالعقاب على ارتكابه، وقد فصَّلنا ذلك بمقال نشرته مجلة العرفان الزاهرة في الجزء الأول من المجلد (الـ٢٧) (١) ، وقد أدَّى التفكير بالمعري إلى موافقة الشيعة والأخذ بقولهم ، لأن الفضيلة هي الوسط، ونهى عن الجبر وأمر بالأخذ بالوسط، قال:

لا تعِشْ مُجبرا ولا قدَريًا واجتهدْ في توسّطٍ بينَ بينَا

ولفظ بين بين هو الذي نطقت به أخبار أهل البيت (ع) واعتمدته الشيعة في كتب العقائد، وأقامت الأدلة العقلية على صحة أمر بين الأمرين بما أذهب الشك والريب، وقد ردَّ المعري المجبرة بما أوردته الشيعة على مذهب

= والصحيح المقلدين) لم يسدوا باب الاجتهاد ولم يوجبوا الرجوع إليهم ، فمن تقليدهم يلزم من وجود شيء عدمه ، وهذا أقبح من كل قبيح ، ومن سدّ باب الاجتهاد فقد اجتهد وعمل برأيه مع أنه يوجب التقليد عليه وعلى غيره ، وهذا عين التناقض والهذيان ، والعمل بقول من أوجب التقليد والأخذ بقول الأئمة الأربعة يرجع بالحقيقة إلى تقليده والعمل بقوله دون المذاهب الأربعة (مغنية).

(١) نُشر المقال في الجزء١ المجلد٢٧ آذار سنة ١٩٣٧م تحت عنوان " لا جبر ولا تفويض " وهو مُدرج في كتابه " مع الشيعة الإمامية " .

الجبر من لزوم ظلم الباري وجوره، لأنه يفعل القبيح ويعاقب عبده الضعيف البريء عليه، تعالى الله علوا كبيرا، قال :

إنْ كان من فعل الكبائر مُجبرا فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ

وإذا لم ينهض هذا المقدار بالدلالة على تشيع المعري فليس لدينا من آثاره ما يُثبت موافقته لأهل السنة بشيء مما انفردت عن الشيعة. ولو صرَّح برأيه في الخلافة ودلَّ على صاحبها وأولى الناس بها بعد رسول الله (ص) لأغنانا عن البحث وأراح السائل والمسؤول عن مذهبه، ولم يكن محلاً لتضارب الآراء وتناقض الأقوال فيه، لأنها الحد الفاصل بين المذهبين، والمميز الوحيد بين الطائفتين، والذي يظهر من كلام المعري أن الخلافة عنده ليست بالشيء الذي يجب أن تهتم به الناس، ولم تبلغ من الأهمية المكان الذي يُوجب التفرقة وتعدد المذاهب، فليست الخلافة إلا سيادة، وما السيادة في هذه الدنيا الفانية إلا خيال وهباء، فليذهب بالخلافة من شاء وليفز بالسيادة أبوٍ بكر أو عمر، فليس من الحكمة أن تذهب النفس عليها حسرات، قال مخاطبا للإمام أمير المؤمنين (ع):

يا أبا السبطين لا تحفلْ بها أعتيقٌ سادَ فيها أم عُمر (١)

وبعد أن كانت الخلافة بهذه المنزلة فمن الغي والغباوة المُناظرة في شأنها، وأنها حق لهذا دون ذاك، فينبغي للإنسان أن يشتغل بنفسه عن القال والقيل، ولا يهتم بغير كمالها وتطهيرها من العيوب، قال:

فذا عمر يقول وذا علي كلا الرجلين في الدَّعوى غبي

والمقصود بالرجلين الغبيين المُشار إليهما باسم الإشارة وهما المتنازعان في علي (ع) وعمر (رض). ويستدل البعض على تشيع المعري بمثل قوله :

أليس قريشكم قتلت حسيناً وصار على خلافتكم يزيد

---

(١) أبو السبطين علي بن أبي طالب، لا تحفل بها: لا تأبه للدنيا، العتيق: أبو بكر، عمر: عمر بن الخطاب. يقول: يا أبا الحسن والحسين لا تأبه لهذه الدنيا، ولا لمن يحكمها إن كان أبا بكر أو عمر.

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم في مسك جفر

ومرآة المنجم وهي صُغرى ... أرتـه كل عامرة وقفر (١)

ولو صدق هذا الدليل لكان جميع المسلمين شيعة

طير حرفا علما الشعب .

---

(١) مسك جفر: كتب التنجيم. لقد تعجبوا من أمرِ آل البيت حين وصلت أخبارهم مكتوبة في الجفر، ومرآة المنجم رغم صغرها حجما إلا أنها جعلته يرى كل المدن وكل الصّحارى.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٢ الجزء ٦، الصادر في جمادى الثانية سنة ١٣٦٥هـ الموافق أيار (مايو) ١٩٤٦م، ص (٥٥٧ - ٥٦٠)

(١٦) الدين والقومية
لو لم أكن عربيا لتمنيت أن أكون

۞ المحاضرة التي ألقاها في بهو كلية المقاصد الإسلامية في صيدا العالم الألمعي الشيخ محمد جواد مغنية.

أتمنى أن أكون عربياً لشيء واحد، فإن الله جلَّ وعزَّ قد اتخذ من العرب أميناً لسره ورسولاً لدينه، وجعلهم شهداءً على الناس ولا شهيد عليهم سوى الأنبياء: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (البقرة:١٤٣) فقد رفع الله سبحانه مستوى العرب على الناس كافة كما رفع شأن الرسول (ص) على الخلق أجمعين، فالنسبة بين العرب والناس كالنسبة بين الرسول وبينهم، لا أحد فوق العرب إلا الرسول – وهو منهم – فلا أحد فوقهم إلا أنفسهم.

من الحكم المشهورة أن اختيار المرء دليل على ذوقه، وهذه حكمة صادقة في المخلوق، أما الخالق الحكيم فتأتي النتيجة على العكس، فإن اختياره سبحانه شاهد على عظمة من وقع الاختيار عليه، وقد اختارِ الله العرب من دون خلقه وجعلهم خير الأمم كافة: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران : ١١٠) لهذه المنزلة السامية أتمنى أن أكون عربياً لو لم أكن عربياً، فما ظنُّك بمن تحدّر من أصلاب العرب ونبت في روض العز والمجد ثم تستهويه منابت السوء بنضارتها الزاهية الزائفة ؟!

أعربي فصيح صريح يتمنى أن يكون أعجمياً ؟! إن هذا لشيء عجاب، وأي شيء أعجبٍ من شبل يتبع حمارا، أعجب منه أن ينفر منه الحمار ويأباه فيصبح آبقا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهكذا يكون جزاء الخائنين، وهذا هو شأن المذبذبين.

وإني ممن آمن بأن العرب لولا الدين لم يكن لهم أعظم تاريخ على وجه الأرض، وأن سلطانهم وحضارتهم جاءا على حساب الدين وقوته وفائدته، ولكني ممن آمن أيضاً بأن الدين لولا جهود العرب لم يعظم شأنه ويمتد سلطانه، فهو بفضل العرب عمَّ الأقطار ودخل الناس فيه أفواجاً، والعرب ببركة الدين وخيراته قويت شوكتهم وأصبحوا سادة العالم وخرَّ الملوك والجبابرة على أقدامهم صاغرين، فعلى حسابه فتح قتيبة بن مسلم بخارى وخوارزم، ومحمد بن القاسم مولتان، وموسى بن نصير وطارق بن زياد بلاد

أسبانيا. فلولا العرب لم تنتشر كلمة التوحيد في تلك الربوع النائية، فالدين والعرب قوتان متعاضدتان تعمل كل منهما لمناصرة الأخرى، لقد وجد الدين في العرب القابلية العقلية للرقي والكمال، وصادف فيهم نفساً مستجيبة لنداء الحق، وفطرة غضة طرية مستعدة للكفاح والجهاد في نصرة الحق والاتجاه إلى حيث السعادة والنمو والحياة والسمو، فشأن الدين مع العرب كشأن المدرسة الفاضلة مع التلميذ، فمتى حاز التلميذ النجاح والتقدم استند نجاحه إلى استعداده وجهوده، ويستند أيضاً إلى مدرسته ومعارفها وعنايتها، وإذا رسب وأخفق وقعت المسؤولية عليه وحده.

تقدم العرب بخطى سريعة وبلغوا فوق ما يسمى أوجا يوم كانوا على هذه المدرسة مواظبين وعلى نظامها محافظين، وبلغوا الحضيض أو كادوا حيث بها استخفوا وعنها أعرضوا.

لو درسنا تاريخ الحضارات للأمم الغابرة والحاضرة لألفينا أن كل حضارة تقوم على أساس متين من العقيدة الدينية أو القومية أو الوطنية، تعتنق الأمة أحد هذه المبادئ وتجعله مثلها الأعلى والمحور الذي تدور عليه رغباتها وأمانيها، ويتعصب لهذا المبدأ رجال الأمة المفكرون فيضحون في سبيله بكل ما لديهم، مستهينين بحياتهم الغالية وبكل ما يحيط بهم من أسبابها، فيتزعمون أمتهم وتقدسهم هي على حسابه .

لقد دلّ تاريخ العرب من عهد أكاسرة الفرس إلى اليوم أنهم رؤوس كلهم، كما عبّر عن نفسيتهم النعمان في جوابه لكسرى، إن الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها، أما العرب فإنها أعزّ نفوساً وأحمى أنوفاً وكلهم ملوك:

قـــومي رؤوسٌ كلهـــم　　　أرأيـــت مزرعـــة البصـــل

لا يرضى العربي وإن كان صعلوكاً أن يتقدمه أحد حتى الملوك والأمراء، كان العربي الجاهلي غليظ الكبد ولكنه ماضي العزيمة، وكان جاهلاً جافاً ولكنه بعيد الهمة، وكان فقيراً يأكل الحشرات ولكنه يأبى الذل والضيم.

ومن يكن هذا معدنه وجوهره لا يخضع لشيء سوى الدين، الدين الذي هو

لله وحده، فعن طريقه أذعنوا للأنبياء والخلفاء، وعن طريقه بلغوا الدرجات العليا، ولما تنكبوا عن هذا الطريق هووا إلى الحضيض.

فالدين هو المقياس الصحيح لتقدم العرب وتأخرهم، فإحياء سننه ومعالمه مكّنهم في الأرض وجعلهم في مصاف الأمم الكبرى، كما أن الإعراض عنه أخرجهم من بيوتهم صاغرين، والتاريخ والعيان شاهدا صدق وعدل والله سبحانه أصدق الشاهدين: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (آل عمران: ١٣٩) فالإيمان شرط في العلو، كما أن عدمه سبب في النزول.

إن العرب لا يصلحهم إلا الدين الصالح الذي به نزعة عامة تدعو إلى فناء الفرد في الجماعة لا إلى فناء الفرد في الفرد، وهذا الدين الصحيح أبعد مدى وأوسع أفقا من القومية والوطنية ومن أي جامعة كانت أو تكون، وهو الذي يعضد القومية: (واعتصموا بحبل الله جميعا) (آل عمران: ١٠٣) ويناصر الوطنية (حب الوطن من الإيمان).

إن دين الحق يسري مع مقتضيات الزمن بوجه عام ويبقى حقيقة صحيحة في نفسها، ثابتة في طبيعتها. من خصائص الدين أن قوانينه وأحكامه من الألف إلى الياء مرتبط بعضها ببعض لا يجوز عليها التفكيك والانحلال، فلا يسوغ للإنسان أن يدين بنظام الأسرة وقانون الزواج والطلاق والميراث والمعاملات المالية والمواد الجنائية وأصول الحكم ونظام الشورى ثم يهمل الصلاة وسائر أنواع العبادات، وإلا كان ممن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

لم تُرفع المآذن وتُبنى المساجد والكنائس لأن الصلاة كلمات وألفاظ وقيام وقعود وركوع وسجود، ولا لأجل الجماعة والاجتماع فحسب، ولا لسماع الوعظ والإرشاد، ولا لأنها شكر من المخلوق لخالقه فقط، إن الباعث على تشريع الصلاة معنى وراء هذه الأمور هو أسمي وأجلّ منها جميعا. إن الغاية من الصلاة هي أن المصلي قد ألزم نفسه قولا وعملا بجميع أحكام الدين والشريعة من أولها إلى آخرها، وأنه يدين ويتعبد بجميع أحكام الدين على اختلاف أنواعها، وأنه يمتثلها تقربا لوجه الحق وعملا بالواجب المقدس، بدافع الإخلاص والنزاهة لا بداعي موافقتها للعاطفة والشهوات، ولا جريا على العادة والتقاليد، ولا بباعث الرغبة والرهبة من الناس، فهي شبيهة باليمين الذي يحلفه موظفو الحكومات على الأمانة وعدم الخيانة، والمادة

العامة التي تنص على الالتزام بتنفيذ جميع المواد والأحكام، إذن هي روح القانون كله.

فإذا أردنا أن نكون أحراراً في أنفسنا وبلادنا فعلينا أن نكون أقوياء في ديننا، فيلزم المسلم جامعه والمسيحي كنيسته، ولتقم رجال الدين ببث تعاليمه، فتحيي في الناشئة روح التدين وتحببهم بالدين وتقربهم إليه بأساليب تألفها نفوسهم ولا تملها قلوبهم، وتتخذ من كل نفس بقعة طيبة تنبت الفضائل والكمال، وتحارب الرذائل والضلال.

إن عللنا لم تكن علل جماعات بل علل أفراد: علّة الحسد والأحقاد، علّة الدس والنفاق، علّة الأثرة والمنفعة الخاصة، علّة الحرص والطمع، علّة التمويه والرّياء، علّة الرّشوة والمحاباة، علّة الذل والخساسة، علّة الزّعامة الكاذبة والإقطاعية المستبدة، علّة الكبرياء وحب السؤدد، علّة الفسوق والفجور والجهل والغواية. نستخف بالعلماء ونحقد على الأقرباء ونهزأ بالعجز والشيوخ، ونحتقر الأنظمة والقوانين، ونسيء الظنَّ بالتجار ورجال الحكم ولا نثق بشيء حتى بأنفسنا.

هل لذلك من تفسير سوى ضعف الروح الدينية وفساد الإيمان والعقيدة وتلاشي الأخلاق الفاضلة؟ إن القومية والوطنية قوّتان تعززهما عناصر التدين، فالناس لا يبذلون حياتهم في سبيل المعقولات ويسخون بها طوعاً في سبيل العقيدة الدينية.

ليس العالم في نظر الدين من لبس العمّة وأطلق اللحية، ولا معنى الزّعيم من يُقال له: سعادة فلان بك، ولا معنى القومية المحافظة على الكلمات والألفاظ، ولا معنى المسلم والمسيحي أن يُرسم في هويتهما م.س. إن العالم في نظر الدين داعية الحق، والزعيم خادم الأمة، والمسلم من اتبع محمدا (ص) بأقواله وأفعاله، والمسيحي من عمل بتعاليم المسيح، والقومية إحياء المزايا الطيبة والخصال الحميدة التي ورّثها السلف الصالح، فالعربي هو الذي يحمل روح الرجل الذي قال للخليفة الثاني (رض) وهو على المنبر: (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا)، وروح الأحنف الذي قال لمعاوية: (عن السيوف التي قاتلناك بها لهي في أغمادها)، وروح الذي سمع المنصور يخطب ويقول: أيُّها الناس اتقوا الله، فقال له: أذكرك الذي ذكرتنا به). هذه هي القومية التي يجب أن نتخذها مثلنا الأعلى، وهذه هي القومية التي تستمد قوتها وجلالها من الدين والعقيدة الصحيحة.

لقد استفحل الداء وعمَّ الوباء، فعلى م (١) لا نشرب الدّواء وهو في بيوتنا وبين أيدينا؟!، ولم لا نتعظ بروسيا التي توسلت بالدين عند محنتها الكبرى، وتنتفع بأعظم إمبراطورية عرفها التاريخ وهي إنكلترا، حيث يقول المطلعون على أحوالها: إنه ليس في مدارسها برنامج معين ولا دروس خاصة في الأخلاق والتربية، فالكنيسة هي التي تقوم بهذه المهمة فتكفيهم مؤنة الدرس في المدارس الثانوية. إن لجامعة أكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة، والطلاب ملزمون بالتناوب على الصلاة في أوقاتها المعينة، تفعل ذلك لتعزز المستوى الروحي، ولتتخذ من المعبدِ مستشفى يداوي الأمراض النفسية، ويجعل في المتعلمين والمتعلمات أنصاراً وأعواناً للحق والفضيلة.

كان العرب عظماء يوم كان معبدهم معهد الرجال والنساء ومقصد الخلفاء والأمراء، كان يصلي الخليفة والأمير والزعيم والوزير خلف الإمام في المسجد الجامع، ثم يجلسون بخشوع وتأدب مستمعين لإرشاد الخطباء وتقريع الواعظين فتخشع قلوبهم وتدمع عيونهم، هذا وهم سادة العالم، تدفع الملوك الجزية لهم عن يد وهم صاغرون. عندما ابتنى الناصر الخليفة الأندلسي " الزّهراء " صرفه البناء عن حضور إحدى الجمع، ولما حضر في الجمعة التالية قرَّعه القاضي منذر بن سعيد أمام الجمهور، وافتتح خطابه بقوله سبحانه: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبَّارين فاتقوا الله وأطيعون) (الشعراء : ١٢٨-١٣٠). طأطأ الخليفة رأسه ولم تأخذه العزّة بالإثم، ولما قال له ابنه: ما الذي يمنعك من عزل المنذر والاستبدال به؟! قال: أمثل المنذر في علمه وورعه وحلمه –لا أم لك – يُعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد، هذا وهو صاحب الزهراء.

جهلنا معنى الدين والهدف الذي يرمي إليه فأعوزتنا القوة والحياة، وحوَّلنا المعابد التي كانت معهداً للأخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة إلى مأوى عجز وشيوخ وفقراء، حتى أصبح حالنا كحال الدراويش الذين يأوون إلى

---

(١) وردت هكذا في المجلة، وهو خطأ من الغرابة بمكان أن تقع فيه أسرة تحرير العرفان، والصحيح أن تُكتب فعلامَ، وهي لفظ مركب من حرف الجر على وما الاستفهامية التي حُذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها.

في أيامنا هذه، وأصبح قادتنا كالمنجمين الذين يغررون بالنساء ويخدعون البسطاء. لقد تلاشت فينا الروح الدينية السامية، والقومية حقاً لقد أسرفنا على أنفسنا، ولكنا غير متشائمين ولا يائسين امتثالا لقول الفذة فحقت علينا كلمة الخذلان.

قال الله سبحانه: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (الزمر: ٥٣) .

علما الشعب طير حرف

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٢ الجزء ٨، الصادر في شعبان سنة ١٣٦٥هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٤٦م، ص (٧٥٢ - ٧٥٥)

(١٧) دعوة إلى الحق
ألقيت على منظمة الطلائع في بيروت

إن في الشجرة قوى ذاتية تؤهلها للنمو والتدرج في طريق الحياة لو وضعت في مكان يحوي العناصر الملائمة كالتراب والماء والشمس والهواء. فالشجرة تؤدي الغاية المقصودة من غرسها ولكن على حسابها وحساب غيرها، فالشيء الخارج عن حقيقتها جزء متمم لعملها وإنتاجها، ولولاه لم تكن صالحة لغير النّار والإحراق.

وتتكون شخصية الإنسان من غرائز وأخلاق متنوعة تولّدت من عوامل كثيرة لا يُحصى عديدها، منها نفسية داخلية، ومنها عناصر خارجية كالبيئة والعادات والتقاليد.

إن هذه القوى التي تشترك في تكوين نفس الإنسان متباينة مختلفة بحسب الكنه والحقيقة، وفي الكثير الغالب يقع العراك بين هذه الأنواع الداخلية والخارجية، فإذا غلب أحدها كان هو المحرك والباعث وإليه وحده يستند الأثر والفعل مثلاً: تثير العادات والتقاليد في نفس المرء رغبة في أمر ما فتهز أعصابه وتملأ قلبه شوقاً وعزماً فيندفع وراءها لا يلوي على شيء ولا يصغي لصوت الضمير والعقل، فيأتي بما تستدعيه وتقتضيه فيصبح جندياً من جنودها المناصرين، وعاملاً على إحيائها ونموها من غير شعور أن ما أتى به كان بباعث الجهل والتقليد الأعمى.

وكما يقع العراك بين العوامل الداخلية والخارجية كذلك يحصل بين العناصر الذاتية بعضها مع بعض، وكثيراً ما تتغلب العاطفة على العقل والدين فيصبح المرء عاطفياً صرفاً خالياً من التأمل والإدراك: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (الفرقان: ٤٤) والذي يستحق وسام الإنسانية بكفاءة وجدارة من احتفظ بعقله وإيمانه وكان قوي السلطان على عاطفته وعلى المحرضات الخارجية، فصرف كلاً إلى وجهته، ووزّع عمله على جميع القوى فلم تضعف قوة بسبيل قوة أخرى، وعاش بالعاطفة والعقل وبالمادة والروح كما عاش الأنبياء والقدّيسون الذين خضعوا لقوانين الأجسام وأدّوا واجب الروح من غير حيف وإجحاف يلحق أحد الطرفين.

كان النبي (ص) يصوم النّهار ويقوم الليل، ولكنه كان نظيف الثوب والجسم، يمشّط شعره ويعطّر ثيابه ويخضّب لحيته، وكان يستعرض

الجنود ويحمل السيف للجهاد ويعمل في سبيل العيال(١)، ويأمر بالعمل والنّشاط، ويقول: إن الإبرة بيد المرأة تصلح من شأن بيتها كالسيف بيد المجاهد يقاتل به في سبيل الله، ومع هذا كان لطيف الرّوح دمث الأخلاق رحب الصدر بعيداً كل البعد عن غطرسة القائد وخشونة الجندي، وكان يذكر أهله وأصحابه بالموت والقبر والجحيم ولكنه بشّرهم على عمل الخير بالنّعيم الدائم والسعادة الأبدية وضاحكهم وأسمعهم النّكات العذبة واستمع لنكاتهم المهذبة وضحك لها.

ليست الحياة بأجمعها صورة عقلية كلها جد وصرامة ولا عاطفة، مادية كلها شهوات وأهواء، إن الحياة إذا لم تُبنَ على الروح، والمادة على النفس والجسم، فسرعان ما ينهار بناؤها ولابدَّ وأن ينهار حتى في نفوس الدعاة إلى الروح فحسب، والدعاة إلى المادة فحسب.

ولم يمر عصر طغت فيه المادة على الروح كعصرنا هذا، فقد اجتاحت كل ما يقف في طريقها، وأتت على كل ما يقاومها من الدين والأخلاق والآداب، وكاد رجال الدين والروح يتقون حتى من أبناء دينهم ونحلتهم، وأمسى المتحذلق يحتج على الدين بأهله بدلاً من الاحتجاج على أهل الدين بالدين.

لقد امتد سلطان المادة إلى كل بقعة في الأرض، وكل ربع من ربوعها الدانية والنائية، ولكن انتصارها علينا بوجه أخص قد اتخذ شكلاً مزرياً مريعاً، استعمرت المادة نفوس الغربيين واتخذوها إلهاً معبوداً، إلا أن في عبادتهم لها شيئاً من الفن والتفكير فأصابهم نعيمها وجحيمها، وعبدناها ونحن جهّال فوضويون فأحرقتنا بنارها ولم ننل منها غير القلق والعذاب.

نحن ماديون لكنا اتكاليون لا نعتمد على أنفسنا في شيء حتى في الحقير التافه، نطلب المادة من الذي يخطبها لنفسه ويضحي بأمة كاملة ليحصل على درهم من نفع، فحالنا كحال من يطلب النار من الماء والثلج من الجحيم. إن الذي يشعر بوجوده يعمل له ولا يتنازل عن سهمه المشروع في الحياة، ويذود عنه بكل ما أوتي من قوة، ومن اعتمد على غيره فقد محا نفسه من سفر الوجود وكان مثَله كمثل الظل للشخص الذي يعتمد عليه من لا يشعر بكرامته وعزّة نفسه .

---

(١) العيال: الذين يتكفل بهم الرجل ويعولهم وينفق عليهم .

لا يستحق اسم الإنسان، فإن الفرق بين الإنسان والحيوان الشعور بالذات والاعتماد على الذات، إن العلم والأدب والفهم والنسب كل ذلك يؤول أمره إلى الرذيلة إذا لم تدعمه الكرامة والإباء، إن أظهر ما في الخسيس الضعيف الاتكال على الغير والذل عند الحاجة والبطر عند الغنى، وأظهر ما في الأبي القوي اعتماده على نفسه واستقلاله في تكوين شخصيته، فلم يتكل على أب ولم يستعن بأسرة، وما ذلَّ أبناء الأشراف إلا لأنهم يستمدون حياتهم من عظام الأموات ومجدهم من تراب القبور، وكفى بالعصامي عظمة أنه أسّس وبنى، وكفى بالاتكالي ضعة أنه هدم البناء وأفسد الصالح.

نحن ماديون ولكننا جهلاء إلى أبعد حدود الجهل، فلم نعرف مقاييس الحق وموازين المفاضلة، عرفنا الحق بالرجال ولم نعرف الرجال بالحق، فإذا فاضلنا بين عالمين جعلنا الأفضل منٍ كان أكبر عِمَّة، وإذا قارنا بين وجهين جعلنا الأصلح من كان أنظف ثوباً وأكرم نسباً. لقد فقدنا ملكة التمييز والشعور، وجهلنا واجبات كل فريق من أرباب المهن والمراتب، وأدَّى بنا هذا الجهل المزري إلى الانحطاط في الأخلاق، وإماتة الشعور واختلاط الحابل بالنابل، فنعتنا العالم بالجاهل، والمضل بالمصلح، والأمين بالخائن، وحكمنا على العلماء بحكم واحد، وجعلناهم في الميزان سيَّان مع أنهم كسائر الأصناف منهم الطيب وغير الطيب، ففيهم العالم المندفع، وفيهم الساكت المتألم، وفيهم المنعزل المتشائم، وفيهم القاعد المضيع، وفيهم الكاسب المسرف... لقد جهلنا أنفسنا والدين الذي ننتسب إليه، فحسبنا التقى بالتعصب وأعرضنا عن السّنة المحمدية التي تقول: الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، وهجرنا القرآن الكريم وأصبحنا من القوم الذين شكاهم الرسول إلى ربه وقال الرسول: يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا. ينعى علينا القرآن هذا الجمود الذي ارتضيناه طابعاً لأنفسنا وتميزنا به عن سائر الأمم، ينعى علينا التعصب والتحزب للأشخاص والتناحر لأجل الأشخاص وعبادة الأشخاص. لما نزل قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) (التوبة : ٣١) قال بعض أهل الكتاب: يا رسول الله ما اتخذناهم كذلك؟ قال: ألم يقولوا فتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: هو كذلك.

إن النبي (ص) الذي قال: ما أوذي نبي بمثل ما أُذيت لم يتحمل الأذى والألم إلا أنه سفه أحلام الملوك والجبابرة، وسبَّ آلهتهم وخاطبهم بملء فيه:

(أنتم وما تعبدون حصب جهنم) (الأنبياء : ٩٨) (١). إن المصلحين أشد الناس تعباً في الحياة وتبرماً بالجمهور، وهم وحدهم الذين يلاقون من البلاء ألوانا في سبيل المصلحة العامة. إن العبرة بالحقائق والمبادئ لا بالأشخاص والرجال، إنَّ الرجال وسيلة لا غاية. إن الفضيلة لا تُقاس بغير النفع العام والمصلحة الشاملة للإنسانية جمعاء، أما الأحكام المبنية على المصالح الذاتية والمنافع الشخصية فجهل وضلال.

نحن ماديون ولكنا ضعفاء، ولست أعني بضعفنا أنا غير مجتمعي الكلمة ولا متحدي الرأي والشعور، وحبَّذا لو وقف الأمر عند هذا الحد من الضعف وهذا النحو من الانحلال، نحن ضعفاء النفوس والأخلاق، فليست لنا شخصية ثابتة قوية وملكة حصينة راسخة. سرِّح النظر حيث أردت فلا ترى إلا شخصيات رخوة مذبذبة متقلبة، تتبدل بأخف المؤثرات التافهة، يجلس أحدنا مع قوم يمدحون شخصاً وينالون من خصمه فيشاركهم القول ويوافقهم بالرأي، فإذا خرج من بينهم وصادف رجلاً يخالف الجماعة الذين تركهم قولا ورأيا آمن مصدقا به وبأقواله وآرائه من دون روية وتأمل، وإذا دخل علينا زعيم خضعنا له راكعين ساجدين، ومتى ودَّعنا وجاء خصمه مثَّلنا معه الرواية نفسها، إنَّ قوى النفس فينا غير راسخة ولا متماسكة فضلاً عن عدم تماسك الأفراد واجتماع كلمتهم، فنحن في الرخاوة والذبذبة كوجه الماء الذي يداعبه النسيم ويجعله ذا أخاديد وغضون. إن هذه الذبذبة وهذه الاندفاعات المتناقضة لم تنشأ عن الانشقاق والتفكك بين الأفراد والهيئات كما يتبادر إلى الفكر للوهلة الأولى، إن السبب شيء وراء ذلك كله... هو أنه ليس لشعبنا مثل أعلى يقدسه ويخضع له ويشتق منه رغباته وأمانيه، ويكون هدفه الأول الذي يرمي إليه ويعمل له ومصلحته الكبرى التي يشعر بها الكبير والصغير، فتطفئ بقوتها نار الشحناء ولهيب الأحقاد في قلوب الأحزاب والأفراد.

---

(١) صحيح الآية هكذا: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وأنا في حيرة من أمري لِمَ يورد الشيخ الكثير من النصوص القرآنية خاطئة، من غير أن يكلف نفسه عناء الرجوع للقرآن نفسه وهو المعروف عنه الدقة وتحري الحقيقة من مضانّها، وهو الذي علمنا التثبت في النقول وإيراد الشواهد القولية بالطبعة والصفحة والبلد، فكيف به يغفل هذا حين يأتي للقرآن ؟!!.

هذه هي علّة العلل، علّة الصغار والعبودية، علّة الشقاء والبلاء، علّة الضعة والانحطاط. إن أرباب النفوس الطيبة والقلوب النقية يقفون حيال فاجعتنا المؤلمة متأسفين ملتهبين، يلاحظونها حيارى مكتفين بالشكوى وسكب الدموع، إذ يرون أنفسهم ضعفاء عزّلاً من العدّة والعدد ، لا يقدرون على شيء فهم منتبهون من غفلتهم، شاعرون بضياعهم، وغربتهم، ولكنهم يبحثون عن الطريق فلا يجدون معلماً وعن الدليل فلا يسمعون متكلما، ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا الخريطة وظهرت لنا صورة الطريق جلية واضحة. يحدثنا التاريخ عن الأنبياء والمصلحين أنهم قلبوا وجه العالم وغيّروا حقيقة الكون، هذا وهُم لا يملكون شيئاً غير الإيمان بالفضيلة والدعوة إلى الفضيلة. إن العقيدة متى رسخت في النفس تبلغ من القوة مكاناً لا يستطيع أن يقف في طريقها جميع الزواجر والعقوبات، ويصبح صاحبها رسولاً مخلصا مستعداً لتضحية منافعه وسعادته وحياته في سبيل إحيائها.

ليس تاريخ الشهداء سوى تاريخ عقائد، ولولا العقيدة لبقي الإنسان إلى اليوم يعيش في الكهوف والمغاور مع الوحوش والحيوانات. إن الذي يتوجب على المصلح المفكر أن يحصر رسالته في توجيه الشعب إلى المثل الأعلى وهو الإيمان بعظمة الحق وقدسية المصلحة العامة التي تقوم على أساسها الأديان السماوية والقوانين المدنية، واحترامها احتراماً دينياً والعمل لها وعليها.

هذا هو الاتجاه الصحيح إلى الإصلاح، وهذا هو الحجر الأساسي الذي يرتكز عليه كل عمل يُراد به خير الأمة وسعادتها. إن الرجل المخلص الذي يستحق التقديس والتعظيم من وضع بيده هذا الحجر، وهيَّأ لأمته السير في هذه السبيل، ونهض بها إلى الإيمان بهذا المبدأ المقدّس عن طريق العلوم وبث المعارف التي تمهد الأسباب الموصلة إلى هذه الغاية الشريفة، بهذه التضحية الغالية تُباع العظمة، وبهذا الفداء الثمين تشترى النيابة، وعلى هذه الدعامة ترتكز الزعامة.

هذا هو المحور الذي يجب أن تدور حوله دعوة المصلحين وأعمال المخلصين، وما عداه يتفرع عنه ويُشتق منه، ولابدَّ أن تُدعم هذه الرسالة النبيلة بالعزم والثبات والجرأة والإقدام، نحن في أشد الحاجة إلى الجرأة والاستمرار لا إلى العقل والذكاء فحسب، إن الذكاء لا يجدي مع ضعف الإرادة شيئاً، إن النجاح وليد الشجاعة والثبات لا وليد العقل فقط، إن الثبات يحتاج إلى

نفس كبيرة سخية وجهود جبَّارة وتضحيات غالية، ولكن حلاوة المبدأ والإخلاص في العقيدة يذللانِ العقبات ويسهلان كل عسير. إن المصلحة العامة التي يجب أن تكون مثلا أعلى للجميع وهدفاً لكل فرد لا تعني تعميم المدارس والمصانع والطرقات والري في سائر أنحاء البلاد ليجيب الفلاح والكاسب والعامل: ما أنا وذا إنه من شؤون أولي الأمر ووكلاء الأمة الرسميين، إن المصلحة العامة أن يكون أن يكون المرء أحد العاملين في بناء الحياة الإنسانية، وأن يكون في عمله خير لأبناء وطنه من أي نوع كان عمله، سواء كان معلما متبوعا أو أجيرا تابعا، فهو إنسان ووطني ومصلح مادام عاملاً ناصحاً في مصنع الحياة. ليست الوطنية والإيمان والإصلاح صراخاً وادّعاء فارغاً وتشدقاً بالألفاظ ومواعيد معسولة وأيمانا مغلظة، إن الوطنية والإيمان والعلم والإصلاح عمل إيجابي صامت، وإخلاص عميق، وحب للخير أينما كان وكيفما تلوَّن، فالتاجر الذي لا يطمع بالمستهلك ويرضى منه باليسير، والمحامي الذي لا يضلل صاحب الدعوى ويغري به، والطبيب الذي لا يفحص مال المريض قبل أن يفحص علته، والقاضي النَّزيه الذي يناصر الضعيف المظلوم، والعامل الذي يؤدي عمله بإتقان، ورب المهنة الذي يقوم بواجبها بدون غش وخيانة، كل هؤلاء وطنيون ومؤمنون ومصلحون بل وقديسون أيضاً، وبهذا أجد تفسير الحديث المشهور: " حب الوطن من الإيمان "، وتفسير قول النبي (ص): " من غشَّ الناس فليس بمسلم "، ليس منَّا من غشَّ أخاه أضرّه أو ماكره .. إن الذي يحمل في قلبه ذرَّة من الإيمان والإنسانية لا يضمر السوء لإنسان قط، بل يؤثره بعطفه ويشمله بحبه ويبتغي له الخير ويخفض له جناح الذل من الرحمة، وإذا كان العدل أساس الملك فالرحمة حجر الزّاوية، رب كلمة طيّبة تخمد نار الأضغان، وتصلح القلوب وتسهل العسير وتقرب البعيد، كلمة متواضعة تخرج من شفتيك تجعلك في عداد المصلحين، إن المتواضع لا يكون وضيعاً أبداً، إن الوضيع الخسيس هو الفظ الجاف الذي تتجافى عنه الناس، فلا يشكر فضلاً ولا يغفر ذنباً، يحاسب البريء ويعاقب المذنب على ذنب سبقه إليه، يحقد ويثور ويضحي بماله وشرفه ودينه لأمر تافه أو كلمة صغيرة لم تسعها نفسه الضيقة وقلبه المتحجر، إن المؤمن العاقل إذا راودته نفسه إلى المحرمات وعمل القبائح زجرها بقوة العقل والإيمان، واحتفظ بإنسانيته وكرامته، ومن كان في قلبه شيء من الخير وحب الصالح العام تساهل مع إخوانه وأرحامه وأبناء وطنه وتغلب بعطفه على ما يختلج في نفسه من النزغات والنزوات، وتحمَّل منهم ما يحمل الوالد في سبيل حياته.

فالإيمان يكبح الشهوات والعقل يصد الأهواءٍ والرحمة تبعث الحب والحنان. أنت إنسان بجسمك وصورتك فكن إنساناً بعقلك وشعورك، ليس فوق الإنسان غير خالقه، فاعرف قيمة نفسك ولا تهبط بها إلى الحضيض.

شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، معرفة الله ومعرفة النفس. من عرف ما في نفسه من المواهب عرف عظمة الواهب، ومن عرف ما تحويه نفسه من الآيات والمعجزات والاستعداد لأن يحوّل الجبال إلى رماد والبحار إلى جماد يربأ بنفسه عن الرذائل، ويسمو بعمله إلى حضرة الجلال حيث لا يصعد إلا ملك كريم، وهذا معنى الحديث الشريف: " من عرف نفسه فقد عرف ربه "، وهل معرفة الله غير الإحساس بالفضيلة، وهل عبادة الله غير العمل بمقتضاها، وهل طاعة الله غير الاعتزاز بالكرامة الإنسانية والجهاد لإحياء الحقوق الإنسانية، والاستشهاد في سبيل الإنسانية، ليس فوق الإنسان غير خالقه، فاعرف قيمة نفسك ولا تهبط بها إلى الحضيض، وفقنا الله إلى ما يحب .

طير حرفا علما الشعب .

❋ مجلة العرفان، المجلد ٣٢ الجزء ٩-١٠، الصادران في شوال وذي القعدة سنة ١٣٦٥هـ الموافقين آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) ١٩٤٦م، ص (٨٩٢ - ٨٩٧)

(١٨) الشيخ محسن شرارة ۞

١٣١٨ – ١٣٦٥ هجرية

نحيف الجسم مربوع القامة، رقيق الوجه، تعلوه صفرة خفيفة، مستوي الأنف، متسق اللحية تميل قليلا إلى الشقرة، له عينان عسليتان شبه غائرتين، وأعجب شيء يستوقف النظر تلك النظرة الساكنة. إذا انقطع الحديث بينه وبين جليسه أطرق لحظة ثم رفع رأسه وقبض على لحيته ونظر بملء عينيه نظرة تجمع بين الحيرة والتأمل واليأس والرجاء.

كما تكون حلقة الاتصال بين الماضي والمستقبل التطور والارتقاء من درجة النشء إلى درجة الانتقال ومنها إلى التجدد والكمال، تكون أيضاً بالعمل على بقاء الماضي والاحتفاظ بخصائصه ومزاياه إذا بلغ الغاية من الرفعة والجلال، فالإنسان الحي الذي يتمشى على قانون الطبيعة إذا وجد وراءه نقصاً في شيء من نواحي الحياة تدرج به في طريق الكمال، وإذا وجده سائراً في هذه السبيل أبلغه مقرّه ومأمنه، ومتى استقرّ فيه أحاطه برعايته وعمل على حفظه وبقائه، فإذا ورث عن أبيه كوخاً جعله بيتاً، وإذا ورث بيتاً حوّله قصراً، وإذا ورث قصراً حفظه من التداعي والانهيار.

ومنذ أن نشأ المحسن وترعرع تكرّرت على مسمعه أخبار أبيه الشيخ عبد الكريم الكبير بعلمه وإيمانه، ومناقب جده الإمام المصلح الشيخ موسى الذي ترك أثراً تهتدي بنوره الأجيال وتخضع لجلاله أعاظم الرجال، فشعر أن عليه مسؤولية كبرى تبعثه على الجهاد في سبيل نمو هذا الميراث الثمين، والعمل لحفظه ورعايته، وقد تهيأت له جميع الأسباب التمهيدية التي تؤهله لهذا المنصب الخطير، فكان له من ذكائه الحاد وطبعه الملهم وسخائه الفيّاض وهمته البعيدة ونفسه الموهوبة ووجدانه الصريح ونزعته إلى حب الخير ما يجعله في صفوف الملائكة لا في صفوف بني الإنسان الذين لهم جسم بلا قلب ورأس بلا لب، وقد عانى من جرّاء حبه للحقيقة أشد الآلام سواء في العراق أم في جبل عامل، فهو مطبوع بفطرته على ما تفرضه النبالة

۞ وضعنا هذه الترجمة في هذا الباب (المقصود باب المراسلة والمناظرة في مجلة العرفان والذي نُشر فيه مقال الشيخ) لتأخر ورودها، وقد تبيّن أن عالِمنا الشاب المجدد (المقصود محمد جواد مغنية) أرسلها من صور في البريد، أي فقدت بين صور وصيدا، فتأمّل وابك دما على حالتنا الاجتماعية "العرفان".

والسيادة من مكارم الأخلاق وجميل الصفات. إذن لم يبق من حلقة الاتصال بينه وبين أبيه وجده إلا اكتساب المعارف واكتشاف الحقائق، ومتى تمَّ ذلك له كانت حياته تكراراً لحياتهما، وشخصه مثالاً يحكي ما كانا عليه من العلم والعمل، فهاجر المحسن إلى النجف سنة ١٣٣٨هـ وما أتمَّ دروس اللغة والمنطق حتى استشرفت نفسه للأدب، فقرض الشعر وزاول النثر، ودعاه ذلك للاختلاف إلى مجالس الأدباء إلى مجالس الأدباء، وغشيان أندية الأدب، يذاكر ويحاضر، وأخذ درساً باللغة الإنكليزية وكره ذلك منه رفقاؤه حسدا، وأساتذته ضنًّا بذكائه الملتهب على الأدب وجعله وقفاً على الدين والعلوم الإسلامية، فلم يحفل بنقدهم ومضى في سبيله يرسل المقالات والقصائد في العرفان الأغر(١) هازئاً بهم، ناعياً عليهم وعلى أساليبهم العقيمة وأوضاعهم البالية، منذراً لهم بالدمار وسوء العاقبة، متنبئاً بكل ما وصلوا إليه من الضعف والانحلال، فثار عليه قوم من الذين يكرهون الإصلاح، ويقفون حجر عثرة في طريق كل مصلح، ونعتوه بما هم أهل لأكثر منه. وعلى الرغم من أنه تخرّج من جامعة النجف، وفيها نشأ أدبه وبلغ الغاية، فإنه لم يتأثر في كتابته بأدب العراق، وتأثر في أسلوبه وشكله بالأدب المصري الرفيع مع المحافظة التامة على الأصول المقدسة، فكان أدبه آية في الأناقة والتنوع، يأتي بألوان المعاني وفنون البيان ما يعجز عنه البلغاء وينخذل دونه الأدباء، فلم يتعذر عليه معنى ولا تحرَّج عليه مذهب من مذاهب البلاغة، فكان في إنشائه نسيج(٢) وحده من بين ذلك الخضم الزاخر بآلاف الشيوخ والطلاب من العامليين والعراقيين وغيرهم.

أما شاعريته فكان في عداد الشعراء المجيدين، ولكنه لم يبلغ من الشعر مبلغه من النثر، ففي عهده كان الشرقي والجواهري والصافي، وعلى أي الأحوال فقد كان من الذين لهم مكانتهم في هذا الفن، فهو الطالب المحترم والأديب المقدر، تكبره أساتذته ويرقبون له مستقبلاً باهرا يليق باستعداده وفطنته ويتناسب مع أصله وأرومته، وقد حبَّبته صفاته الفاضلة إلى قلوب عارفيه

---

(١) آخر ما نُشر له في المجلد الحادي والثلاثين، قسم من تاريخ التشيع لعالم إنكليزي، وقد ترجمه عن الإنكليزية، وله عندنا مقالان لم يُنشرا. **" العرفان "**

(٢) صحيح العبارة نسيجاً بالنصب لأنها خبر كان واسمها ضمير مستتر يعود على الشيخ، وقد اشتبه ذلك على مغنية ربما من العجلة في الكتابة!.

من العامليين وغيرهم، إلا الذين لا يبشر الصلح معهم بخير، فكان في حياته النجفية ظاهرةٍ من ظواهر التجدد والأدب الرفيع، ونابغة من النوابغ المحلقين، ومثالا من أمثلة الاستقامة والصراحة البريئة من الرياء. وكانت داره في كثير من الأوقات مجمع العلماء ومسرح الأدباء على اختلاف طبقاتهم وأذواقهم، فيتلقى الجميع ببشاشته العذبة ونادرته النزيهة ويغمرهم بلطفه وكرمه، ومن لم يأته أتاه، فإذا كمل النصاب وتمَّ عقد الاجتماع من الأصحاب، وفيهم المرح المتواضع والوقور المتعجرف والمحصّل الفاضل، والجاهل الجامد، دار بينهم الحديث والأخذ والرد، فانتقد هذا ذاك، وأشكل آخر على رأي رآه أستاذه أو صاحب الكتاب الذي يدرسه، وذاك يحدث عن مقالة أو قصيدة قرأها في صحيفة أو كتاب، وآخر يخبر عن حادثة حصلت في جبل عامل كتبها إليه أهله وأرحامه، وخامس يعلق على ما سمع وينتقل من موضوع إلى موضوع، هذا ونحن دائماً مختلفونِ في الرأي، لا نكفّ عن الجدال والصياح والنقض والإبرام، ولا ندع سبيلا لفوات النكات الأدبية والنوادر التي تُحيي المساجلة وتزين الحوار، بل نفسح لها المجال ويجتهد أحدنا في استخراج النكتة ليوجع بها صاحبه، فإذا جاءت على المحسن تقبَّلها بأحسن قبول وضحك لها وارتاح كأنها منه لا عليه.

ذهبت إليه يوماً أنا وزمرة من الإخوان الذين تجمعهم سلامة الذوق وعذوبة الطبع فتهلل وجهه بشرا وامتلأت نفسه غبطة، وكنت تآمرت عليهٍ مع الرفاق أنه متى أراد الكلام شغلنا عنه بالحديث ولم نحفل به، وتولى أخوه الشيخ موسى إشعال " السماور " ، ولما دارت علينا أكواب الشاي فاضت القرائح، ونكل كلٌ بصاحبه ما شاء له التنكيل وساعدته البديهة. شرع المرحوم بالكلام باندفاع فتشاغلنا عنه فصاح بأعلى صوته: يا شيخ محمد جواد :

إنَّ بعض القول فنٌّ	فاجعل الإصغاءَ فنَّا

فأجبته فوراً :

ما لصوتٍ أُغلقت من دو	نه الأسماعُ معنى

فكان أسبقنا إلى الابتسام والابتهاج بهذا الجواب. ترك الشيخ محسن جبل عامل ولا شغل للناس سوى العبادة والدين، فكانوا في شهر رمضان وأيَّام الزيارات كنصف رجب وشعبان لا يصرفهم شيء عن تلاوة القرآن والأدعية والأذكار، ولا حديث لهم غير العلم والعلماء، يسبّحون بحمدهم

ويُقسمون بتربة من مات منهم ويعددون لهم المناقب وينسبون لهم الكرامات ويحسبون أن نجاة البلاد والعباد وسعادتها بوجودهم، فإذا دخل عالم إلى قرية هرع أهلها لاستقباله، ولم يبق فيها كبير أو صغير إلا وتقرب إلى الله بتقبيل أنامل الشيخ، ودوّى صوت المؤذن في الفضاء يدعو المسلمين إلى الصلاة جامعة خلف القدّيس الأكبر التي تُعد الركعة منها بألف، وبعد انتهاء الصلاة تتحلق الجموع حوله حلقات متأدبين خاشعين يكررون النظر إلى وجهه ابتغاء مرضاة الله، لأن النظر إلى وجه العالم عبادة. يتنافسون على أن يزورهم الشيخ في بيوتهم، والسعيد من يلبي الشيخ دعوته ويتناول الطعام على مائدته، هكذا تركنا جبل عامل وهكذا كان آخر العهد بالعامليين عندما هاجرنا إلى العراق، عاد الشيخ محسن إلى بلدته بنت جبيل سنة ١٣٥٤هـ بطلب من أهلها فرأى السماء غير السماء والأرض غير الأرض فسخر من قول القائل: " إذ الناس ناس والزمان زمان " فهؤلاء الناس الذين تركناهم بالأمس هم غيرهم اليوم، فقد استبدلوا بحديث العلم والعلماء حديث الزعامة والزعماء والوزارة والوزراء والنيابة والنواب، وبتلاوة القرآن والأوراد ما نشرت الجرائد وما أذاع الراديو، وبالأذان والصلاة الطبل والزمر والنشيد للبك والنائب، وبالتعاطف والإخاء الأحقاد والبغضاء، ماذا يصنع الشيخ محسن؟! أيبتعد عن الشباب الحليق الحاسر أو " المبرنط " ويُقرّب منه الشيوخ والعجز الذين لم يبق من حياتهم إلا يوم أو بعض يوم، فيحدثهم عن خاتم لبيك ورأس الغول واسم أم موسى الذي هو مفتاح لكل قفل مقفل ولكل باب مُوصدة؟! كلا.. إن الشيخ محسن من ذوي التفكير الحي، يتلاءم مع الحاضر ويسير حسب مقتضيات التطور ويدرك من أين تتسرب المعتقدات إلى النفوس، ويعلم انفعالها ودوافعها وداءها ودواءها، وأن المستقبل للشباب، وأنهم أساتذة المدارس ومعلمو الأولاد وأرباب الصحف والأقلام وخطباء المحافل وشعراء البلاد، يوجهون القلوب والعقول حيث شاؤوا، فقرَّبهم إليه وعاملهم باللين واللطف، وفسح لهم المجال للسؤال وشاركهم في البحث عن مشاكل المجتمع والشؤون الوطنية والسياسية وموقف الدين منها، وألقى عدَّة محاضرات في حسينية بنت جبيل في شتى فروع الثقافة الدينية والأمور الإصلاحية والمواضيع الاجتماعية، وبهذا الأسلوب المنتج ارتاح إليه الشباب وأنسوا به، وقرَّبهم من الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأصبح موضع ثقتهم يسألونه ويستفتونه عما أشكل عليهم أمره.

وكان رحمه الله يجري على فطرته في أموره كلها، فما تصنّع في مشيته ولم يراء بحديثه ولا تعاظم في جلوسه، ولا قيّد نفسه بشيء جعله الشارع في حل منه ثقة بنفسه واعتدادا بعلمه وأدبه، ولأي شيء نتعاظم ونظهر التزمت والجلال، أعملا بالدين أم لما يحيط بنا من قوة وعدد؟! وإذا فعل ذلك بعضهم فله عذره إذا عاصر الطاغية عبد الحميد. أمّا ونحن في عصر الديمقراطية الذي تمشي فيه الملوك في الشوارع بدون جنود وحرّاس، وتخاطبهم السوقة والصعاليك فغير مشكورين على ذلك ولا معذورين.

وفي عقيدتي أن من يحمل نفسه على هذه الأغلال ليس له من سمات العلم غير عمته ولحيته وقفطانه وجبته، دعاه إلى هذه القيود شعوره من نفسه بفراغ، فهو يحاول أن يملأه بتكلف الوقار وإظهار الجلال. كان الشيخ محسن كبير النفس ولكن من غير كبرياء، وطموحاً إلى أبعد حد ولكنه حكيم، يحب أن يتكلم ويتقدم في المحافل لكنه سليم الذوق، نقي السريرة، يعامل إخوانه كما يشتهون لا بما يستحقون فيقدم عليه من يعجبه أن يتقدم، ويستمع لكل متكلم حتى إلى الذين لايستمعون إلى صوت العقل والضمير، يقدّس أهل العقول النّيرة والإيمان الصادق، ويذود عنهم بلسانه وقلمه، ولا يطيق فيهم مقالة السوء، ولا تشغله الشواغل وإن كثرت وعظمت عن لقاء أصدقائه وتفقدهم وقضاء حقوقهم، وهذا ما لا نجده عند غيره وإن حرصنا أشد الحرص، فهو لا يرى السعادة في الدنيا إلا في مسامرة الإخوان ومناجاة الأصدقاء، يعطف على كل مشروع يظن به الخير، ويضحي في سبيله بكل وسيلة ممكنة سواء جاء من عدوه أو صديقه.

كان رحمه الله بريئاً من الاشتغال بالأضغان، بعيداً عن التفحش والفجور، تقياً مؤدباً حتى مع خصومه، حليماً رؤوفاً حتى بمن يظن بهم السوء، صادقاً صريحاً في قوله وفعله، جواداً كريم الخلق واليد، نزيهاً عفيف النفس واللسان، ذا عقل ناضج رشيد وعلم مفيد وخُلق رفيع وأدب بديع وطبع أرق من نسيم الصباح، وإناقة أنضر من الورد والأقاح، خِلال جليلة فذّة قلما تتهيأ لأحد إلا بعناية الله وتوفيقه.

طير حرفا جبل عامل

❃ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ١، الصادر في المحرم سنة ١٣٦٦هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦م، ص (٨٢ - ٨٦)

(١٩) إلى شاعر الغديــر

يوم الغدير – اليوم علمٌ على ثامن عشر ذي الحجة، والغدير علم على - غدير خم – وهما الزمان والمكان اللذان نصَّ النبي فيهما على إمامة علي وولايته، وخطبة الغدير علمٌ على اللفظ الذي وقع به النص، فالخطاب ومكانه وزمانه أعلام مشهورة معلومة لا تفتقر معانيها إلى البيان والتفسير، أما شعراء الغدير فلا يحصيهم الاستقراء، فقد مشى تاريخهم مع تاريخ الشعر في الأمم الإسلامية العربية وغير العربية في جميع العصور والأدوار، وحكى شعرهم جميع الصور التي لها مساس بهذا اليوم منذ نشأته إلى يومنا هذا، ابتدأ الشعر في الغدير بتهنئة الإمام على عظمته وامتيازه عن غيره بارتفاع منزلته عند الله ورسوله، وانتقل إلى الإنكار على صرف الأمر عن أبي الحسن (ع) بعد وفاة أخيه الرسول (ص)، ثم عاد إلى الأفراح والتهاني مرَّة ثانية في عهد خلافة الإمام وتطور في حرب صفين إلى الحِجاج وعدّ المناقب والمفاخر، واستمر شعراء الشيعة يحتجون به ويعددون فضائل صاحبه، ويستدرك المتأخر ما فات المتقدم، حتى استوعبوا جميع مزايا الإمام (ع) وما قاله النبي (ص) فيه وفي أهل بيته، وما خصَّهم الله به من الفضائل والكرامات، ولم يفعلوا ذلك بدافِع الغيرة والعصبية، وإنما قالوا وأطنبوا وعرَّضوا أنفسهم للهلاك انتصاراً للحق ووفاء لعقيدتهم ومرضاة لله ولرسوله، وقد أدركِ هذه الحقيقة البحَّاثة المنصف الدكتور عمر فرُّوخ، قال في كتابه (أبو تمام) ص٢٤: " ونحن نعلم أن أتباع المذهب العلوي أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل، وأبعدهم في الحماسة الدينية، حتى لِيكونوا أحياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى" . وقد وجد شعراء الشيعة مجالاً للقول ومتسعاً للإطناب. قال المأمون عندما سمع أبيات دعبل الشاعر الشهير في مدح أهل البيت: " قد والله وجد مقالاً فقال ونال ببعد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم " .

واليوم طلع علينا الشاعر المبدع الأستاذ إبراهيم سعود العلوي بقصيدته الغيرية الرائعة المنشورة في مجلة العرفان الزاهرة عدد صفر ١٣٦٦هـ، وبهذه المناسبة أسجل شكري للعرفان التي امتازت عن الصحف كافة بتعريف الشيعة بالعلويين والعلويين بالشيعة وبالأخص العامليين فوصلت بين الشقيقين المتقاطعين. سلك الشاعر في قصيدته " تحية الغدير " غير السبيل التي سلكها سواه من الشعراء، فقد خاطب بها أرباب المعرفة الصادقة واليقين

الثابت، الذين هم على بيّنة من يوم الغدير وصاحبه وناشدهم أن يرتبوا آثاره ويعلنوا شعاره بأسلوب فيه من سلامة التعبير وصدق العاطفة ورقة الشعور ما يُوقظ الإحساس في النفوس ويبعثها على الثبات والإخلاص في إجابة الدعوى. ناشد الشيعة الموالين لآل الرسول وأقسم عليهم بولاية إمامهم الأعظم وأبنائه الأئمة الأحد عشر، وعدّدهم واحداً واحداً على الترتيب بأسمائهم وألقابهم الخاصة أن يصنعوا ما تصنع عامة الطوائف في أعيادها الكبرى، فيتبادلون التهاني ويُظهرون الزينة على أجسامهم وفي بيوتهم والسرور على أقوالهم، فيعقدون حفلات الأفراح ويتلون الخطب والأشعار ويرتلون أناشيد المسرة والهناء. رأى الشاعر أن المادة قد طغت على الروح وأتت على الأخضر واليابس، فخاف أن يكون نصيب يوم الغدير نصيب غيره من الشعائر الدينية، فدعا إلى هذا المعروف الذي يكثر نفعه وتعم فائدته بشعر يحرك القلوب ويهز العواطف.

لقد كان يوم الغدير ولا يزال من أعظم الأعياد عند الشيعة، يقفلون له الأسواق والمعاهد العلمية، ويظهرون بمظاهر الابتهاج خصوصاً العراق وبوجه أخص النجف الأشرف، حيث تؤم الحضرة المقدسة آلاف الزوار من جميع الأمصار، وفي كل عام تتكرر حفلات الغدير وتتعدد في نوادي جبل عامل، فيخطب الخطباء وينظم الشعراء، ومن شعراء الغدير الذين أعرفهم معرفة شخصية الشاعر الكبير العلامة الشيخ سليمان ظاهر والشيخ محمد حسين شمس الدين وابن عمه الشيخ علي والشيخ محمود عبّاس، وشاعرنا العاملي الأستاذ ابن البادية. جاء في قصيدته بيت يصور بشر العامليين وابتهاجهم باليوم المبارك :

كأنك يا يومَ الغديرِ خميلةٌ　　　سقاها الحيا صبحاً وأوجهنا زهر

والشعراء عنوان عقيدة الأمة وعاداتها. وأتقدم إلى الكتّاب والشعراء بلسان أخي الجليل صاحب العرفان أن يُشرعوا من الآن في الكتابة والنظم ليساهموا بتحرير عدد خاص في الإمام يصدر في ذي الحجة إذا تمت مواده في أوّل ذي القعدة وكانت من الأدب الرفيع.

جبل عامل　طير حرفا .

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٣، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٦٦هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧م، ص (٣٢٢ - ٣٢٣)

(٢٠) قصبة أم فرس

خرجت من منزلي يوماً، فرأيت أطفال القرية، بنين وبنات مجتمعين في مكان فسيح، وقد أخذ كل طفل قصبة ضمَّها بين ساقيه، وقبض طرفها بإحدى يديه، وباليد الأخرى عود صغير، وقد أطلقوا جميعاً العنان لسوقهم، وهزوا العيدان بسواعدهم بفخر وإعجاب، ورفعوا أصواتهم بالصهيل حيناً وحيناً بنشيد الحماس، ومن خلفهم البنات يزغردن، ويصفقن فرحات مغتبطات يكررن قول (الله واسم الله) فإذا سكت البنات صاح بهن فرسان القصب: " زلغطوا يا بنات ".

رأى الأطفال آباءهم يركبون الخيل والنساء تزغرد خلفهم، عندما يزفون عروس القرية إلى زوجها فتشبه الأبناء بالآباء، واتخذوا من القصب فرساً، ومن الحطب سيفاً، لأن هذا السلاح والفرس لذاك الفارس المحارب.

وبدلاً من أن يذكرني هذا التمثيل الساذج البريء بأيّام الصغر، ويعود بي إلى ذكريات الطفولة، ويوحي إلى نفسي أن الراحة والهناء في عدم الوعي والإدراك، وإذا به ينتقل بي إلى حالتنا مع الساسة (البكوات) نوّاب الجنوب، وفرسانه المتسابقين في ميادين العنعنات الفارغة والمظاهر الجوفاء ذاهبين عن واجباتهم، وما ألقي عليهم من التبعات.

إن ساسة البلاد وقادة الشعوب يسارعون إلى العمل على تقدم أمتهم في مضمار الحضارة لتحتل المكان الأول من دون الأمم كافة، وأكثرهم لها نفعاً أسبقهم جميعاً إلى العظمة والجلال، وتتسابق ساستنا – العامليون – في ميدان الحزبية والتخاصم، وتخوض الخيل في الدماء، ولكن لا ليحققوا أهدافاً وطنية وغايات سياسية تُناط بها مصالح البلاد وتقدمها بل ليكون نصيب أحدهم من دم الفقير (وقرشه) أوفر من نصيب أنداده، ثم يطلبون إلى الشعب المكافأة على هذي الجهود بالهتاف والتصفيق وترتيل أناشيد الظفر والنصر كما يهتف البنيات الصغار لفرسان القصب .

ركب الأطفال قصباتهم، وزغرد لهم البنات، ولكن لا سيوف ولا دماء ولا شيء سوى اللهو واللعب قام بهما من لا يُسأل عن شيء حتى عن جوع الأمة وعطشها وجهلها ومرضها وطرقاتها ونكباتها، لا يسألون إلا عن التخاصم والأضغان في سبيل الشهوات البهيمية، وهل لا يجب علينا نحن إلا الهتاف والتصفيق والخضوع والتقدير؟! حقاً لست أدري أن هؤلاء الساسة يعون ما

يفعلون، أم هي في غفلة الغرور، أم ينظرون إلى أمتهم كما ينظرون إلى البهائم التي فقدت نعمة الوعي والتمييز، فلعبوا على المكشوف كما يُقال.

وإني أعرف كما يعرف غيري أفراداً من المتعممين والشبّان المتعلمين والموظفين قد تجاوزوا حدود أنفسهم، وتسابقوا على القِصب، واتخذوا سلاحهم من الحطب، ولكني أعرف كما يعرف غيري أيضاً أن أمثال هؤلاء غير مسؤولين عن شيء ولا يمثلون شيئاً سوى أنفسهم، فليسوا بوكلاء الأمة، ولا توصّلوا عن طريقها إلى غايات، لولا الأمة لكانوا عنها بمكان الهر من الأسد.

نحن لا نريد من نوّاب الجنوب أن يتعصبوا لطائفة دون طائفة، ولا لعنصر دون عنصر، ولا لإقليم دون إقليم، ولا نريد منهم أن يجعلوا من جبل عامل أميركا الثانية، وإنما نريد أن يكون جبل عامل جزءاً حقيقياً من لبنان له ما له وعليه ما عليه، فتُقاس مدارس جبل عامل بمدارس جبل لبنان، وطرقاته بطرقاته و مستشفياته بمستشفياته، حتى إذا جاء التاريخ قاس جميع أجزاء الجمهورية اللبنانية بمقياس واحد بدون تفاضل وتمايز بين جزء وجزء، لا أن يكون جبل لبنان فرنسا والجنوب جبل عامل.

ليست خدمة الجنوب خدمة لأبنائه الخاصة، وإنما هي خدمة للبنان وجمهوريته ووزرائه ونوّابه، إن الجسم لا يكون سليماً تاماً إذا كان في بعض أجزائه خلل وفساد، إن فساد الجسم بفساد بعض أجزائه، وسلامته بسلامة الكل.

جبل عامل طير حرفا .

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٤، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٦٦هـ الموافق شباط (فبراير) ١٩٤٧م، ص (٣٧٧ - ٣٧٨)

(٢١) نظرة في العرفان

افتتح فضيلة الأخ العارف الجزء الخامس من مجلد ٣٣ بكلمة أشار فيها إلى عهد الاستبداد والاستعباد، فصلى على المجاهدين في سبيل الحرية وقنت في صلاته هذه بلعن الخائنين الذين قبّلوا اليد التي سفكت دماءهم، وسلبت أموالهم، وكانوا سبباً في تمادي الظالم في ظلمه والمستبد في استبداده، وذكرنا بمواقفه الوطنية الخالدة، ومجابهة الطغاة بتنفيذ أعمالهم ونسبتهم إلى الجور والاعتساف، وكيف حاولوا إرضاءه بالمال، وإسكاته بالمناصب، وما زاده ذلك إلا إيماناً بوطنيته وإخلاصاً لمبدئه.

لا يريد العارف الجليل أن يدلّل بذلك على مكانته – وهل يخفى القمر – وإنما يريد أن يلقي الحجة على أولئك الذين ترتعد فرائصهم، وتشل أفئدتهم قبل أن ينطقوا بكلمة الحق، ويريد أن يُفهم المتناحرين على النيابة والوزارة أن المناصب لا تخلق الرجال، وأن الألقاب والمظاهر لا تدرأ التهم عن المجرمين، ولا تجعلهم في حصن من الجلال يدفع عنهم النقد والتفنيد. ولفضيلة الأخ الشيخ سليمان ظاهر " العلماء العامليون المتوفون في مهاجرهم " عدّد أسماء هؤلاء المجاهدين مختصراً على ذكر الاسم والوفاة فحسب، وإن ترجمة مفصلة لعالم واحد بقلم شيخنا البحّاثة المنصف تكون درساً وعظة للأحياء، وتخليداً وذكرى للأموات خيرٌ من تلك الصفحات المتسلسلة.

ولفضيلة الأخ الشيخ أحمد رضا " للتاريخ " إن البحث جديد في بابه مفيد في أبحاثه، وقد زاده فائدة وطرافة أنه بقلم بحاثة جليل عُرف بسلاسة التفكير وفصاحة التعبير، إلا أني لم أجد في هذه المذكرات بالخصوص البلاغة التي عرفت بها فضيلة الأخ في سائر آثاره، فإن فيها من تفكيك العبارة وتشويشها مالا يتلاءم وبلاغة شيخ الأدب.

❁ بمناسبة احتلال العلامة مغنية صيداء لطبع كتابه اطّلع على ملازم العرفان وأحبَّ أن يكتب هذه النظرة الصائبة عمّا كتب بها على أن يعود في كل جزء لإلقاء نظراته التي نرحب بها كما نرحب بكل ملاحظة أو نقد يأتينا على أن يتناول النقد كل خطأ يقع لاسيما الأخطاء المطبعية واللسانية ، ورحم الله من قال : رحم الله من أهدى إلي عيوبي

والعين تنظر منها ما دنا ونأى   ولا ترى نفسها إلا بمرآة

" العرفان "

وذكر ﴿ هذه المذكرات المرحوم الشيخ حبيب مغنية ﴿ عرض حديثه عن السيد والشيخ ولم يدع نعته بأنه كان يعمل للفرنسيين، ولو ترك هذا النعت إذ صرحً بالاسم، أو كنًى ولم يصرح إذا أراد النعت، فقال بعض من كان يعمل، لكان أليق بوضع المذكرات ومكانة صاحبها ٍومقتضى حاله، فالذين عملوا للفرنسيين كثيرون، ولم يذكر الكاتب واحداً منهم لا ابتداء ولا بالعرض، وإذا استحب مجاملة الأحياء فاحترام الأموات أولى، لأن للحي حجة يدفع بها عن نفسه، ولذا لم يثبت الحق عليه ﴿ التشريع الإسلامي إلا بالبينة واليمين، بينما يثبت على الحي بأحدهما.

والذي بعثني على هذه الإشارة إخلاصي لسيادة الأخ رغبة ﴿ أن تكون مذكراته الخالدة بعيدة عن الشبهات ومواضع التهم.

وللأديب الفاضل السيد علي إبراهيم " صور ومشاهد " وأراني مسوقاً إلى تقديم جملة موجزة قبل التعليق على هذه الصور والنظر إلى تلك المشاهد .

إذا اختلفت قوانين الأمم ومواد ٍتشريعها باختلاف طباعها وتقاليدها فيجب أن يختلف مبدأ الأدب أيضاً، وغايته حسب قوتها وضعفها، وتقدمها وتأخرها، فتكون الغاية من الأدب عند الأمة الأميركية الترف واللهو لأن الإنسان بفطرته (إذا شبع غنًى) أما نحن الجائعين فيجب أن يكون مبدأ الأدب عندنا التعبير عن الآلام، والغاية منه علاجها، واستئصال شأفتها، لأن الإنسان (إذا جاع أنًّ وعنًّ) .

وصور ومشاهد أصدق مثال لهذه الظاهرة، فقد حكت بعض ما نعانيه من الآلام، فإذا قرأها العاملي وجد نفسه وأحاسيسه فيما يقرأ.

ثم رأى الكاتب أن ٍعلاج تلك الأدواء بتكتل العلماء ورجال الدين، وهذي منية الصالحين جميعاً، ولكن كيف نتكتل وقد مزّقتنا الأهواء، فلم تجمعنا وحدة، ولم توحدنا غاية، واتخذَنا أبناء الدنيا وأرباب الشهوات آلة لمآربهم.

وللأستاذ كامل سليمان قطعة شعرية عنوانها " عرس شاعر " رفعها إلى الشريف الرضي والقطعة عذبة رقيقة تدل على نبوغ الشاعر، وشاعريته الفذّة، ولكنها تمثل أدب اللهو والترف والفراغ، رفعها الشاعر إلى من مضى، وتغنّى بقيس ولبنى، وقد مات هذان قبل الشاعر الشريف.

أتمنى على الشاعر أن يصف لنا أعراس البياض ونواحيها، وجويا وضواحيها، وكيف كانت وكيف يجب أن تكون؟ وكيف أفسدتها الأحزاب وحوّلتها إلى مأتم « تلك الأحزاب التي صوّرها الشاعر في بعض قصائده الغرّاء بقوله:

نحن مليون نسمة ولدينا   في ربوع البلاد مليون حزب

ولأخي أحمد قصيدة بعنوان " أمحسن " ولست أتعرض هنا للشاعر وفنه، وإنما أريد أن أتكلم عن نفسي، وإذا ذكرت الشاعر فأتخذه وسيلة لما أريد، لقد وجدت نفسي في بيتين من هذه القصيدة :

وإن شئت فاستنجد بأحمد ساعة   تعد دمعة الخنساء فاقدة صخرا

ببغداد لو شاهدتمُ قلب ثاكل   تقطّع من فرط الأسى أدمعاً حرَّى

فاكتشفت فيهما أن لي اسماً ثانياً غير الاسم الذي عرفني الناس به وهو (أحمد) وأني أقيم في بغداد أيضاً كما أقيم في الشعب، كما وجدت آبائي يدعون الناس إلى النعيم الخالد في قوله :

هنيئا لمن في الخلد إذ لم يكن به   (ترومان هاري) يصدر النهي والأمرا

ويكفيك منها أن عينيك لا ترى   حواليك بين الخلد مسترا أو هرا

دعا آبائي الناس إلى النعيم بلغة قومهم، وهذا أخي يدعو إليه بلغة العصر الذي يعيش فيه، ويحرك القلوب بتوقيع الأنغام التي تثيرها.

جبل عامل   طير حرفا

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٥، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٦هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٤٧م، ص (٥٦٩ - ٥٧١)

(٢٢) حـمـم ❁

ديوان شعر للشاعر العبقري الأستاذ أحمد (أبو سعد) في ٧٢ صفحة بقطع الربع طبع بمطبعة العرفان، وصدره الأديب الكبير العلامة العلايلي بكلمة جاء فيها: " وإنه ليفعم نفسي غبطة أن أجد بين شباب شعرائنا من هم أوعى لرسالة الشعر وأرهف حساً بتلقي إلهاماتها ووحيها، ونجد – في هذا الديوان – الغنى والخصب في إحسان من نسيج البيان إلى تدفق في خطرات الإلهام ".

ولم يكن الأستاذ العلايلي مغالياً ولا محابياً في قوله، فمن قرأ آثار الشاعر وجد الغنى والخصب والإلهام بأجلى مظاهرها.

❁ هذا المقال القصير والذي ورد في باب " التقريظ والانتقاد " لم يكتب الشيخ تحته اسمه صريحاً ولكنا من خلال قرائن عديدة أيقنا أنه للشيخ وبقلمه ، منها :

١- كتب تحته حروفه الثلاثة المكونة لاسمه الثلاثي وهي " م.ج.م ".

٢- استشهد بالعلايلي وهو كثير الاستشهاد والإعجاب به .

٣- أشار صاحب العرفان إلى أن الشيخ سيوالي الكتابة في باب النظرات وذلك في الجزء الخامس .

٤- الأسلوب أسلوب الشيخ وعليه روحه ونفسه .

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٧، الصادر في رجب سنة ١٣٦٦هـ الموافق أيار (مايو) ١٩٤٧م، ص (٨٢٩).

(٢٣) الأدباء في جبل عامل

لست أعجب من شيء عجبي من الأدباء والشعراء في جبل عامل! يكتبون وينظمون، وكثير منهم يجيد النظم، ويبدع في الكتابة ويأتي بالجديد الرائع، هذا وهم لا يحسون بشيء من أسباب التشجيع والترغيب! فلا حاكم يتعهدهم بعناية، ولا أمة تثيبهم باحترام، ولا أديب يتناولهم بنقد، ولا صحيفة تمدهم بصلة، بل تبخل عليهم بكلمة تقدمهم بها للقرّاء، فتسدد خطاهم وتبعثهم على المضي والتقدم في سبيل الدرس والإنتاج، وهم يحيون الليالي ليؤثروها بثمرات جهودهم وأبكار قرائحهم، ومن بخل على من يخدمه – مجّاناً – بقول : عافاك الله وسلمت يداك، وما إلى ذلك من عبارات المجاملة التي لا وزن لها ولا أثر إلا ركون النفس واطمئنانها، إن من بخل بالألفاظ بأي شيء يجود؟! ومن قابل العلوم والآداب بالإهمال والإعراض فقد عمل على قتل المواهب والعبقريات.

يكتب الكاتب مقالاً، وينظم الشاعر أبياتاً يجمع لهما حواسه، ويجهد فيهما فكره، وينصرف لأجلهما عن كل ما يهمه، ويذهل عن أحب الأشياء لديه، فإذا آنس من نفسه الرضا عن شيء من نظمه أو نثره الذي هو مرآة صافية لحقيقته وأمته وبيئته، أو ظن رضا الناس عما يخاطبهم به – على الصحيح – لأن الأديب يلقى قومه بما يستقيه من شعورهم وعاداتهم، ويستوحيه من آلامهم وآمالهم، فإذا ظن ذلك لم يجد من يستمع إليه، وإذا وجد من يحسن به الظن وحاول أن يسمعه شيئاً من بنات أفكاره تهيَّب الموقف، فيحجم حذر الإساءة إلى جليسه، كأنه يريد شتمه أو ضربه، وإذا كان باسلاً مقداماً لا تصده العوائق والعقبات، وأخذ يتلو على رفيقه الخبير العليم أظهر الفتور والجفاء، كأنه يطلب منه أن يقيم له حفلة تكريم اعترافاً بعبقريته، وشكراً لمعروفه.

وإذا أراد أن ينشر مقالاً أو قصيدة في صحيفة سيَّارة كثيرة القرّاء والرواج عساه يخلق باعثاً على الاستمرار في طريق الإنتاج لم يرَ أمامه سوى العرفان والمعهد وأخيراً العروبة، وهذه لا قيمة لها عند أدبائنا – المستغربين – لأنها وطنية! وكيف يقرأونها وهم يعرفون أربابها وكتّابها معرفة شخصية؟

فكان من جريرة هذا العقوق أن شعر الأديب العاملي بالبؤس المهين، وكاد أن ينصرف عن كل شيء، وينطوي على نفسه يائساً من كل ما في الوجود.

إنَّ التشجيع هو الوسيلة الفعَّالة لإحياء العبقريات الخالدة، وإنتاج الثمرات الطيبة، فمهما يكن الإنسان عظيماً في مواهبه فإنها تتحجر وتذهب سدى إذا قوبلت بالاستخفاف وعدم الاكتراث .

هذا رسول الله (ص) أمره الله تعالى بالدعوة إلى الحق ولم يكله إلى ثقته بصدقها وإيمانه بصلاحها، بل أثنى على صبره وجهاده، ومدح أخلاقه وسجاياه، ووعده ومنَّاه: " ولسوف يعطيك ربّك فترضى " (الضحى:٥) وهذا علي أمير المؤمنين (ع) أشجع الأولين والآخرين لم يدع النبي (ص) موقفاً من المواقف إلا أعلن فيه فضائله، وأشاد بعظمته. فإذا كانت الأنبياء والمرسلون والأئمة المعصومون لابدَّ لهم من التشجيع – من الله طبعاً – وإيجاد وسائل الشوق والترغيب فما ظنك بالإنسان الضعيف الذي لا يرى في حاضره غير الخذلان، وفي مستقبله غير الخسران.

وبعد فماذا ترقب أيّها الأديب العاملي؟ وممن تنتظر التقدير والتشجيع؟ أمن الساسة أم من الأغنياء أم من شعبك الخامل الجاهل أم من أدباء مصر وبيروت؟ وهل احتفلت أنت بأدب قومك وحملة الأقلام في وطنك ليحتفل بك هؤلاء؟ إنَّ استخفافك بأهلك وذويك هو استخفاف بنفسك وثروتك، فكيف تطلب من الغريب البعيد أن يعاملك بما لم تعامل به نفسك وألصق الناس بك سبباً ونسباً ؟!

فجدير بك إذا أردت أن تحيا حياة أدبية كريمة أن تعتني بأدب أخيك القريب منك روحاً وموطناً، فتتبع آثاره الفنية وتدرسها درساً وافياً، وتنقدها نقداً بريئاً وتبادله الثقة، فتعطيه لتأخذ منه.

وإني أدعو الكتَّاب والشعراء في جبل عامل الذين لهم مكانتهم الأدبية إلى تأليف جمعية تتجرد أعضاؤها عن المنافسة والشهوات، وتتعالى عن العداوة والأحقاد، وترمي إلى غاية واحدة هي تشجيع كل عاملي هنا وفي المهجر تراه أهلاً للنمو والسير في طريق الأدب الرفيع والتحلي بمزايا الكمال، فتمده الجمعية بما لديها من وسائل القوة والنشاط ليواصل السير إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ إليه باستعداده وملكاته، فتشيد بذكره، وترشده إلى خطأه، وتنوه بصوابه، وتدل الناس على نبوغه وسمو مواهبه، ثم تعمل الجمعية على إخراج كتاب في كل سنة – على الأقل – تشترك في تأليفه زمرة من أهل الفضل وذوي الأفكار، يكون عنواناً للحياة الأدبية في جبل عامل، ودليلاً على نبوغ العامليين وسمو مداركهم، ولا شيء في ذلك يبعث

على التشاؤم واليأس وخوف الفشل والخذلان، فلست أدعو إلى القيام بحركة تشبه الحركة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا، ولا إلى التهذيب الاجتماعي العام، ولا إلى تأسيس جامعة علمية، وإنما أدعو كل كاتب وشاعر في جبل عامل أن يدرس آثار قومه الأدبية، ويقرأها مع ما يقرأه من آلاف الكتب والمقالات المصرية وغير المصرية التي منها الطيب والخبيث والنافع والضار، وأن يتخذ من تلك الآثار وأصحابها مواضيع لمقالاته وقصائده، وأن يعتنق فكرة تشجيع الآداب العاملية كعقيدة يقدسها ومبدأ يعمل لنموه وتقدمه، وما ذاك على الأحياء بعزيز.

طير حرفا جبل عامل

✽ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٨، الصادر في شعبان سنة ١٣٦٦هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٤٧م، ص (٨٥٩ - ٨٦٠).

(٢٤) فلسفة الزنجاني

أو صفحة من رحلته إلى البلاد العربية

لقد بلغت شهرة الإمام الشيخ عبد الكريم الزنجاني حداً أصبح التعريف به ضربا من الفضول، فقد نال من عظمة العلم ودقة الفكر وبلاغة الخطاب وسمو الغاية ما حمل المفتي الأكبر، وشيخ الأزهر، وعبد الوهاب عزّام، والدكتور طه، وفريد وجدي، والغلاييني، والأتاسي، وكرد علي وأمثال هؤلاء على أن يحنو رؤوسهم له إجلالا وتعظيما.

اتسعت شهرة الزنجاني منذ رحلته إلى بلاد العرب ومحاضراته في الجامع الأموي والجامعة السورية بدمشق، ودار الأيتام الإسلامية ببيروت والمسجد الأقصى بفلسطين والأزهر وكلية الآداب وغيرها من المؤسسات والمجتمعات بمصر، وجمع طرف من هذه الخطب والمحاورات في كتاب خاص وضع له اسم (صفحة من رحلة الإمام الزنجاني)، ونظراً لأهمية هذا الكتاب وعظمة ما فيه من المباحث رأيت أن أكتب عنه أكثر من مقال، على أن يكون موضوع كل مقال مبحثاً مستقلاً لا تربطه أية علاقة بغيره من عناوين الكتاب.

دعا الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب فيلسوفنا الكبير إلى إلقاء محاضرة عن دراسة الفلسفة الإسلامية في النجف وإيران، فلبّى الدعوة وتكلم ساعتين، وقد شغلت هذه المحاضرة أكثر من أربعين صفحة، ومن قرأها أدرك ما حمل صاحب كتاب الأيام الذي عبث بالعمائم والشيوخ، وسخر من الأزهر والأزهريين على تقبيل يد هذا الجليل. إن هذه المحاضرة خير من ألف كتاب وضعه أساتذة الفلسفة في العصر الحديث، فقد أفهم فيها المصريين أنهم لا يعلمون شيئاً من الفلسفة الإسلامية، وأنهم يدرسونها ويُدرّسونها وهم أبعد الناس عن إدراكها ومعرفتها، وأن مدارس الشيعة الإمامية في النجف وإيران هي التي تقرر هذه الحقائق على وجهها الأكمل، أما أسلوب الخطاب فقد جاء حسب الترتيب الطبيعي الذي يفرض الإذعان على السامع ويقوده إلى الاستسلام مختارا أو غير مختار.

افتتح الخطاب بإقامة الأدلة والبراهين على وجود فلسفة إسلامية مستقلة تخص المسلمين أنفسهم، وعلى أن عهد الإسلام عهد ابتكار في الفلسفة ونظريات جديدة، وليست الفلسفة اليونانية إلا نواة للفلسفة الإسلامية،

ثم دفع وهم القائلين: إنه لا فضل للعرب إلا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها إلى أوروبا، وأن المسلمين لا نصيب لهم من العلم إلا ترجمة كلام اليونانيين وتقليدهم في الآراء والأفكار، أبطل هذا الزعم بما أورده من الشواهد على النظريات التي ابتدعها عظماء الإسلام، منهم الخواجة نصير الدين الطوسي، وهو الذي نقض النظرية اليونانية القائلة: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وبفساد هذه النظرية ذهب كل ما تفرع عليها من مباحث الهيئة وقواعد الفلسفة، ومنهم صدر المتألهين محمد بن إبراهيم، وجاء هذا بنظرية الحركة الجوهرية التي هي أساس مذهب التطور، وهذا المسلم العظيم وُجد قبل ثلاثمائة سنةٍ من ولادة دارون الذي نُسبت إليه هذه النظرية، وقد جعلها صاحبها برهاناً على وجود الصانع، ودليلاً على حدوث العالم، أما شبلي شميل فقد اتخذها لجهله سبيلاً إلى الإلحاد وإنكار الخالق، ومنهم الفارابي الذي له مائة وثمانية وعشرون كتاباً في الفلسفة، وهو أول من حاول الجمع بين رأي أرسطو ورأي أفلاطون، وبهذا الفيلسوف المسلم يبتدئ تاريخ التطور في الفلسفة الإسلامية، ومنهم ابن سينا مخترع طريقة التحليل النقدي للمشكلات الفلسفية، وصاحب كتاب الشفاء، والقانون، والإشارات. فكيف لا يكون للمسلمين — والحالة هذه — إلا فضل الترجمة والنقل، وفيهم أمثال هؤلاء الذين ملأوا الدنيا تأليفاً وتصنيفاً؟! ثم عدَّد علامتنا كتب الفلسفة ومنهاج دراستها في مدارس الشيعة، وانتقل إلى الفلسفة في الأزهر والجامعة المصرية، ودار العلوم، فأثبت جهل المصريين بالفلسفة لتقليدهم المستشرقين الذين لم يفهموا شيئاً عن الإسلام ورجاله وفلسفته بالشواهد الواضحة والأدلة الساطعة، برهن على جهل المصريين بنسبية المذاهب الفلسفية إلى غير أصحابها، وعلى عدم فهمهم مقاصد الفلسفة بما يبعث سوء الظن بالشهادات وحامليها، والكتب ومؤلفيها، وأرجع هذي الأخطاء إلى مصدر واحد وهو الركون إلى المستشرقين، وكيف نستند في معرفة ثقافتنا وديننا إلى قوم غرباء اللسان والوطن والدين؟! وهل هناك باعث سوى الجهل والتعصب البغيض؟

سخر شيخنا من المصريين وفلسفتهم ومصادرهم التي يعتمدون عليها، وأقام الدنيا وأقعدها لنبذهم القرآن وعظماء الإسلام، وقد أجاد وأفاد إذ جعل السبب لمروق المارقين من الدين وإفشاء الإلحاد والزندقة بين الناشئة هو جهل المصريين وعدم تثبتهم فيما يرسلونه من القضايا والأحكام، هذا وهم محل ثقة الشباب المثقف وموضع إكبارهم وإعجابهم، أما العلاج لهذا

الداء فهو إحياء تراثنا الثمين، وإخراج كنوزنا الدفينة ونشرها في المعاهد والمنتديات بالتدريس وإلقاء المحاضرات.

ولا يدعو مصلحنا المفكر إلى نبذ الفلسفة الحديثة والاختصار على الفلسفة القديمة فحسب، بل يقول: يجب أن نضم نفائس الفلسفة الحديثة الغربية إلى حقائق الفلسفة الشرقية القديمة وندرسهما معاً على ضوء العقل ثم نستنتج منهما ثمرات فلسفية صحيحة تصلح للحياة والبقاء.

والذي يعجبك في خطابه هذا أكثر من كل شيء - على الرغم من ذكائه المتقد وفكره الدقيق المتوثب واطلاعه الغزير الواسع - أن العجيب المدهش هو تخلصه الغريب وانتقاله من موضوع إلى موضوع مع إيهام السامع أنهما موضوع واحد! تخلص من جهل المصريين بالفلسفة إلى جهلهم بدين الإسلام وخصائصه ومزاياه، ومن ذلك إلى جهلهم بما عند إخوانهم الشيعة الإمامية، وخطأهم فيما نسبوه إليهم من السخافة والجهل.

جَرَحَ ولكن تلطّف في الجرح، حيث أرجع سبب هذه الجهالات كلها إلى المستشرقين! وبعد الجرح استعمل معهم مخدرا بمثال مضحك ضربه لجهل المستشرقين، وهو أن مستشرقاً زار إيران، ووضع كتاباً في عادات الإيرانيين ذكر فيه: أن عريساً إيرانياً اقترن بعروسه صباحاً، ثم شاهده في الشارع مساء يضرب عروسه، ومنشأ قوله هذا أن المستشرق رأى في الصباح جهاز عرسٍ ينقله الحمَّالون فسأل عن اسم العريس فأُجيب: ماذا يهمك؟ ثم رأى رجلا يضرب امرأته مساء في الشارع، فسأل عن اسم الزوج فأجيب: ماذا يهمك؟ فاستنتج من ذلك أن هذا هو اسم العريس الذي اقترن قبل ساعات بعروسه!

هذه حال مستشرق لم يعتمد (١) الكذب، ينقل عن الشرقيين ما شاهده بنفسه ورآه بعينه! فما ظنك بالخائن الذي يتعمد التحريف والافتراء؟! وينقل النظريات الغامضة ويقرر الفلسفة الشرقية والعقائد الدينية!

---

(١) هكذا وردت في المقال، ويبدو أن صحيح ما كتبه الشيخ يتعمد لا يعتمد، فهي الأليق والأنسب في السياق، ويعاضد رأينا أنه بعد سطر فقط يورد لفظة يتعمد.

ثم ختم خطابه بما هو أحسن أريجاً من المسك، وأطيب طعماً من الشهد، وأسطع نوراً من الشمس، تساءل الإمام مستغرباً – وحقٌ له ولكل منصف الاستغراب – كيف تُنسب الخرافات إلى عقيدة يدين بها أمثال الطوسي، وابن سينا، والحلي، والملا صدرا، والسيد الداماد، والسبزواري ؟! وكيف يُقال: إن كل أحاديث الكافي حجة عند أرباب هذه العقيدة وهم الشيعة الإمامية، وإن الكافي عندهم كصحيح البخاري عند السنة وهم يقولون بفتح باب الاجتهاد ؟! إن هذا الخطاب اليتيم الذي دفع بالدكتور طه حسين بك إلى تقبيل يد صاحبه يجب أن يُدرّس في المعاهد، ويقرأه كل عالم وأديب، فقد حوى من ضروب الفلسفة أنواعاً، ومن الأساليب في تقرير الحقيقة ألواناً، ومن الأدلة على عظمة المعاهد النجفية والإيرانية ما يُنعش الحق ويُميت الباطل، أكثر الله في الأمة أمثال هذا المصلح العظيم، ووفقني لمتابعة الكتابة في هذا الموضوع الجليل، إنه خير مسؤول.

جبل عامل طير حرفا

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٣ الجزء ٩، الصادر في رمضان سنة ١٣٦٦هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٤٧م، ص (٩٩٨ –١٠٠٠).

(٢٥) من الفقه الجعفري والفقه الحنفي

❶ في الأحوال الشخصية

الخلوة الصحيحة من غير دخول كالدخول عند الحنفية في لزوم المهر بكامله، والعدّة، وثبوت النسب، وعند الإمامية لا أثر للخلوة بذاتها في ذلك كله، الفراش عند الحنفية العقد الصحيح من غير شرط الدخول، وعند الإمامية العقد والدخول معا، أقل مدة الحمل ستة أشهر من تاريخ الدخول عند هؤلاء، ومن تاريخ العقد عند أولئك، أقصى مدة الحمل سنة عند الشيعة، وسنتان عند أبي حنيفة، وأربع سنين عند الشافعي، ومالك وابن حنبل، لو زنت الزوجة وأتت بولد يشبه الزاني فالولد للزوج دون الزاني عند الطائفتين، يكتفي أبو حنيفة بشهادة امرأة واحدة على ثبوت الولادة، وتعيين الولد حال قيام الزوجية.

(١٠) **الخلوة** (١) – ومعناها أن يجتمع الزوجان في مكان آمنين من اطّلاع الغير، وهي عند الحنفية على قسمين: صحيحة، وفاسدة، والفاسدة أن تكون الزوجة في حيض أو نفاس، أو يكون أحدهما مريضا، أو محرما بالحج فرضا أو نفلا، أو صائما فرضا، وهذه الخلوة الفاسدة توجب العدّة (٢) على الزوجة كالدخول عند الحنفية مع العلم القطعي أن الدخول لم يتحقق بتاتا، وعلل ذلك الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد في كتابه الأحوال الشخصية: أن الشارع نزّل مظنة الجماع الناشئة عن الخلوة منزلة الجماع نفسه.

وتقول الإمامية: يستحيل عقلاً أن يجتمع الظن بالجماع مع العلم بانتفائه، كما هو الفرض، مضافا إلى أن الظن لا يغني عن العلم شيئا.

أما الخلوة الصحيحة عند الحنفية فتتحقق بانتفاء تلك الموانع، أي الحيض، والنفاس، والإحرام، والصوم. فإذا اختلى الزوجان، والحالة هذه، قامت

---

(١)من خلال الترقيم الذي أورده الشيخ يتضح أنه يكتب سلسلة من المقالات التي يتناول فيها الفقه المقارن للمذاهب الخمسة، وجاءت النقطة العاشرة في بداية المجلد ٣٦ ، أما النقاط السابقة فهي في المجلد السابق، ولكني للأسف الشديد لم أستطع الاهتداء للمجلدين ٣٤ و٣٥ من العرفان ، لذا ستأتي هذه المقالات مبتورة من الأصل !!.

(٢)مجمع الأنهر، ج١ ص ٣٥٠

" مغنية ".

الخلوة مقام الدخول في وجوب العدة، ولزوم المهر كاملاً، وثبوت النسب (١). فإن ولدت الزوجة لستة أشهر من تاريخ الخلوة يلحق الولد بالزوج، ولو كان الزوج عنيناً أو مجبوباً أو خصياً (٢)، أما الآثار الأخر كتوارث الزوجين قبل انتهاء العدّة في الرجعية، وتحريم العقد على بنت الزوجة – لو حصل الطلاق – وتحليلها للزوج الأول المطلقة منه ثلاثاً، والرجم مع الزنا فلا تترتب على الخلوة من غير دخول .

وتقل الإمامية: لا أثر للخلوة مطلقاً صحيحة كانت أم فاسدة، فلو طلّق الزوج زوجته قبل الدخول، وبعد الخلوة الصحيحة كان لها نصف المهر عملاً بالآية الكريمة في سورة البقرة:(وإن طلّقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) (البقرة: ٢٣٧) ولا عدّة لها أيضاً أخذاً بقوله تعالى في سورة الأحزاب: (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدّة تعتدونها) (الأحزاب:٤٩) وتعتقد الشيعة أن العقل والوجدان يمنعان حمل المرأة من غير إدخال ولا إنزال، وإن هذا فتح باب الفساد للنساء، وعلى الأخص في هذا العصر .

(١١) الفراش – أجمع المسلمون كافة على الأخذ بحديث (الولد للفراش وللعاهر الحجر) واختلفوا في تأويله ومعناه، فذهب الحنفية إلى أن المراد بالفراش هو العقد الصحيح بمجرده، بحيث يجوز للرجل شرعاً أن يفترش المرأة (فلو أن رجلاً في مصر وكل رجلا في الأندلس بأن يزوجه فلانة فعقد له عليها، فجاءت بولد لستة أشهر فأكثر من تاريخ العقد، نُسب الولد إلى الزوج وإن لم يلتقيا أصلاً فيما يرى الناس) (٣) وكان العمل على ذلك في محاكم مصر الشرعية، وعُدل عنه في سنة ١٩٢٩م، فليس الدخول شرطاً عند أبي حنيفة لثبوت النسب إذا كان عقد النكاح حصل بين الزوجين صحيحا، فالعقد بمجرده سبباً لثبوت النسب وإن لم يدخل الزوج.

---

(١) مجمع الأنهر ج١ ص ٣٥١ "مغنية".

(٢) الدرر شرح الغرر ج١ ص٢٣٨، والأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية على مذهب أبي حنيفة مادة ٨٣. " مغنية "

(٣)الأحوال الشخصية للأستاذ محمد محيي الدين ص ٤٧١. "مغنية"

أما الإمامية فيفسرون الفراش بالافتراش الشرعي والفعلي (١) أي الزوجية والدخول معاً.

(١٢) **اقل مدة الحمل** – اتفق الفريقان أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ودليلهما واحد، وهو قوله تعالى في سورة الأحقاف : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (الأحقاف:١٥) وقوله سبحانه في سورة لقمان: (وفصاله في عامين) (لقمان:١٤) فإذا أخرجنا العامين من الثلاثين شهراً بقي ستة أشهر، وجعلت الأشهر الستة مدة الحمل، لأن المشاهد بالحس والوجدان زيادة مدته على ذلك، وابتداء الستة عند الحنفية من حين العقد، وعند الإمامية من تاريخ الدخول.

(١٣) **اقصى مدة الحمل** – أقصى مدة الحمل سنتان عند أبي حنيفة، وعند الشافعي، ومالك وابن حنبل، أربع سنين(٢)، فلو مات الرجل وولدت أرملته لأقل من سنتين بيسير من حين وفاته ألحق الولد بالميت عند الأئمة الأربعة إذا لم تقر بانقضاء العدة، وإن ولدته لأربع سنين ألحق به عند الأئمة الثلاثة (٣).

واختلف علماء الإمامية في أكثر مدة الحمل، فقال بعضهم إنها عشرة أشهر، والأكثر على أنها تسعة أشهر، وذهب آخرون إلى أنها سنة كاملة، عملاً بالطب وبرواية ابن حكيم عن أهل البيت: (إن جاءت به لأكثر من سنة لم تُصدّق) وبهذه الرواية أخذ علَمُ الهدى، والشهيد الثاني في المسالك،

---

(١)الجواهر وغيرها من كتب الفقه . **" مغنية "**

(٢)الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد . **" مغنية "**

(٣) العبارة السالفة للشيخ أراها غير واضحة، وربما لن يفهمها القارئ، فهو خلط الأئمة الأربعة في عبارة واحدة، فلا ندري أيهم يرى أقصى مدة للحمل سنتان وأيهم يراها أربع سنين، ولكنه يعود فيما بعد في كتابه " الفقه على المذاهب الخمسة " ويشرح المسألة نفسها ولكن بأسلوب أكثر دقة وإشراقاً مما هي عليه الآن في مقاله بالعرفان، حيث كتب في ذلك: " قال أبو حنيفة : أقصى مدة الحمل سنتان ؛ لقول عائشة: ما تزيد المرأة في الحمل على سنتين. وقال مالك والشافعي وابن حنبل: أربع سنين، مستندين في ذلك إلى أن امرأة عجلان كان الحمل يمكث في بطنها أربع سنين، ومن الغريب أن امرأة ابنه محمد مكث الحمل في بطنها أربع سنين، بل نساء بني عجلان جميعهن يحملن أربع سنين، ولله في خلقه شؤون " (ج٢ص١٠٤ ط١٠ دار التيار الجديد –دار الجواد)

وحمل روايات الأشهر التسعة على الغالب.

مما قدّمنا يعلم أن الولد يلحق بالزوج عند أبي حنيفة إذا كان العقد صحيحاً، وجاءت به الزوجة لتمام ستة أشهر فأكثر، ولو لعشر سنين من حين العقد لا من حين الدخول على شرط بقاء الزوجية المسببة عن العقد الصحيح، وعدم ارتفاعها بالموت أو الطلاق البائن، وإذا كان عقد الزواج فاسداً لفقدانه بعض الشروط يلحق الولد بالرجل إذا ولدته لتمام ستة أشهر فأكثر ولو لعشر سنوات من تاريخ الدخول لا العقد، وإذا ولدته بعد الوفاة أو الطلاق البائن يلحق به لقرب سنتين.

وعند الإمامية يلحق الولد بالزوج بشروط ثلاثة: الدخول، ومضي ستة أشهر من تاريخ الدخول، وأن لا يتجاوز الحمل أكثر من سنة، وإذا انتفى أحد هذه الثلاثة كما لو ولدت الزوجة من غير دخول الزوج، أو لدون ستة أشهر من تاريخه، أو أكثر من سنة ينتفي الولد عن الزوج واقعاً، ويجب عليه نفيه ظاهراً.

(١٤) اتفق الشيعة والسنة كافة على أن الزوجة المدخول بها إذا زنت وثبت فجورها، ثم جاءت بولد يشبه الزاني في الخلق والخلق كان الولد للزوج، ولا ينتفي عنه إلا باللعان، لأن الزاني لا ولد له، أخذاً بظاهر الشرع، وعملاً بحديث الولد للفراش.

(١٥) يكتفي أبو حنيفة في إثبات الولد ونسبته إلى الزوج حال قيام الزوجية وبعد ستة أشهر فأكثر من حين العقد يكتفي بشهادة امرأة واحدة مسلمة حرة عادلة في صورتين:

"١": إذا ادّعت الزوجة الحمل والولادة، وأنكر الزوج، فقال: إن هذا الولد لقيط من الخارج. "٢" :أن يعترف بالحمل والولادة، وينكر التعيين بأن يقول: ولدت جارية وهذا غلام، فيكفي لإثبات صدق الزوجة شهادة امرأة واحدة مسلمة حرّة معروفة بالعدالة (١).

وأرسل الإمامية القول في جميع كتبهم الفقهية بأن شهادة النساء في النسب لا تقبل بوجه، سواء كن منفردات أم منضمات إلى الرجال.

---

(١)الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد ص٤٨٧

وتأخذ الشيعة بشهادة المرأة الواحدة في ربع ميراث الولد المستهل، وفي ربع المال الموصى به للحمل (١) مثال ذلك: لو مات الزوج وكانت الزوجة حاملا، وبعد الوضع وقع الخلاف بينها وبين الورثة، فادّعت الزوجة أنها وضعت غلاماً حيًّا ثم مات، وقال الورثة: انفصل ميتاً. والحكم عند الإمامية أن له الربع بشهادة امرأة واحدة، والنصف بشهادة الاثنتين، وثلاثة أرباع بشهادة ثلاث، والجميع بأربع، وكذا الحكم لو أوصى بمال للحمل، فادّعت أمه انفصاله حياً والورثة انفصاله ميّتاً.

---

(١) الجواهر وغيرها من كتب الفقه . "مغنية"

❁ كتبت المجلة تحت اسمه " الشيخ محمد جواد مغنية قاضي بيروت الشرعي "

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩م، ص (٣٧ –٤٠).

في الأحوال الشخصية

الإمامية والشافعية والمالكية ضد الحنفية، حيث يجمعون على أن لكل من المرأة والرجل فسخ الزواج في عيوب خاصة، وعلى أن اشتراط وصف الكمال يوجب الخيار مع ظهور العكس. يجوز عند الحنفية أن تطلق المرأة نفسها إذا اشترطت ذلك على الزوج، الإمامية والحنفية يجمعون على فساد شرط الخيار في النكاح.

(١٦)الحنفية قالوا: ليس للزوج فسخ عقد الزواج لو تبين في المرأة عيوب (١) مزمنة موجودة فيها قبل العقد، وكان الزوج بها جاهلاً، سواء كانت في عقلها كالجنون، أم في بضعها كالعفل (٢) والقرن والرتق، أم في سائر أعضاء الجسم كالعرج والعمى والبرص والجذام.

أما الزوجة فتفسخ العقد لو تبين في الزوج أحد عيوب ثلاثة:

"١": **الجب**: وهو قطع عضو التناسل، فتفسخ به الزوجة بشرط أن تكون حرة، بالغة، جاهلة بوجوب العيب قبل الزواج، فإن أقدمت عليه مع العلم يسقط حقها في الفسخ، ولابد أن يكون التخيير من القاضي، ولها المهر كاملاً، وعليها العدّة.

"٢":**العنن** : وفسّروه بعدم استطاعة الزوج إتيان زوجته قبلاً، فلو أمكنه إتيان الثيب دون البكر فهو عنين بالنسبة لزوجته، ويحق لها الفسخ بعد أن يؤجلها القاضي سنة كاملة، ابتداء من تاريخ المرافعة، ولها الخيار على الفور، فلو قامت من مجلس القاضي ولم تختر نفسها سقط خيارها.

"٣" **الخصاء**: وهو قطع الأنثيين، فللزوجة الخيار بشرط عدم انتصاب الآلة، ومع الانتصاب والقدرة على الوطأ فلا خيار وإن لم يُنزل.

---

(١) الصحيح عيوباً، لأنه مفعول به، وأتعجب من الشيخ كيف يذهل عن ذلك !!
(٢)العفل: لحم يبرز في رحم المرأة وقريب منه القرن ، والرتق انسداد مدخل الذكر من الفرج. "مغنية"

الإمامية قالوا: يحق للمرأة الفسخ إذا تبين في الرجل أحد عيوب أربعة.

الجب، الخصاء، العنه، الجنون. ولابد في العنين من المرافعة، فيؤجلها القاضي سنة كاملة من حينها، كما قال الحنفية، فإن وطأها أو وطأ غيرها فلا خيار، وإلا فسخت إن شاءت، وحينئذٍ لها نصف المهر، ولا يتوقف الفسخ بالجب والخصاء والجنون على أمر القاضي، ويختص الجنون دون سائر العيوب بأنها تفسخ به وإن تجدد بعد العقد والوطء، فإن فسخت قبل الدخول فلا شيء لها، ولها المهر المسمى بعده.

ويفسخ الرجل إذا وجد في المرأة أحد عيوب سبعة: الجنون، الجذام، البرص، القرن، الإفضاء، العمى، العرج الواضح، ولا خيار إن تجدد العيب بعد العقد، والخيار على الفور، ولا مهر للزوجة مع الفسخ وعدم الدخول، ولها المسمى بعده (١) ا.

وقريب من مذهب الإمامية بقية المذاهب الثلاثة: الشافعي، المالكي، الحنبلي، فالإمامية والمذاهب الثلاثة يخالفون أبا حنيفة في ثبوت الحق للزوج في فسخ العقد لوجود عيب خاص في الزوجة.

(١٧)**التدليس**: ذكر هذا العنوان علماء الإمامية في جميع كتبهم الفقهية، والمقصود منه إظهار الكمال، وإخفاء النقص الباعث على الانخداع والتغرير، ويشمل الرجل والمرأة، فتوصف المرأة بصفات الكمال على وجه يكون الوصف سبباً تاماً لتزويج الرجل بها، أو يذكر الرجل بما يدعو المرأة إلى التزويج به، وبعد العقد يظهر العكس.

ويتحقق التدليس بإخفاء النقص، كالعَوَر ونحوه، وإظهار الكمال والشرف والنسب والجمال والبكارة والحرية وغيرها. ومتى ذُكرت هذه الأوصاف بأحد طرق ثلاثة (٢) يثبت الخيار الأول: أن تؤخذ صفة الكمال شرطاً في متن العقد، كما لو قال الرجل: تزوجتك بشرط أن تكوني باكراً، أو سليمة الجسم، أو تقول هي: زوجتك نفسي بشرط أن تكون مؤمناً حسن السلوك، الثاني: أن يؤخذ الكمال وصفاً لا شرطاً، كما لو قال الولي أو الوكيل:

---

(١) المسالك والجواهر وسائر كتب الفقه للإمامية. "مغنية"

(٢) وسيلة النجاة الكبرى للسيد أبو الحسن. "مغنية"

زوجتك البنت الباكر أو الجميلة (١): أن يذكر الكمال عند الخطبة وقبل العقد، ثم يقع العقد مبنياً على الوصف المذكور في السابق، فإن ظهر العكس ثبت الخيار للطرف الثاني رجلا كان أم امرأة، ولا مهر مع الفسخ قبل الدخول، أما بعده فإن كانت الزوجة هي المدلسة فلا تستحق شيئاً، وإن كان غيرها استحقت المهر، ويرجع به الزوج على المدلس الذي كان سبب الخداع والغرور (الثالث) .

(١٨) **فرع ٢** :(٢) لو تزوج رجل امرأة باعتقاد أنها باكر، لأنها لم تتزوج من قبل ولم يذكر ذلك عند الخطبة، ولا في متن العقد شرطاً ولا وصفاً، كما هي العادة المتبعة، ثم تبين أنها ثيّب فلا فسخ للزوج بوجه، وله أن ينقص من المهر بنسبة التفاوت بين مهر البكر والثيّب عادة، فإن كان النصف أعطيت نصف المسمى، وإن كان الربع فالربع.

الحنفية قالوا:- لا أثر لشيء من ذلك، فليس للزوجة ولا للزوج الخيار والفسخ، وإن أخذ الوصف شرطاً في العقد، فلو اشترط الزوج سلامة الزوجة من العمى أو المرض، أو اشترط الجمال أو البكارة، فوجدها عمياء أو برصاء أو مقعدة أو قبيحة أو ثيّباً يصح العقد ولا ينفذ الشرط، ولا خيار أبداً. أما الشافعي والمالكي والحنبلي فخالفوا أبا حنيفة، ووافقوا الإمامية في ثبوت الخيار وجواز الفسخ مع الاشتراط وتخلف الشرط .

(١٩)**الحنفية**: جوّزوا أن يكون الطلاق بيد المرأة إذا اشترطت هي ذلك أثناء العقد بأن تقول: زوّجتك نفسي على أن يكون الطلاق في يدي، وعليه تطلق نفسها متى شاءت، وإن لم يكن في الزوج أي عيب يوجب ذلك، أمّا لو ذكر الزوج الشرط فقال : تزوجتك على أن يكون الطلاق صيفاً في الجبال وشتاء في الساحل توجب الخيار مثل ما لو شرط الزوج لزوجته أن يبني لها قصراً في يدك فلا ينفذ الشرط، فالنفوذ متوقف

---

(١) قال صاحب الجواهر في باب النكاح : " تكرر منا غير مرة قوة ثبوت الخيار بالتدليس بصفة من صفات الكمال على وجه يتزوجها على أنها كذلك فبان الخلاف أي صفة كانت لظهور نصوص التدليس فيه، ويمكن دعوى الإجماع على أن شرطية الصفات توجب الخيار إذا بان الخلاف. نعم لو كان الشرط من الأفعال أمكن القول بعدم الخيار "، ومراده بالأفعال التي لا وأن يسكنها، وقال الشهيد في المسالك : إن الشرط في النكاح يقتضي الخيار. " مغنية "

(٢) هذا الفرع ذكره المرحوم السيد أبو الحسن في الوسيلة. " مغنية " بيروت (١)

على أن يكون الشرط منها لا منه.

الإمامية قالوا: بصحة العقد وفساد الشرط، لقول النبي (ص): " فما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، قضاء الله أحق، وشرطه أوثق "، ولقول علي أمير المؤمنين (ع): " المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حلل حراماً أو حرم حلالاً "، وقول الإمام الباقر (ع) في من تزوج امرأة واشترطت أن بيدها الجماع والصداق قال: " خالفت السنة، ووليت حقاً ليست أهلاً له، وعلى الزوج الصداق، وبيده الجماع والطلاق ".

(٢٠)فرع: اتفق الإمامية والحنفية على فساد شرط الخيار، والفرق بينه وبين خيار الشرط الذي قال الإمامية والأئمة الثلاثة بصحته أن خيار الشرط هو أن يُشترط وجود وصف فيظهر عكسه، وهذا يُوجب الخيار — كما قدَّمنا — أما شرط الخيار المتفق على فساده عند الحنفية والإمامية معاً أن يكون الشرط هو الخيار نفسه، بأن يشترط أحد الزوجين أو هما معاً الخيار لنفسه أو لغيره مدّة معينة، كقول الرجل: تزوجتك على أن يكون لي أو لأبي الخيار ثلاثة أيام مثلاً، أو تقول هي: تزوجتك على أن يكون لي أو لأبي الخيار ثلاثة أو أقل أو أكثر، فالحنفية قالوا: ينعقد النكاح ويفسد الشرط، ومن الإمامية من وافقهم على ذلك كصاحب العروة الوثقى والمرحوم السيد أبو الحسن، ومنهم من ذهب إلى فساد العقد والشرط معاً، والكل مجمعون على فساد لشرط والله العالم..

---

(١) إن ما نقلناه عن الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة مصدره كتاب الفقه على المذاهب الأربعة. **" مغنية "**

❁مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٣، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٨هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٤٩م، ص (٢٥٠ -٢٥٢).

(٢٧) ملحمة الغدير

زرت معالي الزعيم السيد أحمد الحسيني، وما استقرَّ بي المجلس حتى توجّه إلي سائلا: هل قرأت ملحمة الغدير لبولس سلامة ؟

قلت: قرأت شيئاً منها في الصحف، قال: الرجل عظيم، قال هذا ونهض من مجلسه يمشي بخطى واسعة إلى غرفته، وما أسرع أن عاد وفي يده الملحمة، فتناول نظارته وركزها على عينيه الكحلاوين، وقرأ طرفا من المقدمة، وعندما انتهى من قول الشاعر: " ولم يستطع خصوم الرجل – علي – أن يأخذوا عليه مأخذا فاتهموه بالتشدد في إحقاق الحق، أي أنهم شكوا كثرة فضله، فأرادوه دنيوياً يماري ويداري، وأراد نفسه روحيا رفيعا يستميت في سبيل العدل " نظر في وجهي نظرة كانت شرحا طويلا لما في دخيلة نفسه من الإعجاب بالشاعر وإنصافه وبلاغته، ومن الخشوع لعظمة جده أمير المؤمنين، ثم رجع إلى الفهرست، وطوى الصفحات حتى بلغ أحداً فقرأ الفصل بكامله شعرا ونثرا.

وكان عنده لفيف من ذوي الحاجات الذين تجد الدار غاصاً بهم كلما ذهبت إليه، ولما رأوا إكباره للشاعر وملحمته رتلوا عبارات الثناء، وسألوا: من هو الشاعر؟ وأين يوجد وفي أي مكان تُباع الملحمة؟ يجب أن نشتريها يجب أن يقتنيها كل إنسان.

وبدلاً من أن يترك الشعر في نفسي ظلالاً وصوراً لجمال الفن، وروعة التصوير وإذا بالجو ينتقل بي إلى موضوع السياسة والأدب، وبتعبير أصح إلى تعاون السياسي والأديب، إلى أبي تمام والمعتصم والبحتري والمتوكل، والمتنبي وسيف الدولة وشوقي وعزيز مصر. إن هؤلاء الملوك لم يبقوا شيئاً في ينابيع شعرائهم ومناجمهم إلا استخرجوها بالعطاء والثراء، وبشتى الطرق والوسائل.

إذن بولس سلامة عظيم، بل هو أعظم موهبة من المتنبي الذي خاطب سيف الدولة: " وانعلت أفراسي بنعماك عسجدا " ومن البحتري الذي يقول : " هو الخليفة إن أسر فعطاؤه خلفي " ومن أبي تمام القائل :

" فما فاتني ما عنده من حبائه ... وما فاته من فاخر الشعر ما عندي

ومن شوقي الذي ردَّد مفاخراً : " شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب " .

نعم إن سلامة أعظم من هؤلاء جميعاً، وما قولك بمريض لا يعرف أميراً ولا وزيراً ولا ثرياً. بل لا يعرف سوى مرضه " المزمن الملازم منذ اثنتي عشرة سنة وقد تخللته تسع عشرة عملية جراحية فسمره على فرش الألم منذ تسع سنين ولما يزل " ما قولك بشاعر هذه حاله ثم يخرج على الناس بما اصطفاه الله إلى تأدية رسالة الفن والعلم والجهر بالحق بملحمته البكر التي لم يعرف العالم العربي لها مثيلاً من قبل.

ولو كان هذا الضرب من الشعر من الشعر في عهد الرسول (ص) لما أنزل الله: " وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين " (يس:٦٩) لأن الشعر المعني بالآية تلفيق الخيال وأباطيله، أما ملحمة الغدير فهي حقائق تليق بالنبوة والقداسة، وأنوار تضيء سبل الهداية والرشاد، وآيات بينة تنطق بالعظمة والسمو.

محمد جواد مغنية .. قاضي بيروت الشرعي

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٣، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٨هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٤٩م، ص (٣١٤ -٣١٥).

(٢٨) من الفقه الجعفري والفقه الحنفي

في الأحوال الشخصية ۞

يحرم من الرضاع ما يُحرم من النسب عند الإمامية بشرط أن يكون اللبن عن حمل ونكاح صحيح، ومص الثدي حال حياة المرضعة، وأن لا يتجاوز الرضيع الحولين، وأن يتحد الفحل، وعند الحنفية تتحقق الحرمة بقطرة واحدة تصل إلى جوف الطفل ولو من أنفه حال موت المرضعة، وإن كان اللبن بدون نكاح أبدا أو عن زنا، على أن لا يتجاوز الرضيع السنتين، لا يجوز لأبي الرضيع زواج أخوات ولده من الرضاع عند الإمامية، وجَّز ذلك الحنفية، حضانة الأم سنتان في الصغير وسبع في الصغيرة عند الإمامية، ولا أجرة لها على الحضانة الواجبة، وعند الحنفية سبع في الصغير وتسع في الصغيرة، ولها الأجرة في بعض الصور.

(٢١) **الرضاع:** اتفقت جميع المذاهب الإسلامية على أن الرضاع كالنسب سبب من أسباب تحريم الزواج، أخذا بقوله تعالى: " وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم " (النساء:٢٣) وقول الرسول صلى الله عليه وآله: " يُحرم من الرضاع ما يُحرم من النسب " والخلاف بين المذاهب يعود إلى اعتبار بعض الشروط التي لها أثر في التحريم.

الإمامية- قالوا: لا تتحقق الحرمة بالرضاع إلا بشروط (١) الأول: أن يكون اللبن عن حمل ونكاح صحيح، فلو درَّت المرأة من غير نكاح، أو بسبب الحمل من الزنا فلا تحريم، لأن اللبن من غير نكاح لا يُعتد به، والزنا لا حرمة له، ولا يُشترط بقاء النكاح واستمراره إلى زمن الرضاع، فلو طلقت المرأة أو مات زوجها وهي حامل يكون إرضاعها بهذا اللبن كإرضاعها وهي في حباله، ويصبح الولد منسوبا بالرضاع إلى المطلق أو الميت، كما ينسب إليه قبل الموت أو الطلاق من غير تفاوت، " الشرط الثاني ": أن يرضع الصبي من ثدي المرأة

۞ نُشر فصل النفقات في النشرة القضائية التي تصدرها الوزارة العدلية في لبنان عدد كانون الثاني سنة ١٩٤٩، وإلى هنا ننتهي من أهم مسائل الزواج التي حصل بها الخلاف، وفي العدد القادم الطلاق إن شاء الله. " مغنية "

(١) الجواهر والحدائق والمسالك. " مغنية "

حال حياتها، لأن مص الثدي بعد الموت كالشرب من الإناء الجامد، وأن تكون الرضعات متوالية على نحو يرى الخبيرون من الأطباء أن الطفل نبت لحمه، واشتد عظمه من لبن المرضعة، ولا يتحقق ذلك بأقل من إرضاعه يوماً وليلة، أو خمسة عشرة رضعة من غير أن يفصل بين الرضعات بطعام أو برضاع امرأة أخرى، فالإرضاع من الثدي شرط أساسي والوجر (١) في الحلق أو وصول اللبن إلى الجوف من الأنف لا أثر له عند الإمامية، وعللوا ذلك: بأن الكتاب والسنة منزلان على أفهام العرف، والمفهوم من الرضاع عرفاً هو الالتقام من الثدي، إذ لا يُقال لمن شرب اللبن من غير الثدي إنه ارتضع، وإلا ساغ أن نقول لشارب لبن البهيمة إنه رضعها. "الشرط الثالث": أن لا يتجاوز الطفل المرتضع الحولين، فلا أثر لرضاعه بعد بلوغ السنتين، وهذه الشروط الثلاثة عامة لجميع الأصناف، فالأبوة والبنوة والأمومة والأخوة من الرضاع تنتفي بانتفاء أحدها. أما "الشرط الرابع" وعبّروا عنه باتحاد الفعل فإنه معتبر في صورة واحدة – بالإضافة إلى الشروط السابقة – معتبر في الأخوة فحسب، مثاله: أرضعت امرأة متزوجة صبياً العدد الكلي، ثم طلقت وتزوجت رجلا ثانياً، فولدت منه، وأرضعت جارية، فلا أخوة بين الصبي والجارية، لتغاير الفحل، مع فرض أن المرأة أم الغلام وزوجها الأول أبوه رضاعا، والجارية بنت المرأة وبنت الزوج الثاني من الرضاع، أمّا لو اتحد الفحل وتعددت المرأة فتتحقق الأخوة كما لو كان للرجل زوجتان فأرضعت إحداهما غلاماً والأخرى جارية فهما أخوان بلا ريب، إذن الأخوة من الأم وحدها غير كافية، وتكفي من جهة الأب فحسب، استناداً إلى روايات أهل البيت (ع): " لا يحرم من الرضاع أقل من رضاع يوم وليلة أو خمس عشرة رضعة متواليات من امرأة واحدة من لبن فحل واحد لم يفصل بينهما رضعة امرأة غيرها " . ومن الإمامية من لا يأخذ بهذا الشرط مكتفيا باتحاد المرضعة الحنفية: (٢) لا يشترطون شيئاً مما تقدم سوى الحولين عند أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وعند أبي حنيفة حولان ونصف، فلو وصل من لبن المرأة إلى جوف الطفل قطرة واحدة من أنفه ولو بعد موتها، أو درَّت له من غير زواج وحمل، أو كان الحمل من الزنا كان الطفل ولدا رضاعياً للمرأة على أن يكون اللبن مائعاً غير مختلط بطعام، مع أن

---

(١)الوجر : الصب . "مغنية"

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الجزء الرابع صفحة ٢٥٤ وما بعدها. "مغنية"

الحنفية جعلوا علّة التحريم بالرضاع أنه " سبب (١) نمو الطفل ونبات لحمه وقوة عظمه "، وعلى هذا يجب أن لا يكون أي خلاف في الرضاع بين الحنفية والإمامية الذين جعلوا من الشروط الأساسية نبات اللحم واشتداد العظم، وتتحقق عند الجميع تحريم الأصناف السبعة المحرمة نسباً، الأم وإن علت، والبنت وإن نزلت، والأخت وبناتها، وبنات الأخ، والعمَّة والخالة وإن علتا.

(٢٢) اتفق الحنفية والإمامية على أنه يحرم على المرتضع جميع أولاد صاحب اللبن، أي زوج المرضعة، سواء كانوا من المرضعة أم من غيرها، وسواء كانوا أولادا نسباً أم رضاعا، وأيضا يُحرم عليه بالاتفاق أولاد المرضعة نسباً، سواء كانوا من صاحب اللبن أم من رجل آخر، لأنهم جميعا أخوة الرضيع، أما لو طلّقت المرضعة من الزوج الأول ثم تزوجت وأرضعت طفلاً بلبن الثاني فلا حرمة بين المرتضعين عند الإمامية لاختلاف الفحل، وعند الحنفية تتحقق الحرمة لعدم اعتبار الشرط كما تقدم .

(٢٣) الإمامية قالوا : لا يجوز لأب المرتضع أن يتزوج بنات أصحاب اللبن سواء كنّ بناته نسباً أم رضاعاً للأخبار عن أهل البيت (ع) بأنهن أخوات ولده، وأخو الولد بمنزلة الولد، وأيضاً لا يجوز له أن يتزوج بنات المرأة المرضعة من النسب، ويجوز أن يتزوج بناتها من الرضاع، لأنهن لسن بأخوات ولده، فلا يحرمن على الولد، ولا على أبيه بطريق أولى.

وقال الحنفية: (٢) يجوز أن يتزوج أبو المرتضع أخوات ولده من الرضاع، ويتفرع على القولين ما لو أرضعت ولدك الصغير أم زوجتك أي جدته لأمه حرمت عليك زوجتك عند الإمامية، لأن زوجتك أصبحت بذلك أخت ولدك، ولا أثر له عند الحنفية، أما إذا أرضعت ولدك أمك أي جدته لأبيه فلا يبطل النكاح عند الطرفين.

(٢٤) **الحضانة:** وهي ولاية على الطفل لفائدة تربيته، والمحافظة على سلامته وصحته. اتفق المسلمون كافة على أنها تبتدئ أولا بالأم لافتقاره إليها، وتوقف حياته غالباً عليها، واختلفوا في المدة التي يجب فيها إبقاء الطفل في حضانة أمه، وعدم جواز انتزاعه منها.

---

(١)الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد ص ٥٠١ . " مغنية "

(٢)الفقه على المذاهب الأربعة الجزء الرابع صفحة ٢٦٤. " مغنية "

الحنفية – (١) لم يُنقل عن أبي حنيفة التقدير والتحديد، والمعروف عنه أن مدة الحضانة تنتهي باستغناء الطفل عن النساء، وقدرها من تأخر عنه بسبعة أعوام في الغلام وتسعة في الجارية، على أن تكون الأم حرّة عاقلة قادرة على التربية غير فاجرة ولا مرتدة ولا متزوجة بأجنبي عن الصغير. فإن فقدت ولم تجتمع فيها هذه الأوصاف بكاملها انتقلت الحضانة إلى أم الأم، ومنها إلى أم الأب، ثم إلى شقيقة الطفل ثم الأخت لأم، ثم الأخت لأب، وهكذا بحيث لا تصل النوبة إلى الأب إلا بعد فقدان قريبات الصغير جدات وأخوات وعمّات وخالات، ومآل ذلك إلى نفي الحضانة عن الأب لاستحالة الفرض، وأثبتوا أجرة الحضانة لحاضن الطفل: " فيجب (٢) على الأب أو من تجب عليه النفقة ثلاثة: أجرة الرضاع، وأجرة الحضانة، ونفقة الولد " ولم يستثنوا من ذلك إلا أم الطفل الواجبة النفقة على الأب، فإن طُلّقت منه وانقضت عدّتها كان لها الحق في الثلاثة.

قال الإمامية: لا أجرة للأم في مدة حضانتها الواجبة عليها، حيث لا أجرة على واجب لمكان التنافي بين الإلزام بالشيء وأخذ العوض عليه، كما قالوا: إن الأم أولى بحضانة الغلام سنتين وحضانة الجارية سبع سنوات، بشرط أن تكون عاقلة قادرة سليمة من الأمراض السارية غير فاجرة ولا مرتدة، ولا كافرة مع إسلام الأب، وتنتقل الحضانة من الأم إلى الأب من غير واسطة فيختار الأب لحضانة ولده من شاء من النساء أجنبية كانت أم ذات رحم للطفل، وإن طلقت أم الطفل لم يبق حقها في الحضانة، ومتى تزوجت كان للأب انتزاعه منها سواء كان الزوج بعيداً أو قريباً، وإن فقد الأب فالأم أولى الناس بحضانة ولدها وإن تزوجت بأجنبي، وإن فقد الأب والأم معا فأمر الحضانة لأبي الأب، ومع فقدانه للأقارب على ترتيب الإرث، ولا أجرة للأم على حضانة ولدها حيث تُلزم بحضانته سنتين في الصغير وسبع في الصغيرة سواء وجبت نفقتها على أبي الطفل أم لم تجب، وإن انتهت

---

(١) الأحوال الشخصية محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٥٢١. " مغنية "

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ج٤ ص٦٠٢ . " مغنية "
بيروت .

حضانتها بسبب من الأسباب كان مثلِ الأم كمثل الأجنبية، فإن اختارها أبو الطفل لحضانة ولده تراضيا مجانا أو بعوض يتفقان عليه.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٤، الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٦٨هـ الموافقيسان (ابريل) ١٩٤٩م، ص (٣٧٢ -٣٧٥).

(٢٩) من الفقه الجعفري والفقه الحنفي

⊕ في الأحوال الشخصية – الطلاق

في الطلاق كراهية شديدة، حيث تواتر عن الرسول (ص) من طريق السنة والشيعة: " وأبغض الحلال إلى الله الطلاق " وإنما أحله الإسلام للضرورة التي ألجأت الأمم المتحضرة إلى تشريعه بعد أن حرَّمته قروناً طوالاً، لأن الزوجين بمنزلة جثمان واحد، وكل واحد منهما كاليد تتعاونان على إصلاح الجسم وتنميته، ومداواة اليد الفاسدة خير من بترها، إلا أن يُخشى على فساد الجسم بكامله، فالبتر أصلح دفعاً لما هو أعظم فساداً وأكثر ضرراً. وللطلاق أركان ثلاثة: الزوج المطلق، الزوجة المطلّقة، والصيغة التي يقع بها الطلاق.

(٢٥) المطلّق: الحنفية قالوا: يجب أن تتوفر في المطلق ثلاثة شروط: أن يكون زوجاً، وأن يكون عاقلاً، وأن يكون بالغاً، ولا يشترط عندهم أن يكون المطلق قاصداً الطلاق ولا مختاراً، ولا أن يكون واعياً منتبهاً، فمن سكر باختياره، وبلغ حداً لا يفرق فيه بين الأرض والسماء، ولا بين الرجل والمرأة يقع الطلاق صحيحاً: " وطلاق الهازل الذي يتلاعب بالألفاظ ولا يقصد معانيها، ولا يريد أن تترتب عليها أحكامها يقع، وطلاق المخطئ الذي يريد أن يتكلم بكلام فيسبق لسانه إلى الطلاق، كما لو أراد أن يقول: يا هانم فغلط وقال: يا طالق، يقع الطلاق، وطلاق الغافل والساهي يقع " ومن أكره بالضرب أو السجن أو أخذ المال يقع طلاقه (١).

الشيعة الإمامية قالوا: لابدَّ في المطلق من خمسة شروط: أن يكون زوجاً، بالغاً، عاقلاً، مختاراً، قاصداً، فلا يقع طلاق السكران، ولا من زال عقله بإغماء أو تناول المنوم، ولا أثر لطلاق المكره، ولو بالإنذار والتهديد مع غلبة الظن بأن المتوعد قادر على فعل ما توعَّد به، ولا لطلاق الهازل والمخطئ، أخذاً بقول الصادق (ع): لا يجوز الطلاق في استكراه، ولا طلاق إلا لمن أراد

---

(١) الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد أستاذ الشريعة ص ٣٢٨ و ٣٣٢ والجزء الرابع من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٢٨٤. "مغنية"

الطلاق، ولأن الإيقاعات والعقود بكاملها عندهم تابعة للقصود (١).

واتفق الشافعية والمالكية والحنابلة مع الشيعة على خلاف الحنفية في طلاق المكره خاصة، حيث حكموا بقول واحد، أن طلاقه فاسد. وقال جمع كبير من الشافعية والمالكية أن طلاق السكران لا يقع، وعلى ذلك القانون المصري الشرعي (٢).

(٢٦) **المطلقة:** لا يشترط الحنفية في المطلقة شيئاً يزيد على وصف الزوجية، فكل زوجة يصح طلاقها على أية حالة تكون، وفي أي وقت كان، فإذا طلق الرجل زوجته في طهر باشرها فيه، أو في أثناء الحيض يقع الطلاق صحيحا، إلا أن المطلق آثم ارتكب محرماً، لأن طلاق الزوجة حالة الحيض أو في طهر قربها فيه بدعة لم يوافق عليه الشرع المقدس عندهم (٣).

وفصل الشيعة الإمامية أتباع جعفر الصادق (ع) بين المطلقات، فمنهن يطلقن على كل حال: ١- الصغيرة وهي التي لم تبلغ سن التاسعة من عمرها. ٢- التي لم يدخل بها الزوج ثيبا كانت أم باكرا، فهذه يقع طلاقها مع العلم بأنها في الحيض، ولا إثم على المطلق. ٣- الحامل ٤- اليائسة، هي البالغة سن الخمسين إن كانت غير قرشية، والستين إن تكنها. ٥- التي غاب عنها زوجها مدة يعلم انتقالها من الطهر الذي باشرها فيه إلى آخر، وقدّر السيد أبو الحسن في كتاب الوسيلة الكبرى مدّة الغياب بشهر كامل، فلو طلّقها بعد مضي الشهر صح الطلاق، وإن اتفق وقوعه في الحيض، ولو سافر وهي في طهر أمسك عنها فيه، طلّقها في أي وقت شاء ولا يجب الانتظار.

وإذا لم تبلغ الزوجة حد اليأس، وأتمت السنة التاسعة أو أكثر، وقد دخل بها الزوج فالشرط في صحة الطلاق أن تكون الزوجة في طهر لم يقربها فيه أي يقع الطلاق صحيحاً بعد انقطاع دم الحيض، وقبل المقاربة، فإن وقع

---

(١) الجواهر والحدائق وغيرهما من كتب الفقه الإمامي. "مغنية"

(٢) الأحوال لمحمد محيي الدين ص ٣٣٢. "مغنية"

(٣) الأحوال لمحمد محيي الدين ص ٣٦٧ وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٢٩٧. "مغنية"

حين الحيض أو بعده وبعد المقاربة معاً، كان الطلاق لغواً لا أثر له أبداً.

أما الزوجة التي في سن من تحيض، ولكنها لا ترى الدم خلقة أو لعارض، من مرض أو نفاس – وتُسمى المسترابة اصطلاحاً فقهياً – فلا يصح طلاقها إلا بعد أن يمسك عنها الزوج ثلاثة أشهر، فلو طلّقها قبل مضي الثلاثة على المقاربة ولو بيوم واحد فسد الطلاق.

(٢٧) **صيغة الطلاق:** الحنفية قالوا: يقع الطلاق بالكتابة، فمن كتب إلى زوجته أنت طالق طُلّقت منه بمجرد الكتابة، ويقع أيضاً باللفظ المنجز والمعلق، أي بالصيغة المقيدة وبالمجردة عن كل قيد، كما يصح بلفظ الطلاق وبغيره من الألفاظ والكنايات الدالة على الفرقة (١) فيقع الطلاق من الزوج إذا قال لزوجته: أنت طالق، وأنت مطلقة، وأنت عليّ حرام، واذهبي فقد طلقتك، وحبلك على غاربك، وأنت طالق غداً، وطالق في شهر كذا، وأنت طالق إن خرجت من الدار، فإن خرجت يقع الطلاق، وإن لم يقصد طلاقها أبداً، وإنما قصد ردعها وتخويفها. وإذا قال لآخر: إن لم تأكل معي فامرأتي طالق، قاصداً حمله على الأكل، ولم يأكل معه يقع الطلاق. وإذا قال: إن بقيت في هذا البلد فامرأتي طالق، وإن لم أقتل فلانا فامرأتي طالق، وإن كلمت فلاناً فامرأتي طالق، ففي ذلك كله يقع الطلاق بمجرد تحقق الشرط عند أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل وإن لم يقصد الزوج الطلاق بوجه من الوجوه، بل أراد الحث وتقوية العزم، والتصديق عند الإخبار، وما إلى ذلك، كما أن الأئمة الأربعة اتفقوا جميعاً على أن من قال لزوجته أنت طالق ثلاثاً تقع الثلاث، وتبين الزوجة بينونة كبرى (٢) وبالغ بعض المالكية حيث قال: يقع الطلاق بالكلام النفسي، فمن حدّث نفسه بطلاق زوجته يقع الطلاق، وإن لم يتلفظ أو يكتب، نقله صاحب كتاب الفقه على المذاهب الأربعة جزء ٤ ص ٢٨٨.

وذهب الحنفية والمالكية إلى أن من قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق قبل أن يتزوجها يقع الطلاق بمجرد العقد عليها، وإذا قال: كلما تزوجت امرأة

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ج٤ ص٢٨٨. "مغنية"

(٢) الأحوال لمحمد محيي الدين ص٣٤٣ إلى صفحة ٣٥١. "مغنية"

فهي طالق، فكل من يعقد عليها يتحقق طلاقها بعد تمام العقد، وتستحق عليه نصف المهر (١) وكان العمل في محاكم مصر الشرعية قبل سنة ١٩٢٩ بما يوافق المذاهب الأربعة في التطليقات الثلاث بلفظ واحد، وبوقوع الطلاق المعلق غير المقصود به الطلاق، ثم عُدل عنه، وأخذ بما يتفق مع مذهب الإمام جعفر الصادق (ع) من أن الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد لا يقع إلا واحد، وأن الطلاق المعلق على شرط غير المقصود به الطلاق يقع لغواً ليس بشيء.

ومحصل أقوال الشيعة الإمامية أتباع جعفر الصادق (ع) أنه لا يصح الطلاق إلا بلفظ طالق خاصة على وزن فاعل، فاسم المفعول كأنت مطلقة، والفعل كطلقتك، أو أنت خلية، وما إلى ذلك كله لغو لا يقع به طلاق، أما التعليق فهو بجميع أنواعه وأقسامه فاسد، وإن قصد منه الطلاق الواقعي، لأن الشرط في الصيغة عندهم أن تكون مجردة عن كل قيد، وإذا قال الرجل لزوجته: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق قاصداً ثلاث تطليقات تقع واحدة فحسب، ومثله إذا قال: أنت طالق ثلاثاً، على قول مشهور، والقول الثاني وبه قال السيد أبو الحسن في الوسيلة لا يقع الطلاق أبداً.

والمدرك من ذلك كله أخبار أهل بيت الرسول (ص)، ولأن في الزواج قوة ومتانة لا يزيلها الظن والاحتمال، لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً، فبعد أن تحقق الزواج بالوجدان يجب استمرار العمل بموجبه إلى أن يحصل العلم بثبوت المزيل (٢).

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة جزء ٤ ص ٢٨٠. "مغنية"

(٢) الجواهر والمسالك والحدائق وجميع كتب الفقه للإمامية. "مغنية"

❀ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٥، الصادر في رجب سنة ١٣٦٨هـ الموافق أيار (مايو) ١٩٤٩م، ص (٥٠٥ -٥٠٨).

(٣٠) من الفقه الجعفري والفقه الحنفي

❻ في الأحوال الشخصية – الطلاق

لا تجب الشهادة على الطلاق عند الحنفية، وتجب عند الإمامية. اتفق الفريقان على أن الطلاق ينقسم إلى رجعي وبائن، وعلى أنه ليس للزوج إسقاط حق الرجوع إلى الزوجة ضمن العدَّة في المطلقة الرجعية، وعلى أن المطلقة ثلاثاً لا تحل للمطلق حتى تنكح زوجاً غيره، ليس للمطلقة بائناً نفقة العدة عند الإمامية مع عدم الحمل، ولها النفقة عند الحنفية حاملاً كانت أم حائلاً .

(٢٨) الشيعة الإمامية قالوا: مضافاً إلى ما تقدم من الشروط في المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق يشترط في صحة الطلاق أن يكون في محضر شاهدي عدل يسمعانه معاً في مجلس واحد، فلو أوقع الزوج الطلاق أمام عدل واحد، ثم أنشأه ثانية أمام عدل آخر لم يقع وإن كان جامعاً لسائر ما يُعتبر فيه (١). ولا تُقبل شهادة النساء على الطلاق منفردات ولا منضمات إلى الرجال. ويعتمد الشيعة في أخذ الشهادة شرطاً في الطلاق على ما جاء في الكتاب العزيز سورة الطلاق: " وأشهدوا ذوي عدل منكم " (الطلاق:٢) فإما يُحمل وجوب الإشهاد في الآية على الرجعة في الطلاق أو على الطلاق نفسه، ولا قائل بالأول من السنة ولا من الشيعة، فتعين وجوب الإشهاد على الطلاق خاصة، والواقع أن مدرك الوجوب عند الشيعة أخبار أهل بيت الرسالة (ع)، ولولاها لأمكن حمل الآية على غير الوجوب .

الحنفية قالوا: لا تجب الشهادة على الطلاق، وتجب على الزواج، بعكس ما ذهب إليه الإمامية الذين يتساهلون في أمر الزواج، ويضيّقون دائرة الطلاق ما أمكن بكثرة الشروط والقيود، لأنه مكروه بطبيعته .

---

(١) مال الشهيد الثاني في المسالك إلى التساهل في شاهد الطلاق وأنه لا يعتبر فيه ما يُعتبر في غيره استناداً إلى حسنة البزنطي عن الإمام:" من ولد على الفطرة أُجيزت شهادته على الطلاق بعد أن تعرف منه خيراً "، مفسراً الخير بالشهادتين والصوم والصلاة،وممن وافق الشهيد على ذلك سبطه السيد محمد صاحب المدارك،ومن ألطف ما قرأت هنا رد صاحب الجواهر على صاحب المدارك بقوله:" ولعلَّ موافقة سبط لشهيد له لقرب مزاجه من مزاجه باعتبار تولده منه.

" مغنية "

تنبيه: ربما يتوهم أن الإمامية يذهبون إلى فساد الطلاقات كلها أو جلها التي تقع من إخوانهم السنة، نظرا لعدم توفر الشروط المعتبرة، ولكن علماء الإمامية صرّحوا في جميع كتبهم الفقهية أن الزوج إذا لم يكن شيعياً ألزم بمعتقده سواء كانت الزوجة سنية أم شيعية، فالمدار في صحة الطلاق على موافقته لمذهب المطلق، فلو وقع طلاق الحنفي معلقاً على شرط، أو بغير شاهدين، أو في طهر المواقعة، أو حالة فقدان الشعور، أو الغلط، أو السهو، أو العبث وعدم القصد رتّب الشيعة على هذا الطلاق جميع آثاره، فيتزوجون بالمطلقة على هذا الوجه بعد انتهاء عدتها، كما لو الطلاق جامعاً للشروط المصححة، فاقداً للموانع المفسدة (١) .

الطلاق : رجعي وبائن

(٢٩)تتفق المذاهب الإسلامية على تقسيم الطلاق إلى نوعين: رجعي وبائن، والرجعي أن تكون المطلقة ذات عدّة، وأن يملك المطلق الرجوع إليها أثناء العدة وإن لم ترض المطلقة، فإن لم يكن للمطلقة عدة أصلا، كغير المدخول بها، أو كانت لها عدة، ولكن ليس للمطلق الرجوع إلا باختيار المطلقة وإرادتها، كالتي افتدت من الزوج وطلقها على مال، أو كالمطلقة ثلاث مرّات سمي الطلاق بائناً .

وكما اتفق علماء المذاهب على معنى الطلاق الرجعي، اتفقوا أيضاً على أحكامه، وهي أن للزوج حق الرجوع ما دامت المطلقة في العدة، وأن الرجعة ليس لها كيفية خاصة، فتقع بالقول والفعل، فمتى استمتع المطلق بمطلقته الرجعية عادت إليه قهرا، سواء قصد الرجوع من الاستمتاع أم لم يقصد على أن تكون المطلقة مقصودة بالذات، فلو واقعها شبهة معتقداً أنها غيرها فظهرت المطلقة الرجعية نفسها فلا أثر لذلك ولا يُعد رجوعاً (٢) . وللمطلقة الرجعية المهر كاملاً، ونفقة العدة حاملاً كانت أم حائلاً، ما دامت مطيعة لأوامر المطلق، وإذا نشزت بالخروج من غير إذنه أو قطّبت في وجهه سقطت النفقة، ولو مات أحد الزوجين ضمن العدّة توارثا، ويحرم

---

(١) الجواهر: طلاق من يعتقد الخلاف. "مغنية"

(٢) وسيلة النجاة : السيد أبو الحسن . "مغنية"

على المطلق نكاح أخت المطلقة حتى تنقضي العدة، فهي زوجة حقيقية لها ما لها، وعليها ما عليها، ولم يحدث الطلاق الرجعي شيئاً سوى عدة من الطلاقات الثلاث، ولذلك اتفق الإمامية والحنفية على أنه ليس للمطلق حق إسقاط الرجوع، فلو صرَّح مختاراً بأنه أسقط حقه هذا كان ذلك منه لغوا على الرغم من الالتزامات التي ألزم بها نفسه، ولا شيء أصرح وأقوى في الدلالة على أن المطلقة الرجعية زوجة شرعية من قول الله سبحانه في سورة الطلاق: "ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً " (الطلاق:١) (١) أوجبت الآية أن تعتد المطلقة في بيت زوجها، كما حرمت عليه إخراجها حتى تنتهي العدة، تعتد الرجعية في بيت زوجها ليراها الزوج صباحاً ومساء، قائمة ونائمة، سافرة ومزينة، لعلَّ الله يحدث الرغبة في المعاودة ليستأنف الزوجان حياة الألفة والتعاون (٢) وقد أهمل المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ففاتتهم فوائدها وبركاتها .

النزاع في الرجعة

(٣٠) إذا وقع النزاع في الرجوع، فقال الزوج رجعت بالطلاق، وقالت لم يرجع، فإن وقع ذلك قبل انتهاء العدة كان ادعاءه هذا رجوعاً منه، وإذا تنازعا بعد أن خرجت من العدة فقال هو رجعت في أثنائها وقالت هي لم يرجع أبداً، كلف الزوج بالإثبات، فإن أثبت وإلا حلفت على عدم الرجوع إن ادعى مراجعتها بالفعل والاستمتاع، وعلى نفي العلم إن ادعى الرجوع بالقول (٣). وقال محمد محيي الدين في الأحوال الشخصية إذا عجز الزوج عن إثبات الرجوع بالبينة ترد دعواه من غير حاجة إلى يمين الزوجة (٤).

---

(١) نص الآية ليس كما أورده الشيخ – رحمه الله – فقد وقع في أخطاء كثيرة، وإنما نص الآية كما في سورة الطلاق كالتالي: " لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدري لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً " !! .

(٢) ملحقات العروة الوثقى: باب العدد ص١٠٩ . "مغنية"

(٣) الجواهر: باب الطلاق فصل الرجعة . "مغنية"

(٤) ص ٢٧٤ . "مغنية"

وإذا وافقته على الرجوع، ولكن ادعت فساد الرجعة لوقوعها بعد العدة، وقال هو رجعت في العدة لا بعدها، فقال صاحب الجواهر: عليها البينة وعليه اليمين إن عجزت عن إقامتها.

الطلاق البائن

(٣١) الحنفية: قسّموا الطلاق البائن إلى قسمين: بائن بينونة صغرى، وبائن بينونة كبرى، وأدخلوا تحت الأولى المطلقة قبل الدخول، والمطلقة على مال افتدت به من المطلق، والتي وصف طلاقها بوصف يدل على الشدة والتوكيد كقول الزوج: أنت طالق كالجبل، أو كالبحر، أو أسوأ الطلاق وأقبحه، وما إلى ذلك، أي أن هذا الوصف يجعل الطلاق بائناً ولولاه لكان رجعيا، ومن البينونة الصغرى الطلاق بألفاظ الكناية، كأنت بريئة وحبلك على غاربك. فهذه الأقسام كلها يسمونها بطلاق البائن بينونة صغرى، وحكمها عندهم أن الزوج لا يحق له الرجوع في العدة وإن رضيت الزوجة، بل لابد من عقد جديد ومهر جديد، من غير فرق بين بقاء العدة و انتهائها (١).

أما البينونة الكبرى فهي أن يكون الطلاق مكملاً للثلاث، وإجماع المذاهب قائم منذ العصر الأول على أن المطلقة ثلاثاً لا تحل للمطلق حتى تنكح زوجا غيره.

الإمامية: قالوا: لا يتصف الطلاق بالبينونة الصغرى والكبرى، بل هو بائن فحسب، ولا أثر لوصف الطلاق بالجبال والبحار والبيوت، وبالقبح والشدة، فإن هذه الأوصاف لا تغير شيئا من حقيقة الطلاق، فتجعله بائنا بعد أن كان رجعيا، بل يبقى على ما هو كأن لم يكن وُصف أبدا، أما الطلاق بالكناية فإنه لغو لا يقع بائناً ولا رجعيا، وأدرجوا في البائن المطلقة قبل الدخول، والصغيرة التي لم تبلغ تسع سنوات، وإن دخل بها الزوج، واليائسة، ولا عدة على هذه الثلاث، لذلك انتفت النفقة وحق الرجوع إلا بعقد جديد ومهر جديد، ويدخل في البائن المطلقة على مال افتدت به كراهة للزوج ومعشره، ولا يملك المطلق الرجوع إلى هذه في العدة إلا بإرادة المطلقة،

---

(١) الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين عبد الحميد وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة جزء ٤. "مغنية"

فترجع هي بما بذلته من الفداء، فيرجع هو بدوره بالطلاق ولا داعي إلى العقد ولا إلى المهر الجديدين، ولهما أن يجريا عقدا جديدا ومهرا مساويا للمبذول أو أقل أو أكثر، ومن الطلاق البائن المطلقة ثلاثا، ولا نفقة للمطلقة بائنا عند الإمامية إن كانت من ذوات العدة إلا مع الحمل (١)، أما الحنفية فأوجبوا النفقة للمطلقة أيام عدتها بائنا كانت أم رجعية، حاملا أم حائلا، على شريطة أن تبقى المطلقة البائنة على الطاعة من المكوث في بيت المطلق وإلا سقطت نفقتها للنشوز (٢).

بيروت

---

(١) ملحقات العروة الوثقى: باب العدد. "مغنية"

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: الجزء الرابع. "مغنية"

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٦٨هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٤٩م، ص (٧٠٢-٧٠٥).

(٣١) الإرث

رأينا من تمام الفائدة أن نجمع مسائل الإرث بكاملها عند الشيعة الإمامية فحسب بهذا النحو من الاختصار والوضوح ليسهل تناولها على الأعم الأغلب من الذين يهمهم الأمر، وقد أفردنا فصلا خاصا للمقارنة بين رأي السنة والشيعة في أمهات موارد الإرث ربما نشرناه في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

● **المادة ١- مراتب الإرث ثلاث:**

المرتبة الأولى: الأبوان والأولاد وإن نزلوا.

المرتبة الثانية: الأخوة والأخوات وإن نزلوا، والأجداد والجدات وإن علوا.

المرتبة الثالثة: الأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم.

ومتى وُجد واحد من المرتبة المتقدمة حجب عن الإرث كل من كان في المرتبة المتأخرة.

● **المادة ٢ -الأب:**

أ- يأخذ الأب المال بكامله إذا لم يكن معه أحد من المرتبة الأولى.

ب- إذا كان مع الأب أم يأخذ الباقي بعد نصيبها.

ت- يأخذ الأب الربع إذا كان معه بنت واحدة.

ث- يأخذ الخمس إذا كان معه بنتان فصاعداً.

ج- يأخذ السدس مع الابن فصاعداً.

● **المادة ٣ - الأم:**

أ- تأخذ المال كله إذا لم يكن معها أحد من المرتبة الأولى.

ب- تأخذ الثلث إذا كان معها أب ولم تحجب عما زاد عن السدس بأخوين للميت أو أربع أخوات أو أخ وأختين لأبوين أو الأب، وهؤلاء لا يرثون مع الأب ولكن يحجبونها عما زاد عن السدس.

ت- تأخذ السدس إذا كان معها أب أو أخوة يحجبونها عما زاد عن الثلث على ما تقدم في الفقرة السابقة، وإذا كان معها ابن فصاعداً.

ث- تأخذ الربع إذا كان معها بنت واحدة.

ج- تأخذ الخمس إذا كان معها بنتان فصاعداً.

● المادة ٤- الأولاد:

إذا انفرد الولد فالمال له بكامله، ذكراً كان أم أنثى، وإذا تعدد الذكور من الأولاد ولا أنثى معهم اقتسموا المال بالسوية، وكذا إذا تعددت الإناث ولا ذكر معهن. وإذا تعددوا ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظ الأنثيين. وللبنت الواحدة مع الأبوين ثلاثة أخماس ولها مع أحد الأبوين ثلاثة أرباع، وللبنت فصاعداً مع الأبوين الثلثان، ولهن مع أحد الأبوين أربعة أخماس.

● المادة ٥- أولاد الأولاد:

أولاد الأولاد لا يرثون مع وجود واحد من الأولاد، ويقومون مقام آبائهم عند عدمهم، ويأخذ كلٌّ نصيب من يتقرب به، فإذا ترك الموروث ابن بنت وبنت ابن أخذ الذكر نصيب الأنثى وأخذت الأنثى نصيب الذكر، والأعلى من أولاد الأولاد يحجب الأسفل عن الإرث، فابن ابن الابن يسقط ببنت البنت.

● المادة ٦- انفراد الأخوة من الأجداد:

أ- إذا وجد الأخوة وليس معهم واحد من الأجداد والجدات، فللأخ الواحد وللأخت الواحدة المال كله سواء كان لأب أو لأم أو لهما.

ب- إذا تعهدت الأخوة واتحدوا في النسبة إلى الموروث، فإن كانوا جميعاً لأبوين أو لأب اقتسموا المال بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

ت- إذا كانوا جميعاً لأم اقتسموا بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى.

ث- إذا اختلفت نسبة الأخوة إلى الموروث فكان بعضهم لأبوين وبعض لأب فقط أو لأم فقط فالمتقرب بالأب خاصة يسقط بالمتقرب بالأبوين، وإنما يرث المتقرب بالأب فحسب إذا فقد المتقرب بالأبوين ويأخذ الأخ والأخت لأب ما يأخذه الأخ والأخت لأبوين.

ج- إذا اجتمع الأخوة لأبوين مع الأخوة لأم فقط يأخذ الواحد من الأخوة لأم السدس، وإن تعدد الأخوة لأم أخذوا جميعاً الثلث واقتسموا بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى، والباقي بعد نصيب الأخوة لأم يأخذه الأشقاء ويقتسمون للذكر مثل حظ الأنثيين.

● **المادة ٧- أولاد الأخوة:**

أولاد الأخوة والأخوات لا يرثون مع وجود واحد من الأخوة أو الأخوات، ومتى فقدوا جميعاً قام أولادهم مقامهم ويأخذ كل نصيب من يتقرب به، ويشاركون الأجداد كآبائهم، فابن الأخ يرث مع الجد كما يرث أبو الجد مع الأخ. إذا فقد الجد الأعلى من أولاد الأخوة يحجب الأسفل، فابن ابن الأخ يسقط بابن الأخ وببنت الأخت.

● **المادة ٨- انفراد الأجداد عن الأخوة:**

أ- إذا وجد الأجداد وليس معهم واحد من الأخوة والأخوات فللجد المنفرد وللجدة المنفردة المال بكامله لأب كان أو لأم.

ب- إذا تعدد الأجداد واتحدوا في النسبة إلى المورث فإن كانوا جميعاً لأب اقتسموا للذكر مثل حظ الأنثيين.

ت- إذا كانوا جميعاً لأم اقتسموا بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى.

ث- إذا اختلفت نسبة الأجداد وكان بعضهم لأب وبعضهم لأم قُسّم المال أثلاثاً، فالثلث لمن تقرب بالأم واحداً كان أو أكثر، وقسمة الثلث بينهم بالسوية. والثلثان لمن تقرب بالأب واحداً كان أو أكثر، وقسمة الثلثين بينهم بالتفاوت للذكر سهمان وللأنثى سهم واحد.

● **المادة ٩- اجتماع الأخوة والأجداد معاً:**

أ- إذا اجتمع الأخوة والأجداد واتحدوا في النسبة إلى المورث وكانوا جميعاً لأب أخذ الجد مثل الأخ وأخذت الجدة مثل الأخت واقتسموا المال للذكر مثل حظ الأنثيين .

ب- إذا اجتمعوا وكانوا جميعاً لأم اقتسموا بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى.

ت- إذا اجتمعوا أو اختلفوا في النسبة وكان الجد والجدة لأم والأخوة والأخوات لأبوين أو لأب أخذ الجد أو الجدة أو هما معاً الثلث، والثلثان للأخوة والأخوات.

ث- إذا كان الأجداد لأب والأخوة لأم فللأخ المنفرد أو الأخت المنفردة السدس وإن تعدد الأخوة لأم أخذوا الثلث واقتسموا بالسوية والباقي للجد أو الجدة لأب، وإذا وجدا معاً الجد والجدة اقتسما للذكر مثل حظ الأنثيين.

المادة ١٠- انفراد الأعمام عن الأخوال:

أ- إذا وجد الأعمام والعمات وليس معهم أحد من الأخوال والخالات فللعم الواحد وللعمة الواحدة المال كله، سواء كان عمه الميت لأبوين أو لأب أو لأم فقط.

ب- إذا تعدد الأعمام والعمات واتحدوا في النسبة إلى المورث فإن كانوا جميعاً لأبوين أو لأب اقتسموا بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

ت- إذا كانوا جميعاً لأم اقتسموا بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى.

ث- إذا اختلفت نسبة الأعمام والعمات إلى المورث فكان بعضهم لأبوين وبعض لأب أو لأم فقط فالمتقرب بالأب فقط يسقط بالمتقرب بالأبوين وإنما يرث المتقرب بالأب فحسب إذا فقد المتقرب بالأبوين ويأخذ العم والعمة لأب ما يأخذه العم والعمة لأبوين.

ج- إذا اجتمع الأعمام والعمات لأبوين أو لأب مع الأعمام والعمات لأم يأخذ الواحد من قرابة الأم السدس، وإن تعددوا أخذوا جميعاً الثلث واقتسموه بالسوية من غير فرق بين الذكر والأنثى، والباقي بعد نصيب الأعمام لأم يأخذه الأعمام لأب ويقتسمونه للذكر مثل حظ الأنثيين.

المادة ١١ — انفراد الأخوال عن الأعمام:

أ- إذا وجد الأخوال والخالات وليس معهم أحد من الأعمام والعمات فللخال الواحد المال كله لأب كان أو لأم أو لهما.

ب- إذا تعدد الأخوال و الخالات واتحدوا في النسبة إلى المورث فإن كانوا جميعاً لأبوين أو لأب أو لأم فقط اقتسموا بالسوية للذكر مثل الأنثى.

ت- إذا اختلفوا بالنسبة إلى المورث فكان بعضهم لأبوين وبعض لأب أو لأم سقط المتقرب بالأب خاصة بالمتقرب بالأبوين.

ث- إذا اجتمع الأخوال والخالات لأبوين أو لأب مع الأخوال والخالات لأم يأخذ الواحد من قرابة الأم السدس، وإن تعدد أخذوا الثلث واقتسموه بالسوية ذكوراً وإناثاً والباقي لقرابة الأبوين أو الأب والقسمة بينهم أيضاً بالسوية للذكر مثل الأنثى من غير تفاوت.

● المادة ١٢- اجتماع الأعمام والأخوال:

إذا اجتمع العم والخال فللخال الثلث واحداً كان أو أكثر، والثلثان للعم واحداً كان أو أكثر، ويقتسم الأخوال الثلث بينهم كما يقتسمونه في حال الانفراد عن الأعمام على ما تقدم في المادة ١١، ويقتسم الأعمام الثلثين كذلك على ما تقدم في المادة ١٠.

● المادة ١٣- أولاد الأعمام والأخوال:

متى فُقد الأعمام والعمات والأخوال والخالات جميعاً قام أبناؤهم مقامهم، ويأخذ كل نصيب من يتقرب به واحداً كان أو أكثر، فلو كان لعم عدة أولاد ولعم آخر بنت، كان للبنت وحدها النصف ولأولاد العم الآخرين النصف والأقرب من أحد الصنفين يحجب إلا بعد الذي من صنفه ومن الصنف الآخر، فابن العم لا يرث مع العم ولا مع الخال إلا في ابن عم لأبوين مع عم لأب خاصة فالمال كله لابن العم وابن الخال لا يرث مع الخال ولا مع العم، فلو كان ابن عم وخال فالمال كله للخال، ولو كان ابن خال مع عم فالمال كله للعم.

● **المادة — ١٤:**

عمومة الميت وعماته وأخواله وخالاته وأولادهم أولى بالميراث من عمومة أبي الميت وخؤولته، وكل أولاد بطن أولى بالإرث من بطن أبعد، فلو كان ابن عم وعم الأب فالمال لابن العم ومثله ابن خال مع خال الأب.

● **المادة ١٥- الزوج:**

الزوج يشارك الورثة في مراتبهم الثلاث وله النصف من تركة الزوجة إن لم يكن لها ولد منه ولا من غيره، وله الربع إن كان لها ولد منه أو من غيره.

● **المادة ١٦- الزوجة :**

الزوجة تشارك جميع الورثة في مراتبهم الثلاث ولها الربع إن لم يكن له ولد منها ولا من غيرها، والثُمن إن كان له ولد منها أو من غيرها. وإذا تعددت الزوجات كنَّ شركاء في الربع أو الثُمن يقتسمنه بالسوية.

● **المادة ١٧:**

لو طلق الرجل زوجته بالطلاق الرجعي ثم مات أحد الزوجين أثناء عدَّة المطلقة يحصل الإرث كما يكون مع عدم الطلاق.

● **المادة ١٨:**

إذا أجرى الرجل عقد زواجه على امرأته في مرض موته ثم توفي أحد الزوجين قبل الدخول فلا توارث بينهما ولا مهر للزوجة أيضاً .

بيروت .

❃ مجلة العرفان، المجلد ٣٦ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٦٨هـ الموافق ايلول (سبتمبر) ١٩٤٩م، ص (٩٣٠ -٩٣٤).

(٣٢) نظرة في العرفان

منذ سنوات وفضيلة الأخ الجليل صاحب العرفان يرغب إليّ أن أكتب للعرفان بهذا العنوان فأنقد منه ما يستحق النقد، وأقرظ منه ما هو أهل للتقريظ. وكنت لا أشعر من نفسي الميل إلى الكتابة في هذا الموضوع على الرغم من بركاته وتنوع جهاته، ومنذ سنوات ثلاث حين كنت في صيدا أطبع كتابي " الوضع الحاضر في جبل عامل " في مطبعة العرفان لم أجد سبيلا إلا الطاعة، فلبيت ممتثلا وكتبت مقالاً (١)، وعزمت على أن لا أعود أبدا، أما الآن وأنا أقرأ الجزء ١ م٣٧ وقد أنست من نفسي الرغبة في العودة فأعود والله المسؤول أن يجعل هذا العود أحمد وأرشد.

وإذا سررتُ في مقالي ذاك صاحب العرفان وأغضبت سواه فإني في كلمتي هذه سأحاول ما استطعت أن أوّل من أغضبه هو الصديق الوفي الشيخ عارف.

يأسف الأخ الطيب لأن الحكومة اللبنانية والسورية لم يؤازرا العرفان ويشكر للحكومة العراقية مناصرتها ولكنه يطلب منها المزيد. وفي ج١٠م٣٦ يصدر بياناً وإيضاحاً وشكراً وتأنيباً، لا يُخفي فيه استياءه من معاملة بعض الوكلاء المراوغين والمشتركين المماطلين وعدم رضاه عن سير العرفان في صيدا وجبل عامل وبعلبك وطرابلس وحلب ودمشق وجهات هذه البلدان.

وأنا بدوري لا أخفي استيائي وعدم رضاي عن هذا الأسلوب الفطير (٢)، إن للصحف أساليب خاصة يعرف الصحفيون مكانها وزمانها، وإذا كان صاحبنا يربأ بنفسه عن استعمالها، فإنا كذلك نربأ به عن سلوك الطرق التي لم تهندسها وتعبدها يد الفن والصناعة، والتي لا تروض عاصياً ولا تؤدّب طاغياً.

نحن نعلم أن الباعث الوحيد لصاحب العرفان هو الرغبة الملحة في أن تستمر العرفان في طريقها القويم، وخوفه الشديد من أن تغيب شمسها عن الوجود، لأن ما هو فيه من ضعف المادة والديون الباهظة والمتاعب الكثيرة، كل ذلك من جرّاء العرفان ونفقات صدورها وأجرة توزيعها مجاناً أو بثمن لمشترك منافق أو وكيل خائن أو صديق مرائي أو كل أولئك مجتمعين.

---

(١) انظر ص ٨٨ من هذا الكتاب تجد مقاله مثبتاً.

(٢) الفطير: كل ما أُعجل به قبل نضجه، ومن الرأي الذي لم يروَّ فيه.

نحن نعلم هذا وأكثر من هذا، ولكننا نعلم أيضاً أن هذا المنهج عقيم فاضح، فمن الخير لأبي الأديب الأبي المجاهد أن يدع الأمور بيد خالقها تجري على مشيئته وقضائه وقدره.

ومن الطريف في ج١م٣٧ أن صاحب العرفان بينا هو يئن ويعن من قلة المناصر والمؤازر، وينتظر كلمة تعزيه وتُسليه وتسليه وإذا بعاذل يدخل عليه من باب " بريد القراء " ويؤاخذه على عدم نشره وشكره لمن عاد من النجف الأشرف إلى عاملة، ومن هاجر منها إلى النجف، وكفى الجميع مؤونة النشر والإذاعة القائد الكبير العقيد محمد بكِ جواد، حيث اجتمع بأحد هؤلاء العائدين، فأوحى له هذا الاجتماع بيتاً من الشعر يصور تفكيرهم وميولهم ويعبر عن شعور الناس تجاههم بجلاء:

بكيت على قومي ولما بلوتهم بكيت على نفسي لأنهم قومي

بكى على قومه وهو يحسب أن الناس تدفعهم عن سلوك الطريق الواضح، وتقف سداً بينهم وبين السير على منهج التقدم والرقي، ولما خبرهم ورأى أنهم الظالمون لأنفسهم حيث سلكوا بها مسلكاً وعراً ضيقاً لا ينتهي بهم إلى شيء بكى على نفسه، لأنه منهم وهم منه. لقد صرفتنا القشور وتوافه الأمور عن روح الدين وجوهره الذي يبعث الإنسان على التضحية بالنفس والنفيس في سبيل كرامته وكرامة أمته، وينزهه عن الطمع والرياء، ويأخذ به طريق رسل الرحمن، والذين اتبعوهم بإحسان، وتروضه على تحمل المكاره في سبيل نصرة الحق وأهله.

إن الدين يفرض فرضاً لازماً على رجاله أن يكون كل واحد منهم مدرسة روحية تطهر بأساليبها المألوفة الشابات والشبّان من رذيلة الجبن والخوف، وتبعث فيهم روح الكراهة والمقت للظلم وأهله مقتاً يبعث على الفداء بالنفس والعيال والأموال بغية إحياء الدين الصحيح الذي يرتكز على الحرية والأخوة الإنسانية المطلقة، شعارها الحب والولاء لكل إنسان، كائناً من كان، والحرب والعداء لكل من يحاول تقييد هذا الإطلاق ويحد من تلك الحرية المقدسة، ويفضل عنصراً على عنصر، فتفضيل إنسان على أخيه بيد خالق الإنسان وحده الذي جعل العاقبة للمتقين، والطاعة لأولي الأمر المطيعين، فلا طاعة لمخلوق على مخلوق أبداً. وإذا دعا المصلح إلى الخير تُلبَّى دعوته باعتبار أنها دعوة الواحد الأحد، لا لأنها من إنسان واجب الطاعة لنسبه ومنصبه، بل الداعي والمدعو في الإجابة والتلبية سواء،

فالتقديس إنما هو للمبادئ لا للأشخاص، وبكلمة ثانية إن المصلح الذي يجب تقديسه هو الذي يكون مظهراً للقداسة بمعناها الإلهي.

فلا يكون الإنسان مصلحاً حتى يصبح أمره أمر الله سبحانه، ونهيه نهيه بالقول والفعل – لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى – (النجم:٣-٤) (١) ومتى كان رجل الدين كذلك يكون الراد عليه راداً على الله، أما أن يكون شديد الغرور بنفسه، حسن الظن بعلمه وعمله، قوي الإيمان برأيه وعقله، بينه وبين العصر الذي يعيش آلاف السنين وعشرات القرون، أما أن يكون رجل الدين كذلك فلا سبيل لنا إلا أن نشترك مع العقيد الجواد في البكاء، والسلام على زين العابدين حيث يقول: " اللهم ما عرّفتنا من الحق فحمّلناه، وما قصرنا عنه فبلّغناه " . (٢)

ثم إني أشكر هذه النظرة حيث أتاحت لي الفرصة لمقابلة الشاعر الكبير إلياس فرحات، وأوقفتني معه لحظات، منذ عشرين عاماً حيث كنت طالبا في مدرسة النجف وأنا أستقرىء آثار شاعرنا العربي، وكان يبعثني على ذلك الإكبار والإعجاب بروحه وعبقريته وأسلوبه المعجز الذي يريك المعاني المألوفة معاني جديدة مبتكرة على الرغم من سهولتها وأنس الذهن بها، فأسلوبه أشبه بآلة تحول الماء الملح الأجاج إلى عذب فرات، وفي عقيدتي أن هذه المعجزة هي الخاصة الوحيدة التي ميّزت شعره عن شعر معاصريه، وإنك واجد آيات هذه الميزة حيث وجدت شعر الأستاذ فرحات. ولو اتسع المجال لضربت لك أمثالا من تلك الآيات والشواهد، لذلك أكتفي بمثل واحد.

---

(١) للمرة الثالثة والرابعة والخامسة يخطئ الشيخ في نصوص الآيات المباركة، وكأنه ينقل نصوصاً بشرية، فالآية نصها: " وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى " ولا أدري من أين جاء بلفظ لا ينطق بدلاً عن وما ينطق ؟!!!.

(٢) ما سطّره يراع الشيخ في الأسطر السابقة جرَّ عليه غضباً وثورة عارمة لم يكن يتوقعها أو تخطر له على بال من قِبَل العلماء العائدين للبنان من النجف ومن معارفهم وذويهم، ويدل على ذلك أنه ابتدأ النظرات بقوله: " وإذا سررتُ في مقالي ذاك صاحب العرفان وأغضبت سواه فإني في كلمتي هذه سأحاول ما استطعت أن أوّل من أغضبه هو الصديق الوفي الشيخ عارف "، وعلى عكس ما كان يتصور جاء مقاله هذا في غير صالحه، وقد أسرَّ صاحب العرفان وأغضب سواه أيضاً كما هو الحال في نظرته الأولى، ولكن هذه المرة كان السخط=

منذ عُرف الشعر والشعراء ينظمون في الشيب ونصيب صاحبه من الآنسات والسيدات، ولم يتركوا أسلوباً ولا معنى إلا عصروا له الأدمغة والأذهان، ولو جُمع ما قيل في هذا الموضوع لجاء في مجلدات، ولكن هل ترى في تلك الآثار الطوال العراض من الروعة والطرافة والإبداع والعذوبة ما تراه في هذه الأبيات القصار الكبار :

أرى قلبي يظل على صباه ولو حامت على التسعين سني

ويولعني بأصغرهنّ سنّا وأصغرهنّ أبعدهنّ عني

بكيت فقال أصحابي أتبكي فقلت مضى الشباب فهل أغني

غريبات اللسان يريني شكلي وليس يرين معرفتي وفني

وليس أحق من عيني بدمعي وأولى بالبكاء عليّ مني

لم يكن في هذه الأبيات تصوير للشعور المتبادل بين الشيوخ والفتيات، ولا هي إجادة في التصوير وكفى، وإنما هي اختراع حديث في فن التصوير.

والأستاذ فرحات كاتب كما هو شاعر، وأسلوبه في الكتابة وإن لم يبلغ مبلغ أسلوبه في الشعر فإنه شعري على كل حال، فيه هدوؤه، وفيه روح مرحه، وفيه جد وهزل، أو بالأصح يتخذ من الجد مطية للهزل بعكس ما هو مألوف من اتخاذ الهزل طريقاً للجد.

وأعود بعد هذه الوقفة القصيرة مع الشاعر إلى " النظرة " ولعلَّ الأستاذ فرحات يجد فيما أسلفت جواباً لكلمته في ج١ لسنة ١٩٥٠، فإن في القرآن الكريم وسيرة الرسول العظيم آيات بيّنات تشهد بأن ما ذكرته في معنى الدين الصحيح هو تفسير للإسلام بروحه وجوهره، وأن كل ما يتنافى مع هذا التفسير ليس من أصل الإسلام وفروعه في شيء، وأي أمر لم يؤيده القرآن والسنة النبوية الثابتة فهو بدعة وجهالة.

= شديد الوطأة عليه ، وخلّف وراءه أطول معركة خاضها الشيخ، كل ذلك بسبب هذه الأسطر القليلة السابقة ... انظر تفاصيل هذه المعركة في كتابي " محمد جواد مغنية.. معاركه ومساجلاته العلمية ".

أما كلمة الأستاذ فرحات المنشورة في الجزء الرابع من العرفان مجلد ٣٦ فلو لم يختمها بالمسك من روحه المرحة ويسترها " بالستار الذي لولاه لجرى ما لا تُحمد عقباه " لأطلت معه العتاب وتبسطت في الجواب.

وكم سررت بعناية العرفان بما يأتيها من القطيف – المملكة العربية السعودية – وأتمنى وما أكثر ما يتمنى الإنسان أن تُنشر دائماً في مجلة العرفان آثار الحجازيين والنجديين واليمنيين والكويتيين، لنتعرف على أدبهم واتجاهاتهم، وتقوى بيننا وبينهم الروابط الروحية، والعرفان خير أداة لهذا الوصل، وجامع لهذا الشمل.

بيروت

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٧ الجزء ٣، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٦٩هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٥٠م، ص (٢٨٩ -٢٩٢). ويُذكر أن المجلة في هذا العدد كتبت تحت اسمه " مستشار محكمة الاستئناف الجعفرية " بعد أن كانت تكتب تحت اسمه قاضي بيروت الجعفري ، وإن كان مسمى المستشار بدأ معه مع مقال " الإرث " المنشور في مج ٣٦ ج ١٠ الصادر في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩م ص ١٠٣٠ . وهذا ما يوافق حياته العملية، حيث عُيِّن مستشاراً في عام ١٩٤٩ .

(٣٣) من الفقه الحنفي والفقه الجعفري

الخلاف بين السنة والشيعة في مسائل الإرث

في الجزء ٩ م٣٦ من العرفان الأغر نشرنا مسائل الإرث عند الشيعة، ووعدنا أن ننشر فصلاً خاصاً نذكر فيه المسائل الخلافية بين السنة والشيعة، وإني ذاكر هنا قسماً من تلك المسائل، ما عدا مسألتي العول والتعصيب التين سنذكرهما في فصل مستقل.

قلنا في الجزء التاسع إن مراتب الإرث عند الشيعة ثلاث: ١- الأبوان والأولاد وإن نزلوا. ٢- الأخوة والأخوات وإن نزلوا، والأجداد والجدات وإن علوا . ٣- الأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم، وأنه متى وجد واحد من المرتبة المتقدمة حجب عن الإرث كل من كان في المرتبة المتأخرة.

أما السنة فلم يعتبروا هذه المراتب، ولم يبنوا التقسيم في الميراث على أساسها، فأدخلوا المرتبة الثانية في الأولى، والأولى في الثانية، والثالثة، ولهذا كان البعد شاسعاً في مسائل الإرث بين الشيعة والسنة، لأن اختلافهم يرجع إلى الأساس نفسه، فالجد أبو الأب الذي هو من المرتبة الثانية عند الشيعة، ولا يتجاوزها أبداً، يشارك عند السنة الورثة الذين هم من المرتبة الأولى، وذلك إذا لم يُوجد أب. قالوا: يقوم الجد لأب مقام الأب نفسه، فيرث مع الأم ومع الأولاد، وعند الشيعة – كما علمت – لا يرث أحد من الأجداد إلا عند فقدان الأبوين والأولاد وأولادهم أيضاً.

والجدات اللاتي هنَّ من المرتبة الثانية عند الشيعة يشاركن عند السنة الورثة الذين هم من المرتبة الأولى، وذلك إذا لم تُوجد الأم. قالوا: إنَّهن يرثن مع الأب، ويرثن مع الأولاد أيضاً، وعند الشيعة – كما أسلفنا – لا ترث الجدات ولا الجدات إلا بعد فقدان الأبوين والأولاد وإن نزلوا.

وعند السنة ترث الأخوة والأخوات مع الأم ومع البنات، إذا لم يكن أب ولا جد ولا بنون ولا بنو بنين، وعند الشيعة الأخوة والأخوات من المرتبة الثانية لا يرثون إلا بعد فقدان الأولاد وأولادهم وفقدان الأب والأم.

وعند السنة يرث العم مع الأم والبنات إذا لم يكن أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا أخ لأبوين أو لأب ولا أخت لأبوين أو لأب ولا ابن أخ لأبوين أو لأب.

فيشترك العم في بعض الأحيان مع الأم والبنات اللاتي هنَّ من المرتبة الأولى، كما يشترك مع الأخوات من الأم اللاتي هنَّ من المرتبة الثانية.

والعم مرتبة ثالثة عند الشيعة، لا يرث إلا بعد فقدان الأم والأب والأولاد وأولادهم ذكوراً وإناثاً، والأجداد والجدات، والأخوات والأخوة وأولادهم ذكوراً وإناثاً، ومتى وُجد واحدٌ من هؤلاء لا يرث العم شيئاً.

هذا هو الأساس الذي يرتكز عليه الخلاف في موارد الإرث بين السنة والشيعة.

أما التفصيل وبيان الفروع وذكر المواد مادة فمادة فإنه يحتاج إلى وضع كتاب مستقل، ونكتفي بذكر بعضها من باب الشاهد والتمثيل.

(١) إذا كان أبوان وأحد الزوجين، قال السنة: للأم ثلث ما بقي بعد نصيب أحد الزوجين، وقال الشيعة: لها ثلث مجموع التركة، لا ثلث الباقي عن نصيب أحد الزوجين.

(٢) لو ترك الميت أماً وجد الأب وأحد الزوجين، قال السنة: يأخذ أحد الزوجين نصيبه والأم ثلث مجموع التركة، والباقي للجد. وقال الشيعة: ما بقي من نصيب أحد الزوجين فهو للأم بكامله، ولا يرث الجد من أي نوع كان مع الأم شيئاً، لأن الأم أقرب، والأقرب يحجب الأبعد.

(٣) الأخوة الأشقاء أو لأب فقط يسقطون بالجد ولا يرثون معه شيئاً عند أبي حنيفة، وعند الشيعة يشترك الأخوة والأخوات من أي نوع كانوا يشتركون مع الجد والجدة، لأن الأخوة والأجداد في مستوى واحد من جهة الإرث.

(٤) السنة: قالوا ترث الزوجة من جميع تركة زوجها المنقول وغير المنقول أرضاً وشجراً. وقال الشيعة: لا ترث الزوجة من الأرض أبداً، وترث من غيرها منقولاً كان أم غير منقول، كالأشجار والعمار.

(٥) قال السنة: إذا لم يكن للميت بنات وكان له بنات ابن، فللبنت الواحدة للابن النصف، وللاثنتين فصاعداً الثلثان. وقال الشيعة: أولاد الأولاد يأخذون نصيب آبائهم ذكوراً كانوا أم إناثاً، فكل واحد يأخذ نصيب من يتقرب به، فبنت الابن تأخذ نصيب أبيها،

وابن البنت يأخذ نصيب والدته، فإذا ترك ابنٍ بنت، وبنت ابن، أخذت بنت الابن سهمين وابن البنت سهماً واحداً.

(٦) قال السنة: إذا كانت بنت صلبية، وبنات ابن، أخذت بنات الابن السدس، أما الشيعة فلا يعطون بنات الابن شيئاً مع وجود البنت الصلبية، لأن أولاد الأولاد لا يرثون مع وجود أحد الأولاد ذكراً كان أم أنثى، لأن الأقرب يحجب الأبعد.

(٧) السنة قالوا: إذا كانت بنات صلبيات، فبنت الابن لا ترث معهنً شيئاً إلا إذا كان معها أخ، فتأخذ البنات الصلبيات الثلثين، وبنت الابن وأخوها الثلث. وقال الشيعة: لا ترث بنت الابن ولا أخوها مع وجود البنات الصلبيات.

وأنكروا هذه المادة إنكاراً شديداً، حيث صرَّحوا أنه لا يقبل العقل ولا الشرع أن ترث بنت الابن في حالة دون حالة، فمع أخيها ترث وإن لم يكن لها أخ فلا ترث، مع أنها في كلتا الحالتين بنت ابنٍ لم تتغير، ولم تتبدل، فإما أن ترث على كل حال وإما أن لا ترث أبداً.

(٨) قال السنة: الأخوات لأب وأم يرثون مع البنات الصلبيات ومع بنات الابن. وقال الشيعة: لا ترث الأخوة ولا الأخوات مع البنات الصلبيات ولا مع بنات الابن، فالأولاد وأولاد الأولاد عند الشيعة يحجبون الأخوة والأخوات والأجداد والجدات.

(٩) قال السنة: تأخذ الأخوات لأب فقط السدس مع الأخت الواحدة لأبوين. ويقول الشيعة: لا تأخذ الأخوات لأب، ولا الأخوة لأب شيئاً مع وجود الأخت للأبوين، لأن المتقرب بالأبوين يحجب المتقرب بالأب خاصة.

(١٠) السنة قالوا: إن الأخوات لأب فقط لا يشاركن الأختين لأبوين في الإرث إلا أن يكون مع الأختين لأب أخ. أما الشيعة فقد أنكروا ذلك، حيث يلزم منه أن ترث الأخوات لأب في حالة دون حالة، أي يرثن إذا كان لهنَّ أخ، ولا يرثن إن لم يكن لهن أخ مع أن قرابتهن ومنزلتهن لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل. ويحكمون بأن الإرث لمن تقرب بالأبوين ويحرمون المتقرب بالأب خاصة، فالأخت من الأبوين تحجب الأخ من الأب فقط.

(١١) قال السنة: الأخوات والأخوة لأبوين، والأخوةٍ والأخوات لأب كلهم يسقطون بالجد، ولا يرثون معه شيئاً. وقال الشيعة: الأخوة والأخوات من أي نوع كانوا يشتركون في الإرث مع الأجداد والجدات من أي نوع كانوا، ولا يسقط أحد من الأخوة بأحد من الأجداد والجدات.

(١٢) قال السنة: يشارك الأخوة والأخوات من أي جهة كانوا الأم في الميراث. وقال الشيعة: تحجب الأم الأخوة والأخوات عن الميراث، ولا يشتركون معها أبداً، لأن الأم نوع أول، وهم نوع ثاني، والقريب يمنع البعيد، فإذا مات إنسان وليس له أولاد ولا أب وكان له أم وأخوة فالمال كله لأمه.

(١٣) قال السنة: الجد أبو الأب يقوم مقام الأب عند فقدان الأب، فيشترك في الميراث مع الأولاد ومع الأم إذا لم يكن هناك أب. وقال الشيعة: الجد لا يشترك مع الأولاد في الميراث ولا مع الأمِ، فإذا كان للميت أم أو بنت فلا يرث الأجداد ولا الجدات شيئاً، لأنه بعيد والأم أو البنت قريبة والقريب يطرد البعيد.

(١٤) قال السنة: الجدات لأم يرثن مع الأب ومع الأولاد إذا لم يكن هناك أم، ولا يسقطهن شيء إلا وجود الأم. وقال الشيعة: الجدات من أي جهة كنَّ لا يرثن مع الأب ولا مع الأولاد، لأنهن نوع ثاني والأب والأولاد نوع أول.

(١٥) قال السنة: للجدة السدس لأم كانت أو لأب، واحدة كانت أو أكثر، فلا تأخذ الجدات أكثر من السدس. وقال الشيعة: إذا مات إنسان ولم يكن له أخوة ولا أخوات ولا أب وأم ولا أولاد وكان له جدة من قبَل الأم، وجدة من قبَل الأب، فللجدة من قبل الأم الثلث، وللجدة من قبل الأب الثلثان، وإذا كان له أخوة وأخوات وأجداد وجدات، كان الجد لأب كالأخ لأب، والجدة لأب كالأخت لأب، والجدة لأم كالأخت لأم والجد لأم كالأخ لأم من غير تفاوت.

(١٦) قال السنة: الأخت لأبوين تشترك في الميراث مع أخوات لأب فقط. وقال الشيعة: لا ترث الأخوات من الأب مع الأخت لأبوين شيئاً، لأن المتقرب بالأبوين يحجب المتقرب بالأب خاصة، كائناً من كان.

هذا بيان لأصل الاستحقاق، أما الكمية وشرح الأسهم لكل واحد فيحتاج إلى تفصيل وتطويل.

بيروت

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٧ الجزء ٤، الصادر في جمادى الثانية سنة ١٣٦٩هـ الموافق نيسان (ابريل) ١٩٥٠م، ص (٣٩١ -٣٩٤).

(٣٤) مفطرات الصائم عند السنة والشيعة

(١) قال السنة: (١) من رأى هلال شوّال وحده، ولم يحكم به القاضي لا يجوز له الإفطار، ويجب عليه أن يبقى صائما مع الصائمين، ومن رأى هلال رمضان، ولم يحكم به القاضي يجب عليه الصوم، ولا يجوز له أن يفطر مع المفطرين، عملاً بحديث: (صوموا للرؤية، وأفطروا للرؤية). وقال الشيعة: من رأى هلال شوّال وجب عليه الإفطار حكم القاضي أم لم يحكم، صام الناس أم أفطروا، وإذا رأى هلال رمضان وجب عليه الصيام حكم القاضي أم لم يحكم أفطر الناس أم صاموا، ولا يجوز الأخذ ببعض الحديث دون بعض، فإما أن يُترك العمل بالفقرتين معاً، وإما أن يُعمل بهما، والعمل هو المتعين، لاشتهار الحديث وتواتره، ولأنه موافق الأصول والقواعد، حيث انكشف الواقع للمكلف عن طريق العيان والوجدان، وليس وراء اليقين إلا العمل، والتكليف يختلف باختلاف الأفراد ويتعدد بتعددها، ولا يناط تكليف إنسان بإنسان.

(٢) قال السنة: (٢) لو ابتلع الصائم بزاق (٣) غيره، فإن كان ذلك الغير حبيبه لزمه القضاء والكفارة معا، وإن لم يكن حبيبه وجب عليه القضاء دون الكفارة. وقال الشيعة: إن ابتلعه باختياره وجب القضاء والكفارة معاً من غير فرق بين الحبيب والبغيض.

(٣) قال السنة: (٤) الإنزال أي الاستمناء يوجب القضاء دون الكفارة. وقال الشيعة: من تعمَّد الإنزال فعليه القضاء والكفارة، وإن لم يتعمده فلا قضاء ولا كفارة.

(٤) قال السنة: (٥) لو داوى الإنسان جرحه، أو قطر في أذنه، فوصل الدواء إلى جوفه فسُد صومه ووجب القضاء. وقال الشيعة: الصوم صحيح ولا شيء عليه، لأنه لا يُعد شرباً ولا أكلاً.

---

(١) الدرر ١ ص ١٣٩. "مغنية"

(٢) مجمع الأنهر ج ٢ ص ٧٣٥. "مغنية"

(٣) البزاق: البصاق. "مغنية"

(٤) كنز البيان ص ٤٦ و ٤٧. "مغنية"

(٥) كنز البيان ص ٤٧ والدرر ص ١٤١. "مغنية"

(٥) قال السنة: (١) لو وطأ الرجل امرأة ميّتة، أو بهيمة، ولم ينزل فلا قضاء عليه ولا كفارة، وإن أنزل فالقضاء لا غير. وقال الشيعة: يجب القضاء والكفارة معاً على الفاعل العامد، أنزل أم لم ينزل، حياً كان المفعول أم ميتاً إنسانا أم حيواناً.

(٦) قال السنة: (٢) لو ابتلع الصائم حصاة أو حديدة أو سفرجلاً لم ينضج، ولم يطبخ قضى فقط. وقال الشيعة: يقضي، ويكفر إن تعمَّد ذلك.

(٧) قال السنة: (٣) المسافر في شهر رمضان مخير بين الصوم والإفطار، والصوم أحب. وقال الشيعة: يتعين عليه الإفطار، ولا يجوز له الصوم.

(٨) قال السنة: (٤) لو وصل المسافر إلى بيته، وكان قد أفطر في سفره، وطهرت الحائض قبل انتهاء النهار وجب عليهما الإمساك. وقال الشيعة:

يجوز لهما – والحالة هذه – تناول الطعام والشراب، ويستحب الإمساك تأدّبا ... فالمدى بعيد بين المذهبين في حكم المسافر، فالسنة يحددون المسافة بثلاثة أيام(٥) والشيعة بثمانية فراسخ أي يوم واحد، والسنة يقولون بصحة صيام المسافر، ولو كان السفر معصية، والشيعة يفسدون الصيام ولو كان السفر طاعة، والسنة يُوجبون عليه الإمساك بعد وصوله إلى مقره، والشيعة لا يلزمونه بذلك إذا كان قد أفطر في يومه الذي وصل فيه.

(٩) قال الشيعة: إذا غمس الصائم رأسه تحت الماء عمداً فسد صومه، ووجب عليه القضاء والكفارة، أما إذا صبَّ الماء على رأسه، واستوعبه بتمامه، أو أدخل جسمه في الماء دون رأسه فلا يفسد الصوم.

---

(١) الدرر ج ١ ص ١٤٠. "مغنية"

(٢) كنز البيان ص ٤٧. "مغنية"

(٣) كنز البيان ص ٤٧. "مغنية"

(٤) كنز البيان ص ٤٨. "مغنية"

(٥) الدرر ج ١ ص ٩٥. "مغنية"

وقالوا أيضاً : تعمُّد الكذب على الله ورسوله مفسد للصوم، وموجب للقضاء والكفارة، ولا ذكر لهذين في كتب السنة، والظاهر أنهما لا يوجبان شيئاً عندهم.

هذا محصل الخلاف بين الطائفتين من مفطرات الصوم، وما عدّاه حتى مقدار الكفارة فمحل وفاق بينهما.

بيروت.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٧ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٦٩هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٥٠م، ص (٧٢٥ -٧٢٦).

(٣٥) أصول الفقه للشيعة الإمامية

بين القديم والحديث

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت ●

يحتل علم أصول الفقه في جامعتي النجف وقم المكانة الأولى بين سائر العلوم التي تُدرس فيهما، فذو الشهرة بالفضل والتحقيق، وصاحب الحلقة الكبرى بالتدريس ومرجع الطلاب إذا احتدم بينهم النقاش والجدال، هو من أتقن أصول الفقه، وحقق فيها، وأحاط بها أصلاً فأصلاً.
وكل عالم أو طالب جاد لابدَّ أن يؤلف ويكتب في الأصول، فكان من نتيجة هذا الاهتمام أن تطورت مباحث هذا العلم، وأدخل عليها تعديلات ونظريات حديثة ظهرت آثارها في مخالفة الأواخر للأوائل في كثير من الأحكام الشرعية التي ترتبط بأصولها ارتباط المعلوم بالجزء الأخير من علته.

ولا يتسع لنا المجال لشرح جميع النظريات الحديثة والمقارنة بينها وبين ما ذهب إليه المتقدمون، لهذا اكتفينا بشرح البعض مع الإشارة إلى بعض القواعد الأُخر التي ننتبه لها.

أصول الفقه علم يبحث فيه عن مفاد مصادر التشريع الذي يحدد أفعال المكلفين من رجحان الفعل أو الترك أو تساوي الطرفين، وتنقسم مباحث الأصولِ إلى لفظيةٍ وعملية، واللفظية ما يبحث فيها عن مفاد هيئة اللفظ منطوقاً ومفهوماً، لغاية تفهُم ما تضمنه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي، وصيغ العموم، وما إلى ذلك مما له دخل في استنباط الأحكام الشرعية من مداركها، وأنه هل للشارع في ذلك حقائق خاصة تخالف أفهام العرف العام؟

أما المباحث العملية فيبحث فيها عن الأصل الذي يرجع إليه المكلف إذا لم

● ارتأيت أن أورد التعريف بالشيخ كما جاء في المجلة بنصه ليعرفنا على تطوره الحياتي ونظرة العلماء له في حينه.

يصل إليه الدليلٍ الشرعي من إجماع أو نص، أي لو فقد المكلف الدليل فماذا يجب عليه شرعا؟ فالأصل العملي يبين وظيفة الجاهل بحكم واقعة من الوقائع بسبب فقدان الدليلٍ على نحو لو طبَّق المكلف عمله على مؤدّى الأصل المقر له لكان معذورا عند الله والناس غير مستحق لعتاب ولا عقاب إن خالف عمله الواقع، شريطة أن لا يلجأ إلى هذا الأصل إلا بعد اليأس من العثور على دليل الحكم، ومعلوم أن هذا اليأس لا يحصل للمكلف إلا بعد أن يبذل أقصى ما يمكنه من جهد، متتبعاً الآيات القرآنية، وكتب الحديث، ومؤلفات الفقهاءِ وفتاويهم (١) ومتى تهاون في البحث والتنقيب امتنع عليه العمل بالأصل لارتفاع موضوعه.

فالفرق بين الأصول اللفظية والعملية من وجهين الأول: أن البحث في الأولى يرجع إلى مفاد النص الشرعي بعد ثبوته وتحققه، وفي الأصول العملية يرجع إلى وظيفة المكلف المتحير الذي لم يصل إليه الدليل. الثاني: أن مدرك الأصول غير اللفظية قد يكون العقل، كقاعدة قبح العقاب من غير بيان، وهي دليل البراءة، وقاعدة الشغل اليقيني يستدعي الفراغ اليقيني، وهي دليل الاحتياط وقد يكون مدركها الشرع، كحديث " لا تنقض اليقين بالشك " وهو دليل الاستصحاب، أما مدرك الأصول اللفظية فالعرف العام، وافق اللغة أم خالفها، فإنه المتبع في المحاورات، ولا يُقدم عليه شيء سوى الحقيقة الشرعية على تقدير ثبوتها، وينبغي الانتباه إلى أن العرف حجة متبعة في تشخيص المعنى العام، لا في تطبيقه على أفراده الخارجية، لأن العرف يتسامح في التطبيق، وخاصة في الأوزان والمكاييل والمساحات، فهو لا يشتبه أبدا في معنى الساعة، وأنها ستون دقيقة، ولكنه يطلق لفظ الساعة على مسافة دون الستين أو أكثر منها.

من هذه التفرقة بين اللفظية والعملية يتبين أن التقليم والتطعيم في الأصول العملية أكثر منهما في الأصول اللفظية حيث يتسع مجال العقل لتلك دون هذه.

الشبهة المصداقية:

فمن النظريات الحديثة في الأصول اللفظية: النظرية المعروفة بالشبهة

---

(١) فتوى: جمعها فتاوى وفتاوٍ، ولذا الصحيح في عبارة الشيخ (رحمه الله) فتاواهم وليس فتاويهم.

المصداقية، ومحصّلها أن صيغ العموم تدور كثيراً على ألسنة العرب، وقد امتلأ بها الكتاب والسنة، وجاءت فيهما موردا لأوامر الشارع ونواهيه، وقد تبقى هذه الصيغ على ما هي عليه من غير تخصيص، وحينئذٍ يسري حكمها إلى جميع أفراد العام، وكثيرا ما تُخصص بقيد متصل أو منفصل، حتى قِيل: ما من عام إلا وقد خصص، بل حتى هذا القول خصص بمثل إن الله على كل شيء قدير، وهو مالك كل شيء، وبعد تضييق دائرة العام لا يكون حجة إلا فيما تبقى من أفراده .

فقوله تعالى: " أوفوا بالعقود " (المائدة ١:) دليل عام كاشف عن وجوب الوفاء بكل عقد ربويا كان أم غير ربوي، وإذا ضممنا الآية إلى أدلة حرمة الربا ينتج أن وجوب الوفاء مختص بالمعاملات غير الربوية، وهذه قضية كلية بديهية، ليست محلاً للخلاف والاجتهاد.

ولكن هناك أفراد مشتبهة ومرددة بين دليل العام، وهو أوفوا بالعقود، ودليل الخاص الدال على حرمة الربا، أي لم يُعلم من أي النوعين هي، فلو أنَّ تاجرا يبيع الرطل من سلعته بعشرة دراهم نقدا، وباثني عشر نسيئة، وجهلنا هل بيع النسيئة هذا من نوع الربا كي يُحرم أو من غيره كي يجب الوفاء به؟ مع الفرض بأنه لا دليل يبين حكم هذا البيع، فهل نستخرج حكمه من آية أوفوا بالعقود، أو أن الآية مجملة بالنسبة إليه، وأن حكمه يُستخرج من الأصول العملية لفقدان النص، وكذا حديث: " على اليد ما أخذت حتى تؤدي " فإن مساقه تغريم كل ذي يد غاصباً كان أم وكيلاً أم مؤتمناً أم وصيا أم ولياً أم حارسا أم مستعيراً أم عاملاً بأجرة كالصائغ، والقصار، والخيّاط، والبيطار، والمكاري، والملاح، والراعي، والنجار، والباني. أم أخذه بيده يفحصه للشراء والسوم، فمقتضى حديث اليد تغريم هؤلاء جميعا لو تلف المال في أيديهم، سواء أكان ذلك بسبب التفريط والإهمال، أم بسبب قهري مع التحفظ الكامل والاحتراز التام.

وبعد أن تواترت الأدلة على أن غير الغاصب لا يضمن شيئاً مما تلف في يده إلا مع التعدي والتفريط اختص الضمان والتغريم بالغاصب، والمفرط المهمل، وخرج عن الحديث أكثر هؤلاء، ولا يختلف في هذه الحقيقة اثنان، ولكن لو علمنا أن مال الغير تلف في يد زيد، ولم نعلم أكان المال غصباً في يده كي يضمن على كل حال، أو بطريق مشروع، فلا يكون سبيل لصاحب المال على ذي اليد إلا مع ثبوت التعدي والتفريط، أو علمنا أن المال في يده بطريق شرعي، ولم نعلم أكان تلفه بغير تقصير كي ينتفي السبيل عنه،

أو بسبب ترك التحفظ كي يجب الضمان؟ فهل يسوغ الاعتماد على حديث اليد لاستخراج حكم الفرد المشتبه، أو أن الحديث مجمل بالنسبة إليه؟ وحينئذٍ يتعين الرجوع إلى الأصول العملية، والأمثلة كثيرة من الكتاب والسنة، وللبحث تأثيره البالغ في جميع أبواب الفقه.

والمعروف من سيرة القدامى هو التمسك بالعام والرجوع إليه في حكم الفردِ المشتبه؛ فبيع النسيئة مع زيادة الثمن لأجل الإمهال صحيح عندهمٍ تمسكا بأوفوا بالعقود، وصاحب اليد ضامن مع الجهل بأنها شرعية عملاً بعموم: على اليد، لأن العام بمقتضى وضعه ظاهر في جميع الأفراد، فيجب العمل بهِ حتى يثبت العكسٍ، فأوفوا بالعقود يشمل أنواع العقود وأفرادها جميعاً، وعليه يكون دليلا شرعياً على وجوب الوفاء بكل عقد من غير فرق بين الربوي وغير الربوي، ولا تُرفع اليد عن هذا الدليل إلا بحجةٍ مثله أو أقوى منه، ولا شيء سوى أدلة حرمة الربا ومفادها عدم الوفاء بما ثبت أنه ربوي، أما غيره من العقود فيجب الوفاء به أخذا بالعموم، وكذا يجب الحكم بالضمان، إذا دار أمر اليد بين أن تكون يد ضمان أو غيرها استنادا إلى عموم: على اليد .

أما المتأخرون من فقهاء الإمامية فمنعوا الالتجاء إلى العام لإجماله في هذه الموارد وأمثالها، وأوجبوا الرجوع فِي حكمها إلى الأصول العملية لفقدان النص، ومحصل ما ذكروه دليلا على ذلك أن قرينة التخصيص إما متصلة بالعام، أي أنها جاءت والعام في كلام واحد، ومثَّلوا بأكرِم العلماء إلا الفساق، وإما أن تكون منفصلة أي وردت في كلام مستقل عن العام، ومثَّلوا بكلامين مستقِلين، احدهما: أكرِم العلماء، والثاني: لا تكرم فسَّاق العلماء، وعُلم أن زيداً عالم، ولكن لم يُعلم أهو عدل كي يجب إكرامه، أو فاسق كي لا يجب؟ وذكرنا مثالهم بالذات، لأنه أخصر وأوضح مما قدَّمناه من الأمثلة، والنتيجة واحدة في الجميع، وهي عدم جواز الاعتماد على العام في حكم الفرد المردد.

أما مع الاتصال فلأن القرينة المتصلة بالعام توجب قصر ظهوره ودلالته على خصوص الأفراد التي أرادها المتكلم، فأكرِم العلماء إلا الفسّاق ظاهر في إرادة العلماء غير الفاسقين، ولا ظهور له أبدا بالنسبة إلى معلوم الفسق، ومجهول الحال، لأن الكلام لا ينعقد له ظهور إلا بعد تمامه، وبتمام الكلام خرج الفرد المعلوم وتردد الفرد المجهولٍ بين البقاء والخروج، لإجمال اللفظ بالنسبة إليه، وإذا كان العام مجملاً في الفرد المجهول فكيف نستنبط

حكمه منه؟ ومن أوجب إكرام هذا الفرد تمسكاً بالعام فقد نفى عنه الفسق مستنداً في النفي إلى – أكرِم العلماء إلا الفسّاق – أي أنه أثبت الموضوع الخارجي بدليل حِكمه الشرعي، وهو كما ترى! وبتعبير ثانٍ بعد أنِ كان مفاد الكلام مقيداً من أول الأمر بغير الفاسق مرادا واستعمالاً وظهورا، وبعد فرض أن القيد مجمل وغير محرز في مجهول الحال، فلا يكون – والحالة هذه – ظهورٌ كي يعتمد عليه في مقام الحيرة والشك.

أما إذا كانت قرينة التخصيص منفصلة عن العام، فإن ظهور العام متحقق بلا ريب، لأن الكلام الذي فيه لفظ العموم قد تمّ بانتهاء المتكلم منه قبل أن يتبعه بقرينة تصرفه عن ظاهره. فلفظ العام من قولك: أكرِم العلماء ظاهر في العالم العدل والفاسق على السواء، ولكن علمنا من دليل منفصل – لا تكرِم فسّاق العلماء – أن هذا الظهور على إطلاقه غير مراد، وإنما المراد الحقيقي مقيد بغير الفاسق، ومع هذا التقييد لا يكون ظهور العام حجة بالنسبة إلى الفرد المشتبه، لأنه لا يكشف عن مراد المتكلم، مع أن المتسالم عليه بين العلماء كافة قديماً وحديثاً أن ظواهر الألفاظ إنما تكون حجة متبعة، لأجل كشفها عن مقاصد المتكلمين ومراداتهم، ومع عدم هذا الكشف لا يكون لظهور اللفظ أي وزن، فالقرينة المنفصلة وإن كانت لا ترفع الظهور كما ترفعه القرينة المتصلة إلا أنها تسقطه عن الاعتبار، فالفرق بين الاتصال والانفصال أن العام في الحالة الأولى غير ظاهر في جميع الأفراد، وفي الثانية الظهور موجود، ولكنه ليس بحجة، فالنتيجة واحدة في كلتا الحالتين.

وقرَّر المحدَثون هذه الحقيقة بتعبير آخر، وهو أن دليل العام – أكرم العلماء – ودليل التخصيص – لا تكرم فسّاقهم – يرجعان إلى دليل واحد، وهو: أكرِم العلماء غير الفسّاق، ومؤداه: أن من ثبت علمه مع عدم فسقه وجب إكرامه، ومن ثبت علمه وفسقه معاً لا يجب إكرامه، أما العالم المردد بين الفاسق وغيره فلا يمكن استخراج حكمه من هذا الدليل نفياً ولا إثباتاً، أي لا يستفاد منه وجوب الإكرام، ولا عدم وجوبه. لأن الدليل مسوق لإثبات الحكم عند ثبوت موضوعه، فمعنى أكرِم العلماء أنه متى ما وجد العالم وجب عليك إكرامه، وليس في دليل الحكم أية جهة نحرز بها موضوعه

الخارجي عند الاشتباه، فكما لا يسوغ الاعتماد على هذا العموم – بعد ورود التخصيص عليه – لأجل إكرام العالم المردد بين الفاسق وغيره.

والخلاصة أن هناك موارد كثيرة في العبادات والمعاملات لم يرد فيها نص خاص قد استخرج الأولون أحكامها من عمومات الكتاب والسنة، ورجع المتأخرون في أحكامها إلى الأصول العملية، لأن العمومات المذكورة بعيدة عنها كل البعد (١).

وأكتفي من الأصول اللفظية بهذه النظرية مخافة الملل والتطويل، على أنها أهم النظريات، ولها أبلغ التأثير في استنباط الفروع من أصولها.

من الأصول العملية:

وضع المتأخرون لمباحث الأصول العملية كتباً خاصة مستقلة عن المباحث اللفظية، وابتدأوها بباب القطع، أي العلم بالحكم الشرعي، وثنّوا بباب الظن به، ثم باب الشك، وأدرجوا فيه البحث عن الأصول الأربعة: البراءة، والاحتياط، والتخيير، والاستصحاب(٢)؛ وذكروا في باب الظن الإجماع والشهرة.

---

(١) لقد أطنب بعض أعلام هذا العصر حيث قسَّم القرينة إلى متصلة ومنفصلة، ثم كلاً منهما إلى لفظية ولبية، ثم منشأ الاشتباه إلى المتباينين والأقل والأكثر، واعتمد على العام في بعض أقسام الانفصال، ومن يرغب في التفصيل فعليه بالجزء الأول من تقريرات السيد أبي القاسم الخوئي. "مغنية"

(٢) وهناك أصول أخرى كأصل الطهارة فيما لم يُعلم نجاسته، وأصل الحل في المأكولات والمشروبات الحادثة، وأصل عدم التذكية في اللحوم، وأصل الاحترام في الأموال، وأصل الحقن في الدماء، وأصل فساد العقد على من لم يعلم أنها غير ذات محرم، وأصل صحة العمل بعد الفراغ منه، وأصل السلامة من العيوب في المبيع، وأصل اللزوم في العقود، وقاعدة الميسور لا يسقط بالمعسور، وما إلى ذلك من الأصول والقواعد المقررة في أماكنها، وحيث كانت هذه لموضوعات خاصة، ولا تتعداها إلى غيرها، والأصول الأربعة تسري وتعم جميع أبواب الفقه، لذلك جعلوا لكل واحد من الأربعة عنوانا مستقلا، وأجروا الكلام على تلك تبعاً.

"مغنية"

الإجماع:

اتفق المتقدمون على أن مصادر التشريع أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، وغالوا في الاعتماد على الإجماع حتى كادوا يجعلونه دليلا على كل أصل، وكل فرع.

وعدَّ المتأخرون لفظ الإجماع مع هذه المصادر، ولكنهم أهملوه عملياً، ولم يعتمدوا عليه إلا نادرا، بل لم يعتمدوا عليه إلا منضماً مع دليل أو أصل معتبر، ويتلخص رأيهم بأن الإجماع إما أن يكون منقولاً بلسان أحد الفقهاء، وإما أن يكون محصلا، وهو أن نتتبع بالذات أقوال الفقهاء في حكم واقعة خاصة، ونبذل أقصى ما لدينا من جهد في استقراء آرائهم، فنجد فقهاء عصر واحد قد أجمعوا بقول واحد على حكم تلك الواقعة.

والمنقولِ من الإجماع ليس بحجة، وإن كان الناقل ثقة عادلاً، وعالماً محتاطا، لأن نقله يرتكز على الحدس، على النظر والاجتهاد، وعدالة الناقل إنما تنزهه عن تعمد الكذب، ولا تعصمه عن الغفلة والاشتباه، ثم إنِ الإجماعِ لابدَّ فيه من التتبع التام لأقوال الفقهاء، وتفهّم كلماتهم تفهّماً صحيحاً، وبأي شيء نحرز أن تتبع الناقل كان تاما، وأن فهمه كانِ مستقيما؟ فالإنسان حسن الظن بنفسه خاصة الفقيه، هذا وقد رأينا كثيرا من الفقهاء ينقلون الإجماع في محل الخلاف، يختلف اثنان منهم في حكم واقعة فيحتج كلٌ على صاحبه بالإجماع! بل رأينا الواحد منهم يفتي بأمرٍ مستدلا عليه بالإجماع وبعد حين يتبدل اجتهاده فيفتي بالعكس مستدلا بالإجماع أيضا.

وأوّل بعض الأعلام هذا التهافت بأن ناقلِ الإجماع ينظر قول بعض الفقهاء، فيحسن الظن به، وينقل الإجماع اتكالاً على قوله، أو أن الناقل يستنبط الفتوى من دليل أوٍ قاعدة أو أصل ويعتقد أن هذا الدليل مُجمع عليه، فينقل الإجماع لذلك، وأيا كان ناقل الإجماع ومنشأ نقله فلا يسوغ الاعتماد عليه بوجه، لأن نقله يرتكز على الاجتهاد والحدس، لا على البصر والحس.

أما الإجماع المحصل، وهو ما حصل من تتبع الأقوال واستقرائها فمتعسر جداً، لأن السبب في اعتباره وحجته هو كشفه عن وجود حجة متبعة في واقع الأمر اطلع عليها المجمعون، وخفيت علينا نحن، والإجماع إنما يكشف عن هذه الحجة الثابتة إذا اتفق المتقدمون والمتأخرون من الصدر الأول إلى

يومنا هذا، أما اتفاق أهل عصر واحد أو عصرين فإن دلَّ على شيء فإنه يدل على وجود حجة عند المجمعين أنفسهم، لا في واقع الأمر وحقيقته، وخاصة إذا كان في مورد الإجماع دليل أو أصل يصلح مستنداً للحكم الذي اتفقوا عليه، فإن الإجماع — والحالة هذه — لا يكشف عن شيء أبداً، ويكون المعتمد هو الأصل أو الدليل، هذا وإن احتمال الخطأ والاشتباه في المجمعين كلاً أو بعضاً ولو في واحد منهم يُسقط الإجماع عن الاعتبار، وليس لدينا أية حجة نستند إليها لإلغاء هذا الاحتمال، لأنه يرجع إلى النظر والفكر، ولا يتنزه عن مثله عالم ولا عادل مهما بلغت منزلته العلمية والدينية.

والخلاصة أن الإجماع المنقول ليس بحجة، والإجماع المحصل حجة شريطة أن يحصل من الصدر الأول إلى العصر الأخير، وقد اشتهر على ألسنة رجال الدين في هذا العصر، وذهب مذهب المثل القول: بأن الإجماع المنقول ليس بحجة، والمحصل غير حاصل.

الشهرة:

ذهب بعض من تقدم إلى أن الشهرة دليل شرعي، لأنها أقوى ظناً من الحديث المنقول بخبر الواحد، ومن شهادة العدلين.

وقسَّم المتأخرون الشهرة إلى ثلاثة أقسام:

أولها: الشهرة الروائية.. وهي أن تشتهر رواية بسبب نقلها في أغلب كتب الحديث، وتكرارها على ألسنة الراوين، وهذه الشهرة لا تفيد أية فائدة سوى أنها تكون سبباً في تقديم الرواية المشهورة عند معارضتها برواية أخرى دونها معرفة وشهرة، فتقديم الحديث المشهور والأشهر متفق عليه بين الفقهاء جميعاً.

ثانيها: الشهرة العملية.. وهي أن توجد رواية ضعيفة السند، ولكن على الرغم من ضعفها عمل بها أكثر الفقهاء، واستندوا إليها في الفتوى والعمل، فعمله يجبر ما فيها من ضعف، كما أن إعراضهم عن رواية صحيحة السند يضعف من قوتها، وبعبارة أخصر إن عمل المشهور يقوي الضعيف، ويضعف القوي من جهة السند فحسب، لأن إعراض أكثر العلماء عن حديث هو بمرأى منهم، مع شدة احتياطهم للدين يدل دلالة واضحة على أن هناك أسباباً تستدعي ترك الحديث، من غفلة الراوي، أو عدم صدور الحديث لبيان الحكم الواقعي، وما إلى ذلك من الأسباب الصحيحة التي

اطلعوا عليها، وخفيت علينا، كما أن عملهم بالضعيف مع علمهم بحال الراوي يدل على صدقه بهذا الحديث خاصة، لأن الكاذب قد يصدق.

ثالثها: الشهرة الفتوائية.. وهي أن يفتي أكثر الفقهاء في واقعة ما، ولم نعلم مدرك الفتوى، وهذه لا تأثير لها في شيء أبدا، لما قدَّمناه من الكلام على الإجماع.

الاستصحاب:

استصحاب الشيء هو البقاء على اليقين السابق بوجوده، واستمراره إلى زمن الشك، واحتمال خلوه من صفحة الوجود، فلو علمنا بحياة إنسان غائب ثم احتملت لدينا وفاته لسبب من الأسباب، فنبقى على اليقين السابق بحياته، ولا نرفع اليد عنه إلا بحدوث اليقين بموته، وخير ما قيل في تحديد الاستصحاب موضوعاً وحكماً قول الإمام الصادق (ع): (لا يُنقض اليقين بالشك، ولا يدخل الشك في اليقين، ولا يُخلط أحدهما في الآخر، ولكن يُنقض الشك باليقين، ويُتمُّ على اليقين، فيبنى عليه، ولا يُعتد بالشك في حال من الأحوال) .

وقد اتفقت كلمة الجميع على العمل باليقين السابق عند فقدان النص، إلا أن هناك موارد خاصة هي في نظر القدامى داخلة في الاستصحاب، بينا يراها المحدَثون خارجة عنه، ونذكر منها موردين:

١- أن يسري الشك إلى وجود الشيء وحدوثه، بحيث يتبين أن وجوده لم يكن متيقناً في آن من الآنات، كما إذا تيقنت يوم الجمعة بعدالة زيد، ثم يوم السبت ترددت في عدالته في بدء الأمر، وأنه هل كان عادلاً يوم الجمعة، وأن اليقين كان مطابقاً للواقع، أو أنه لم يكن عادلاً أبداً، وأن اليقين السابق كان اشتباهاً وجهلاً مركباً، ومثل هذا خارج عن الاستصحاب، لأن حقيقته أن يتمحض الشك إلى البقاء مع إحراز اليقين بالوجود في السابق، كما لو علمت بعدالة زيد في يوم الجمعة، وترددت في بقائها واستمرارها إلى يوم السبت، وبتعبير أخصر إن الاستصحاب هو علم بالحدوث وشك بالبقاء، ومتى رجع الشك إلى الحدوث نفسه، فلا يكون من الاستصحاب في شيء، وسمَّى المتأخرون هذا النوع بالشك الساري، وجزموا بفساده وعد الاعتماد عليه.

٢- أن الشيء الذي أريد استصحابه والحكم ببقائه واستمراره، تارة يكون بنفسه حكماً شرعياً، كوجوب شيء وحرمته، وأخرى يكون موضوعاً خارجياً، وليس له أي أثر شرعي، كبقاء حجرٍ في المكان الذي كان فيه، وحياة شجرة كانت حيّة في العام الماضي، وثالثاً يكون موضوعاً خارجياً، له آثار شرعية تترتب عليه ابتداء وبلا واسطة، وله آثار غير شرعية، كحياة زيد، فإن من آثارها الشرعية وجوب الإنفاق على زوجته، وعدم تقسيم تركته، ومن غير الشرعية نمو جسمه، وقيامه بأعمال تتفق مع حياته ومهنته، والقسم الأول يجري فيه الاستصحاب، ويكون الحكم الشرعي المجهول بمنزلة المتيقن من حيث وجوب العمل، والقسم الثاني لا يجري فيه الاستصحاب بوجه، ويُنقض اليقين فيه بالشك، أما القسم الثالث فيجري فيه الاستصحاب بالنسبة إلى الآثار الشرعية فحسب، دون اللوازم العادية والعقلية للموضوع المستصحب، فباستصحاب حياة زيد تُثبت وجوب الإنفاق على زوجته، وعدم تقسيم تركته، ولا يمكن إثبات شيء غير شرعي، مما تستلزمه حياته العامة والخاصة.

والسر أن تنزيل المجهول منزلة المعلوم، ومعاملة الشيء الذي لم يُحرز بالوجدان ولا بالبينة معاملة الشيء الثابت؛ هذا التنزيل وهذه المعاملة خلاف ما ينبغي أن تكون عليه الحال، لأن المجهول غير المعلوم والمتردد غير العالم، ولكن للشارع أن يطلب من المكلف في جميع أحواله ما يشاء، وكيف يشاء، فيكلفه حال الجهل بما كلفه به حال العلم، مادام العقل لا يرى في ذلك بأساً، وقد ثبت عن الشارع أنه يجب المضي على العمل حال الشك، كما يجب حال العلم، وهذا التصرف من الشارع إنما يتناول ما كان من وظيفته وشئونه، أما الأشياء التي لا تدخل تحت سلطانه من حيث هو مشرّع فلا يجري فيها الاستصحاب، فلو أن رجلاً شكك في طلوع الفجر في إحدى ليالي شهر رمضان، فله أن يستصحب بقاء الليل، فيأكل ويشرب اتكالاً على استصحاب الليل، لأن الشارع أمره بالبقاء على اليقين السابق، وأذن له بالأكل والشرب مادام الليل باقياً، ولكن ليس له إذا سئل عن الساعة أن يجيب بأنها لم تبلغ الرابعة بعد – إذا كانت وقتاً لمطلع الفجر – لأنها خارجة عن دائرة الشرع.

فالاستصحاب أصل مدركه الشرع تعبد به المتحير، على أن يأتي بعمله على ما تقتضيه حالته السابقة، ولا يتعدى هذا التعبد الآثار الشرعية إلى غيرها، وعلى هذا يكون الاستصحاب حجة شرعية متبعة في موردين فحسب، فيما

إذا كان المستصحَب نفسه حكماً شرعياً وفيما إذا كان موضوعاً لحكم شرعي، بحيث يكون الحكم لازماً للمستصحب نفسه، ولاحقاً له من غير واسطة عقلية أو عادية، أما لو كان الحكم أثر الشيء، وهذا الشيء لازم من لوازم المستصحب، أي ينتهي إليه بواسطة غير شرعية، فلا يعتمد في مثله على الاستصحاب، ومثاله لو تردّى كبش من شاهق وذُبح بعد التردي، وجهلنا أن الذبح كان حال استقرار الحياة بحيث استند خروج الروح إلى الذبح لا إلى التردي كي يحل الأكل منه، أو أن الذبح حصل عند النفس الأخير للكبش، وأن روحه خرجت بسبب التردي لا بسبب الذبح، كي يحرم لحمه، فليس لنا — والحالة هذه — أن نستصحب حياة الكبش الثابتة قبل التردي، ونحكم باستمرارها إلى زمن الذبح، لأن هذا يرجع إلى الملازمة العقلية لإثبات وقوع الذبح حين استقرار الحياة، والمفروض أن الاستصحاب أصل شرعي لا عقلي، وبتعبير ثانٍ أن جواز الأكل ليس حكماً للحياة نفسها، وإنما هو حكم للذبح الصحيح، وهذا الذبح لم يثبت بطريق الاستصحاب، بل ثبت بطريق الملازمة العقلية لاستصحاب الحياة، أي أن الموضوع الشرعي ثبت باستصحاب غيره لا باستصحابه بالذات.

واصطلح المتأخرون على تسمية هذا النوع بالأصل المثبت، جازمين ببطلانه، واعتمد عليه السلف في العبادات والمعاملات مثبتين به كثيرا من الأحكام الشرعية، نقل منها من تأخر عنهم جملة وافرة في باب الاستصحاب، وانتقدها بما قدّمنا بيانه.

والخلاصة أن الاستصحاب لا يتحقق إلا بوجود ركنيه: يقين سابق، وشك لاحق، ولا يكون حجة متبعة إلا في الأمور الشرعية فحسب.

وأقف عند هذا الحد مخافة أن لا يتسع صدر القرّاء للمزيد، وأحسب أن ما ذكرته يصلح مثالاً للفرق بين القديم والجديد من أصول الفقه للشيعة الإمامية، كما يصلح شاهدا لفتح باب الاجتهاد عندهم، وعد تقييدهم بأقوال السلف قلّت أم كثرت.

❁ مجلة " رسالة الإسلام "، المجلد٢، السنة الثانية، العدد ٣ الصادر في رمضان سنة ١٣٦٩هـ الموافق يوليو ١٩٥٠م، ص (٢٧٨ -٢٨٩).

(٣٦) تطليق القاضي لعدم الإنفاق

اتفقت كلمة المذاهب الإسلامية جميعاً على أن الزوج يملك طلاق زوجته دون قيد أو شرط وأنه ليس لأحد أياً كان أن يطلق زوجه غيره مادام الزوجان الشرعيان راغبين في بقاء الزوجية، أو رغبت الزوجة وحدها في الفراق إذا كان الزوج حاضرا، سليما، قادرا على الإنفاق بنحو من أنحاء القدرة.

وإنما وقع الخلاف بين فقهاء المسلمين في أنه هل للقاضي أن يطلق زوجة الرجل من غير إرادته إذا طلبت منه ذلك، لعدم إنفاقه عليها، أو لغيابه عنها؟

ورغبة في التوضيح نقسم الكلام إلى نقطتين:

(الأولى): أن تطلب الزوجة من القاضي الطلاق من زوجها الحاضر بسبب عجزه عن الإنفاق .

اتفق المالكية والشافعية والحنابلة على أصل الفكرة العامة، وهي جواز التفريق بين الزوجين إذا عجز الزوج عن الإنفاق في الحال أو الاستقبال، واختلفوا في بعض القيود التي لا تمس جوهر الموضوع، فالمالكية يشترطون أن لا تعلم المرأة عجز الرجل عن الإنفاق عند العقد، بينما الشافعية يجيزون لها الفسخ سواء أعلمت بالعجز عند العقد أم لم تعلم. وقال المالكية: لابدَّ من تطليق القاضي، ويكتفي الشافعية والحنابلة بالفسخ من قبل الزوجة، وعلى أي الأحوال فإن المهم هو معرفة أن المذاهب الثلاثة فسحوا المجال للزوجة أن تخرج عن عصمة زوجها الحاضر العاجز عن القيام بأقل نفقتها المجزية.

وقال الحنفية: لا يفرق بين المرء وزوجه بسبب إعساره، وإنما تجب نفقتها والحالة هذه على من كانت تجب عليه على فرض عدم وجود الزوج، فتجب نفقتها على أقاربها، وإذا امتنع القريب عن الإنفاق عليها حبسه القاضي، وتصير النفقة دَيناً في ذمة الزوج يؤديه عند الإمكان(١)، وهذا الحال يزيد المسألة تعقيداً وإشكالاً، لأن الأعم الأغلب من الناس يعجز عن نفقة نفسه وأولاده فضلاً عن أقربائه .

(١) الفقه على المذاهب الأربعة والأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين . "مغنية"

أما الشيعة الإمامية فلم يرد لهذه المسألة ذكر في كثير من كتبهم الفقهية، وأكبر الظن أن سكوتهم يرجع إلى أنهم يجدون في الدليل قوة على جواز الطلاق من جهة، ومن جهة أخرى يحجمون عن الفتوى تورعا وإشفاقا، لأنهم تسالموا على لزوم الاحتياط في كل ما يعود إلى الفروج، ومراعاة للمشهور من (إن الطلاق بيد من أخذ بالساق).

إلا أن سكوتهم عن هذه المسألة، وتصريحهم في باب النفقة بأن نفقة الزوجة لا تسقط عن الزوج بإعساره، بل تكون دَينا في ذمته. إن سكوتهم هناك وتصريحهم هنا أحدث هذه المعضلة وهي أن الزوج لا يستطيع الإنفاق، والزوجة لا سبيل لها إلى الصبر، فما هو الحل ؟

والحقيقة أنه إذا تجردنا عن الاعتبارات، ورجعنا إلى الأصول العامة للشيعة الإمامية التي يستنبطون منها الأحكام الشرعية لوجدنا الأدلة متوفرة على أن للقاضي أن يطلق زوجة الحاضر المعسر، وأن عدداً من كبار فقهائهم يفتون ويعملون بذلك، قال المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني في السبب الخامس من أسباب تحريم الزواج من كتاب الوسيلة الكبرى: (لو كان الزوج ممتنعاً عن الإنفاق مع اليسار، ورفعت أمرها إلى الحاكم، ألزمه بأحد أمرين، إما الإنفاق وإما الطلاق، فإذا امتنع من الأمرين ولم يتمكن الإنفاق من ماله ولا إجباره بالطلاق، فالظاهر أن للحاكم أن يطلقها إن أرادت الطلاق). والشرط الذي ذكره السيد وهو يسار الزوج وامتناعه عن الإنفاق وعدم إمكان إجباره لا يمس جوهر الفكرة العامة.

وقد وكّل السيد المذكور أناساً بتطليق زوجة الغائب إذا لم يحضر إليها، ولم ينقلها إليه، ولم يؤمن لها النفقة، والهدف الأول والأخير من جميع هذه القيود عدم الإنفاق لا غير، فهو الباعث الوحيد على جواز الطلاق، ولا تأثير أبداً للحضور والغيبة بذاتهما، وذكرهما كان من باب الوسيلة لا الغاية. وقال المرحوم السيد كاظم صاحب العروة الوثقى في كتاب الملحقات باب العدَّة: (يجوز للحاكم أن يطلق زوجة المفقود المعلومة حياته، والمحبوس في مكان لا يمكن مجيئه أبدا، والحاضر المعسر الذي لا يتمكن من الإنفاق على زوجته بنفسه، أو بواسطة متبرع، مع عدم صبر الزوجة، ففي جميع هذه الصور وأشباهها يمكن أن يُقال بجواز الطلاق، خصوصاً إذا كانت الزوجة شابَّة، وكان بقاؤها على الزوجية موجباً لوقوعها في الحرام، فالأولى بل اللازم فكها، حفظا لها من الوقوع في المعصية) . وقال الشهيد الثاني في كتاب

المسالك عند الكلام على طلاق زوجة الغائب: (إنَّ للمرأة الخروج من النكاح بالإعسار بالنفقة على قول، لفوات الحال).

ومفاد كلام صاحب العروة أن السر الوحيد في تطليق زوجة الغائب المعلوم والمجهول، وزوجة المحبوس والحاضر هو عدم الإنفاق، فمتى أمكن كان الطلاق بيد من أخذ بالساق،وإلا ساغ للقاضي أن يطلق إذا أرادت الزوجة.

ونراه عليه الرحمة – وهو الشهير بعلمه وتبحره في الفقه، واحتياطه في الدين – يعتمد الأمور الاجتماعية في استخراج الحكم الشرعي، حيث جعل عدم صبر الزوجة، وخشية وقوعها في المعصية أحد الأسباب لجواز طلاقها.

وبعد أن ذكرنا عدداً من أقطاب الإمامية يقولون بجواز التطليق نورد بعض الأحاديث التي صحَّت روايتها عن أهل البيت (ع)، ففي صحيح ربعي والفضل بن يسار عن الصادق (ع) أنه قال: إذا أنفق الرجل على زوجته ما يقيم ظهرها مع كسوة وإلا فرِّق بينهما، وصحيح أبي بصير قال: سمعت الباقر (ع) يقول: من كانت عنده امرأة فلم يكسها ما يواري عورتها، ويطعمها ما يقيم صلبها كان حقاً على الإمام أن يفرِّق بينهما، والصحيح عن ابن أبي عمير عن جميل بن دراج عن عنبسة عن الصادق (ع) قال: إذا كساها ما يواري عورتها، وأطعمها ما يقيم صلبها قامت معه وإلا طلقها. قال المرحوم السيد صاحب العروة وملحقاتها معلقاً على ذلك: إن الظاهر أن الزوج يُجبر على الطلاق؛ وإذا لم يمكن إجباره لغيبته فيتولى الحاكم الشرعي طلاقها. ويستأنس لذلك بقول الله سبحانه: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (البقرة:٢٢٩) بتقريب أن الأمر بالإمساك أو التسريح يدل على الوجوب، و أو قرينة على الوجوب التخييري، والخطاب للأزواج، فإنهم مكلفون بإمساك الزوجات بالمعروف، أو الطلاق، وإذا امتنع أحد فردي الواجب التخييري وهو هنا للإنفاق، لأنه من أعرف المعروف تعيَّن الفرد الثاني وهو الطلاق، وعليه إذا عجز الزوج عن الإنفاق وجب عليه التسريح تعيّنا، فإن امتنع طلق عليه القاضي بولايته الشرعية، لأنه ولي الممتنع.

ثم أن النفقة حقٍ للزوجة على الزوج قبالة طاعتها له، وجعل أمرها بيده إمساكاً وتسريحا، والطلاق حق للزوج قبالة إلزامه بنفقتها ومهرها، وفيما نحن فيه الأمر دائر بين أمرين على سبيل مانعة الخلو، إما إبقاء الطلاق بيد الزوج فقط، وحينئذٍ تضار الزوجة لفوات حقها بالنفقة، وإما جعل الطلاق بيد القاضي فيلحق الضرر بالزوج خاصة، لفوات حقه بالطلاق،

فيتعين ارتكاب أقل الضررين، ودفع أشد الخطرين أي تجنب الأكثر بفعل الأقل، ولا ريب أن الضرر اللاحق بالزوجة بسبب حرمانها النفقة أكثر وأشد من ضرر الزوج برفع يده عن الطلاق لأن بالنفقات تُحفظ الحياة، والشرع الأقدس قد أباح أهم المحرمات في سبيل المحافظة على الحياة، وأجاز ارتكاب الضرر المهم مقدمة لدفع الضرر الأهم، وعليه يجوز تطليق زوجة المعسر إذا أرادت ذلك شريطة أن تقوم الأمارات على استمرار عجز الزوج عن الإنفاق، ويعود تشخيص استمرار العجز وعدم زواله في أمد طويل أو قصير إلى نظر القاضي وحده.

وبتعبي ثاني أنه إذا فُقد التعاون بين الزوجين الشريكين بامتناع كل واحد عن القيام بواجبات الآخر أدّى ذلك – في الغالب كما نراه – إلى معصية الله، وعدم إقامة حدوده المفروضة، والطلاق ضرورة دينية اجتماعية، شُرّع لمنفعة المجتمع وانتظام سيره في الحياة، فالرجوع إليه متعين حيث لا ينتظم السير بدونه.

وبعد أن أفتى بذلك بعض مراجع الإمامية، ودلّت عليه رواياتهم الصحيحة، واستؤنس له من الكتاب العزيز، وساعد عليه الاعتبار، جاز للقاضي التطليق إذا تعذر الإنفاق بشتى الطرق المشروعة، ومتى حصل التفريق اعتدت المرأة، فإذا أيسر الرجل في أثناء العدّة كان أحق بردها، وإلا فهي أجنبية عنه لا يملك من أمرها شيئاً.

والخلاصة أن الشافعية والمالكية والحنابلة يجيزون أن يطلق زوجة الحاضر المعسر، إذا حصل الاطمئنان وتبين من قرائن الأحوال أن عجزه عن الإنفاق يستمر طويلاً، بحيث تتضرر الزوجة من بقاء عقدة الزواج تضررا لا يمكنها حمله، ووافقهم من الإمامية من يُعتمد على قوله، وهو ما تقتضيه أصولهم المتبعة في استنباط الأحكام، أما الحنفية فقد خالفوا الجميع ولم يجيزوا التفريق بحال، ولكن بعض أتباع مذهب أبي حنيفة أنفسهم تركوا العمل بقوله، وأخذوا بأقوال المذاهب الأخر، فهذه المحاكم الشرعية في مصر تحكم بالتفريق إذا ثبت عندها إعسار الزوج وعجزه عن الإنفاق على الرغم من أنها أخذت بقول أبي حنيفة دهرا طويلا .

التطليق لغيبة الزوج :

(النقطة الثانية) : تطليق القاضي لغيبة الزوج، والغائب تارة يُعلم مكانه، ومحل إقامته، وأخرى يُجهل خبره ولا يُعلم حياته ولا موته.

الحنفية قالوا: لا تُطلق زوجة الغائب أبداً، علم مكانه أو لم يعلم، كان له مال تنفق منه أو لم يكن، هي زوجة ما دامت ودام من الأحياء حتى تثبت وفاته أو وفاة أقرانه أو يمضي تسعون عاماً من تاريخ ولادته (١).

وأجمع الإمامية والشافعية والمالكية والحنابلة على أنه إذا غاب الزوج وكان له ما تنفق منه الزوجة، فلا يجوز لها الفسخ ولا تطليقها أبداً، علم مكانه أو جهل، وإذا لم يكن ما تنفق منه على نفسها فيجوز التفريق بشرط أن يحصل اليأس بعدم زوال السبب، فكما لا يجوز تطليق زوجة الحاضر المعسر إلا بعد الاطمئنان باستمرار عجزه لا إلى أمد، أو إلى أمد تضار الزوجة بالاستنظار، كذلك لا يجوز تطليق زوجة الغائب إلا بعد حصول اليأس من حضوره والإنفاق عليها بأحد الطرق. فاليأس شرط أساسي لجواز التطليق عند جميع المذاهب التي أباحت التفريق، ومن لم ينص عليه صراحة فقد دلَّ عليه كلامه قرينة وسياقاً.

ويختلف حصول اليأس باختلاف الغائب، ومدة انتظاره ومخابرته مع الإمكان، فإذا علم مكان الغائب أنذر أولاً بأن يطلب منه القاضي أن يرسل النفقة لزوجته أو يحضر إليها أو يطلبها إليه أو يطلق، ويطلب له أمداً يتناسب مع مقتضى حاله، فإذا امتنع وتمرد طلق عليه القاضي، وهذا هو رأي المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني.

أما إذا لم يعلم مكانه، وانقطعت أخباره، ولم يكن ما تنفق منه زوجته فقال الشافعي تنتظر سبعة أعوام، وقال مالك وابن حنبل أربعة أعوام(٢) .

---

(١) الأحوال الشخصية لمحمد محيي الدين، وكتاب الطلاق في الإسلام لمولانا محمد علي، تعليق الأستاذ زهدي يكن، ولكن الأستاذ يكن نقل في تعليقه على الكتاب المذكور عن الإمام أبي حنيفة وأبي يوسف صفحة ٦٧ أن زوجة المفقود تنتظر مئة عام، وفي ص ٧٢ من الكتاب نفسه نقل عن مذهب أبي حنيفة أن المدة تسعون عاماً. "مغنية"

(٢)كتاب الطلاق في الإسلام، تعليق الأستاذ زهدي يكن. "مغنية"

ووافقهم الإمامية على شرط أن يكون ابتداء السنوات الأربع من تاريخ رفع أمرها إلى الحاكم.

وحكم المحبوس حكم الغائب، فمع إمكان الإنفاق ليس لزوجته طلب الطلاق، سواء أكان حبسه مؤبداً أم مؤقتاً، ومع عدم الإنفاق فإن حصل اليأس من زوال العذر بأن كان قد حكم عليه بالسجن المؤبد، أو أمداً طويلاً لا تتحمل الزوجة الانتظار والصبر فيه، جاز للقاضي التفريق وإلا وجب الصبر، وهذا صريح كلام المرحوم السيد كاظم في ملحقات العروة.

والخلاصة أن المدار في جواز التطليق وعدمه على إمكان الإنفاق وعدمه، سواء في ذلك الزوج الحاضر المعسر والغائب المحبوس؛ فإن أمكن بوجه من الوجوه امتنع الطلاق بكل وجه، وإلا جاز على المنهج الذي بيّنّاه.

بيروت.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٧ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٦٩هـ الموافق ايلول (سبتمبر) ١٩٥٠م، ص (٩٩١ -٩٩٥).

(٣٧) الحديث ذو شجون

يدرّس الدكتور عمر فرّوخ الأدب والفلسفة في كلية المقاصد (بيروت) ويلقي درساً في الدين ساعة من كل أسبوع، وإن لهذه الساعة من الأثر الطيب ما لمدرسة كاملة تتوخى إعلان الحق وإحياء المحبة بين بني الإنسان، إن أفضل المدارس ما عمل للعلم والتهذيب معاً، وأنفعها ما جمع القلوب على مبدأ واحد يتجه بها لغاية واحدة، إن الدين يجب أن يكون مبدأ مقدساً يهدي للتي هي أقوم بعيداً عن الغايات والأهواء، ومن عمل للحق والهداية فقد ناصر الدين وأهله سواء أكان معمماً أم مبرنطاً أم حاسر الرأس كالدكتور فرّوخ، وسواء أسماه الناس فقيهاً أم دكتوراً.

حدّثني بعض تلاميذ الدكتور أنه ينقل إليهم نظريات المذاهب الإسلامية في الفقه وغيره مما يتصل بحياتهم وعقائدهم اتصالاً مباشراً، ثم يرشدهم إلى الأصح من غير تعصب لمذهب خاص، فيختار مذهب الشافعية في مسألة، ومذهب الحنفية في مسألة أخرى، ومذهب الشيعة الإمامية في ثالثة، ورائده في ذلك كله المنطق، وضالته المصلحة أينما كانت.

أعطيت كتبياً (١) نسخاً من كتابي — الفصول الشرعية — ليعرضها للبيع، وبعد أيام مررت به، فحدّثني حديثاً طريفاً، قال: مرَّ بي شيخ معمم، ولما نظر كتاب الفصول أخذ يقلبه ويحدق النظر فيه، ثم قال: كم ثمنه؟ فأجاب الكتبي: ليرتان لبنانيتان، فقال: ليرتان ومؤلفه جعفري!! كثير كثير!! فتركه وولى مدبراً! أصغيت لحديث الكتبي بعد أن سمعت تلاميذ الدكتور فرّوخ يحدثون عن صراحته وحرية رأيه، فقلت: سبحان من خلق الشوك والورد! وإذا وجب البعد عن الشوك الدامي فعلينا أن نلتمس الطيب والجمال في الرياض والجنان، فقصدت الدكتور إلى الكلية زائراً شاكراً، وكنت أعرف الدكتور بروحه وآثاره التي لمست فيها إنصافه وتجرده، ولم أكن التقيت به من قبل، فتحدثنا — والحديث ذو شجون — في مواضيع شتى، وعرض لنا منها ما لم نكن نقصد.

وفي بعض حديثه سألني عن رأي الشيعة الإمامية في الفرق بين الإسلام والإيمان، قلت: ليس لهم في ذلك رأي خاص، فالإسلام عند جميع المذاهب

---

(١) الذي يبيع الكتب.

الإسلامية هو قبول ما أتى به محمد (ص)، فكل من أظهر الإسلام وجب عدّه في زمرة المسلمين، ولا يجوز القول إنه غير مسلم، للظن بأنه لا حقيقة لإسلامه، أما الإيمان فتعرَّض لتفسيره علماء الإمامية في كتب الكلام والتفسير والفقه وأصوله، ففي كتاب شرح التجريد – كلام: الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معا، ولا يكفي أحدهما عن الآخر، وفي كتاب القوانين – أصول المجلد الثاني: إن التفسير الموجود في كتاب التجريد لمعنى الإيمان هو مقتضى إطلاق أكثر الإمامية، وبهذا فسَّر صاحب مجمع البيان الآية ١٤ من سورة الحجرات: " قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا وقولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" وعليه يكون كل مؤمن مسلم ولا عكس، أما ما قيل من أن الإيمان لا يتحقق إلا بفعل جميع الواجبات والمستحبّات وترك جميع المحرمات والمكروهات بقصد الطاعة والإخلاص فذاك معنى رياضي عرفان.

ثم ترامى الحديث بنا إلى فتح باب الاجتهاد، فقال الدكتور: إن الشيعة يفتحون باب الاجتهاد من جهة، ويسدونه من جهة ثانية، لأنهم لا يجتهدون مع وجود قول الإمام، والسنة أيضاً يسدونه من جهة، ويفتحونه من جهة، لأنهم يستعملون القياس، والعمل به اجتهاد صريح. قلت: رأيت البعض يفسر باب الاجتهاد عند الشيعة وسده عند السنة تفسيراً مغلوطاً، إن الشيعة يفتحون باب الاجتهاد على أساس العمل بالكتاب والسنة، فيحق لكل من فيه مؤهلات الاجتهاد أن يستنبط الأحكام منهما بفهمه وأن يعمل برأيه، ويعلنه بصراحة وحرية تامة، سواء أخالف السلف أم وافقهم، لأن الاجتهاد بهذا المعنى يستحيل أن يكون وقفاً على أهل زمان دون زمان، أما السنة فقد حجروا على العالِم مهما بلغت مكانته العلمية أن يعمل أو يعلن رأيه إلا إذا وافق السلف، أقول هذا، وأنا أعرف أفراداً من علماء السنة يخطئون هذه الطريقة، وأنه في غدٍ أو بعد غد سينتهون جميعاً إلى قول الشيعة.

أما عدم اجتهاد الشيعة مع وجود قول الإمام فيرجع إلى السند فحسب، حيث يفرقون بين رواية الأئمة عن جدهم وبقية رواة الحديث، فكل راوٍ غير الإمام يحتملون في قوله الصدق و الكذب، والخطأ والصواب، أما قول الإمام فيثبت به قول الرسول بالذات ثبوت حديث الثقلين، فكما أن حديث الثقلين بلغ ثبوته حداً لا يحتمل فيه الكذب، كذلك قول أهل بيت الرسالة، وهو الدليل والمستند.

يعلم الدكتور عمر فرّوخ أنه أُدخل في كل مذهب من المذاهب الإسلامية أشياء وأشياء ليست من الدين في شيء، بل هي افتراءات ألصقتها بالدين يد الجهل والأهواء، فكانت أمضى سلاح في يد الفاتحين والطغاة المستبدين، ويعلم أيضاً أن العلم من غير تربية وتهذيب سلاح مسموم، فعمل جاداً على وقاية الطلاب من الأوباء والأدواء، وسلك بهم طريق الإخاء والحرية والاستقلال بالرأي، وحبَّذا لو اتبع أساتذة المدارس ومعلمو الدين منهجه القويم.

بيروت

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٨ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧٠هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥١م، ص (١٩١-١٩٢).

(٣٨) من هنا وهناك

١- مجلة العرفان:

لوجمعنا ما كُتِب ونُشرعن مجلة العرفان وصاحبها منذ بدايتها إلى اليوم، لبلغ مجلدا من مجلداتها لسنة كاملة، وطبيعي أن يكونٍ في هذه الكثرة حق وصدق، وأن يكون فيها مجاملة وتملق تمهيدا للنشر وإعلان الاسم.

وصاحب العرفان يعلم أني صريح معه إلى أبعد حد، شأني مع أصدقائي الخلص الذين أبادلهم العطف والوفاء، لهذا كان يتقبل ملاحظاتي بصدر رحب، ثقة منه برغبتي في الخير له، ولعرفاننا وعرفانه. كنت ألاحظ وأنتقد بيني وبينه، أو في حضور بعض إخواني وإخوانه، فيعترف، أو ينكر، أو يعتذر، والآن أعلن رأيي في المجلة على صفحاتها مقرضاً وناقداً لا رغبة في الخير لها فحسب، بل وبياناً لحقيقة ذهل عنها من ينظرٍ السيئات، ويعمى عن الحسنات، ويحكم على الشيء لجهة خاصة ذاهلا عن جهات أظهر وأشهر.

إن للملاحظة العلمية أصولاً لا يختلف فيها الأكفاء، وأهمها أن ينظر الناقد أو المقرض إلى جهات الشيء كافة، لا ينظر إلى بعض، ويعمى عن بعض، وهلٍ هي متساوية من نوع واحد أو من أنواع؟ ثم يقيسه بحسبها جميعاً، وحينئذٍ تكون الملاحظة دقيقة صحيحة. على هذا الأصل نوضح تلك الحقيقة التي ذهل عنها ناقدو العرفان عن قصد أوغير قصد.

إن العرفان أشبه برجل قضى دهراً طويلاً في الجهاد، مخلصاً لشعبه وأمته، متحملا المصاعب والنكبات، متنزها عن الدنيات، متذرعاً بالصبر والشجاعة، وقد كان أسلوبه وأفكاره تتلاءم مع العصر الذي بدأ فيه جهاده وعمله، ولما تقدمت به السن، وتغير الزمن، وتجددت الأفكار، وتطورت فنون العرض بقي بحكم حالته السابقة ونشأته الأولى أثر لماضيه بارز في أسلوبه وأفكاره، ولكن هذا لا يحط من قدره ومكانته، فهؤلاء شيوخ علمائنا الذين جاهدوا وصبروا سنوات طويلة قدّروا وما زالوا محل التقدير والاحترام، ومهما بلغ الناشئ من العبقرية والتجدد في الأفكار والتفنن في الأسلوب فإنه في منطق الجموع دون هؤلاء. فإذا

أردنا الحكم على العرفان يجب أن لا ننسى لها فضل السبق إلى الجهاد، والاستمرار على العمل من غير فتور ولا ملل، وأنها لا تبغي من وراء ذلك مالا ولا منصبا، إذا لاحظنا هذا وقسناه إلى بعض ما نُشر في العرفان مما ينقده الملاحظون أنشدنا مع الشاعر الحكيم: " كفى المرء نبلا أن تعد معائبه " .

ولو ترك صاحب العرفان الخجل من بعض الراغبين في النشر، ولم ينخدع بثنائهم لكانت مجلته أوفر حظا، وأكثر توفيقا. قال العلامة العبيدي مفتي الموصل في كتابه النواة: ألحَّ علي شيخ أن أقرظ له كتاباً لا أرتضيه، فحاولت صرفه وإقناعه، فازداد إلحاحا ورجاء، فخجلت وكتبت جملاً موهت فيها عليه، وليتني ما فعلت، لقد كنت معذورا أن لا أكون شاهد زور.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٨ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٧٠هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥١م، ص (٨٠٨-٨٠٩).

تنويه : بجانب هذا المقطع الذي أثبتناه هناك مقطعان آخران بعنوان : افتراء على الشيعة الإمامية ، الشيعة في رأي الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد أثبتهما في كتابه "مع الشيعة الإمامية " ، وأغفل المقطع الأول دون إثبات ، لذا أعرضنا عن إيراد هذين المقطعين من مقاله ، مكتفين بالأول " مجلة العرفان " .

(٣٩) بيني وبين الثائرين على نحو فقه إسلامي جديد ❋

كتبت مقالات بعنوان – نحو فقه إسلامي جديد – وبطريق الصدفة أوغير الصدفة وقع نظر بعض المعممين على إحدى المقالات معنونة به، أي بلفظ فقه جديد، ويكفي هذا العنوان وحده لإعلان الثورة عليَّ، وعلى الفور، وبغير إنذار، أعلنت عليَّ ثورة كانت خير موضوع للحوار والأخذ والرد بين فريق من الأدباء والشباب المثقف.

كانت هذه الثورة في حسباني وعلمي عندما اخترت هذا العنوان، فلم أفاجأ بجديد عندما ترامت إليَّ أخبارها، ورأيت طلائعها في الصحف، لقد شاهدت وأنا في النجف ثورات عديدة ولكن سلاحها كان وما زال من نوع واحد، لم يتغير فيه شيء وهو رمي بالكفر والفسق والجهل، ثورات كلها من نوع واحد، توجه إلى شيء واحد، إلى كل جديد في الأفكار في اللباس في الأثاث في كل شيء. توجه إلى كل من حاول ويحاول تبديل شيء بشيء، وإن كان البدل خيراً وإصلاحاً، كانوا يثورون حتى على من استبدل مصباح الزيت بمصباح الكهرباء، والمداس الأصغر بغيره.

وما أسرع ما تهدأ ثورة الثائرين، ويسلكون سبيل من ثاروا عليه، حتى وجدوا ما يمكنهم من الترف والبذخ، فكان لا يكتفي أحدهم – إذا وجد المال – أن يستبدل مصباح الزيت بالكهرباء، بل يضيف غليها مراوح الكهرباء والهاتف وما إليه. شاهدت هذا كله، وشاهدت بعض المعممين الذين تركوا العمَّة بعد ما تيسر التوظيف في الحكومة، كانوا مع العمَّة أشد المحافظين وفي طليعة الثائرين، وبعدها صاروا لا يعبأون بخلق ولا دين.

إذا تمهد هذا أو إذا عرفت ذلك – كما يعبر السادة الأفاضل – أقدم بين يدي القارئ ما قاله الناقمون والثائرون عليَّ. قلت: يجب أن نعطي أحكاماً للمواضيع الجديدة التي لم يتعرض لها (الأقدمون) فردَّ بعضهم على قولي هذا بقوله: " لا نأتي بجديد لو قلنا أن الحكام الشرعية الفرعية تستنبط من الأدلة الأربعة الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل. وهناك قواعد عوَّل

❋ لمعرفة تفاصيل وحيثيات هذا المقال وما قبله وما بعده من معارك علمية، والأصداء التي تولدت لدى العلماء راجع كتابي " محمد جواد مغنية.. معاركه ومساجلاته العلمية ".

عليها الفقهاء، وهناك أصول عملية أجروها في مواردها، وذلك في مرحلة أخيرة حيث يستنبط الفقيه الأدلة الأربعة فلا يجد عندها جواباً فيلجأ إلى غيرها ". إن هذا القول صريح بأن هناك قواعد وأصولاً عوَّل عليها الفقهاء عند فقدان الأدلة الأربعة الكتاب والسنة والإجماع والعقل، وهذا فتق في الدين وبدعة، لأنه ليس وراء هذه الأربعة إلا الجهل والضلالة، إن الأصول العملية والقواعد الشرعية لا تتعدى هذه الأربعة بضرورة الدين والمذهب، فليس هناك أصل أو قاعدة خارجة عن أحد الأدلة الأربعة. سمع الملاحظ أن الأصل لا يُعمل به إلا عند فقدان النص فظنَّ أن المراد بالنص الأدلة الأربعة!..

دعوت إلى أحكام جديدة للمواضيع الجديدة على أساس أصول التشريع الإسلامي، وهي الأدلة الأربعة التي لا خامس وراءها، ورأى الملاحظ أني خالفت أصول التشريع زاعماً أن الفقهاء عوَّلوا على أصول وقواعد لا تمت إلى الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل بصلة قريبة أو بعيدة، يقول هذا ثم لا يتورع أو لا يترفع عن الهجر إذ يقول: " ومن هذا يتبين أن الكاتب لم يتعمق حكمه هذا قبل إرساله كما أنه لم يحتط لدعواه ببينة ولا دليل، وإنما بعثها خاطرة صرفة أو قل إنها مغالطة سطحية ".

وبعد أن ردَّ عليَّ بهذا المنطق عالج المواضيع الحديثة التي لم يعرف السلف عنها وعن حكمها قليلا أو كثيرا، عالجها بقوله: " على أن أصل الإباحة صدره رحب وأفقه واسع إلى أبعد حد " إن موضوع أصل الإباحة هو الشك في حرمة فعل أو إباحته عند فقدان الدليل الظني المعتبر، وأين هذا من إعطاء الحكم للمواضيع الجديدة، كالملاحة والتجارة البحرية والنظم البريدية التي وضع لها المشرعون قوانين خاصة في مجلدات ضخمة.

وسأعود إلى الموضوع مبيناً معنى أصل الإباحة ومورده ودليله، وأصول الفقه الجديدة التي اكتشفها المجتهدون في العصر الأخير، واستدعت أحكاماً جديدة لا يعرفها القدماء، وغيَّرت الكثير من فروع العبادات والمعاملات، كما سأشرح الأهداف التي أرمي إليها من (نحو فقه إسلامي جديد) .

بيروت.

❊مجلة العرفان، المجلد ٣٨ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٧٠هـ الموافق تموز(يوليو) ١٩٥١م، ص (٩٣٧-٩٣٨).

(٤٠) ادفع بالتي هي أحسن

تعليق على ما كتبه العلاّمة معروف والأستاذ الخيّر

قرأت في العرفان الأغر عدد أيلول سنة ١٩٥١ تعليقا على كلمتي – نحو فقه أسلامي جديد- لسيادة الأخ الجليل العلامة السيد هاشم معروف، وإنه ليسرني أن تتناول بالنقد النزيه ما أكتبه عن الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها أقلام العلماء المخلصين للعلم والدين، أمثال هذا العالم الذي تشهد له سيرته الطيبة هنا وفي النجف الأشرف بالفضل، والنبل.

انتقد في تعليقه رأيا رأيته في الزكاة، استنتجته مما فهمته من أصول الشريعة، فقاسه هو على ما فهمه من الأصول، فوجده مخالف. أبديت رأيي مع الدليل، وأبدى رأيه مع الدليل، بعبارة واضحة، وأسلوب أهل العلم الذين يتخذون النقد سبيلا لبلوغ الحق، وإعلان الحقيقة.

وقبل أن أجيب السيد على ملاحظته أحب أن أبين الفرق بيني وبين الكثير ممن أثاروا الضجة حول ما كتبت .. الضجة التي أشار إليها السيد في صدر مقاله بقوله "خرجت عن باب المناظرات العلمية إلى باب المهاترات" إن عقيدتي عقيدة من ثاروا وأثاروا وأصولي أصولهم، ومدرستي مدرستهم، وقد اكتسبت من مدرستي الدينية، كما اكتسبوا.. اكتسبت أشياء وأشياء. أذكرها، فأشكرها، منها: قابلية التفهيم للحياة وتطورها، والاستعداد للانتقال من القرون الوسطى إلى العصر الذي نعيش فيه، ولا أفترق عنهم، إلا أني قرأت وطالعت الكثير مما يتصل بالحاضر، واكتفوا هم بما قرأوا وطالعوا عن الماضي، أقول: هذا، وأنا أعلم أني في حاجة قصوى للدرس والاطلاع، وأن ما أجهل عن هذه الحياة أكثر مما أعلم، ولكني أشعر بهذا الخجل، وأستطلع إلى المزيد، وأحاوله ما استطعت إليه سبيلا.

إن عقيدتي، وأصولي، ومدرستي عقيدتهم وأصولهم ومدرستهم، ولكني أحاول السير مع الحياة على أساس الدين، ويأبون هم إلا أن يبقوا ويبقوا الدين معهم في برج من العاج، وسور من الفولاذ، إني أحاول الانتقال من العصر الذي كان ينتقل فيه الأجداد من عاملة إلى النجف، ويعودون من النجف إلى عاملة على الجمال والحمير.. أحاول الانتقال إلى العصر الذي نركب فيه السيارة والطيارة ذهابا وإيابا.

إني أكرر القول مع القائل " لو أني مت ثم بعثت وخيرت في الحرفة التي أحترف لما اخترت خيرا من أن أقرأ وأكتب " أقرأ عن منهج هذه الحياة ومشكلاتها، وأنغمس فيها بقدر جهدي، ثم أكتب ما أحس وأشعر ولا أبتغي من وراء ذلك إلا أن أكون مع الأحياء، لا مع الأموات. وبعد أن ثأرت لنفسي، وأرضيتها بهذا الخيال " الذهبي الأدبي " ...بعد هذا أجيب السيد على ملاحظته: قال: " لم يكن للعملة في العهد الأول فردان حجر وورق كي يعبر عن العملة بالحجر، وهو الفرد الأكمل " وألفت نظر السيد الجليل إلى ما جاء في أصول الفقه: من أن القضية تنقسم إلى خارجية، وهذه تشمل الأفراد الموجودة في الخارج بالفعل، مثل قتل من في المعسكر، وولد في هذا العام مائة مولود، وإلى حقيقية، وهذه تشمل كل فرد موجود، وما سيوجد، مثل البالغ العاقل مكلف مسؤول، والمستطيع يحج، والأحكام الشرعية كلها من النوع الثاني، لا الأول ❊.

وفي العدد نفسه قرأت للأستاذ سليمان الخيّر بعنوان – العلويون – النصيرية: " إن العلويين من صميم الإمامية الاثني عشرية، مذهبهم مذهب الإمام جعفر الصادق (ع) "، وقد كرَّر الكاتب هذا القول في كلمته.

لا أريد أن أبحث عن عقيدة العلويين، لأني لا أعرف عنها قليلاً ولا كثيراً، والذي يهمني هو التنبيه على أن ما ذكره الكاتب من عقائد العلويين لا يتفق مع مذهب الشيعة الإمامية في شيء.

١- قال: " تستمد النصيرية تعاليمها من نصوص القرآن، والإنجيل، والتوراة" وهذا غير ما عليه الإمامية، حيث يستمدون تعاليمهم من الأصول الأربعة: القرآن، السنة، الإجماع، العقل، ولا يرجعون في أحكامهم إلى نصوص التوراة والإنجيل الموجودين بين أيدي الناس.

٢-بعد أن بيَّن أن العلوي اضطهد، ومُنع من إقامة شعائر دينية قال: " ولما كانت طريقة العلوي عقلية فلسفية أوجد الحل .. وقال: إنما الصلاة هي اتصال بالله عن طريق الفكر والروية، والانصراف عن الرغبات الحسية، والتوجه نحو الباري تعالى بغاية التجرد والإخلاص، وعكف يتلو كتاب الله، ويفكر ويقيم ذكره وعبادته في أوقات الصلاة معتمداً قوله تعالى:" إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر" (العنكبوت:٤٥) على طريقته ومذهبه.

وهذا غير ما عليه الشيعة الإمامية، لأن العبادة عندهم ليست عقلية، ولا فلسفية ، وإنما هي تعبّد يقف الفقيه فيها على النقل دون العقل، ولا يسد مسدها شيء، وفي الحديث عن الصادق إن الصلاة لا تُترك بحال، فتلاوة القرآن والتفكير والتجرد والإخلاص، كل ذلك لا يُغني عن إقامة الصلوات الخمس.

٣-قال الكاتب في تفسير الجنة والنار عند العلوي: " لا يسلم العلوي بتفسير ظواهر الآيات الواردة في الجنة، وإنما الجنة عند العلوي هي كسب المعركة بين الجسم والروح، وخلود الروح أن تصبح مع الملائكة الأبرار خالصة من شوائب الأكدار، وهي الجنة الحقيقية، والنعيم السرمدي، أما النار في عرف العلوي فخلود في عالم الأجسام، وتجريد من العقل، وجوهر الروح ".

وهذا غير ما عليه الشيعة الإمامية، حيث يعتقدون النشر والحشر في غير هذه الحياة، كما نصَّ القرآن الكريم، فيحاسِب المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته:" فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " (الزلزلة:٧-٨) هذا، وإن الشيعة الإمامية ليس في مذهبهم تعقيد، ولا في عقيدتهم غموض، بل من عقائدهم أن ينشروا، ويبشروا، ويعلنوا كل ما يدينون به، ولذا تجد كتبهم الدينية في الأسواق، والمكاتب، وعند كل طالب راغب في معرفتها، والاطلاع عليها.

❁ لمعرفة تفاصيل وحيثيات هذا المقال وما قبله وما بعده من معارك علمية، والأصداء التي تولدت لدى العلماء راجع كتابي " محمد جواد مغنية.. معاركه ومساجلاته العلمية " فصل " هاشم معروف الحسني ومعركة الفقه الإسلامي الجديد "

❁ مجلة العرفان، المجلد ٣٩ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧١هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢م، ص (٢٦٢-٢٦٤).

(٤١) رد العامي إلى الفصيح - للعلامة الشيخ أحمد رضا -

إذا أردنا أن نفاضل بين لغتين نظرنا أيهما أكثر انتشاراً وأغنى ألفاظاً، ومن المقاييس التي تمتاز بها لغة على لغة أن يكون لإحداهما وحدة في النطق والكتابة والقواعد دون الأخرى. ولهذه الوحدة أهميتها البالغة إذ يسهل على أبناء اللغة تفهم قوميتهم وتراث آبائهم وأجدادهم، أما إذا بعدت الشقة وكثرت الفروق بين الكتابة والنطق في اللغة الواحدة صعب على أبنائها معرفة دينهم وأدبهم وكل ما يتصل بتاريخهم، وكانوا غرباء بالقياس إلى لغة قومهم، لا يتفهمونها إلا بالتعليم والدرس.

وللغة العرب قواعد قياسية منظمة، وما خرج عن هذه القواعد فشاذ بمنزلة العدم، أما الدليل على وحدة هذه اللغة نطقاً وكتابة فإنك لا تجده في كتاب قديم ولا حديث إلا في كتاب " رد العامي إلى الفصيح " للعلامة الشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، فقد أثبت في كتابه هذا أن اللغة العربية كما حافظت على مفرداتها في الكتابة فإنها حافظت عليها في النطق، وإن إختلاط العرب مع الأعاجم فإن له تأثيره في الهيئة والمظهر، ولم يغير شيئاً من المادة والجوهر، وهذا أصدق دليل على قوة اللغة العربية ومناعتها في نفسها ومقاومتها لكل تيّار.

وإذا كانت اللغة أداة للتعكير كما هي أداة للتعبير، فتدل على طبيعة أهلها وأخلاقها، لأنها لغة البيت والأم، فإن كتاب " رد العامي إلى الفصيح " يثبت قوة الطبيعة العربية ومناعتها، كما أثبت قوة اللغة وحصانتها.

أما جهود الشيخ المؤلف فلست بمثنٍ عليها وإن كانت أهلاً لكل تقدير وإكبار. زرته في بيته سنة ١٩٤٨ فوجدته طريح الفراش من جرّاء الصدمة الكبرى بوفاة ولده الدكتور محمد علي، وكنت عالما بدوائه وراحته فسألته مسائل لغوية، وذاكرته في مواضيع علمية فاستيقظت ملكاته، ونسي ألمه، ولاحت عليه دلائل القوة والنشاط، وأخذ بالبحث والتحقيق، يؤيد ويفند بحجج قاطعة وعبارة واضحة.

أطال الله حياة أستاذنا الكبير، ونفع الأمة العربية بجهوده وعلومه.

بيروت النداء.

❁مجلة العرفان، المجلد ٣٩ الجزء ٤، الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٧١هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٥٢م، ص (٥٣١-٥٣٢).

(٤٢) الفقر وفضله في الحديث

قال رجل للإمام جعفر الصادق (ع): إنا لنحب الدنيا.

قال: تصنع بها ماذا ؟

قال: أتزوج منها، وأحج، وأنفق على عيالي، وأنيل أخواني، وأتصدق.

قال: ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة.

إن طلب الدنيا سداً لحاجاتها المادية والروحية طلب لحياة البقاء والنعيم، وطلبها ابتغاء علو فساد في الأرض طلب لحياة الفناء والجحيم.

فالمال إذن وسيلة لغيره لا غاية في نفسه، يكون طيباً إذا حقق العدالة والمساواة، ورفع حياة المجتمع إلى مستوى أعلى، ويكون خبيثاً إذا أدّى إلى الظلم والطغيان، وعاق الحياة عن التقدم والتطور.

أما الفقر فهو كالظلم والإعانة على الإثم خبيث بذاته لا يكون طيباً بحال من الأحوال، لأنه مصدر المرض والجهل، قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: الفقر هو الموت الأكبر، فكيف يرضى به العادل الحكيم لمخلوق! إن الله سبحانه يريد لعباده القوة والكرامة، ولا يريد لهم الضعف والهوان، وبإمكاننا أن نتصور التفاوت والتفاضل بين الناس في الرزق، وما يزيد عن قدر الحاجة لسبب معقول عند الله والعدالة، فيرزق هذا عشرة وذاك عشرين، أما التفاوت في أصل الرزق والعيش، فيأخذ هذا مئات الملايين، ويُحرم الألوف من قوت يومهم فقضاء الله وعدله بريئان من هذا الظلم والإجحاف.

وبعد هذا نستمع إلى بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الأعظم في فضل الفقر، ففي كتاب إحياء العلوم للغزالي باب الفقر عن النبي أنه قال: " إذا أحبَّ الله عبداً الحب البالغ لم يترك له أهلاً وولداً " ولو صحَّ هذا الحديث لكان علينا إذا حرصنا على طاعة الله ومرضاته أن نبتهل إليه، ونسأله أن يهلك الحرث والنسل، ويسلط علينا الفقر والمرض، أبهذا الحديث وأمثاله دعا النبي إلى الإسلام؟! وأقنع الناس بصدقه ورسالته، ودخلوا في دين الله أفواجا ؟! لقد كان النبي والأنبياء من قبله، والأولياء من بعده يستعيذون بالله من الفقر، ومن بلاء الدنيا والآخرة. قال أحد الأصحاب المقربين من

الرسول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال له الرسول: لقد سألت الله البلاء، فاسأله العافية.

وفي كتاب الإحياء باب الفقر أيضاً عن السيد المسيح أنه قال: " لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانهم"، ولو رأى الاستعمار هذا الحديث لطار به فرحا، واتخذ منه حجة دامغة على العرب والشرق كافة، ودليلاً قاطعاً على أن نفط إيران والعراق والحجاز هو ملك خاص به دون سواه، ولو صحَّ هذا الحديث لصدق قول لينين: "إن الدين أفيون الشعوب"، وقول القائ : " إن الدين يناقض العلم"، وليس ببعيد أن يكون هذا الحديث وأمثاله هو الباعث على هذه الأقوال والآراء.

أراد ولاة الحكم أن يدوم لهم النفوذ والسيطرة، والظلم والطغيان فأوعزوا إلى أذنابهم الخونة أن يضعوا أحاديث يصوغون للناس منها قيوداً وأغلالاً تساعدهم على استعباد الأحرار، واستغلال الجماهير، فلفقوا أحاديث على لسان الأنبياء مرغبين في الخنوع والخضوع، والخدمة والاستسلام.

وقد روى الرواة عن الرسول أنه قال: خير الأمة فقراؤها، الفقراء أحبّاء الله وجلساؤه يوم القيامة، اطلبوا الله عند الفقراء، إن الله يستحي من سؤال الفقير وحسابه، إن أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار الأغنياء.. إلى ما هنالك من الأحاديث الدالة على أن الفقراء – وهم الأكثرية الغالبة – أطيب العناصر، وأقربها إلى الحق، وأبعدها عن الباطل.

كان الفقراء ومازالوا القوة والعدد في يد كل مصلح يريد الخير والنفع لأمته، فبهم انتصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الظلم والشرك، ومنهم حواريو السيد المسيح، ولولاهم لما تحررت الشعوب من طغاة الاستعمار، ولما عمل بحق من حقوق الإنسان، أما المترفون فهم أعداء الأنبياء والإنسانية، وحجر عثرة في سبيل كل تقدم وإصلاح. قال الله سبحانه: "وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون" (سبأ ٣٤) كفروا بالعدالة والحرية، وآمنوا بالسلب والنهب، بكسب المال من غير حل، وإنفاقه من غير حل، بكسبه من الغش والتدليس والاحتكار، وتبذيره على الفسق والفجور.

وإذا كان الغنى أو الإفراط فيه يبعث على الطغيان فإن الفقر يضعف المرء عن القيام بالواجب، والخير في رزقٍ حلالٍ يكفيه، لا غنى يطغيه ولا فقر

يشقى به، وكان الإمام يقول في دعائه: أسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك، وأصير بها إلى دار الحيوان، وارزقني رزقاً حلالاً يكفيني، ولا ترزقني رزقاً يطغيني، ولا تبتلني بفقر أشقى به (١).

---

(١) كتاب الإقبال لابن طاووس ص ٣٧٨ طبعة سنة ١٣١٤هجرية. "مغنية"

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٠ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٧٢هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٣م، ص (٨٥٧-٨٥٨).

(٤٣) الشيعة الإمامية وعلم الحديث*

قد يختلف متعلمان في الميول والنزعات، تخرَّج أحدهما من مدرسة وطنية والآخر من مدرسة أجنبية، بل قد يختلفان في مسألة جغرافية أو تاريخية، وقريب جداً أن يختلف في الأفكار والمبادئ تلميذا مدرسة واحدة، أما أن يختلف اثنان تخرجا معاً من معهد واحد في مسألة جغرافية – مثلاً – يقول أحدهما: إن باريس جبل في أميركا ، ويقول الآخر: هي بئر خربة في صحراء نجد، فبعيد جداً عن الاحتمال. أجل، ذلك بعيد عن التصور والاحتمال، ولكن قد وقع نظير هذا بالفعل !

منذ أمد قريب تخرج أستاذان من الأزهر الشريف، وطبع كل واحد منهما كتاباً تعرض فيه للشيعة، قال الأول: " الشيعة لا يعترفون بغير القرآن " أي لا يعملون مطلقاً بالروايات والأحاديث. وقال الآخر: " الشيعة لا يفكرون مطلقاً في نقد الروايات، أو تمحيص أسانيدها، وحتى مجرد إثارة النزاع والشك فيها " أي أن الشيعة لا يعملون بجميع الأحاديث قويها وضعيفها.

وكم بين هذين القولين من التفاوت، على ما بين القائلين من وحدة المعهد والمذهب، والزمان والمكان، وإن دلَّ هذا التناقض على شيء فإنما يدل على أن الغرض الأول والأخير هو أن يُنسب إلى الشيعة كل ما يشين، ينسب إليهم العمل بالأحاديث الكاذبة، وفي نفس الوقت ينسب إليهم عدم العمل بالأحاديث مطلقاً، الكاذبة منها وغير الكاذبة، ولا بأس بهذا التناقض والتهافت، مادام في كلتا النسبتين حط من عقيدة الشيعة وكرامتهم، وقد أجبت الأول في العرفان الزاهر عدد تشرين الثاني سنة ١٩٥٣، وأجبت الثاني في عدد حزيران من السنة نفسها.

وفي بيروت أستاذان كبيران، لهما مكانتهما العلمية والاجتماعية، طبع كل منهما كتاباً تعرض فيه للشيعة، قال الأول: "يشترط الشيعة في الحديث أن يكون الراوي من أهل البيت، كعلي مثلاً " وقال الثاني: "لا يقبل أهل الشيعة إلا الأحاديث التي تعود بالإسناد إلى أهل البيت". وأجبت الأول في جريدة بيروت عدد ٢٨ كانون الأول سنة ١٩٥١، والثاني في عدد ٣ شباط سنة ١٩٥٢، وكان جوابي عن ذلك للمؤلفين الأربعة مجملاً، لأنه جاء مع أجوبة عن أشياء عدَّة، وفي هذا المقال تفصيل ما أجملت.

❁ نشر الشيخ هذا المقال في كتابه " مع الشيعة الإمامية " لكنه غيَّر الكثير من معالمه، فقد حذف الكثير من المقال الأصلي، كما أضاف الكثير له، حتى أصبح كأنه مقال آخر، لذا ارتأيت أن أنشره هنا في هذا الكتاب، وأضمه لبقية المقالات المجهولة، والتي لم يقم الشيخ بنشرها، واختفت في بطون الدوريات.

ألَّف علماء اللغة كتباً جمعوا فيها ألفاظ المفردات مع بيان معانيها، وكتباً دوّنوا فيها القواعد العربية كالصرف والنحو، وألف الشيعة كتباً لجمع الحديث، وكتباً لرواة الحديث، وكتباً لنقد الحديث، ويحوي النوع الأول الأنباء والأوامر والنواهي تتصل بالتسلسل إلى المعصوم، والنوع الثاني يشتمل على أسماء الرواة، فيذكر كل راوٍ باسمه وصفاته، ويُسمى هذا علم الرجال، وفي النوع الثالث يذكر فيه النظم العامة والقواعد الكلية لمعرفة الأحاديث الصحيحة من غيرها، ويُسمى علم الدراية، والغرض من هذه الأنواع الثلاثة واحد، وهو إثبات السنة النبوية بالطريق الصحيح.

ومن كتب الحديث "الكافي" لمحمد بن يعقوب الكليني " ت٣٢٨هـ "، وفيه ١٦٠٩٩حديثا، وكتاب "من لا يحضره الفقيه" لمحمد بن بابويه المعروف بالصدوق " ت ٣٨١هـ " ، وفيه ٩٠٤٤حديثا، وكتاب "التهذيب" لمحمد بن الحسن الطوسي "ت٤٦٠هـ"، وفيه ١٣٠٩٥حديثا، وكتاب "الاستبصار" للشيخ الطوسي المذكور، وفيه ٥٥١١حديثاً، وكتاب "الوافي" المعروف بمحسن الفيض "ت١٠٩١هـ" وهو ١٤ جزءاً، وكتاب "الوسائل" للحر العاملي "ت١٠٣٣هـ" وهو ٦ مجلدات (١). وغير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره، وهذه الكتب مبوبة مرتبة، يذكر في كل باب جميع ما يتصل به من الأحاديث، والكتب الستة الآنفة الذكر معروضة للبيع مع غيرها في المكتبات العامة بإيران و العراق.

---

(١)عند مراجعة بعض المصادر سنجد شيئاً من الاختلاف حول ما أورده الشيخ أعلاه مما يتعلق بالكتب الأربعة، فعلى سبيل المثال يذكر السبحاني في كتابه: مصادر الفقه الإسلامي ومنابعه " التالي :

- الكافي يحوي ١٦١٩٩حديثاً لا ١٦٠٩٩ كما يذكر الشيخ .
- توفي الكليني عام ٣٢٩هـ وقيل ٣٢٨ بالتضعيف، وإن كان هذا ليس مهماً.
- أحاديث من لا يحضره الفقيه ٥٩٦٣حديثاً، وليس ٩٠٤٤ كما يورد الشيخ.
- الحر العاملي توفي عام ١١٠٤ هـ أما عام ١٠٣٣ الذي ذكره الشيخ فهو عام ميلاده وليس وفاته. (٣٦٠ – ٣٦٥).

ومن كتب الرجال المطبوعة: كتاب الرجال لأحمد بن علي النجاشي "ت٤٥٠هـ"، وكتاب الرجال للشيخ الطوسي، وكتاب معالم العلماء لمحمد بن علي بن شهرآشوب "ت٥٨٨هـ"، وكتاب منهج المقال للميرزا محمد الأسترآبادي "ت١٠٢٦هـ"، وكتاب إتقان المقال للشيخ عبد الله المقمقاني من علماء هذا القرن، إلى غير ذلك مما كتب علماء الشيعة في هذا الموضوع.

ومن الكتب المطبوعة في نقد الحديث كتاب البداية في علم الدراية للشيخ زين الدين بن علي العاملي "ت٩٦٦هـ" وكتاب الوجيزة للشيخ البهائي العاملي "١٠٣١هـ" وكتاب شرح الوجيزة للسيد حسن الصدر من علماء هذا القرن، وكتاب مقياس الهداية للشيخ عبد الله المقمقاني، إلى غير ذلك من الكتب.

وقسَّم الشيعة الحديث إلى قسمين: متواتر وآحاد، والمتواتر أن ينقله جماعة بلغوا من الكثرة حداً يمتنع اتفاقهم وتواطئهم على الكذب، وهذا النوع من الحديث حجة يجب العمل به. أما حديث الآحاد فهو ما لا ينتهي إلى حد التواتر، سواء أكان الراوي واحد(١) أم أكثر، وينقسم حديث الآحاد إلى أربعة أقسام: ١- صحيح، وهو ما إذا كان الراوي إمامياً ثبتت عدالته بالطريق الصحيح. ٢- الحسن، وهو ما إذا كان الراوي إمامياً ممدوحاً، ولم ينص أحد على ذمه أو عدالته. ٣- الموثق، وهو ما إذا كان الراوي مسلماً غير شيعي، ولكنه ثقة أمين في النقل. ٤- الضعيف، وهو غير الأنواع المتقدمة، كما لو كان الراوي غير مسلم، أو مسلماً فاسقاً، أو مجهول الحال، أو لم يذكر في سند الحديث جميع رواته.

وقد أوجبوا العمل بالحديث الصحيح والحسن والموثق لقوة السند، والإعراض عن الضعيف لضعف السند، ولكنهم قالوا: إن الضعيف يصبح قوياً إذا اشتهر العمل به بين الفقهاء القدامى، لأن أخذهم بالضعيف مع علمنا بورعهم وحرصهم على الدين وقربهم من الصدر الأول يكشف عن وجود قرينة في الواقع اطلع أولئك الفقهاء عليها، وخفيت علينا نحن، ومن شأن هذه القرينة أن تجبر هذا الحديث، وتدل على صدقه في نفسه مع قطع النظر عن الراوي، كما أن القوي يصبح ضعيفاً إذا أهمله الفقهاء القدامى؛ فإن عدم عملهم به مع أنه منهم على مرأى ومسمع يكشف عن وجود قرينة

---

(١)الصحيح : واحداً، لأنه خبر كان.

تستدعي الإعراض عن هذا الحديث بالخصوص، وإن كان الراوي له صادقاً.

ومن علامات وضع الحديث عند الشيعة أن يكون مخالفاً لنص القرآن الكريم، أو لما ثبت في السنة النبوية، أو العقل، أو ركيكاً غير فصيح، أو يكون إخباراً عن أمر هام تتوافر الدواعي لنقله، ومع ذلك لم ينقله إلا واحد، أو يكون الراوي مناصراً للحاكم الجائر .

إن الشيع يعتقدون أن الحديث مصدر من مصادر العقائد الإسلامية، وأصل من أصول الشريعة المحمدية، وأن إهماله إهمال للدين ومبادئه. لذا كانوا ومازالوا يجدّون ويجتهدون في نقد الحديث وتمحيصه والاحتفاظ به وبكل ما يمت إلى الإسلام بسبب قريب أو بعيد .

المصادر: كتاب تأسيس الشيعة للسيد حسن الصدر، وكتاب الأعيان للسيد محسن الأمين، وكتاب منهج المقال للميرزا محمد، وكتاب مقياس الهداية للشيخ عبد الله المقمقاني.

❁مجلة العرفان، المجلد ٤٢ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧٤هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤م، ص (١٣٢-١٣٤).

(٤٤) جعفر بن محمد الإمام الصادق (ع)

تأليف الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

عرفت الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل مؤلفاً، وخطيباً في الجموع، ومذيعاً في الراديو، ومحدثا ومناقشا في الأندية. أما الصورة التي رسمتها هذه المعرفة في ذهني فهي صورة عالم منصف يحاكم الوقائع بنزاهة وتجرد، وأديب بارع يعبر عما يريد بأسلوب بليغ، لا حشو فيه ولا تعقيد، وتبرز هذه الصورة جلية واضحة في جميع آثاره، وبخاصة في كتابه الجديد " جعفر بن محمد الإمام الصادق عليه السلام ".

قرأت هذا الكتاب من ألفه إلى يائه، فرأيت المؤلف يتكلم فيه عن الصادق كعنوان لأهل البيت كافة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وعنوان للعلوم الإسلامية بشتى فروعها، وعنوان لمبادئ الإسلام وأخلاق القرآن بجوهرها وحقيقتها، فمما قاله في الكتاب: " ما أظن الصادق في حاجة لأن يقول فيه الناس أنه كان يعلم، فإذا لم يكن الصادق يعلم فمن الذي يعلم، ثم كان جعفر بعد ذلك كله آية في الإخلاص والتنزه عن الغاية ".

وأبحاث الكتاب كلها تتصل ببيان هذه الحقيقة وإثباتها بالشواهد الناطقة، وإن علم الصادق لم يكن نظريات وأقوال، وأقيسة، وأشكال، وإنما هو قانون العمل، ومقياس الحقيقة.

وكأن المؤلف قد أحسَّ وهو يكتب عن الإمام الصادق بما يلتقي في هذه الشخصية من العظمات، وبمدى تأثيرها في المجتمعات الإسلامية عبر الأجيال، فخشي أن يتهمه متهم بالتقصير في جهة من الجهات، أو ينتقده ناقد في بعض ما ذكره من التعليل والتحقيق، فاعتذر في مقدمة الكتاب بقوله: " أطلب إلى القرّاء أن لا أسألٍ عن أشياء لم أخض فيها، وأشياء جاورتها ثم زلت عنها وهجرتها وشيكا، وذلك لأني لم أستطع في الأولى أنٍ أهتدي إلى العلة التي تطمئن وتريح، ولم أستطع في الثانية أن أجد طريقاً أتقصَّى في نهايته علماً، وحسب القراء ما جئت به، فإن لم يكتفوا فهو غاية جهدي، ونهاية ظني ".

" قوي (١) قلبك يا أستاذ، فقد نجحت بتفوق باهر"، وإن القراء ليكتفون بأبحاثك القيمة اليتيمة عن الإمام الصادق، ويقدرون جهودك وفضلك، وإن كان الشكر دون ما تستحق من الجزاء والثواب، لأن كتابك يسَّر لهذا الجيل وللأجيال المقبلة معرفة تراثهم الزاهر، معرفة عصر الحضارة الإسلامية التي امتدت آثارها إلى كل عصر وكل مصر في شرق الأرض وغربها.

وقد انتقل ذهني وأنا أقرأ اعتذار المؤلف إلى جملة وردت في مقال كتبه المرحوم مصطفى صادق الرافعي سنة ١٩٣٥ في مجلة الرسالة يرد فيه على خصوم المرحوم شوقي أمير الشعراء، وهي: " لو كان للطبيعة مئة صورة في الخيال الشعري، ثم قدَّم شوقي للناس تسعاً وتسعين منها، لقال ذلك الناقد المتعنت: لا، إلا الصورة التي لم يقدمها ... " .

وبعد، فإن الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل من خيرة الرجال العاملين، وفي طليعة المؤمنين برسالة الإسلام، والمجاهدين في سبيل إنهاض المسلمين ووحدة كلمتهم، والرجوع بهم إلى نظمهم وسننهم الأولى، وكتابه " جعفر بن محمد " من خير ما أخرجته المطابع العربية في هذا العام.

---

(١) تكتب قوي هكذا: قوِّ، لأنها مجزوم، ولا أدري أهي غفلة من الشيخ، أم خطأ من أسرة التحرير !

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٢ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧٤هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤م، ص (٢٢٥-٢٢٦).

(٤٥) القرآن الكريم باللغتين العربية والإسبانية

تحدثت الألسن والأقلام كثيراً عن المهاجرين، ونشاطهم في شتى ميادين الحياة المادية والثقافية في البلاد التي هاجروا إليها، وشهد لهم بهذا النشاط البعيد والقريب، وترجمت عنه آثارهم الخالدة النافعة بلغتها الطبيعية، ولسانها الصادق الفصيح.

وصل اللبنانيون إلى بلاد لم يسمع بها أجدادهم وآباؤهم، هاجروا ليدركوا النجاح، فاستفادوا وأفادوا البلاد التي هاجروا إليها بشهادة أهل تلك البلاد أنفسهم، وأفادوا وطنهم الأم فائدة كبرى، وقد نما نشاطهم وتطور بمرور الزمن، فلم يكد يمضي أمد قصير حتى يبرز لهم أثر جديد، وعمل مفيد.

ومن هذه الآثار الجديدة المفيدة " دار الطباعة العربية الأرجنتينية " أنشأها في بونس أيرس المهاجر النشيط السيد أحمد عبود اللبناني العاملي، وكلنا يعلم أن حضارة هذا العصر يبتدئ تاريخها بتاريخ المطبعة، وأنه لولاها لما وجدت هذه الموجات في الرأي والفكر، ولا سمعنا بالثورات في كل مكان ضد الفقر والجهل، ولا رأينا النهضات المتوالية في سبيل الحرية والعلم.

وإذا كانت بعض المطابع تخرج الغث والسمين، والنافع والضار، ولا تحسب حساباً لشيء ما دامت تقبض الأجر، وتحصل على الربح، فإن السيد عبّود قد أخذ على نفسه أن لا يدير مطبعة إلا بما يعود على الناس بالخير والصلاح، وجعل مثله الأعلى قول الله جلّ ثناؤه: " فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " (الرعد:١٧) فقد أخرجت دار الطباعة العربية الأرجنتينية كتباً عدّة للإسبانيين تشهد بما للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين من الخدمات والفضل على الإنسانية والمدنية، وطبعت القرآن الكريم باللغتين العربية والأرجنتينية بحلة قشيبة، وأخرجته إخراجا جديدا جميلا.

وجدير بحملة الأقلام أن يشجعوا هذا المشروع الحي، وعلى الصحافة أن تعلن عنه وعن فوائده ومنافعه، ولكن بعض الصحف لا تعطي حتى تأخذ، ولا تكتب حتى تقبض، ومتى قبضت أعلنت عن إرادة من يدفع الأجر، ونشرت صورة طبق الأصل عن سخافته وشهواته.

كنت أقرأ حائراً، وأنا أقرأ أخبار الوفاة في الصحف المصرية، تنشر الصحيفة عن موت إنسان فتذكر اسمه وأسماء جميع أقاربه، واسم زوجته، وأسماء جميع أقاربها، وأسماء الأصدقاء والجيران. كنت أعجب من ذلك، ولم أجد له تفسيرا حتى قرأت مقالاً للدكتور عبد الحميد يونس نشره في جريدة الجمهورية المصرية عدد ٨ كانون الأول سنة ١٩٥٤ بعنوان من يوم إلى يوم، جاء فيه: " كثيرا ما كنت أسير في جنازة صديق أو قريب، فأجد زميلا من الصحفيين لا علاقة له بالمتوفى يسير هو الآخر محزونا ساهماً، لا لأنه يعرف أحدا، ولكنه يريد أن يتصيد إعلان وفاة " . قرأت هذا فوجدت تفسير ما كنت أتساءل عنه.

وبعد، فإني أقدر للسيد الطيب عبّود عمله النافع، وجهاده المثمر، سائلاً المولى سبحانه أن يأخذ بيده، ويجازيه على إحسانه بالحسنى.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٢ الجزء ٣، الصادر في جمادى الأولى سنة ١٣٧٤هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥م، ص (٣٤٥-٣٤٦).

(٤٦) رسالة الإسلام
دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

ليست رسالة الإسلام مجلة بالمعنى المعروف تتاجر وتقامر بالدين والوطنية، وتقبض في الخفاء لتنافق وتلفق الدعايات الكاذبة، والأقوال الخدَّاعة، وإنما هي صوت الحق والإخلاص ترسله دار التقريب بالقاهرة، صوت يهيب بالمسلمين أن يتّحدوا ويتنبهوا إلى ما يحدق بهم من أخطار، ويعملوا جاهدين على ما فيه خيرهم وصلاحهم.
أعلنت هذه المجلة اليتيمة بأسلوبها المبين، ومنطقها القويم، ودعوتها الخالصة المخلصة أن الإسلام بعقيدته وشريعته وعلومه وتاريخه قوّة لا حد لها، وثروة لا غنى عنها.

كان الجنس العتيق من الشيوخ لا يجد وسيلة لإظهار علمه وتثبيت مركزه عند أتباعه وجاهلي فضله إلا السباب والطعن بالأديان والمذاهب التي لم يؤمن بها آباؤه الأولون، فهو يكتب ويخطب، ويحرّف الحقائق، ويؤلف الأباطيل ينسبها إلى أبرياء يدينون بدين الحق وبه يعملون، وربما وجد بالأمس هذا العتيق أذنا صاغية حيث كان الناس يتقبلون ما يسمعون ويقرأون بدون جدال، ويثقون بالزعماء والسحرة ورجال الدين ثقة عمياء، أما اليوم فإنهم يضعون كل شيء موضع الشك والتساؤل، ولا يثقون إلا بما يرون ويلمسون، كان بالأمس يكفي لإيقاظ الفتنة وإراقة الدماء خطبة خطيب خائن مستأجر، أو فتوى جاهل متعصب، أما اليوم إذا تكلم أحد بكلمة تنمُّ عن التفرقة بين الطوائف الإسلامية أو بينهم وبين غيرهم من أبناء وطنهم فأيسر ما يُتهم به الجهل المركب أو الخيانة والتجسس.

ولست أدَّعي أن الفضل في ذلك كله لمجلة رسالة الإسلام ودار التقريب، فإن لسنن التطور تأثيرها البالغ، وليس من المعقول أن يتقلص ظل الاستعمار، ويبقى التعصب كما كان، ولكن الحق الذي لا ريب فيه أن رسالة الإسلام سارت مع التطور، وعلى الحال التي من رافقها نجا، ومن تخلف عنها هوى، وبعبارة ثانية إن مجلة الرسالة دعاية واسعة لبناء حياتنا هذي الحياة الجديدة على أسس الدين القويم، وقواعده المحكمة، ونور يهتدي به المتهتك والمتعصب معا، المتهتك الذي لا يبالي بشعائر الإسلام وأصوله، والمتعصب لعادة توهمها من الدين وما هي منه في شيء، إنَّ كل

واحد من هذين يجد في رسالة الإسلام علاجه الشافي من دائه القاتل، يجد الأول فيها طريق الرشد والصواب، ويجد الثاني من التسامح ما يحطم به قيود الجهل وأغلال التقليد.

إنَّ فكرة التقريب ليست جديدة، فلقد دعا إليها منذ قديم كثير من السنة والشيعة، ولكنهم لم يسلكوا السبيل المنتجة التي سلكتها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

أسّست هذه الدار بنيانها على تقوى من الله ورضوانه، وفتحت أبوابها للجميع، فدخلها المخلصون أفواجاً يتسابقون إلى منبرها داعين إلى جمع الشمل ووحدة الكلمة، وانضمام المسلمين كافة تحت لواء الإسلام: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الأنبياء:٩٢) .

إن مجلة رسالة الإسلام ثمرة طيبة لجهاد العلامتين العاملين الشيخ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب، والشيخ محمد محمد المدني رئيس التحرير، هذا الشيخ الطيب المرشد الذي جاء في طليعة العلماء المجددين المصلحين، فقد وجهنا بدعوته من قبل في رسالة الزيات وبدعوته اليوم في رسالة الإسلام إلى" أن نختار ونغربل ونصفي ونعنى عناية كاملة جادة بما ينفع ولا يضر، ونضرب صفحاً عمّا يضر ولا ينفع، وعمّا لا ضرر فيه ولا نفع ".

أما شيخنا التقي القمي فيذكرنا إيمانه الراسخ وتواضعه الجم بقول الإمام الصادق (ع): " قم بلد مطهرة مقدسة ". ويذكرنا علمه وإخلاصه وجهاده بالقميين القدامى شيوخ العلماء المؤسسين ممن أحيا الشريعة المحمدية، وأذاع مناقب العترة النبوية، وأوقف نفسه لخدمة العلم والدين، ونصرة الحق وأهله .

إنه من السهل على أي عالم أن يكتب ويخطب داعياً إلى وحدة الكلمة وجمع الشمل، ولكن من الصعوبة بمكان أن يحقق هذه الأمنية، أن يجمع المسلمين على اختلاف مذاهبهم وميولهم وتقاليدهم، يجمعهم على طاولة مستديرة يتبادلون الآراء، ويتعاونون على حل مشاكلهم، ويتواصون بالحق والصبر حتى يبلغوا ما يأملون، لقد عجز عشرات المصلحين من السابقين واللاحقين عن تحقيق هذه الأمنية الغالية بالرغم من حرصهم ومحاولاتهم الكثيرة، ولكن جهاد الشيخ التقي ونشاطه الصامت حمل الكثير من ذوي الجمود

والتعصب أن يلبوا الدعوة إلى الطاولة المستديرة – رسالة الإسلام – وقد ذاقوا حلاوتها، ولمسوا فائدتها، وسيلبيها المتخلفون عاجلاً أو آجلاً، مادام القمي والمدني ماضيين في هذه السبيل المثلى. فجزاهما الله عن الإسلام ونبيه والمسلمين أحسن الجزاء.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٢ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٧٤هـ الموافق ايار(مايو) ١٩٥٥م، ص (٨١٨-٨١٩).

(٤٧) التيسير في أحكام الأقارب والزوجين

جعل الإسلام حقوقاً للزوجين وذوي الأرحام بعضهم على بعض، ونجد هذه الحقوق مفصلة في كتب التفسير والحديث والأخلاق، كما حوت كتب الفقه الكثير منها، وفيها أحكام ترتكز على تساهل القريب مع قريبه، وإلزام كل منهما بأن لا يكدر صفو الآخر، وقد رأيت في كتب الإمامية أحكاما من هذا النوع، أذكر منها:

في باب الهبة :

قال الإمامية: إن الهبة من العقود الجائزة، فللواهب أن يسترجع الشيء الموهوب من الموهوب له حتى بعد الإيجاب والقبول والقبض، ولا تصبح لازمة إلا إذا تلف الموهوب في يد الموهوب له، أو نقله عن ملكه، أو تصرف به تصرفاً مغيراً، كالحنطة يطحنها، والطحين يخبزه، واستثنوا من ذلك الهبة لذي رحم. قالوا: إنها تتم بمجرد القبض، ولا يجوز الرجوع عنها، وألحق كثير من فقهائهم الزوجين بذي الرحم، وأفتوا بعدم جواز رجوع أحدهما عما وهبه للآخر بعد القبض وقبل التصرف.

وأقوال الأئمة الأربعة تخالف ما ذهب إليه الإمامية سوى أبي حنيفة، فقد وافقهم في صورة واحدة، حيث قال بعدم جواز رجوع الأب في هبة لابنه.

في باب اليمين:

قال الإمامية: لا يمين للولد مع منع الوالد، ولا للزوجة مع منع الزوج، ولا للمملوك مع منع المالك، فإذا حلف أحد هؤلاء الثلاثة، ورضي الولي تصح اليمين، وإن نهى عنها تقع لغواً، واستدلوا بحديث رواه ابن حازم عن الإمام الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " لا يمين لوالد مع والده ، ولا لمملوك مع مولاه، ولا للمرأة مع زوجها ".

وألحق أكثر فقهائهم النذر باليمين، فأفتوا بأنه لا نذر للولد مع منع الوالد، ولا للزوجة مع منع الزوج، ولا للمملوك مع منع المالك، هذا مع اعترافهم صراحة بأن النذر لم يرد فيه نص، ولكنهم قالوا: إنه شبيه باليمين، لأن كلاً منهما يُلتزَم لله سبحانه، ولا يخفى أن هذا عمل صريح بالقياس، لأنهم أعطوا حكم المنصوص عليه لغير المنصوص لتشابه بينهما في العلة،

مع أن الإمامية يحرمون العمل بالقياس، ومنهم الذين ألحقوا النذر باليمين.

في باب الشهادة :

قال أكثر فقهاء الإمامية: لا تُقبل شهادة الولد على والده، لأنها تستدعي تكذيب الابن للأب، وهذا عقوق للوالد يمنع من قبول الشهادة. وقال الشعراني في ميزانه " باب الشهادات ": تُقبل شهادة كل من الوالد والولد على صاحبه عند الأئمة الأربعة. وبهذا قال الشهيد الثاني من علماء الشيعة في كتاب المسالك، مستدلاً بقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين " (النساء:١٣٥) . وقال: إن شهادة الولد على والده بالحق نصرة لأبيه وتخليص لذمته، أما النهي عن عقوق الوالدين فلا يستدعي إطاعتهم بترك الواجب وفعل المحرم.

في الحدود :

اتفق الإمامية والأئمة الأربعة على أن الوالدين وإن علوا لا يقطعون بسرقة مال أولادهم، وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد: لا يقطع الولد بسرقة مال والده، وقال الإمامية ومالك: يقطع. وقال أبو حنيفة: لا يقطع أحد الزوجين بسرقة مال الآخر. وقال الإمامية: يقطع إلا إذا سرقت الزوجة مقدار النفقة الواجبة لها ولأولادها من مال الزوج، على شريطة أن يمتنع عن الإنفاق بالمعروف.

ونصَّت المادة ٦٧٤ من القانون اللبناني " عقوبات " على أن الأصول والفروع والزوج يُعفون من العقاب إذا تصرف أحدهم بمال الآخر بقصد الإضرار، وقال مونتسكيو في كتاب روح الشرائع ج٢ ص١٦٣ : إن القانون الروماني كان يبيح إهمال الأولاد إذا كانوا قباحا؛ ويمنح الآباء حق الحياة والموت على أبنائهم، وقال في ج١ ص١٤٠ : إن الآباء في الصين يُعاقبون عن خطيئات أبنائهم.

وليس في مذهب من المذاهب الإسلامية أن القريب يُعاقب على جرم قريبه، وقد حرَّم القرآن ذلك: " ولا تزر وازرة وزر أخرى " (الأنعام:١٦٤).

المصادر:

كتاب الجواهر للشيخ محمد حسن، والمسالك للشهيد الثاني، وملحقات العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي، وميزان الشعراني، والمغني لابن قدامة، وروح الشرائع لمونتسكيو، ومجموعة القوانين اللبنانية.

❁ مجلة " رسالة الإسلام "، المجلد٧، السنة السابعة، العدد ٤ الصادر في صفر سنة ١٣٧٥هـ الموافق أكتوبر ١٩٥٥م، ص (٤٠٣-٤٠٥).

(٤٨) من أخلاق العظماء

من الصفات البارزة في العظماء أنهم يقومون بأجلّ الأعمال وأنفعها للناس، ومع ذلك يتهمون أنفسهم بالتقصير، ينسون عظمتهم، ويرفضون أن يكونوا فوق أحد، كان النبي صلى الله عليه وآله يجلس مع القوم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، وجاء رجل يكلمه فأرعد، فقال له: هوّن عليك، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد. ومن خطب الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: "من استثقل الحق أن يُقال له، أو العدل يُعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ ". ومن كلام الإمام زين العابدين (ع) كما جاء في الصحيفة السجادية: " أنا يا إلهي أكثر ذنوبا، وأقبح آثارا، وأشنع أفعالا، وأشد في الباطل تهورا، وأضعف عند طاعتك تيقظا، وأقل لوعيدك انتباها وارتقابا من أن أحصي عليك عيوبي، وأقدر على ذكر ذنوبي، وإنما أوبخ بهذا نفسي طمعا في رأفتك التي بها صلاح أمر المذنبين، ورجاء لرحمتك التي بها فكاك رقبة الخاطئين " (١).

أحقيقة أن هناك أخطاء وذنوباً، أو هذا تواضع وتنزيه عن الزهو والغرور، أو شكر لله على نعمة العظمة، أو هو تسبيح وعبادة، أو درس للجهّال والمغرورين الذين يركبون العجب والكبرياء، أويركبهم العجب والكبرياء؟

لا ريب أنه تواضع وشكر وعبادة ودرس، وفوق ذلك هو فهم للخير فهماً كاملا. إن عمل الخير لا ينشأ عن مجرد معرفة حقيقة الخير ومكانه، بل لابد من الإخلاص، والمخلص لا يرضى بالقليل من نفسه، ولا يستكثر شيئا من جهوده وتضحياته، وإن كثرت، وإنما يستكثر اليسير من سهوه وذهوله، وإذا أخفق في عمل من أعماله لا يسب الناجحين ويشتم أعراضهم، حتى ولو كان متخرجا وإياهم من مدرسة واحدة، وإنما يستخرج دروساً نافعة مفيدة من هزيمته وإخفاقه، وإذا حقق للناس جهة من جهات النجاح والصلاح انصرف عنها وفكّر في السبيل إلى تحقيق الجهات الأخر. إن العارف المخلص لا ينظر إلى الوراء، إلى ما مضى من عمل فيذكّر الناس به مفتخرا وممتنا، بل يضاعف النشاط ويثب إلى الأمام ليكسب نصراً جديدا.

---

(١) الصحيفة السجادية : الدعاء السادس عشر ، دعاؤه في الاستقالة.

يعمل ولا يتكلم، وإذا تكلم تكلم عن تقصيره وإهماله خشية التبجح والدعاوى الفارغة، وخشية التساهل فيما يجب اتكالاً على ما كان يعمل ويتوارى، ولا يقطع الطريق على الناس بما يعلنه عن آثاره ويضيفه إلى نفسه من الفضائل والكرامات، يتوارى حتى تحسبه كسائر الناس، فإذا جد الجد وهرب من المعركة من هرب بقي وحده في الميدان يصول ويجول، يكتم فضائله، ويذيع فضائل الناس، يعلن عيوبه ويستر عيوبهم، لا يحقد ولا يحسد ، لأنه طيب السريرة يجب الخير للجميع، ولا يسب ولا يشتم، لأنه كبير يأبى أن يفعل أو يقول ما تقدر عليه الجهال والأطفال، ولا يخادع ولا يرائي، لأنه لا مأرب له إلا الحق، ولا يستكثر نعمة دخلت على غيره مهما كان نوعها، لأنه لا يشعر النقص من نفسه إذا رأى نعمة على غيره.

إن العظيم يخدعه الدهاة الماكرون، ولا يخدعه عن نفسه شيء، إن الساذج الفطير (١) يستعظم الحقير، ويستكثر القليل من نفسه، وما زلت أذكر النشوة التي أصابتني عندما نشرت أول مقال، ورأيت اسمي مطبوعاً، ثم تبين لي - ولله الحمد — أني كنت فطيراً، وما زلت أشعر هذا الشعور على الرغم من مرور خمس وعشرين سنة، والله سبحانه أسأل أن يكون شعوري هذا خطوة أولى للسير إلى الأمام.

إن بُغية العظيم أن لا يرى في الحياة مجالاً للخطأ والجريمة، ولا للمآسي والنكبات، أن يحوّل الأوضاع من سيء إلى حسن، ومن الحسن إلى الأحسن، فإذا لم تتحقق هذه الأمنية خاف أن يكون أحد المسؤولين، لأنه جزء من كل، وفرد من جماعة، فإن لام لام نفسه قبل أن يتجه باللوم إلى غيره.

ومن ذا الذي يدرك جميع غاياته، ويعلم كل شيء، ولا يخطئ في شيء، لقد أخطأ سقراط وأفلاطون وأرسطو في الفلسفة، وأخطأ سيبويه والخليل والكسائي في النحو، وأخطأ علماء التاريخ في التاريخ، وأخطأ الأطباء في الطب، أما أخطاء الساسة فلا يحصيها العد، إن العظماء يدركون هذه الحقيقة، بل يدركون أنهم لا يستطيعون أن يعلموا بعض الشيء إلا بعد جهد جهيد.

---

(١) الفطير: أي الذي لم يكتمل عقله وينضج بعد.

قال نهرو العظيم لابنته: " لست أحب أن تأخذي ما حدثتك به هنا قضية مسلما بها، فقد يكون ثمة خطأ كبير في بعض حساباتي ".

وبالتالي فإنِ المعرفة والتواضع هما نعمة من أجلّ نعم الله سبحانه، وأعظمها قدرا، يخص بها الطيبين من عباده.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٣ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٧٥هـ الموافق تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥م، ص (٣٢-٣٣).

(٤٩) الشيخ عبد الكريم مغنية

قال العلامة المجاهد الشيخ حبيب آل إبراهيم (١) رفيق المترجم أوصديقه:

" هو ابن العلاّمة الشيخ محمود مغنية ابن الفاضل الشيخ محمد مغنية من الأسرة البارزة المعروفة في جبل عامل بالعلم والفضل والمكانة الدينية.

وُلد الشيخ عبد الكريم في النجف الأشرف في هجرة أبيه الأولى في سنة ١٣١١هـ ، حيث يقول العلامة الشيخ حسين مغنية في تاريخ ولادته :

قالوا إذا بزغ الصباح فلا تجد — من كوكب إلا رأيت مغربا

كذّبتهم فوراً وقلت مؤرخاً — بزغ بن محمود صباحاً كوكبا

١٣١١

ونشأ في جبل عامل، ولما هاجر أبوه الهجرة الثانية إلى النجف الأشرف كان معه، وكان يومئذٍ في عنفوان شبابه، فاشتغل هناك في طلب العلم مدة مقام أبيه حتى فرغ من النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان وسطوح الفقه والأصول، ولما رجع أبوه إلى جبل عامل رجع معه وتزوج بابنة العلامة الشيخ حسين مغنية، وكان في ذلك الوقت شابا لامعا ترك مجموعة من المؤلفات، منها: الإسلام في فنونه ومعارفه ٨ مجلدات، فصول الكلام في تاريخ الإسلام ٢ج، ذكرى الحسين ٢ج ، الحقائق ٢ج، الإيمان في أصوله وفروعه ٣ج، اليتيمة في بيان بعض من منتخبات الكتب الحديثة والقيمة، الجواب

---

(١) الشيخ حبيب آل إبراهيم (١٨٨٠-١٩٦٥م) من مواليد بلدة حناويه التابعة لقضاء صور في محافظة لبنان الجنوبي عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠ م، في عام ١٩١٢ غادر لبنان إلى النجف للتحصيل العلمي، لكنه سريعا ما ترك النجف بعد أن قضى فيها ٤ سنوات فقط، وذلك بسبب الحرب العالمية الأولى، فقد عاد للبنان عام ١٩١٦ هو وأسرته. وفي عام ١٩١٨ عاد مرّة أخرى للنجف لمواصلة دراسته الحوزوية. وقد عاد للبنان عام ١٩٣٢ واستقر في الجنوب في بلدة قانا وتوابعها، ولكنه سريعا ما يهاجر الجنوب ليذهب لبعلبك في بيروت بعد أسبوعين فقط من تواجده بقانا، وذلك بإلحاح من أهل بعلبك، وبأمر من السيد أبي الحسن الأصفهاني أستاذه ومعلمه. وظلَّ في بيروت حتى رحيله يوم الجمعة ١٢فبراير ١٩٦٥.

النفيس، سبيل المؤمنين، الانتصار، أنا مؤمن .. إلى غير ذلك من المؤلفات التي تصل إلى عشرين تقريباً (للتوسع في حياته انظر كتاب المهاجر العاملي الشيخ حبيب آل إبراهيم – المؤتمر التكريمي الذي أعدته المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية – ط: ١٩٩٧م).

جامعاً صفات الكمال والتقوى، لا يكاد يُوجد في شباب عاملة مثله في كماله ونبله، وما أن انقضت أيام الحرب العامة حتى بادر إلى النجف الأشرف لا يلوي على شيء، ولقد اجتمعت به هناك في هجرتي الثانية فكان مثال الفضل والتقوى والجد، وكان يؤثر العزلة غالباً والانقطاع مع بعض رفقائه إلى المذاكرة والمباحثة والأخذ والاستفادة من العلامة الجليل السيد عبد الهادي الشيرازي، ومن العلامة المحقق الشيخ فتح الله التركي، أحد الأعلام البارزين، وله معه حكاية غريبة، وهي أن هذا الشيخ كان فقيراً لا يملك من يقوم بشؤونه فاضطر إلى مغادرة النجف والسفر إلى بلاده خروجاً مما هو فيه من ضيق الحال، ولما علم بذلك الشيخ عبد الكريم ورفيقه الملازم له في وقت كان قد أتتهما " خرجية " السنة من جبل عامل اتفقا على أن يقدماها له، ويصبرا على مر الحاجة دونه، فقبضاها وقدماها له واستمرا بذلك على الاستفادة منه.

ثم انقطع في آخر الأمر إلى الحضور على الإمامين الرئيسين السيد أبو الحسن الأصفهاني والميرزا حسين النائيني، وبلغني أنه أخذ من الأخير إجازة في الاجتهاد، ولما رجع إلى جبل عامل سنة ١٣٤٨هجرية كان مقره في (معركة) قرية مجاورة لقريتهم بطلب من أهلها، فكان رحمه الله فيها مصلحاً مفيداً متميزاً عن أقرانه بكثير من خصال الخير ".

(مؤلفاته)

(١) كتاب القضاء، وهو كتاب ضخم حسن الترتيب والتبويب، واضح التعبير، لا غموض فيه ولا تعقيد، ذكر فيه المسائل المتعلقة بهذا الباب، وأكثر القواعد العامة، يشرح معناها ومدركها وما يتفرع عنها من الجزئيات، ومما ذكره في قاعدة " المغرور يرجع على من غرّه": " وقد يكون التغرير في مدح من لا يستحق المدح، فيشاركه في الإثم لو ترتب عليه ذلك، كما هي الحال في كثير من الأساتذة من إفراطهم في الثناء على تلاميذهم، ليبقوا ملازمين لهم، ويكتسبوا منهم ظهوراً وتجلياً، فإن ذلك كثيراً ما يتولد منه تغرير التلميذ المسكين، فيبني على نفسه، ويرتب آثار

الاجتهاد المطلق، فيحكم بالأعراض والأموال والأنفس من دون أن يهتدي في ذلك إلى سبيل، فيهلَك ويُهلِك من حيث غرَّه أستاذه الغرور، ولو ساعدت القواعد لكان اللازم الرجوع عليه بأشق الأحوال، ولكن يكفيه أنه يبوء معه بالإثم، وإن ربَّك لبالمرصاد ".

(٢) رسالة في الإرث، وهي شرح لمنظومة الأعسم.

(٣) كتاب في أصول الفقه اللفظية والعملية.

(٤) رسالة في الطهارة.

(٥) رسالة في العدالة، مفيدة جداً ذكر فيها معنى العدالة وطرق إثباتها، ومن يُشترط فيه العدالة. وقال في آخرها ما معناه: ليس في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ما يدل صراحة على عدم الأخذ بقول الفاسق في جميع الحالات، بل لا بأس بالاعتماد على قوله إذا كان هناك قرائن ترشد إلى صدقه، والمعروف من سيرة العقلاء أنهم يعملون بأقوال الفاسق إذا كان احتمال الكذب في حقه ضعيفاً.

(تلاميذه)

من العلماء حضرات الأفاضل السيد محمد باقر إبراهيم (كونين) السيد نور الدين نور الدين (جويا) السيد موسى شرارة مفتي الهرمل، الشيخ محمد حسين الزين (النبطية)، الشيخ محمد علي قبلان (ميس الجبل) السيد محمد علي إبراهيم قاضي بعلبك الشرعي، ومن الأساتذة الشيخ علي الزين ، حسين مروة، محمد شرارة، ودرست عليه أنا وأخي أحمد.

وقد توفّاه سبحانه في ٢١ شوال سنة ١٣٥٤هـ ودُفن في قرية معركة، وأُقيمت له محافل التأبين في النجف وجبل عامل، ورثاه أهل العلم والأدب.

فمن قصيدة للعلامة الحجة الشيخ محمد تقي صادق:

لئن لم يكن للحمد معنى يفوته فقدماً أبوه كان قطب رحى الحمد
يماثله خلقاً وفضلاً ورقة وفي الفرع ما في الأصل بالعكس والطرد
فروع زكت أصلاً فطاب ثمارها وهذا الرحيق العذب من ذلك الشهد

ومن قصيدة للعلاّمة الجليل الشيخ حسن صادق :

خلت مرابع علم فيك آهلة فليس من منتدى فيها ولا أثر
قد كنت مطلع شمس في مشارقها وفي المغارب منها مطلع القمر

ومن قصيدة للعلامة الشيخ عبد الله محمد علي نعمة :

وعشت فيها طهور الذيل ذا شرف مثل الكواكب لم يلحقه نقصان
ومت والكتب والأقلام نائحة وللمحابر دمع فيك هتَّان

ومن قصيدة للعلاّمة الشيخ خليل ياسين :

لك سطّر التاريخ غر مناقب قرآنها يُتلى بكل مكان
لله تغضب إن غضبت وإن يكن فعل الرضا فبشاشة الإيمان

ومن قصيدة للعلاّمة التقي السيد أمين أحمد :

ومحافل الشرع التي عُقدت إلى كسب التقى والعلم والتحصيل
كانت لعمري فيك خير معاهد وأجلّ منزول لخير نزيل

ومن قصيدة للشاعر المبدع عبد الحسين عبد الله :

كل يوم مآتم للصلاح فمتى نكبة الغلاظ الوقاح
كاد يخلو الحمى من الأسد الغالب ومن طلعة الوجوه الصباح
بقي الشوك نابتاً وتعرَّت قمة المجد من زهور الأقاحي

ومن قصيدة لشاعر الجبل موسى الزين شرارة :

رمى القدر الغشوم وقد أصابا صحيح العلم والأدب اللبابا
وهدَّم من صروح الدين صرحاً وأغلق للهدى والخير بابا
رمى عبد الكريم وأي بدر لنا في الليلة الظلماء غابا

ورثاه كثير غير هؤلاء لم يتيسر لنا الاطلاع على قصائدهم، منهم العلاّمة الشيخ موسى شرارة، والأستاذ حسين مروة، والعلاّمة السيد عبّاس أبو الحسن، والأستاذ محمد شرارة، وابن عمه الشيخ علي مغنية، وأخوه أحمد، والأستاذ حسن فيَّاض شرارة، والشاعر السيد محمد نجيب فضل الله، والسيد ضياء الدين فضل الله وغيرهم.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٣ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧٥هـ الموافق تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥م، ص (١٦٢-١٦٤).

(٥٠) الإسلام والاقتصاد

لم يكن الاقتصاد قبل القرن الثامن عشر علماً مستقلاً، ولم تعالج مسائله معالجة علمية، كما هي الحال اليوم، حيث يتحدث علماء الاقتصاد عن موارد الأمة ونفقاتها، عما ينتج الناس ويستهلكون.

وُجد الاقتصاد منذ وُجد الإنسان، أو منذ وجدت الحياة الحقيقية للإنسان، وإن له واقعاً صارماً لا يمكن تجاهله بحال، ولكن النظام الشامل للاقتصاد لم يُوجد قبل آدم سميث " ١٧٢٣- ١٧٩٠ " الذي يعتبر – على ما قيل – المؤسس الأول لهذا العلم.

دعت الأديان إلى العدالة والرحمة، وأمرت بالإخاء والمساواة، نهت عن الظلم والجشع وحب المال، ولكن هذا شيء وعلم الاقتصاد شيء آخر، فلقد ورد في مطاوي كلمات المؤرخين والفلاسفة والساسة والمشترعين آراء عن العلاقات الاقتصادية بين الناس، وبينهم وبين الدولة، ولكن واحداً من هؤلاء لم يذكر رأيه بوصفه مذهباً اقتصادياً، بل ذكره بوصفه جزءاً من التاريخ أوالأخلاق أو التشريع، فقد حوى التشريع، وبخاصة مجموعات القوانين الحديثة، حوت مواد تتصل بالزراعة والصناعة والجمارك والتجارة، وما إلى ذلك من أسباب الثروة، كما حوت مواد تتعلق بالبناء والطب والصيدلة، وليس معنى هذا أن التشريع يحوي هذه العلوم بكاملها، وأن من درسه يصير عالماً بالزراعة، وعالماً بالتجارة، ومهندساً، وطبيباً، وصيدلياً.

بعد هذا التمهيد ننتقل بالكلام إلى الإسلام والاقتصاد. ليس في علوم الإسلام علم يُسمى علم الاقتصاد، لما قدّمنا من أن هذا العلم لم يُعرف قبل القرن الثامن عشر، وإنما للإسلام شريعة تخصص لها آلاف العقول، وتأسست لدراستها عشرات الجامعات قديماً وحديثاً، منها في عصرنا هذا جامعة الأزهر في مصر، وجامعة جامع الزيتونة في تونس، وجامعة النجف في العراق، وجامعة قم في إيران، كما أن في كثير من جامعات الحقوق الحديثة فرعاً خاصاً بدراسة الشريعة الإسلامية.

وأبواب هذه الشريعة تنقسم إلى أقسام:

الأول: لا يتصل بالمال من قريب أو بعيد، كالوضوء والغسل والتيمم والصوم والصلاة والعقوبات الأدبية.

الثاني: لم يُقصد منه المال ابتداء، ولكن يستتبعه بالواسطة كالحج، والسبق والرماية (١).

الثالث: ما يُقصد منه المال بالذات، كالزكاة والتجارة والإجارة والشركة والدين والرهن والجعالة والمزارعة والمساقاة وإحياء الموات والإرث، وأسباب التغريم والضمان والوقف، وأكثر مسائل الوكالة والوصاية والحجر.

الرابع: يتعلق بالسياسة، كاختيار الحاكم والموظفين، وإقامة الحدود، وفصل الخصومات. وينحصر كلامنا في ما يدخل في باب الأموال، وهو القسم الثالث، ومنه الزكاة، وهي أشبه بضريبة الدخل، يجب على الأغنياء أن يؤدوها من أموالهم وفاء لحق الله عليهم، ويؤيد أنها ضريبة لسان ما جاء في القرآن الكريم: " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم " (التوبة:١٠٣)، " في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم "(المعارج:٢٤-٢٥). ومثلها أو قريب منها الجزية، والمال الذي يصالح عليه عدو المسلمين، وما يُؤخذ من التجار غير المسلمين (٢)، وسائر الأموال التي تدخل بيت المال.

أما التجارة والإجارة وما إلى ذلك فتكلم عنها فقهاء الإسلام من الوجهة التشريعية ن وراعوا إرادة الطرفين، وحافظوا على حق كل واحد منهما، واعتبروا العقد الصحيح شريعة المتعاقدين. كانت المعاملات بين الناس قبل أن يكون الإسلام، وكان فيها كثير من الشوائب والمحاباة، ولما جاء الإسلام هذَّبها وطوّرها، فقلّم وطعّم، وربطها جميعاً بالدين والأخلاق، بالحق والعدل، أقرَّ الإسلام الأسباب الأربعة للملك: الإرث والبيع والهبة وإحياء الأرض الموات. أقر الملك ونهى عن الاحتكار، وأحلَّ البيع وحرَّم الربا، وجعل الحق في حيازة الأرض لمن سبق إلى إحيائها، شريطة أن لا يضر بصالح

---

(١) السبق: أن يتراهن اثنان أو أكثر على إجراء الخيل، وما شابهها في حلبة السباق، لمعرفة الفرس الأجود، والفارس الأمهر، والرماية مراهنة على المناضلة بالسهام لمعرفة الحاذق بمواقع الرمي، على أن يكون للسابق والرامي المصيب عوض معلوم، والفائدة المقصودة من تشريع السبق والرماية هي التمرين على النضال، والاستعداد للقتال، أما المال فوسيلة للترغيب. **" مغنية "**

(٢) قال العلاّمة الحلي في كتاب التذكرة: إذا حمل غير المسلم وغير الذمي مالاً للتجارة والربح إلى بلاد المسلمين فرضت عليه ضريبة عشرة بالمائة بدلاً من أرباحه من المسلمين . **" مغنية "**

الجماعة، وأوجب وفاء الدين، ورد الوديعة والعارية، وغرم الغاصب والسارق والمفرط، وأين هذا من علم الاقتصاد ؟! . إنه فقه وتشريع ليس غير، والفقه الإسلامي كامل شامل لجميع نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو يرتكز على مبادئ تنفي عنه الظلم والعدوان، وهذا وحده كافٍ لأن يضمن له البقاء والنمو على مدى الأزمان، ولكن لا بحال أن نفسره بجملته على أساس مذهب اقتصادي حديث، لأن للفقه الإسلامي ذاتيته المستقلة، ومميزاته الخاصة، أما اتفاق بعض مسائله مع الاشتراكية، وبعضها الآخر مع الرأسمالية فلا يخرجه عن طبيعته واستقلاله، ولا يجعله اشتراكيا ولا رأسماليا، بل إن فقهاء الإسلام قد يعتبرون الشيء الواحد ملكاً عاماً بلحاظ، وملكاً خاصاً بلحاظ آخر كالأرض، حيث قالوا: إذا أخذ المسلمون أرضاً من غيرهم بالقهر والغلبة فهي لكافة المسلمين من دون تفاضل بين من قاتل، وبين من لم يقاتل، ومن وُجد ومن سيُوجد، وإذا أسلم أهل الأرض طوعاً فهي ملك لمن في يده، يتصرف بها كيف شاء، وهذا التفصيل لا يتفق مع الاشتراكية ولا مع الرأسمالية.

وقسَّم النبي وعلي وأبو بكر العطاء بين المسلمين بالسوية، وفضَّل عمر بعضهم على بعض، فهل لقائل أن يقول بأن النبي وعلياً وأبا بكر كانوا شيوعيين، وكان عمر غير شيوعي ؟! .

من عاداتي أن أمر كل يوم على ثلاث مكتبات، مكتبة الأرز ومكتبة هاشم ومكتبة الأندلس، وقد ترك لي أصحابها حرية التصرف، فأستعرض الكتب وأقلبها، وأرفع وأضع، فإن رأيت كتابا يبحث في موضوع يهمني أخذته معي إلى البيت، فإن أعجبني أبقيته، ودفعت لصاحب المكتبة ثمنه، وإلا أرجعته إلى مكانه، وكانت تثير انتباهي واهتمامي الكتب التي تبحث عن الأوضاع الاقتصادية في الإسلام، كنت أقرأها بإمعان، ولكن لم أر فيها غير أحاديث وكلمات مأثورة، مثل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: " ما يسرني أنَّ لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين "، وقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: " ما جاع فقي إلا بما مُتِّع به غني "، وقول أبي ذر: " إذا ذهب الفقر إلى بلد قال الكفر خذني معك "، وفتوى ابن حزم: "إذا مات رجل جوعاً في بلد اعتبر أهل البلد قتَلة له، وأخذت منهم دية القتيل". وما إلى ذلك من الأقوال والأحكام التي تنم عن النزعة الإنسانية في الشريعة الإسلامية، وقد حاول أولئك الغيورون أن يستنتجوا من هذه

النزعة نظاماً اقتصادياً للإسلام يتفق مع أحد المذاهب الاقتصادية المعروفة اليوم، وقدَّمنا أن الرحمة والإنسانية شيء وعلم الاقتصاد شيء آخر.

وبالتالي فنحن نقدر ونشكر من كتب، ومن سيكتب عن الاقتصاد في الإسلام، ونتمنى أن ينظر إليه من خلال قوله تعالى: " واتقوا الله لعلكم تفلحون " (آل عمران:١٣٠) لا من خلال مذهب من المذاهب الاقتصادية الحديثة.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٣ الجزء ٤، الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٥هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦م، ص (٣٨٧-٣٨٩).

(٥١) الأصول الثلاثة والأخوة في الدين

إن الإسلام بعقيدته وشريعته وسائر تعاليمه يعبر عن روح الفطرة الصافية من أعراض التربية والمحيط، فمن أراد أن يثبت أصلاً من أصول الإسلام، أو حكماً من أحكامه فلا يضطر إلى التكلف واستخدام الأشكال والأقيسة التي لا تؤدي — في الغالب — إلى الطمأنينة وارتياح النفس، وقد رأينا أثرها في تشويش الأذهان وتشعب الآراء والمذاهب، لذا اكتفى القرآن الكريم فيما يتعلق بالعقائد بذكر الشواهد البديهية، تُرجع الشاك والذاهل إلى فطرته الأولى.

ونذكر في هذا المقام بعض ما جاء في الكتاب العزيز شاهداً على الأصول الثلاثة: الإيمان بالله، ورسوله، واليوم الآخر، فنستدل على وجود الله سبحانه بما اعتبره هو دليلاً على وجوده، وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم البعث بنفس الدليل الذي خاطب الله به الجاحدين والمعاندين، وألزمهم به الحجة البالغة، وإذا لم يقتنع المكابر بحجة الخالق، فأولى بأن لا يقتنع بقول المخلوق.

الأصل الأول:

الإيمان بالله، والدليل عليه الآية ١٩٠ من آل عمران: " إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب "، ونقدم للقارئ المثال التالي، ومنه يتضح وجه الدلالة:

إذا رأيت حجراً ملقى في الطريق بصورة طبيعية، ولا أثر فيه لإنسان، قلت وُجد هذا الحجر هنا صدفة، أما إذا رأيت حجراً منحوتاً نحتاً فنياً، ويرتكز على الطين بصورة فنية فإنك تقول: إن لهذا العمل فاعلاً مريداً، لأن عقلك لا يتصور وجود حجر كهذا صدفة، نحته، وامتزاج الكلس (١) والرمل والماء حتى صارت طيناً، ثم تركيزه بشكل فني، لا يتصور عقلك أن ذلك كله حصل من باب التفاعل والمصادفات، فأولى أن يدل إحكام الكون ونظامه وإتقانه على وجود خالق عالم حكيم.

---

(١) الكِلْسُ: الجير وهو المادة المتبقية بعد تسخين الحجر الجيري تسخيناً شديداً وبعد خروج بعض مكوناته.

الأصل الثاني:

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتدل عليه الآية ٢٣ من سورة البقرة: " وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ".

وجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى طلب من الجاحدين أن يعارضوا بمثل سورة من القرآن الذي أنزله على نبيه، وقرن هذا التحدي بالاستفزاز، حيث أكد لهم أنهم لن يفعلوا أبدا، وفي هذا دلالة ثانية تُضاف إلى عجزهم، فقد حاولوا واجتهدوا، ولما عجزوا قالوا: ساحر مجنون، وهو جواب العاجزين والمكابرين في كل عصر ومصر، هذا وقد عاش محمد في قومه عمراً طويلاً لم يعرفوا فيه إلا الخير والصدق والعزوف عن الباطل، حتّى لقبوه بالصادق الأمين، ولا ريب أن أعرف الناس بالإنسان قومه وخلطاؤه الذين عاشروه صغيرا وكبيرا، وساعة غضبه ورضاه، وعسره ويسره.

الأصل الثالث:

يوم القيامة، وتدل عليه الآية ٥ من سورة الحج: " يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ".

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء والإلزام، القريب إلى كل قلب، فبعد أن سألهم هل داخلهم الشك لفت نظرهم إلى إنشائهم وابتداء خلقهم، وكيف أوجدهم من العدم، وانتهى بهم إلى نتيجة لا يسعهم إلا التسليم بها والإذعان لها، هي أن من يقدر على إيجاد المعدومات فهو على إعادة الموجودات وجمعها بعد تفريق أجزائها أقدر، ابتدأ معهم من الخطوة الأولى، خطوة الشك، وهي بداية الحرية العقلية، وانتهى بهم إلى اليقين والطمأنينة.

العبادة :

إن هذه الأصول هي أركان العقيدة الإسلامية، فمن لم يؤمن بواحد منها جهلاً أو عنادا فليس بمسلم، إلا أنها ليست بكل شيء ما لم تبرز خصائصها وآثارها في عمل مجسم يكون انعكاساً للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر،

ولهذا الانعكاس الديني مظاهر شتّى، منها العبادة، ويستقل الوحي بتشريعها وتحديدها حكماً وموضوعاً، ويفسدها العجب والرياء، وكل غرض من أغراض الدنيا، ولا تصح إلا بدافع التقرب والإخلاص لله تعالى، فهي له وحده سبحانه، لذا قرنها الله في كتابه بالإيمان به، بل جعلها مع الأصول الثلاثة الفارق والمميز بين المسلم وغير المسلم.

الأخوة في الدين:

حدَّد الله سبحانه الأخوة الدينية في الآية ١١ من سورة التوبة: " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ".

قال المفسرون: إن التوبة هنا ترك الشرك، إذن الأخوة في الدين لا تُناط إلا بالرجوع إلى مذهب من المذاهب، ولا بقول فقيه عظيم، وشيخ قديم، ولا بالاتفاق على مسائل الزواج والطلاق والإرث والهبة والبيع والإجارة، ولا بجواز المسح على الخفين، أو التكتف في الصلاة، وإنما تُناط بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وبهذا: بالأصول الثلاثة والعبادة تتحقق الجامعة الدينية بين كافة المسلمين، ومن دخلها كان مسلماً، سواء أكان شرقياً أم غربيا، عربياً أم أعجميا، سنياً أم شيعياً، من فرَّق بين اثنين من أبناء هذه الجامعة، وأقام بينهما الحواجز والحدود فقد صدَّ عن سبيل القرآن، واتبع خطوات الشيطان.

وبالتالي فإن معنى التقريب بين المذاهب الإسلامية هو إعلان هذه الحقيقة التي نطق بها القرآن، والدعوة إليها، والتنبيه إلى أن أي قول أو فعل يخالفها فهو خطأ يضر بصالح الإسلام والمسلمين.

❁ مجلة " رسالة الإسلام "، المجلد ٨، السنة الثامنة، العدد ٢ الصادر في رمضان سنة ١٣٧٥هـ الموافق أبريل ١٩٥٦م، ص (١٤٨-١٥١).

(٥٢) كتاب الإمام علي ❁

للأستاذ جورج جرداق

يقترن تاريخ الفساد في الأرض بتاريخ الإنسان، ولولاه لما كان للفساد والشر أثر ولا خير، بل لما كان شيء سوى عبادة الملائكة لله سبحانه وتقديسهم له وتسبيحهم بحمده: " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون " (البقرة ٣٠) فالله غني عن العالمين، وعن عبادة الملائكة والجن والناس أجمعين، غني عن كل شيء، عظيم لا يشبهه شيء، ومن صفات العظيم حب الخير وعمل الخير، ولكن أين يخلق الله هذا الخير؟ وهو لا يقوم بذاته، ولا يستقل بنفسه، وممن يطلبه؟ أمن الملائكة أو الحيوان أو الجماد؟ وهو لا يتحقق إلا بإرادة(١) فاعل مختار يفعل الخير مع قدرته على الشر، ويترك الشر مع قدرته على فعله، وهذا الفاعل المختار هو الإنسان دون سواه، ولذلك خلقه الله وأوجده.

تجد هذه الحقيقة جلية واضحة في الأديان، وسيرة الأنبياء وحياة العظماء، بل لا تجد سراً لعظمة العظيم إلا إدراكه لها، ومناداته بها، وتضحيته في سبيلها، ولا تجد فائدة لمهارة العلماء، ولا روعة لأدب الأدباء، ولا جمالاً لفن أهل الفن إلا إذا تجلت هذه الظاهرة في أعمالهم وآثارهم.

وفي ضوء هذه الحقيقة بحث الأديب الكبير الأستاذ جورج جرداق شخصية إمام المتقين في كتابه: (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية)، قرأت هذا الكتاب من فاتحته إلى خاتمته، فشعرت وأنا أقرأه أني اكتشفت كنزاً فوق الكنوز مجتمعة، فلقد كتب السلف والخلف عن شخصية الإمام (ع) ولا يسعك إلا أن تقف موقف التواضع والإكبار مما كتبوا، ولكن أين هذا مما كتب الأستاذ جرداق الذي يذهلك بسحر القلم، وقدرة الفن، وعظمة العلم

❁ من فرط إعجاب الشيخ بكتاب " الإمام علي صوت العدالة الإنسانية " للأديب جورج جرداق كتب فيه مقالات متعددة وكثيرة، وهذا واحد منها، أما البقية فتجدها مثبتة في آخر الجزء الخامس من الكتاب المذكور.

(١) في المجلة جاءت لفظة بإدارة بدلاً من إرادة، وأتصور أنها خطأ مطبعي، لذا أثبتنا إرادة لأنها الأنسب للسياق، والأقرب لمدلول الجملة والمعنى حسب ما يريده الشيخ من مقاله.

حتى لا تكاد تشعر بشيء إلا بالكتاب والكاتب، حيث يرقى بك إلى الأفق الأعلى، إلى آيات الإنسانية الكبرى، فهي وحدها في نظره قوام العظمة والخلود، وهي وحدها مقياس الحق والخير، وهي وحدها الغاية من الدين والعلم والأدب والمال والجاه، فأي شيء لا يحقق الإنسانية، لا يتجه إلى حياة الإنسان وخدمة الإنسان فهو وهم وتضليل.

حاول المفكرون من قبل ومن بعد أن يضعوا الحلول لمشاكل الحياة، ويصفوا الدواء الشافي لآلامها وأوجاعها، وذهبوا في ذلك كل مذهب، فمن قائل إن الحلول في العلم والصناعة تستخرج موارد الطبيعة، وتجعلها ميسورة طيعة، ومن قائل إنها في الأخلاق، والتزام الصدق والأمانة، وتجنب الكذب والخيانة، ومن قائل إنها في القضاء على القوميات والوحدات، ومن قائل إنها في إحياء القديم والرجوع إلى مجد الآباء والأجداد، ومن قائل إنها في إنزال اللعنات على الأقوياء والرحمات على الضعفاء.

وقد تقدم العلم واستخرجنا بآلاته وأدواته خيرات الأرض وبركاتها، وألّفنا عشرات الكتب الأخلاقية، وnadينا بفكرة الوحدة الشاملة الكاملة، ودعونا إلى القديم ولعنًا وترحّمنا، ولكن بقينا في مكاننا كما نحن، بل أسوأ حالا وأكثر مشاكلا، حيث أسفر تقدم العلوم على ازدياد غنى الأغنياء وفقر الفقراء، ومحاولة من ملكوا العلم وأدواته أن يستثمروا العزّل، ويستنزفوا من دمائهم ما اتسع العلم لقوى التقتيل والتدمير.

أما العلاج الشافي لأدواء العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فإنك واجده في كتاب (الإمام علي) أو قل في مبادئ الإمام التي شرحها المؤلف بأسلوب رائع، وفهم عميق، وثقافة أبعد ما تكون عن الفلسفات الخيالية والأوهام الغيبية.

ونتساءل: ما هي مبادئ الإمام التي شرحها الأستاذ جرداق؟ وهل للإمام مبادئ تخصه دون غيره؟

والجواب: ليس للإمام أي مبدأ لا يعرفه سواه، ولكن الإمام أدرك من أسباب المبادئ الإنسانية وأسرارها فوق ما أدركه الآخرون، أدرك أن في كل فرد من أفراد الإنسان كائنا من كان تكمن طاقة بشرية لا يعادلها شيء على الإطلاق، طاقة قديمة بقدم الإنسان، باقية ببقائه، عظيمة كالكون، مقدسة كالنبوة، فعلى كل من يؤمن بإنسانيته أن يدع هذه الطاقة

وشأنها – في أي فرد تكون – تنطلق في طريقها الطبيعي، لا يخلق ظروفاً تقضي عليها، أو تحد من نشاطها وإبداعها.

بلغ الكتاب ما يقرب من ٤٠٠ صفحة بالقطع الكبير، تكلم المؤلف عن علوم الإمام وعبادته وعدالته وتقواه وشجاعته وبلاغته، وصلته بالرسول الأعظم، وأثره في الإسلام والحضارة الإسلامية، وعن خصومه وسياسته، وما قيل حولها من المآخذ، وأجاب بمنطق العارف المجرب الذي تحرر من قيود التقليد، وسما بمعرفته فوق الظروف الظاهرة، وفوق الواقع المذل الذي يبرره ساسة هذا العصر، ويعترفون به لا لموجب إلا لأنه واقع وكفى، وشرح المؤلف المبادئ الإنسانية شرحاً وافياً كما يراها الإمام (ع) لا كما يفهمها المزيفون المخربون الذين يتكلمون باسم الشعوب، ويضعون لها قوانين وبرامج تحقق مصالحهم الشخصية وأغراضهم الاستغلالية، شرحها وحدَّد معناها بما يصون كرامة الإنسان من الامتهان، ويدفع عنه الأخطار، ويحقق له حياة طيبة، وعيشة راضية.

فالحرية كما هي عند الإمام حرية بناء لا حرية هدم، والحر من يسيطر على نفسه، ويحررها من حب الاستعلاء والتعاظم، ومن الطمع في الجاه والمال ومن التقاليد البالية، كما يحررها من استغلال المستغلين، واعتداء المعتدين، والعدالة أن ترى نفسك واحداً من الناس، لك ما لهم، وعليك ما عليهم، وأن تشاطر المظلوم شعوره بالغبن وثورته على الظالمين، وتشارك المحروم مكاره الدهر حتى يُقدَّر للعدالة أن تسود ويرتفع لواؤها، والسلم أن تُسلم الجماعة أمرها لمن يكره الحرب والاعتداء، ولا يرى في السلم إفلاساً لتجارته وسياسته، ورفع الحاجة عن المحتاجين هو حق وإلزام لا تفضّل وإحسان، والشرف إنما يكون بالتواضع لا بالمناصب والأنساب، والرجل هو الذي يثق بنواحي الخير في الإنسان، ويجعله على الأحسن ما وجد إليه سبيلا، وما إلى ذلك مما جاء في هذا السفر اليتيم الخالد.

وحق ما قاله الأستاذ الجليل ميخائيل نعيمة في مقدمة الكتاب: " إن مواطن المتعة في الكتاب كثيرة، منها بيان مشرق يسمو هنا وهناك إلى سوامق من الصور الشعرية المشبوبة بالعاطفة، الزاهية اللون، العذبة الرّنّة، ومنها اتزان في التقدير والتفسير، ومنها محاولة جريئة في نقل علي وآرائه السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية إلى مسرح الحياة التي نحياها اليوم ".

وبعد فإن قلمي ليعجز عن وصف الكتاب، وبلوغ الثناء على صاحبه كما يليق بفنه وعلمه وإخلاصه وفهمه، وكل ما أستطيعه هو إبداء الشكر والإكبار، وإن تصاغر عنده كل ثناء وتقدير.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٣ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٧٥هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٦م، ص (٩٩٣-٩٩٤).

(٥٣) رجال الدين يحاولون

يسجل الأمن العام حوادث الإجرام في سجلات خاصة، يحصي فيها عدد المجرمين، وأنواع الجرائم، وكثير من الصحف تبدي اهتماما بالغا بهذا الموضوع، ومن الكتاب وأهل الفن من ألف فيه أفلاما وكتبا مطولة.

ويقول المتتبعون للجريمة إن المجرم يخرج من وسط فقير، لأن الإنسان إذا عضّه الجوع فلا يجد بدا من أن يعض بعض الناس.

ويصدق هذا في بعض الحالات، لا في جميعها، فحب المال والجاه من أقوى مصادر الجريمة، أما الجاهل فيجوز عليه ما لا يجوز على غيره.

إن هذه الجرائم التي يسجلها الأمن العام، ويدونها المتتبعون هي التي يعاقب عليها القانون، أما المخالفات الدينية، أما الكذب والرياء، أما النميمة والغيبة، أما الدس على الأبرياء وعبادة الأقوياء، أما الاستخفاف بأحكام الدين، بالصوم والصلاة، وشرب المسكرات، أما هذه وما إليها فلو سجلت لكان لكل واحد كتاب يبلغ عشرات المجلدات إلا النادر، والنادر شاذ لا يُقاس عليه.

خالف الناس أحكام الدين في عهد الأنبياء، بل في البلد الذي كانوا يقيمون فيه، بل خالفها كثير ممن كانوا يرافقونهم في السلم والحرب، ويرونهم في الصبح والمساء، غير أننا لا نعرف عصرا كثرت فيه المخالفات الدينية كالعصر الذي نحن فيه ، كانت المخالفات — في الغالب — تصدر عن تهاون وإهمال، كان إذا ترك العاصي واجباً، أو فعل محرماً يحس بوخز الضمير، ويشعر بارتكاب الجرم مؤمنا بالشرع والمشرع، أما اليوم فالكثرة الغالبة تخالف استخفافا بالدين وأحكامه، ولا تشعر بأية مسؤولية.

ويرى البعض أن السبب هو الغرب وطغيانه المادي، وآخر أنه اعتماد الناس على الملموس والمنظور، وثالث أن رجال الدين اليوم لم يسلكوا سبيل من مضى من سلفهم الصالح، وقيل غير ذلك " أشكال وألوان ". ومهما تكن الأسباب فليس من شك أن من أهم البواعث على المخالفات الدينية والقانونية هذه القوانين التي تُطبق هنا وهناك على أساس ربح الدرهم والدينار، هذه الشرائع التي أفسحت المجال لكل مجرم، ووُضعت لمصلحة الأفراد والفئات، هذه الدساتير التي لا تمت إلى كتاب منزل، أو نبي مرسل بسبب. كانت الشرائع الإلهية التي ترتكز على فطرة الله التي فطر الناس

عليها، وتعبر عن مصالح المجموع، كانت تُدرّس في المدارس، وتُطبق في المحاكم، وتنفذ بقوة السلاح، فأصبحت اليوم بطمع الاستعمار والاستثمار أثراً من الآثار، وبديهة أن نكون ونحن رجالها والمتخصصون بها حيث تكون، لأن الفرع مهما نما وخصب فلا يزيد عن الأصل، والنتيجة مهما عظمت فلا تكون أكبر من مقدماتها.

وهناك قول آخر سأقف مع أصحابه طويلاً، لأنه شائع ذائع، وهو أن رجال الدين – الشيعة- لا رابط يربطهم، ولا جامع يجمعهم، فلماذا لا يكونون هيئة واحدة، وجمعية منظمة كسائر الهيئات والجمعيات، كالإكليرس مثلاً ؟! ولو اجتمعوا لعملوا، وتبدلت الحال تبديلاً ظاهراً.

وإني لأعرف أفراداً من هؤلاء يتكلمون بنية حسنة، وبدافع من حب الخير، غير أنهم يعجزون عن وضع الأمور في نصابها الحقيقي، إنهم يظنون أن التنظيم يتم بمجرد الإرادة لا غير، وينسون الجهة الاقتصادية التي هي الأساس لكل عمل منتج، إن التنظيم يفتقر إلى المال، إلى ميزانية خاصة، ورواتب مؤمّنة لكل عامل من رجال الدين، ومتى أمّن هذه الناحية توجه إلى حيث تقرر الهيئة التي ينتمي إليها، وقام بواجبه على أكمل الوجوه، لا يبالي بغضب زيد أو عمرو، أما إذا اضطرته الظروف القاسية والأوضاع الفاسدة إلى أن يطارد الزعيم لأجل الوظيفة، أو دنم الدخان ، أو يساير هذا ليحرث له " الشكارة "، أو يتصدق عليه بخمس ليرات ويتبع الصدقة بقوله: " كيف رضاك علينا ياشيخنا ؟ "، أو يدعوه لإجراء عقد الزواج، أو للصلاة على الجنازة، أو يقيمه وصياً بعد موته، أو يدفع له بدلاً عن نسخة من كتابه أضعاف ثمنها، أو يمهد له للإقامة في إحدى القرى، أو يسعفه على بناء بيت فيها، أما والحالة هذه فإن التنظيم أمنية هيهات أن تتحقق، ونسأل الله أن تتحقق.

وبالرغم من ذلك كله فقد حاول أولاً وثانياً جمع من الإخوان الطيبين، حاولوا أن يعملوا لله مخلصين له الدين، ولكنهم وقفوا في أول الطريق، لأن معالمه خفيت عليهم، أو لما ذكرنا، أو لأمور نحسها ونعجز نحن وهم عن فلسفتها والتعبير عنها، وعلى أي الأحوال فإنهم مأجورون ما دامت الأعمال بالنيات. أما المحاولة الثالثة فقصتها فيما يلي:

في ذات يوم قال لي العلامة الكبير الشيخ حبيب آل إبراهيم: ألا ترى ما عليه الأكثرية من البعد عن الدين ؟! ألا تنظر إلى هذا الجهل والاستخفاف بكل

ما يتسم بسمة الشريعة المقدسة ؟! أنُغزى في عقر دارنا ونستسلم ؟! وبماذا نعتذر إلى الله ؟! أهل نحن موجودون حقاً ؟!.

قلت: ما هو نوع العمل الذي نقدر عليه؟

قال: نختار مرشدين يعلمون الدروس الدينية في المدارس الرسمية ساعات معينة في الأسبوع مادامت الحكومة تسمح بذلك.

قلت: كيف تحل مشكلة الراتب؟

قال: نجمع من المحسنين ونكتب لمراجع الطائفة في إيران والعراق كي يرسلوا مرشدين من عندهم، أو يمدونا بما لديهم من أموال الحقوق، لأن هذا هو مصرفها وموردها الأول.

قلت: هذه فكرة، وعلم نجاحها عند ربي، ومشروع يحتاج إلى المال، وليس في يدنا منه شيء، وأنا مثال الجبن والخوف من المادة وتحصيلها. ثم قلت: لماذا لا نعمل ما نستطيع دون أن نكلف أحداً بفلس، نجتمع ونقرر أن يذهب كل واحد منا ليلتين في الشهر على الأقل إلى القرى الخالية من المرشدين، يفقه أهلها بالدين على أن لا يكلف أحداً بشيء، أو يتعرض لشيء خارج عن هذه المهمة، ونكرر الاجتماع لتحديد المكان الذي يذهب إليه كل منا ويقدم تقريراً بما أدّى من عمل إلى الهيئة، مع إبداء ما يراه من الملاحظات، نبدأ من هنا حتى تتبين لنا السبيل إلى الخطوة الثانية، ولابدَّ أن تتبين بالاجتماعات المتوالية والتدارس المستمر، وهكذا ننتقل خطوة فخطوة.

فوافق سيادته على هذا الرأي، ودعا عدداً من الإخوان، وفي مساء ١٠/٢/١٩٥٧ اجتمع في بيته بالشياح السادة الأفاضل: الشيخ موسى شرارة والشيخ حسين معتوق والسيد هاشم معروف والشيخ عبد الكريم شمس الدين وأنا، وعيَّنا الأمكنة، وسمينا الهيئة " جماعة التعليم والإرشاد " وافترقنا على أن يذهب كلٌ إلى البلد الذي عُين له، وأن يكون الاجتماع الثاني في بيت الشيخ حسين معتوق " بالغبيري " الساعة الثالثة بعد الظهر من ١٠/٣/١٩٥٧.

وبالتالي فنحن موجودون لأننا نفكر.. والباب مفتوح لكل موجود.. فأهلاً وسهلاً.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٤ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٧٦هـ الموافق نيسان (ابريل) ١٩٥٧م، ص (٧٢١-٧٢٣).

(٥٤) إبراهيـــم

كتبت فصلاً طويلاً عن أهل البيت (ع) في الجزء الأول من دائرة المعارف اللبنانية، وهو تلخيص لكتابي الذي أسميته بهذا الاسم.

وكلّفني الآن صاحب الدائرة الأستاذ الكبير فؤاد أفرام البستاني أن أكتب للجزء الثاني عن عدد ممن سُمّي باسم إبراهيم من الشيعة، على أن يكون للمترجم أثر مذكور من كتاب معروف أو واقعة تستأهل التدوين، وأن لا يستغرق الجميع أكثر من ثلاث صفحات، وأن يذكر موضوع الكتاب مع اسم المطبعة والسنة التي طبع فيها.

فجمعت عدّة مصادر، وشرعت بالبحث والتنقيب، فاعترضتني عقبات ومصاعب، منها أن أصحاب هذه التراجم لا يذكرون تاريخ الولادة والوفاة – في الغالب – أو ينقلون الخلاف في التاريخ، قيل وقيل، ومنها أنهم يذكرون أسماء الكتب التي ألّفها المترجم له، دون الإشارة إلى موضوعها وطبعها فضلاً عن اسم المطبعة والسنة التي طُبع فيها، ومنها التعقيد وعدم الترتيب، وقد زالت هذه الصعوبة الأخيرة بالتأمل الطويل والجهد المستمر، أما غيرها فإلى الله المشتكى.

وبالرغم من ذلك فقد كتبت عن عديد ممن سُمّي بهذا الاسم، واستفدت كثيرا وبخاصة مما وقفت عليه من نادرة لبعض العلماء، أو حادثة أو فكرة يصورها أحد الشعراء، ورأيت أن أنقل منها لقراء العرفان ما يلي:

بين الشيخ إبراهيم البحراني والشيخ علي الكركي العاملي :

أرسل الشاه طهماسب الصفوي جوائز إلى شيوخ النجف وعلمائها، منهم الشيخ إبراهيم البحراني، والشيخ علي الكركي العاملي، وكلاهما من ذوي النظر والاجتهاد، فقبل الشيخ العاملي الجائزة، وردّها الشيخ البحراني، وحصل نقاش ومناظرة بين الشيخين، فقال العاملي للبحراني: أخطأت بالرد. وقال البحراني للعاملي: أخطأت أنت بالقبول، واستدلّ كلٌّ بما يؤيد مدعاه، وسجل هذه المناقضات كثير من المؤلفين، وكتب البحراني رسائل خاصة يطعن فيها على العاملي، وقد انتصر بعض من تأخر عنهما للبحراني، وبعضهم للعاملي، وبعضهم عذر الاثنين قائلاً لكلٍ رأيه واجتهاده. أما المرحوم السيد محسن الأمين فقال في الجزء السادس من

الأعيان مؤيداً للعاملي: " لا شبهة في تقدم الشيخ علي على الشيخ إبراهيم في العلم والتحقيق والتبحر، كما لا شك في أن الشيخ علي أبعد غورا، وأصح رأياً، وأقوى سياسة في قبوله جائزة الشاه، ومخالطته الملوك الصفوية، وأن في رد البحراني للجائزة نوع (١) من الجمود ".

الشهادة أمام الكرباسي:

كان الشيخ إبراهيم الكرباسي معروفاً بشدة الاحتياط والتضييق، ومما يُحكى عنه أنه شهد عنده شاهد، فقال له: ما صنعتك؟ قال: أغسل الأموات، فسأله أسئلة كثيرة تتعلق بشرائط الغسل وأحكامه، فأجابه عن كل سؤال سؤال، وقد تضايق الشاهد من هذا التحقيق الدقيق، ولما فرِغ الشيخ قال له: إني بعد أن أدفن الميت أضع فمي في أذنه وأقول له كلاماً، فقال الشيخ: ما تقول له؟ قال: أقول الحمد لله تعالى أنك ميت، ولم تؤدِ شهادة أمام الكرباسي.

القهقرى والقرفصا:

قرأت في ديوان السيد إبراهيم الطباطبائي هذا البيت:

إن شئت أن تماشي الأيام لا   تمشِ بغير القهقرى والقرفصا

يظهر أن الشاعر كان يعتقد بخرافة " الزمان مع الواقف " أي القوي، وكان الأقوياء في عهده كالمستعمرين اليوم، يحاولون أن يرجعوا بالناس إلى الوراء، ولو بقي حياً إلى الآن لآمن بأن الأيام تسير إلى الأمام، وتقضي على كل من يريد الرجوع بها القهقرى والقرفصا.

كم عالم في عامل؟:

رحم الله الشيخ إبراهيم يحيى العاملي رحمة واسعة، قرأت تاريخ حياته، وطرفاً من شعره فأحببته وأكبرته، وددت أن يقرأه كل عاملي، بل كل إنسان، لأنه طيب القلب، مرهف الحس، قوي الشعور، شديد الإيمان بإنسانيته، وما أحوجنا إلى دراسة من تميزوا بهذه الصفات، والاقتباس من

---

(١)الصحيح: نوعاً، لأنه اسم أن مؤخر وجوباً، وقد نبَّهت كثيراً في الصفحات السابقة لهذا الخطأ، وهنا يقع السيد الأمين أيضاً في الخطأ ذاته، ويقع الكثير من الكتاب والأدباء فيه أيضاً.

نورهم، والسير على طريقهم.

كان في عهد الجزار الذي قتل من قتل من علماء جبل عامل ورؤسائه، وهرب الذين أفلتوا منه مشردين في أنحاء الأرض، فبعضهم سكن الهند، وبعضهم إيران، وبعضهم العراق، وبعضهم عكارا، وبعضهم بعلبك، وبعضهم سورية، وبديهة أن العامليين لو قبلوا الذل، واستسلموا للقوة لما حلَّ بهم ما حلّ من القتل والتشريد، ولكنهم آثروا الموت على طاعة اللئام عملاً بدينهم وتاريخهم، وهربٍ هذا العظيم إلى بعلبك، ومنها إلى دمشق، وعاش بعد فظائع الجزار أمداً غير قصير، ولكنها بقيت ماثلة أمام عينيه، وذكراها لا تفارقه بحال، وقد صوّرها وهو شاهد عيان في قصائد عدّة من شعره تدمي الأفئدة والقلوب، قال في قصيدة طويلة مطلعها:

مضى ما مضى والدهر بؤسٌ وأنعمٌ — وصبر الفتى إن مسّه الضر أحزم
يعـز علينـا أن نـروح ومصـرنا — لفرعون مغنى يصطفيه ومغنم
منـازل أهـل العـدل مـنهم خليـة — وفيها لأهل الجور جيش عرمرم
وعاشـت يـد الأيـام فينـا فمجـدنا — وبـالرغم مـني أن أقـول مهـدم
ولسـت تـرى إلا قتـيلا وهاربـا — سـليبا ومكبـولا يُغـلُ ويُـرغم
وكـم عـالم في عامـل طوّحـت بـه — طوائح خطب جرحها ليس يلأم
وأصـبح في قيـد الهـوان مكـبلا — وأعظـم شـيء عـالم لا يُعظـم
وكم من عزيز ناله الضيم فاغتدى — وفي جيده حبل من الذل محكم
وكـم هـائم في الأرض تهفـو بلبـه — قـوادم أفكـار تغـور وتـتهم
ولمـا رأيـت الظلـم طـال ظلامـه — وأن صـباح العـدل لا يتبسـم
ترحلـت عـن دار الهـوان وقلمـا — يطيب الثوى في الدار والجار أرقم
تملكهـا والملـك لله فـاجر — سـواء لديـه مـا يحـل ويحـرم
عتـلّ زنـيم يظهـر الـدين كاذبـا — وهيهات أن يخفى على الله مجرم

ومن قصيدة طويلة:

ويسفر وجه الدين في أرض عامل — على رغم ضليل هناك وكافر
وينشـر فيهـا العـدل رايتـه الـتي — يـذوق الـردى في ظلها كل جائر
أكـفّ رفعناهـا إلى خـير مـنعم — وكسـر شكوناه إلى خـير مجـبر
فـراق وفقـر واغـتراب ثلاثـة — قد اعترضت بين اللهى والحناجر
وأصـبح باقينـا ترامـى بـه النـوى — فمـن منجـدٍ في المنجـدين وغـائر
ففـي جلـق يومـا ويومـا ببابـل — وبـالمنحنى يومـا ويومـا بحـاجر

وعرف المرحوم السيد محسن الأمين عظمة هذا العالم الشاعر فتتبع شعره باحثا منقباً حتى جمعه في ديوان كبير يقارب سبعة آلاف وخمسمائة بيت، ورتبه على حروف المعجم، رحم الله من عمل ، ومن قدّر.

الفقر والدماء الزكية:

في ذات يوم كان محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طال (ع) ماراً في بعض طرق الكوفة، فنظر إلى عجوز تتبع أحمال الرطب، وتلتقط ما يسقط منها، فتجمعه في كساء رث، فسألها عما تصنع به، فقالت: إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي، ولي بنات لا يعدن على أنفسهن بشيء، فأنا أتتبع هذا من الطريق، وأتقوته مع بناتي، فبكى بكاءاً شديدا وقال: والله أنت وأشباهك تخرجوني غدا حتى يسفك دمي، وهكذا كان خرج في الغد ثائراً، ولكنه مات فجأة.

شيئان إذا وُجد أحدهما وُجد الآخر، الفقر والثورة، وهذه حقيقة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير بتغير الزمان والمكان، ومن هنا قال العارفون: إن الاستعمار يولد الحروب، لأنه من أقوى أسباب الفقر. قاتل نهرو في مقال كتبه بعنوان السلم فلسفة آسية: " إن الاضطرابات التي تنتاب العالم ليست إلا نتيجة للفقر المدقع، ولن يكون هناك سلم حقيقي إلا إذا ظلت جماهير غفيرة من الشعوب في مختلف أجزاء العالم تحيا على الفقر والشقاء. فمن الأحسن والأجدى للسلم والأمن أن يزول الاستعمار بأسرع ما يمكن ".

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٤ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٧٦هـ الموافق أيار (مايو) ١٩٥٧م، ص (٨٣٠-٨٣٣).

(٥٥) تغيير ما في النفس ومعناه

(إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم) " آية١١ الرعد "

قال المفسرون: إن هذه الآية تدل على أنه إذا عاش قوم في نعمة فإن الله سبحانه لا يغيرها عنهم إلا إذا عصوا ربهم، وظلم بعضهم بعضاً. ولازم هذا التفسير أن النعمة تدوم وتزداد بالشكر والطاعة، وأنها تزول بالجحود والطغيان، وكان ومازال في نفسي شيء من هذا التفسير لأمور:

أولاً: إني رأيت المحتكرين والمستثمرين كلما نشطوا في الطغيان والسلب والنهب كلما كثرت أموالهم وربت.

ثانياً: إن هذا التفسير يأباه قول الله تعالى في الآية ٣٣ من سورة الزخرف: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمنِ لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون، وزخرفاً – أي ذهباً – وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين) (الزخرف:٣٣-٣٥)، إذن فالسعة في الرزق لا تدل على رضا الله كما أن الضيق في العيش لا يشعر بغضبه، لأنه لا يجزي الشاكرين بالذهب والفضة، ولا يعاقب العاصين بالحرمان منهما، بل الأمر على العكس، فقد جاء في القرآن الكريم أن الله يعاقب الجاحدين بكثرة الأموال والأولاد: (فلا تعجبك أموالهم وأولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (التوبة:٥٥) (١).

ثالثاً: إن قول المفسرين يتنافى مع ما هو مأثور ومشهور من أن المؤمن مبتلى وممتحن، وأن البلاء موكل بالمتقين، الأول الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل. ومن هذا يتبين أن تفسير المفسرين لا يستند على أساس من الصحة، وأنه لابدّ من طرحه، وتفسير الآية بمعنى جديد يتفق مع منطق الواقع، وعظمة القرآن، ولعلَّ خير تفسير يتحمله لفظ الآية وتقره الحقيقة هو أن يقال:

ولا شيء أصدق وأوضح في دلالة الآية الكريمة على هذا المعنى من أن

---

(١)نص الآية كما وردت في سورة التوبة كالتالي: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) !! .

الأديب الفيلسوف أمين الريحاني تنبَّه إليه بسليقته العربية، وموهبته الأدبية، فقد ألقى محاضرة بعنوان " إصلاح الأمة " في فلسطين سنة ١٩٢٧م، استشهد فيها بهذه الآية، وأتبعها بقوله: " فالمرء الذي يثور أولاً على نفسه فيصلحها إنما هو المصلح الحقيقي، المرء الذي يثور على ما ورث من الأجداد مما كان فاسداً، أو ما أفسده الزمان فيصلحه أو ينبذه هو هو الذي يحق له أن يثور إذا اقتضى الأمر على الحكومة ".

إن المظالم التي تقع على هذه الأرض لا يتحمل مسؤوليتها القضاء والقدر، وإنما نحن جميعا المسؤولون، سواء الظالم والمظلوم، والغني والمحروم، والحاكم والمحكوم، هذا لسكوته وذاك لاعتدائه. إن الله لا يسمع الشكوى ويجيبها إلا من العاملين المجاهدين.

اللهم اسلك بنا الطريقة المثلى، واجعلنا على جهاد الاستعمار وكرهه نموت ونحيى، وارزقنا النصر عليه وعلى أذنابه، واخذل جميع نوابه وكلابه، إنك على كل شيء قدير.

أما القوم الذين يرضون بعيش الذل والفقر، والجهل والظلم فإن الله لا يغير ما بهم من البؤس والشقاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخنوع والخضوع والقناعة وتقبل الضيم، فإذا نافقوا وصفقوا ومسحوا أجواخ(١) الظالم، وباركوا طغيانه وعدوانه، فإن الله لا ينظر إليهم ولا يخفف عنهم العذاب، لأنهم حرب عليه وعلى أوليائه، وعون لألد أعدائه، أما إذا أطاعوا الله وجاهدوا وكافحوا لإزالة العراقيل، وتطهير الأرض من القراصنة، والإنسانية من الفساد فحاشا لله أن يخذلهم ويضيعهم، وليس أدل على هذا من أن الشعوب التي كافحت الاستعمار نالت ما تمنت، وعاش أهلها سادة مكرمين بعد أن كانوا أذلاء مستعبدين، إن المظلوم إذا رضي بالظلم، ولم يستمت دون حقه فقد ظلم نفسه، وأعان غيره على ظلمه، وبهذا نجد تفسير قوله سبحانه:" إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون " (يونس:٤٤) (٢) .

---

(١) أجواخ : جمع مفردها جوخ، وهو النسيج من الصوف، ويقصد الشيخ هنا مسح ثياب الظالم بشكل عام والتذلل له والاستصغار أمامه.

(٢)مرة ثانية وفي المقال الواحد يخطأ الشيخ في نص الآية مع بالغ الأسف، والآية في سورة يونس ترد :" إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون " .

وليس من شك أن شكر المنعم واجب شرعاً وعقلاً، سواء أكانت النعمة بالإيمان والهداية، أم بالعقل والعلم، أم بالصحة والجسم، أم بالمال والأهل، أم بالشهرة والجاه، ليس من شك أن على الإنسان أن يشكر الله إذا أنعم عليه بشيء من آلائه، ولكن ليس في الشرع ولا في العقل ولا فيما يقع تحت أعيننا، لا شيء أبدا يدل من قريب أو بعيد أن الله يمنح الشاكر في هذه الحياة جائزة نوبل أو شيكا على البنك، بل الأمر على العكس كما تقدمت الإشارة.

وبالتالي فإن آية لا يغير الله ما بقوم تكمن فيها روح الشجاعة والثورة على فساد العادات والتقاليد، وفساد العقائد المبادئ، وعلى الفقر والجهل، وعلى الاستعمار والإقطاع، تكمن فيها روح الثورة على السادة الذين بنوا للظالم قصورا من عرق الكادحين، وأعدوا سيارات من دموع المنكوبي، وحرموهم من كل شيء، حتى من قطرة الماء، وثمن الدواء، وحروف الهجاء، ولقمة الغذاء.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٤ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٧٦هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٧م، ص (٨٣٠-٨٣٣).

(٥٦) النجف والامتحان

أقرأني بعض الأخوان الأفاضل رسالة بعثها إليه أحد الطلاب العامليين في النجف الأشرف أخبر به فيها أن المرجع الأعلى السيد البروجردي المقيم في إيران أعلن على طلاب النجف بلسان وكيله أن من يؤدي الامتحان منهم أمام هيئة معينة، ويتجاوزه يخصص له راتباً شهرياً، يتفاوت قلة وكثرة حسب درجة الطالب ومرتبته العلمية، وقال صاحب الرسالة: إنه لم يتقدم للامتحان إلا هو وحده، وإنه فاز بالحصول على الراتب. ثم أجهز على الفكرة في مهدها، ولم يبق لها عين ولا أثر، لأن حزمة من المعممين احتجوا وثاروا على هذا التجدد أو البدعة التي ليس كمثلها شيء في تاريخ جامعة النجف!.

وما كان لنا أن نمر بهذا الحدث الهام دون أن نقف عنده طويلاً، إنه هام وعظيم جداً، وإن ظهر للوهلة الأولى أنه عادي وبسيط، أجل، إنه لكذلك عادي وبسيط، بل تافه أيضاً بالقياس إلى أصغر وأحقر مدرسة أو كتاب في قرية بدائية فقيرة، أما الامتحان في جامعة النجف الكبرى فإنه من خوارق العادات التي تستوقف النظر، وتثير الانتباه، إنه تطور هائل ، وتقدم سريع لم يكن بالحسبان، ولم يخطر على بال في طيف وخيال. نجف وامتحان، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب.. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق!.

يدخل الطالب النجف فلا يُسجل اسمه ولا صفه في سجل، بل لا يسأله أحد عن هويته واسمه إلا للتعارف فقط، ويُترك له الخيار في تعيين الكتاب الذي يدرسه، والرفيق والأستاذ، بل يُترك له الخيار في حضور الصفوف العالية الهائية مع العلماء والمجتهدين دون حسيب ورقيب، وهو مازال في دور "الحضانة "! أما الشهادات فهي في نظر بعض الشيوخ الكبار حفظهم الله ومتع المرتزقين بحياتهم، سبيل ووقف على كل طالب وراغب ينثرها ذات اليمين وذات الشمال في الأسواق والشوارع موقعة بإمضائه الشريف يلتقطها كل متطفل مسرف، وجاهل محترف.

في سنة ١٩٥٣ أجرينا امتحاناً لبعض شيوخ السنة والشيعة المرشحين لمركز القضاء الشرعي في لبنان، فقدم لنا شيخ من السنة دَرَسَ في الأزهر شهادة تنص على أنه حضر في الفرع الهمجي، ولم نفهم القصد من الهمجي .. ولدى البحث والسؤال تبين أن في الأزهر فرعاً يدرس فيه الطلاب على

الطريقة النجفية، لا يتقيد التلميذ بكتاب أو صف أو امتحان، فرفضنا الشهادة، حيث أشارت إلى أنها لم ترتكز على أساس سليم. وحبذا لو نطقت الشهادة النجفية بالحق والصدق، بل لو أشارت بطرف خفي إلى أن حاملها تخرج من مدرسة لا تتمشى على قانون، ولا تسير على نظام فيما يتعلق بالإجازة والامتحان، حبذا لو لم تنعته بالعالم العلامة، والمحقق الفهّامة!.

نحن لا نشك أن في النجف علماء مجتهدين، وطلاب (١) يسيرون على الصراط القويم، ولكن الفضل في ذلك يرجع إلى كل واحد من هؤلاء بالذات، يرجع إلى جهوده وإخلاصه، لا إلى هيئة خاصة أو مرجع معين، إن نفسه الكبيرة، وهمته العالية قد دفعت به إلى الطليعة، لقد أبى عليه ضميره الحي أن ينافق ويدجل، ويغرر بالناس، فيلبس ثوب العلماء، وهو أجهل الجهلاء، نحن نعلم هذا، ونعلم أيضاً أن في المعممين دخلاء على العلم والدين، يجرأون على الظهور بمظهر ليسوا له بأهل، ولا هو منهم في خمر أو خل، ولا يقيمون وزناً للقيم، ولا يبالون بما يقولون، وما يُقال عنهم! وأورد مثالاً واحداً من أمثلة عديدة أحفظها ويحفظها الكثيرون:

في العام الماضي جاء معمم بعد أن أطال المكوث في النجف بدون طائل، وأقام في بيروت عاصمة الطوائف والأديان، وبلد المشارب والمذاهب، والإشعاع والتجدد، وقد توافرت فيه جميع الشروط الضرورية والكمالية لرجل الدين، توافرت فيه حتى الجمود والرجعية إلا شرطاً واحداً هو العلم فقط لا غير!.

واستناداً إلى الشروط التي جمعها من العمة إلى اللحية، وما إليهما، وإلى المظهر الذي ابتدعه لنفسه لم يستطع أن يمسك لسانه من الفتوى، وقول الكذب، هذا حلال، وهذا حرام. سأله رجل سافر من بيروت إلى بلده ووطنه في الجنوب، قال السائل أريد أن أنام في وطني ليلة واحدة، فهل أصلي قصراً أو تماماً؟ فأجابه المسؤول: يجب عليك القصر، قال السائل: أنا في وطني، قال:

---

(١)طلاب: من حقها النصب، لأنها معطوفة على منصوب، فكان يجب أن يقول: وطلاباً يسيرون!

لا فرق مادمت لم تعزم على إقامة عشرة أيام، إلى كثير من هذا النوع (١) وحكم هذه المسألة من البساطة والوضوح بحيث يعرفه كثير من الأميين. إن العلماء الأعلام لا يرون شيئاً أكثر خطراً من الفتوى، يخافونها خوفهم من الأسد والمجذوم، لذا يتروون ويتحفظون لدى السؤال، أما الفضولي المتطفل فيسرع إلى الإجابة على غير هدى، ودون أي شعور بالمسؤولية أمام الله والناس.

وصعد المنبر في إحدى ليالي شهر المحرم من هذه السنة، وقال فيما قال على ملأ من الناس: " لقد جاء محمد بأمرين لم يأت بهما عيسى ولا موسى ولا أحد من الأنبياء، وهما العدالة والحب"، وأي فرق بين قوله هذا، وقوله بأن موسى وعيسى لم يكونا من الأنبياء؟!

أي فرق بين هذا القول، والقول بأن الله لم يرسل نبياً إلا محمداً؟ بل أي فرق بين هذا، وإنكار الإسلام ونبوة محمد من الأساس؟! " إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا " (النساء:١٥٠-١٥١) .

والعجيب الغريب أن علماء جبل عامل — وأعني الذين تثق الخاصة والعامة بعلمهم وأقوالهم فيما يرجع إلى الدين — يعرفون هذا المنكر، ويقع على مرأى منهم ومسمع، ثم يسكتون عنه، حتى كأنه لم يكن، مع أنهم وحدهم المسؤولون عنه، لأنه لا يخص أحداً سواهم، ولعل سر هذا السكوت أن تلك المخالفات والضلالات كثرت حتى أصبحت مألوفة معتادة، فشملتها قاعدة لاشك لكثير الشك.

---

(١)منها: أنه سئل عن طلاق المستحاضة وهي في طهر لم يقربها فيه المطلق؟ قال: لا يصح. ومنها أنه سئل عمن توضأ قبل أن يطهر مكان البول؟ قال: تجب إعادة الوضوء. ومنها أنه سئل عن معنى المؤمن المستحق للزكاة عند الشيعة؟ قال: إن للمؤمن على المؤمن ٧٢ حقاً !. "مغنية"

❁ **مجلة العرفان، المجلد ٤٥ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٧٧هـ الموافق تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٧م، ص (٢٢-٢٤).**

(٥٧) الأزهر والفقه الشيعي

والكنيسة الإنجليزية والشذوذ الجنسي

من عادتي أن أستمع كل يوم إلى نشرات الأخبار من محطات الإذاعة صباحاً وظهراً ومساءاً، وأقرأ المجلات والجرائد الصباحية والمسائية يومياً، يأتيني في الصباح إلى البيت موزع الصحف بجريدة لبنانية، وفي الساعة العاشرة قبل الظهر أذهب إلى المكتبات وأتصفح بقية الصحف، وفي الساعة الرابعة مساءاً أذهب إلى رأس الخط "محطة الحرش" القريبة من داري في الشياح، وأشتري بعض الصحف المصرية اليومية، وأتصفح البعض الآخر، كما أني أتتبع الكتب الحديثة باهتمام، وأرقب صدورها بفارغ الصبر، وأشتري منه ما يستأهل العناية بأغلى الأثمان، وأبذل بإزائها كل عزيز، فإذا سمعت أو رأيت شيئاً يستحق التعليق كتبت حوله ما يخطر لي من الملاحظات والتأييد أو التفنيد، وقد تجمّع لدي من ذلك الشيء الكثير، نشرت بعضه في صحف مصر ولبنان والعراق، والبعض الآخر سينشر إن شاء الله تعالى ضمن كتاب الإسلام مع الحياة.

وفي هذا الأسبوع قرأت خبرين: أحدهما نشرته في الصفحة الأولى جريدة أخبار اليوم المصرية عدد ٥٧/١١/١٦ وهذا نصه:

"وافقت الكنيسة الإنجليزية على اقتراح الشذوذ الجنسي بين البالغين، صدر القرار بأغلبية ١٥٥ عضوا ضد ١٣٨ " ومعنى هذا أن البالغ إذا فَجَرَ بغير البالغ تحققت الجريمة، واستحق الفاعل العقاب، أما إذا فَجَرَ بالغ بمثله فلا جريمة ولا عقاب !

وقرأت الثاني في مجلة آخر ساعة عدد ٥٧/١١/١٣ نشرته بالأحرف التالية :

" الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر قرر على طلبة الأزهر في هذا العام مادة جديدة هي الفقه الشيعي.. والسبب في تقرير هذه المادة هو تضامنه مع الدعوة الإسلامية الجديدة لتقريب وجهة نظر علماء الشيعة من وجهة نظر علماء السنة، للوقوف ضد الكتلة الإسلامية الموالية للغرب التي تحاول الدول الاستعمارية تكوينها .. والمعروف أن مسألة تقريب النظر بين علماء الطائفتين قد نادى بها الإمام محمد عبده من قبل ".

ولا أريد أن أقارن بين هذين القرارين، وإن كان المجال يتسع للمقارنة بينهما من حيث التطور والتقهقر على الرغم من اختلاف الموضوع والهدف، وإنما أريد أن أتساءل عن الأسباب الموجبة لقرار الكنيسة الإنجليزية، عن الحكمة والمصلحة من الموافقة على الشذوذ الجنسي بين البالغين؟ نحن نعلم أن من جملة الفروق بين الإسلامية والمسيحية أن للإسلام شريعة تنظم أمور الدين والدنيا، تستمد أحكامها من الكتاب والسنة، وأن المسلم ملزم بطاعتها وامتثالها، ولا يجوز له كمسلم أن يعطلها أو يعترض عليها، وأما المسيحية فتقتصر على العقائد والعبادات والأخلاق، وتترك حق التشريع وتنظيم الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة أو لأية هيئة أخرى يختارها المسيحيون، فلا جُناح على المسيحي أن يخضع للأحكام الوضعيةٍ ويعيش تحت ظلها. على العكس من المسلم، نحن نعلم هذا، ونعلم أيضاً أن القوانين والأحكام سماوية كانت أو وضعية لابد أن ترتكز على قانون الطبيعة ومبدأ العدالة، وطبيعة الأشياء تأبى مثل هذه الصلات الجنسية الشاذة، والعلاقات البشعة حتى بين الحيوانات التي عندها ما عندنا من الغرائز والمتع، أما العدالة فهي وإن كانت تخضع للحرية كشرط إلا أنه ليس معنى الحرية أن نفعل كل ما نريد، بل ما ينبغي أن يراد، والعامل الأخلاقي هو الذي يجب أن يوجه الإرادة ويقودها، فإذا انحرفت عنه فقد انحرفت عن سبيل العدالة والحرية والإنسانية.

هذا ولو فسحنا المجال للفرد أن يحقق جميع رغباته دون قيد أو شرط لانتفت الحرية من الوجود، ولزم من وجود الشيء عدمه. وأعوذ بالله من حرية تبيح الجرائم، وتسيء إلى الآداب ، وتدنس المقدسات.

فهمنا أن المحافظة على الاحتكار والرأسمالية هي السر لتشريع القانون الإنجليزي الذي يحصر الثروة والشركة كلها في البكر من الأولاد، ويحرم من عداه، ولو بلغوا العشرات ! وفهمنا أن الوفاء والعطف وما إلى ذلك هو السبب الموجب لتشريع القانون الذي يجيز الوصية للكلاب! أما سر تشريع الشذوذ الجنسي بين البالغين فقد قصرت عنه أفهامنا، فهل من مرشد؟ وما أبعد ما بين قرار الكنيسة الإنجليزية، وبين الشريعة الإسلامية التي أوجبت القتل على كلٍ من الفاعل والمفعول إذا كانا بالغين عاقلين، وعلى الفاعل فقط إذا فجَرَ بمجنون أو صغير.

أما قرار شيخ الجامع الأزهر فخطوة جديدة، وفتح جديد، وعمل عظيم. لقد ناديت بهذه الفكرة في مجلة العرفان ورسالة الإسلام المصرية ومجلة

الأحد البيروتية، ودعوت إلى تدريس المذهب السني في النجف، والمذهب الشيعي في الأزهر، لأنه السبيل الوحيد للتقريب والتعاون والتعاضد، كنا وما زلنا نقرأ الكتب والمقالات لبعض إخواننا السنة عن الشيعة يخلطون فيها بين الإمامية والفرق البائدة التي لا وجود لها إلا في بطون الكتب، وينسبون إلينا أشياء تخيلها شيخ متعصب أو جاهل خائن يهدف إلى تفتيت قوة المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وقد دافع الشيعة، وأعلنوا عقيدتهم ومذهبهم اليوم وقبل اليوم في الصحف وعلى المنابر وفي كتب مطولة ومختصرة، ولكن ما الحيلة فيمن لا يريد أن يقرأ، ولا يبحث ولا يسأل ! ولا يعتمد إلا على قلب متحجر، وعقل أعمى لا يرى إلا البغضاء والشحناء.

هذه هي المشكلة، أما الحل ففي القرار الحكيم الذي أصدره شيخ الجامع الأزهر بتدريس الفقه الشيعي، إنه انقلاب خطير في النفوس والأفكار، إنه الطريق السليم للإخاء والمحبة، وتبدد الأوهام وإزالة الفروق، سيتأكد السنة أن إخوانهم الشيعة لا يعتمدون على غير كتاب الله وسنة الرسول، وأنهم أحرص الناس على الإسلام وأحكامه وآثاره، وبهذا وحده يكون المسلمون قوة جبارة ضد الاستعمار عدو الإسلام والإنسانية .

تم تأسيس الأزهر في القرن الرابع الهجري سنة ٣٦١هـ، وابتدأت الدراسة في النجف في القرن الخامس سنة ٤٤٨هـ وحمل كل منهما لواء الزعامة والمعرفة والثقافة الإسلامية، ونشرها على الآفاق منذ بدايته حتى اليوم. ولولاهما لكان التراث الإسلامي والعربي أثرا بعد عين.

إن هدف الأزهر والنجف واحد، وهو إعلاء شأن الإسلام، وإعلان فضائله، واتباع سبله وتعاليمه. وقد يتساءل: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يتصل الأزهر بالنجف، والنجف بالأزهر، ويتبادلان البعثات؟ لماذا لا يعقد النجفيون والأزهريون المؤتمرات، ويتدارسون ما يتصل بمهمتهم، ويتبادلون الآراء متعاونين متعاضدين على تحقيق ما يرميان إليه من أهداف، كما يفعل الأدباء والمحامون وخريجو الجامعات والأطباء وعلماء الطبيعة؟

كان التدريس بالأزهر في أول الأمر على مذهب الشيعة فقط، فرضته الدولة الفاطمية التي أنشأت الأزهر، وحرّمت تدريس غيره من المذاهب، وقد قُبض على رجل وُجد عنده كتاب الموطأ للإمام مالك، فسُجن وجلد، ولما انقرض الفاطميون وقامت الدولة الأيوبية حرَّمت تدريس المذهب الشيعي، وتغلب المذهب الشافعي، ثم الحنفي أو المالكي حسبما تقتضيه الظروف،

والآن تُدرس فيه المذاهب الأربعة على السواء، فمنذ أن نشأ الأزهر إلى اليوم لم يدرس فيه المذهب الشيعي والسني معاً بصفة رسمية، وكانت السياسة الغاشمة الظالمة هي التي تفرض هذا مرة، وذاك أخرى كما توحي أهواؤها وغاياتها.

إن مصادر الفقه الإسلامي وأبوابه ومسائله واحدة عند السنة والشيعة، وهو يدرس في النجف والأزهر، ولكن منهج التدريس في كل منهما يحتاج إلى تعديل ، لأن من جملة العناصر الجوهرية للطريقة العلمية هو جمع كل الملاحظات الممكنة، والاطلاع على كافة الأقوال المتعلقة بالمسألة التي يُراد بحثها وتحريها، ثم قياسها على الدليل بكل دقة، والأخذ بالأصحِ الموافق، وبهذا تكون الملاحظة أدق وأقرب إلى الواقع. ولا أكاد أتصور "عالما" يعرف أصول البحث، ويعرف أن في "المسألة" مثلاً قولين متضادين، ثم يجزم بأحدهما قبل أن يطلع على مستند القول الآخر مع العلم أن صاحبه من العلماء، وأنه لم يذهب إليه ويتفوه به إلا بموجب الدليل، وإلا بعد الدرس والتنقيب وبذل الجهد.

من الدروس التي تلقيناها في النجف أن الأمور على أقسام ثلاثة: الأول بشرط شيء، أي بشرط الإيجاب، كما لو قلت لصاحبك: أزورك على أن تكرمني. الثاني بشرط لا، أي بشرط السلب، كما لو قلت له: أزورك على أن لا تتكلف شيئا. الثالث بشرط، أي من غير قيود إيجابية أو سلبية، كما لو قلت له: أزورك على كل حال، والمنهج العلمي يعتبر فيه قيدان، سلبي وهو التجرد عن العاطفة والتقليد، وإيجابي وهو الاستقراء والتتبع التام، والكثير منا لا يجمع الأمرين معاً، فإن تتبع لم يتجرد، وإن تجرد لم يتتبع، وربما لا ذا ولا ذاك. وقد مهَّد شيخ الأزهر السبيل إلى التتبع بعد أن ضم الفقه الجعفري إلى المذاهب الأربعة، ووقف الدور على النجف، ولا نشك أن المخلصين فيها سيسارِعون إلى السعي جاهدين ليضموا الفقه السني إلى فقههم في التدريس. حقق الله الآمال.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٥ الجزء ٤، الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨م، ص (٣٠٩-٣١٢).

(٥٨) الأقطاب الثلاثة ❀

الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ عارف الزين

ثلاثة من أقطاب هذا العصر أضافوا إلى تاريخ جبل عامل والعامليين صفحات مجيدة خالدة، وبين هؤلاء الكبار جوامع وفوارق، يجمع بينهم الإخلاص والتضحية والعمل المتواصل، فقد سبقوا الجميع إلى كفاح الإقطاع في جبل عامل، والدعوة إلى التحرر من قيود الذل والجهل، وكانوا مع طليعة المجاهدين ضد الاستعمار التركي والفرنسي، وقاسوا ما يقاسيه كل مجاهد مخلص لأمته ووطنه. لبّى الأول – المرحوم الشيخ أحمد رضا – نداء ربه، وانتقل إلى رحمته ورضوانه، وبقي الآخران – الشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد عارف الزين مدَّ الله في أجلهما – يعملان ويجاهدان، وما بدّلا تبديلا .

الشيخ أحمد رضا :

أما الفوارق بين الثلاثة فقد اتجه المرحوم الشيخ أحمد إلى اللغة يبحث عن أصولها ومصدرها ونشأتها وتطورها، ووضع فيها مؤلفات عديدة، منها الوسيط، والموجز، ومتن اللغة، وهو أضخمها وأعظمها، بل أوسع مجموعة في هذا الفن، حيث لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها، وذكر مصدرها ومشتقاتها، وقد أمضى في تأليفه وتنقيحه سنين طوالاً، ويبلغ أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بالقطع الكبير، وقد التزمت دار مكتبة الحياة ببيروت طبعه وإخراجه في أجزاء متسلسلة متتابعة، وأنجزت الأول والثاني في طباعة حديثة على لأجود ورق، وهي ماضية في هذه السبيل لإنجاز الأجزاء الباقية، لا يثنيها عن عزمها الأكيد الصعوبات والعقبات، ونسأل الله سبحانه أن يكون في عون أصحابها، لإكمال هذا المشروع الضخم، الذي يعود بالنفع والخير العميم على القومية العربية وآثارها ولغتها، والأمة الإسلامية ودينها وشريعتها. وأرجو السادة العلماء وأرباب الأقلام؛ وأساتذة الكليات والجامعات أن يعيروا اهتمامهم لهذا السفر الجليل، فإنهم واجدون فيه ما لا يجدونه في غيره من التيسير والسهولة والفوائد.

❀ كتبت المجلة تحته العبارة التالية : بلغنا أن هذا المقال نُشر في الكفاح .

الشيخ سليمان ظاهر :

وأقسم قَسَمَ صدق، وأقول كلمة حق إني ما رأيت هذا الرجل الجليل إلا ذكرت فيه قداسة الكفعمي، وصفاء الشيخ محمد دبوق، إنه صورة طبق الأصل عما نسمع ونقرأ عن السلف الصالح الذين لا ينشدون الكمال إلا في التقرب إلى الله سبحانه، فإذا فعلوا شيئاً فعلوه ابتغاء مرضاته، لا يريدون جزاء ولا شكورا.

ألّف كتاب الذخيرة إخلاصاً لدينه وعقيدته، وألّف كتاب معجم قرى جبل عامل خدمة لوطنه وأمته، وأنشأ مع زميله المرحوم الشيخ أحمد رضا جمعية المقاصد الإسلامية في النبطية وأوقافها ومدرستها تلبية لنداء الدين والعلم والوطن، وليست هذه كل آثاره ولا جلها، فقد نشر في الصحف السيارة مئات المقالات في السياسة والأدب والتاريخ والأخلاق، وله مؤلفات مخطوطة، منها ديوان شعر كبير، جمع فيه قصائده الوطنية، وغيرها مما كانت توحيها الظروف والمناسبات، وقد طبع منه أخيراً أربع قصائد غراء في كراسة مستقلة يمدح بها الرئيس عبد الناصر، ويثني على جهوده وأعماله ويمجد الثورة المصرية، والقومية العربية، وبواعثها وأهدافها، وذكر فيها الاعتداء على بورسعيد، وهزيمة المعتدين، كما ذكر محنة الجزائر وفلسطين. قال في القصيدة الثالثة :

فسائل بني التاميز والسين هل بما ... يساسان فيه ترتضيه البصائر

فهل موثق يرعى لديهم وذمة ... وأرحام إنسانية وأواصر

تألوا بأن لا يبقى للسلم بينهم ... ولا للواء السلم في الناس ناشر

ويطربهم منهم أنين مرمل ... على الترب ما واراه في الترب حافر

ومن قصيدته الرابعة في مدح الجمهورية العربية المتحدة، وبطليها جمال والقوتلي :

وحسبك من آثاره الغر وحدة ... بها بردى والنيل ضمهما النجر

وعن كثب أقطار أمة يعرب ... سينضم بعد القطر في عقدها قطر

ووحدتها أنسابها ولسانها ... هما محوراها والمواطن والذكر

ومن كجمال أو كشكري حماتها ... وكل لها حامٍ وكل بها برّ

وشيخنا الجليل في العقد التاسع من عمره، وبالرغم من تقدمه في السن فمازال محتفظا بنشاطه وذاكرته العلمية، مكبا على الكتابة والمطالعة، ساهرا على معهده العلمي ومصلحته.

الشيخ أحمد عارف الزين:

اتجه الشيخ عارف إلى الصحافة، فأخلص لها، ووفاها أكثر من حقها، فقد ضحى في سبيلها بثروة طائلة، وبعقارات ورثها عن المرحوم والده، باعها من أجل العرفان بأبخس الأثمان، ولو بقيت إلى اليوم لبلغ ثمنها عشرات الألوف، دخل الشيخ عارف إلى الصحافة غنيا، فأصبح فقيرا، واحترفها غيره فقيرا فأصبح غنيا يملك الدور والقصور والخدم والسيارات، ويمشي الشيخ عارف على الأقدام، ويركب البوسطة مع الشعب.. مُنعت العرفان من العراق والمملكة العربية السعودية، ومن إفريقية الفرنسية، ومازال مثابرا على إصدارها رغم الحواجز والعراقيل، يستدين من هذا وذاك ثمن الورق كي يصدر العدد. لم يقبض صاحب العرفان من السفارات ومكاتب المخابرات، ولا الملوك و الحكومات كثيراً أو قليلاً، ولو أراد لسبق الجميع إلى الثروة. إن الشيخ عارف فقير مادياً ولكنه غني وكبير أدبياً، كبير بإخلاصه وتضحيته، كبير بعرفانه شيخة المجلات التي شجّعت الكثير من العلماء والأدباء وأرباب الصحف، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: المرحوم الشيخ محسن شرارة، والشيخ علي الزين، وصالح الجعفري، وعبد الرزاق محيي الدين، وحسين مروة ومحمد شرارة، ورياض طه صاحب جريدة الكفاح، ومجلة الأحد، وكامل مروة صاحب جريدة الحياة، والحوماني وأنا. وغير هؤلاء مما لا يُحصى عديدهم.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٥ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٧٧هـ الموافق نيسان (أبريل) ١٩٥٨م، ص (٦٤٠-٦٤٢).

(٥٩) قصة الكلية الجعفرية في صور

إن قصة الكلية الجعفرية في صور تتصل بقصة كفاح جبل عامل، وتحرره من قيود الذل والعبودية، فلقد تركت الرجعية في هذا الجبل أسوأ الآثار، تركت فيه الفقر في أبشع صوره ن فلا وسيلة للعيش والعمل، بل لا قطرة ماء إلا ما تجود به السماء، وتركت الجهل علة العلل، وبكلمة تركته يتخبط في أزمات لا عداد لها، ولا خلاص منها إلا بالجهاد والتضحية.

وعلى هذا الأساس، أساس النضال من أجل الحرية قامت دعائم الكلية وشُيِّد بنيانها، ومن أجل هذا الغرض النبيل استعمل المقدس شرف الدين نفوذه وثقة الناس به، يجمع القرش من العامل والفلاح والتاجر والمهاجر، وكرّس حياته وهمه واهتمامه لتعزيزها والسير بها في طريق الحياة والتطور.

وماذا كانت النتيجة؟ وهل تحقق الهدف؟

ونجد الجواب في ثورة أهالي صور بالأمس، وإضرابهم وتظاهرهم نساء ورجالاً وأطفالاً يهتفون بسقوط اللصوص والإقطاعيين، نجد الجواب في دماء الشهداء من أبناء الكلية، وفي تلك الروح العربية التي يحملها كل واحد من طلابها.

لقد ترك العامليون أرضهم وبلادهم، وفرّوا بأنفسهم من الظلم والبؤس، تركوها مهاجرين إلى كل مكان، إلى أميركة وإفريقية، والحجاز ونجد والكويت، وقطر والبحرين، وإلى بيروت وغيرها، ولم يبق فيها إلا الشيخ الفاني والعجوز المتهدم الذي لا يستطيع حراكاً، ولا يجد وسيلة للرحيل. لقد لاقى أبناء عاملة أنواع العذاب والذل والهوان، ولم يفكر في أمرهم إنسان، أو فكر، ولم يهتد إلى سبيل الخلاص، أو اهتدى ولم تسعفه الظروف، وهكذا كان السيد الجليل شرف الدين رحمه الله في بدء الأمر، لقد ظن أن إصلاح الطغاة يكون بالوعظ والإرشاد، فأخذهم بالحكمة والموعظة الحسنة، نهاهم وخوّفهم من الله سبحانه، وحذرهم سوء العاقبة، فازدادوا عتوّاً وتجبراً، فشهّر بهم وأعلن مساوئهم، وأمر الناس بنبذهم وعدم الركون إليهم، ولكن الاستعمار والحكومات الرجعية كانت تشجعهم على الفساد، وتشد من أزرهم، فتمادوا في الغي ولم يجدِ التحذير والتشهير، غير أن السيد لم ييأس ويستسلم، بل واصل الكفاح والنضال، ولما علم الله منه صدق النية، ومضاء

العزم أوحى إليه بفكرة الجعفرية، فسعى إليها سعيه بشجاعة وإخلاص، وتهيأت له الأسباب، وتمت المعجزة، وما إن ذاع نبؤها حتى تقاطر إليها أبناء القرى القريبة والبعيدة، فرحبت بهم وأولتهم كل عناية، لفقرهم وبؤسهم، فكان يأتي أحدهم وهو يشعر في نفسه الخجل، لأنه أشبه ما يكون بالحفاة العراة، لا يحمل معه شيئاً سوى الرغبة في الدرس والتلهف على العلم.

لقد عبَّرت هذه الكلية عن نفسها، وأقامت الدليل على أنها للشعب، لا لفئة دون فئة، ولا لفرد دون آخر، فما عُرف عنها أنها سايرت متزعماً أو حاكماً، فلقد رفضت جميع المغريات والمساومات، على الرغم من ظروفها القاسية وحاجتها الملحة، وأبت إلا الحرية والأمانة والإخلاص للعلم والوطن، وهذي هي خطيئتها الكبرى، وذنبها الوحيد، وهذا هو السبب الأول لحرمانها من المنح التي توزعها الحكومة في كل سنة على الطوائف بمئات الألوف، باسم المعاهد والمؤسسات الخيرية، مع علمها بأن الجعفرية تأتي في طليعة الكليات بما تسديه إلى لبنان وإلى الإنسانية من الخدمات، وعلمها بأنه لا مورد لها إلا أكف المحسنين(١) ولكن الجعفرية التي تأسست في الكفاح وللكفاح ستبقى مستمرة في هذه السبيل مهما تكن العقبات، ولن تكون أبدا إلا للكفاح وإلا للقضاء على الإقطاع والاستبداد، وكنس القاذورات من أرض الجنوب، وإذا خسرت الجعفرية بعض أبنائها الطيبين فقد انتصرت وانتصر الشعب، وحققت الكثير من الآمال، والمستقبل خير وأفضل بحول الله وقوته، وإن للشعب وللجعفرية مع مناوئيها لوقفة طويلة وحامية جداً، ولتعلمن نبأها بعد حين.

---

(١) نشرت جريدة الكفاح البيروتية عدد ٨٧ تاريخ ٥٨/٤/١٣ صفحة ٤ عامود ٢ نشرت ما يأتي : " صدر عن وزارة التربية قرار رقم ٢١١ تاريخ ٨ نيسان ٥٨ بتوزيع المساعدات المالية المخصصة للطائفة الشيعية، يُمنح عادل عسيران ٦٧ ألف ليرة بوصفه رئيساً للميتم العربي بصيدا، ورئيس جمعية التعاون الريفي بالنبطية، ويُمنح كاظم الخليل ٦٧ ألف ليرة بوصفه رئيساً للجمعية الخيرية في صور، ويُمنح إبراهيم حيدر ٣٩ ألف ليرة، وبيضون ٦٧ ألف ليرة، ولا يوجد جمعية خيرية إسلامية بصور برئاسة كاظم، أما مبلغ ٣٩ ألف لحيدر فلم يُذكر لماذا مُنح، ولم تنل الجعفرية ولا جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في النبطية ولا غيرها من الجمعيات الثقافية وبقية المدارس والمستوصفات الموجودة عند الطائفة شيئا.

لقد ضاق الطغاة بالجعفرية، كما ضاقت بهم، ومكروا بها، كما مكر المشركون بالرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، وكما عجز الكفار أن ينالوا الرسول بأذى كذلك هم أحقر وأذل من أن يمسوا الجعفرية بسوء، لأن الشعب بالمرصاد لهم، ولكل من يناصبها الكيد والعداء، ومن ذا الذي يقف في طريق هذه الكتائب التي تتدفق منها في كل عام، وهي تحمل رايات الحرية والأنفة والنضال؟ ومن يستطيع النظر إليها باستخفاف، وهي قدس الأقداس عند الطائفة عامة، وعند العامليين خاصة.

أقول: لقد سمعنا أن في صيدا ميتما، أما الجمعية الخيرية الإسلامية في صور فلم نسمع بها، وإن يكن شيئا من ذاك فاسم بدون مسمى، ولفظ بدون معنى، وإلا فليدلنا عليه المتهمون، وليدرأوا عنهم الشبهات والظنون. (م.ج.م)

سمعت من في نفسه مرض يقول: إذا مات السيد ماتت الجعفرية، ومات أولاده. وقد نسي هذا القائل أن السيد لم يكن فردا، وإنما كان رمز الفكرة، وتعبيرا عن مبدأ تجلى في مواقفه الوطنية الرائعة، وفي رفضه زيارة الشاه، والمبادئ حية لا تموت، وكذلك الجعفرية وأولاد السيد ماساروا سيرته، وحاشا أن يخونوا له أمانة، أو ينقضوا له عهدا، وأما الذي يموت ملعونا على كل لسان فهو الفاسق الفاجر الذي لا مبدأ له.

وبالتالي فما أشبه موقف النائب الطيب نقولا سالم تحت قبة البرلمان محتجا على المسؤولين عن حوادث صور والكلية الجعفرية، ما أشبه هذا الموقف النبيل بموقف الراهب المؤمن الذي صرخ في وجه يزيد بن معاوية حين رآه ينكث بقضيبه ثنايا الحسين (ع)، وما أشبه موقف الخونة بموقف يزيد ! وسيكون منقلبهم عما قريب كمنقلبه، وذريتهم كذريته منبوذين ملعونين، " فانظر كيف كان عاقبة المفسدين.. فتلك بيوتهم خاوية.. والحمد لله رب العالمين.. ".

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٥ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ الموافق حزيران (يونيو) ١٩٥٨م، ص (٨١٤-٨١٦).

(٦٠) الإمام المهدي(ع)

منذ أمد غير قصير قال لي بعض المؤمنين: أريد منك أن تؤلف كتاباً بالمهدي المنتظر، الإمام الثاني عشر.

قلت له: لو فتح لي باب من أبواب الأسلوب الحديث في هذا الموضوع لأسرعت إليه دون التماس أو رجاء.

قال: اكتب كما كتب غيرك.

قلت: لماذا أتعب نفسي إذا لم آت بجديد يسجل تقدماً يُذكر؟!

كتب غيري للمؤمنين كي يزدادوا إيماناً ويقيناً بعقيدتهم، أما أنا فقد صرفت اهتمامي كله إلى هذه الكتائب من الشباب، أضيء لهم سبيل الهداية بما عرفته من منطقهم وأسلوبهم وثقافتهم التي لا يسترشدون بغيرها، لذا أحاول إذا كتبت في الدين أن يكون أسلوبي أشبه بقصص الأطفال وحكاياتهم التي تمد عقولهم بالمتعة والمنفعة.

وفي عام مضى جاء رجل إلى بيروت من مصر يُدعى السيد " أبو المجد " (١)، يدل حديثه ومجلسه على صواب منطقه وحسن اطلاعه ومعرفته، وإيمان عميق بالإسلام وتعاليمه، وحب صادق للتفاهم والتقريب بين المسلمين ومذاهبهم، وقد رغب إلى الأستاذ واصف البارودي رئيس دار الكتب اللبنانية أن يجمعه بي، وتم اللقاء بيننا في مكتب الأستاذ المذكور بدار الكتب ببيروت، وحضر الاجتماع الأستاذان عبد اللطيف شرارة وأخوه مرتضى المذيع المعروف، ووجَّه الأستاذ أبو المجد إلي أسئلة كثيرة تتعلق بمذهب الإمامية، منها سؤال عن المهدي.

قلت: إن هذه المسألة من أصول المذهب لا من أصول الدين، فالإمامية يدينون بالمهدي ولكنهم لا يكفرون من لا يدين به، فمن أنكره فهو عندهم مسلم غير اثني عشري، وبعض مذاهب السنة يقول بعدالة أصحاب الرسول أجمعين، ومذهب آخر يقول بعدم الفرق بينهم وبين غيرهم من هذه الجهة.
قال : وأنت ما تقول بصفتك الشخصية ؟

---

(١) كان يجب أن يطمئننا عن صحته على الأقل بعد عودته إلى القاهرة . " العرفان ".

قلت: أنا مسلم ديناً، إمامي مذهباً، وكفى بالإسلام جامعاً بيني وبينك وبين المسلمين كافة، فلنأخذ الإسلام أصلاً لجميع المذاهب، وندع التفريع لأهل النظر والاجتهاد.

قال: أجل، هذه كلمة حق.

ويمكن أن نضيف الآن إلى حديثنا مع السيد " أبو المجد " ما يلي:

من أصول الشيعة الإمامية وغيرهم من المذاهب الإسلامية أن كل ما ثبت عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فهو كالقرآن الكريم من حيث الصدق ووجوب العمل، وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإخبار عن المهدي، إذن فهم – أي الإمامية – ملزمون كمؤمنين بالنبي وأقواله أن يصدقوا بالمهدي، وإلا كانوا كمن أنكر النبوة، لأن إنكار الحديث مع العلم بثبوته إنكار للنبوة بالذات، وبكلمة إن التصديق بالنبي يستدعي قهراً التصديق بالمهدي بعد العلم أنه أخبر عنه، ويستحيل الانفكاك والانفصال، ومن هنا لا نجد مجالاً للكلام عن المهدي إلا في نطاق الحديث الشريف، كما هو الشأن في كثير من القضايا الدينية التي تثبت بالسنة فحسب، ولو أهملنا السنة لما كان للإسلام هذا الصرح الشامخ في شتى ميادين العلوم الإسلامية، أما الدليل على الأخذ بحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو نفس الدليل على نبوته وثبوت رسالته، وعلى هذا إذا سألنا عن المهدي سائل لا يؤمن بالحديث صرفناه برفق من حيث يشعر أو لا يشعر إلى وجهة أخرى، لأنه لا طريق لنا إلى العلم سوى النقل عمن لا ينطق عن الهوى، وقد جاء في صحاح السنة والشيعة من الإخبار عن المهدي ما لا يبلغه الإحصاء، ومع هذا فنحن ننصح المؤمن المحق بالصمت عن الكلام في هذا الموضوع مع من لا يخضع للحديث الشريف خضوعاً مطلقاً.

إن هذه الحقيقة هي الأساس الذي يرتكز عليه البحث في المهدي، فعلى من يريد الكلام عنه أن لا يحيد عن هذا القصد، وإلا جاء كلامه مشحوناً بالحيرة والقلق، وإن كان أعلم العلماء، وأقدرهم على المحاورة والإقناع.

ومع الاعتراف بهذه الحقيقة ننقل إلى القارئ الكريم الفهيم بعض ما جاء في الكتب القديمة من علامات ظهور المهدي، لنتساءل معاً: هل هي تنبؤ أو إخبار بالغيب أو ماذا؟ حقاً إن المرء ليقف عندها محيراً متفكراً.

جاء في المجلد الثاني عشر من كتاب بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي المتوفى سنة ١١١٠هـ : " ثبت في الحديث أن المهدي يظهر في زمان يرى الإنسان الذي في المشرق من في المغرب، وكذا يرى من في المغرب الذي في المشرق " فهل هذا — يا ترى — إشارة إلى التلفزيون؟، وحدَّثني جماعة من إخواني الأفاضل أنهم قرأوا من جملة علامات ظهور المهدي أن القرآن الكريم يُتلى في المغرب فيسمعه من في المشرق، تماماً كما نسمعه الآن من الراديو.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً: " إن في زمان المهدي تستوي الأرزاق بين الناس حتى لا يُوجد محتاج، ويكون الجميع على أحسن حال، وفي أمن وأمان، يرعى الذئب مع الحمل، وتزيد الخيرات، حتى تصبح كالتراب، فإذا سافر مسافر إلى مكان بعيد لم يصحب معه زاداً ولا مالاً ". فهل مصاحبة الذئب للحمل إشارة إلى عهد السلم الذي تحلم به الشعوب؟! وهل زيادة الإنتاج إشارة اتجاه العلم إلى الخير والبناء لا إلى الهدم والفناء، وأن الطبيعة وثروة الإنسان ستسخر للمأكول والملبوس لا للقنابل والصواريخ المدمرة ؟!.

ومهما يكن فنحن لا نشك في أن كراهية الشعوب، كل الشعوب، ورغبتها في التعايش السلمي يسيران بالسياسة والعلم في نفس هذا الاتجاه، وستصل الإنسانية إلى هدفها لا محالة. إن الناس في كل مكان يريدون أن تسود روح العدالة والمساواة، والصداقة والتعاون، يريدون السعادة والهناء للجميع، ومتى أرادوا أراد الله، ولا راد لمشيئته.

لقد تقدم العلم حتى صعد بنا إلى الفضاء البعيد البعيد، وحتى استحال الرجوع إلى الوراء.

فإلى الأمام إلى العلم والسلم، والقضاء على الجهل والطمع وكل سبب من أسباب التوتر، إلى الأمام إلى التعامل والتبايع بالتحابب والتعاطف، بالصلاة على خير الأنبياء، رسول الرحمة والرخاء.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٦ الجزء ٦، الصادر في شعبان سنة ١٣٧٨هـ الموافق شباط (فبراير) ١٩٥٩م، ص(٥١٤-٥١٦).

(٦١) هشام بن الحكم

تأليف العلامة الشيخ عبد الله نعمة

كان للإمام علي بن أبي طالب (ع) مقدرون ومحبون في عهد الرسول الأعظم (ص) وبعده، بخاصة في عهد الخلفاء الراشدين، وبنوع أخص أيام عثمان بن عفان، ويسوغ لنا أن نسمي هؤلاء المحبين بشيعة علي لغة لا اصطلاحا، حيث لم يؤلفوا على الرغم من كثرتهم فرقة متميزة عن سائر الفرق بمبادئها وعقائدها إلا في زمن معاوية بن أبي سفيان.

وبعد أن أصبح الشيعة فرقة بمعناها الصحيح والتشيع مذهباً له أصوله وفروعه اشتدت عليهم حملات الحاكمين تقتيلا وتشريدا، لما في عقيدتهم من روح الثورة على الظلم والفساد، كما شنَّ عليهم رجالات المذاهب الأخرى حملات التكفير والتفسيق، ولعلَّ هذا هو التفسير الوحيد للمظاهر التالية:

١-ثورات الشيعة على الحكام بين الحين والحين.

٢-هذا الاهتمام البالغ بأئمة المذهب ووضع عشرات الكتب في فضائلهم وعظمتهم والتغني بمناقبهم ومنزلتهم عند الله والرسول شعراً ونثرا، وتشييد الصروح الضخمة والقبب والمنابر الذهبية على أضرحتهم المقدسة، وعلى الرغم من اعتقادنا بأن أهل البيت (ع) أهل لأكثر من ذلك فإننا نعتقد في نفس الوقت أن الضغط والتنافس وعدم إنصاف الجانب الآخر كان له بعض التأثير في هذه المواقف والتضحيات من الشيعة.

٣-هذا العدد الضخم من كتبهم في الحجاج والمناظرة للذب عن المذهب، حتى بلغت من الكثرة حداً لا نعهده لطائفة من الطوائف الإسلامية وغيرها، ولست مغاليا إذا قلت: إن الكثيرين من علماء الشيعة تخصصوا في الدفاع عن عقيدة التشيع تماماً كما يتخصص الآن العلماء في بعض فروع العلم. وكان في طليعة هؤلاء هشام بن الحكم، ومن بعده المفيد والمرتضى، وبعدهما الطوسي والحلي وكثير غيرهم.

إن مذهب التشيع لم يتكون وينتشر بالسهولة التي انتشر بها غيره من المذاهب الدينية والسياسية، فلقد لاقى دعاته وأتباعه من الاضطهاد والمذابح المتكررة من قبل يوم الحسين بن علي إلى آخر أيام العثمانيين ما لم يسجله التاريخ لدعاة أية عقيدة. وليس هذا عجيبا ولا غريبا عن عقيدة ترتكز على

مبادئ ثورية، وتهدف تعاليمها على الانحلال والطغيان، وقادتها لا يساومون وإن بُذل لهم ما طلعت عليه الشمس، ولا يتسامحون حتى مع الملوك والجبابرة، تصور حزباً يُؤلف اليوم يخالف في نظامه جميع الأحزاب القائمة والهيئات الحاكمة والفئات المستغلة، تصور حزباً كهذا يقوم بيننا، ثم تساءل بينك وبين نفسك: هل يُكتب له النجاح؟ وما هو المصير المحتوم لأعضائه وأنصاره؟ حقاً إن الذي يطلع على تاريخ الشيعة لتأخذه الدهشة كيف وُجد شيعي واحد في هذا الكوكب بعد الحملات المتوالية بقصد القمع والإبادة! وكيف صمدت هذه العقيدة وانتصرت وهي عزلاء من السلطان والمال والسلاح، أمام القوى المسلحة بالسلطان والرجال والأموال، وأمام الشدة والسطوة والتنافس، مع أن عقائد شتّى هزمت وانهارت عند الضربة الأولى. أما السر لهذا الصمود فيكمن في أمرين: في أن عقيدة التشيع هي العقيدة المثلى، وفيما بذله علماء الشيعة القدامى من جهود وتضحيات من أجل إحياء العقيدة وانتشارها، فلقد سرت عقيدة التشيع مسراها في أرجاء العالم بفضل أولئك الكبار، نمت على مر الزمن جيلاً بعد جيل، وأصبح أتباعها يُعدّون بعشرات الملايين، وبعد هذا الرسوخ والشموخ لم يبقَ أي سبب موجب لاتباع الأساليب التي سلكها علماؤنا من قبل في الحجاج والمناظرة، لأن أية محاولة تهدف الآن إلى التضليل والتشكيك في التشيع ستذهب مع الريح، إذن علينا نحن المتمرسين على فهم هذا المذهب أن نسلك طريقاً جديداً غير النقض والإبرام، علينا أن نعرّف الناس كافة أن علماءنا الأول كانوا يفكرون على أساس العقل، ويتكلمون بدافع الانتصار للحق، وأنهم ناقشوا في موضوعات شتّى، كما ناقشوا في الإمامة والخلافة، وأنهم كانوا أساتذة لمن عاصرهم ولمن جاء بعدهم، أو قل: إن علينا أن ندرس تلك العقول الجبارة التي دعمت مذهب التشيع وتردد صداها في الأجيال.

وهذا بالذات ما فعله سيادة الأخ العلاّمة المفكر الشيخ عبد الله نعمة، ولهذه الغاية وحدها وضع كتابه الخالد " هشام بن الحكم "، والكتابة عن هشام ليست كالقيام بنزهة وحضور حفلة شاي – مثلاً –، إنها عمل شاق يحتاج إلى صبر عظيم، وعلم غزير، وهل يدرك قوى هشام العقلية، ويتبين اتجاهها وتيارها إلا من كان على حظ وافر من العلم ودقة التفكير كالمؤلف؟ لقد كان هشام من نوابغ الدهر، وحلقة من حلقات التاريخ الفكري، وعنواناً لازدهار العصر الذي تعلّم وعلّم فيه، وقد ارتفع بخياله فوق الأساتذة الكبار، وأذهلت براعته في المناظرة كل فيلسوف ومناظر، ومن يصدق أن هذا العظيم غاب اسمه في زوايا النسيان والإهمال، وتألقت أسماء

رجال يبدون أمامه أقزاماً إلى جانب المارد العملاق، ولهذا السبب اختاره المؤلف موضوعاً لكتابه دونِ سواه، ولهذا السبب كان حق المؤلف علينا - نحن رجال الدين - كبيرا جدا، كبيرا بمقدار ما أدّى من خدمة للعلم والدين، وبمقدار ما وعى وأدرك من حقائق، وقد أدرك منها الكثير.

في هذا الكتاب نعرف حياة هشام على الرغم من قلة المصادر ونعرف الحركة الفكرية في عصره، وتطوره أو تنقله من مذهب إلى مذهب حتى استقر في النهاية على مذهب التشيع، وقد والاه ودافع عنه دفاع المستميت، كما يكشف الكتاب عن الثقافة الواسعة التي سادت في القرن الثاني للهجرة، وينبه على أخطاء تدور على ألسنة الأساتذة والطلاب منذ عشرات السنين، وتدرس في الكليات كحقيقة لا تقبل الشك، كالقول بأن الشيعة أخذوا كثيرا من الأفكار الإسلامية عن المعتزلة، فقد أثبت المؤلف أن العكس هو الصحيح، " انظر صفحة ١٩ وما بعدها " إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره، ولا غرض لي هنا في عرضه وتحليله، وإنما غرضي أن أبين حاجة العالِم والمتعلم إلى هذا الكتاب، وألفت الأنظار إلى عظمته، وأنه جدير بكل عناية واهتمام، وأن أوجه حضرات الشيوخ إلى هذه الموضوعات الهامة التي تظهر فضل المذهب وعظمة رجاله، ومكانتهم في الحركة الفكرية الإسلامية.

أقول هذا مع العلم أن أمثال الشيخ نعمة فينا قليلون جداً، فلقد تحلى هذا الشيخ القدير بسلامة التفكير وملكة التعبير، وبالعلمٍ والفضلٍ والتحرر من كل قيد لا يفرضه الدين والعقل، كما أوتي صبرا وجلدا على الدرس والبحث الذي كان ثمراته الطيبة هذه الآثار المورقة المثمرة مدى الأجيال: "سياسة الخلفاء الراشدين والأدب في ظل التشيع وهشام بن الحكم ومع نهج البلاغة وأدب التصوف " ومازلنا ننتظر منه الشيء الكثير، والسلام على أمير المؤمنين حيث قال: " إذا بدت من أخيكم خلة فانتظروا أخواتها ".

ونسألك أن لا يطول الانتظار يا أبا محمد، ونبتهل إليه تعالى أن يكثر فينا من أمثالك في العلم والإخلاص والنضال والنصح للدين والعلم والوطن.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٦ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٧٨هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٥٩م، ص(٦٩٠-٦٩١).

(٦٢) الدين والضمير

جاء في الآية الكريمة ٨ من سورة الحج: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)، وهؤلاء الذين يتكلمون في الخالق على غير أساس موجودون في كل عصر، وهم في هذا الوقت أكثر منهم في أيٍ وقت مضى، خاصة بعد أن شاع المذهب المادي القائم على اعتبار المادة أساسا للوجود كله، وأن كل ما لا يخضع للمشاهدة والتجربة لا وجود له في عالم الحقيقة. وبالرغم من أنهم يؤمنون بهذا المذهب وفلسفته فإن منطقهم لا يمت إليه بسبب، أي أنهم يثبتون وينفون دون أن يشاهدوا أو يجربوا، ولو وقفوا موقف المشكك المتردد لكانوا أكثر ملائمة مع المذهب الذي يدَّعون صحته وصوابه. ونورد بعض الأمثلة الملموسة لإعطاء صورة عن جهلهم وترديهم في مهاوي الضلالة والأوهام.

قال أحدهم: إن القمر الصناعي يثبت أنه لا إله موجود !

ونقول له: إنَّ العقل الذي اخترع هذا القمر وقام على ضبطه وتجهيزه يثبت وجود الإله وإلا فمن أوجد هذا العقل الجبَّار؟ وإذا كان الذكاء مادة أو ضرورة للمادة فلماذا لا تفكر الصخرة والحبة والنبات والحيوان؟ ومن أين جاء التفكير والإحساس للإنسان مادام كله مادة في مادة؟ ولماذا لا يخضع الشعور لجوهر المادة إذا لم يكن هبة من كائن أسمى؟

وقال آخر: إنَّ كل شيء موجود بحكم الضرورة، لذلك فلا حاجة إلى موجد!

وأجيب بأنه ألا يمكن أن يُوجد إله بحكم الضرورة أيضاً؟

وقال ثالث: إن الرأي القائل بوجود الله يثير صعوبات كثيرة.

وأجاب فولتير: ولكن الرأي المعاكس ينطوي على أمور مستحيلة، أي أن وجود الخالق فرض ضروري لابد منه، وإلا استحال تفسير سبب الكون.

في سنة ١٩٥٧ قرأت كتاب " الله والإنسان " للأستاذ مصطفى محمود المحرر بمجلة روز اليوسف، يدعو فيه إلى الإلحاد، وينفي وجود خالق ومدبر للكون، وقد أرشدته في صحف بيروت والقاهرة إلى طريق الحق والصواب.

وفي سنة ١٩٥٨ قرأت كتاب " الدين والضمير " للأستاذ محمود الشرقاوي يبشر فيه الناس بأنهم في أمن وأمان من كل حساب وعقاب، وإن لم يؤمنوا باليوم الآخر، ولم يؤدوا صلاة واحدة، ولم يعملوا حَسَنَة قط.

قال: إن غاية الدين الأصيلة تربية الضمير وتزكية النفس، وأن الدعوة لها تستطيع أن تنبت من الأرض، وليس لزاماً أن تتصل إلى السماء بوحي ولا سبب (انظر صفحة ٤١و٨٥).

وبعد أن أثنى على ديانات زرادشت وبوذا وكنفشيوس واليهودية لأنها سكتت عن فكرة الآخرة قال: من المستطاع أن ندعو الناس إلى فعل الخير والابتعاد عن الشر دون أن نتوعدهم بعقاب أو نطمعهم في ثواب، ولعلنا عند ذلك نكون أقرب إلى التجرد، ونحن ندعوهم دعوة مصحوبة بالتخويف بالعذاب والترغيب بالثواب، وهما أساس فكرة الدار الآخرة وغايتها (انظر صفحة ٤٧).

وهذا التزهيد في الآخرة ينطوي على أخطر دعوة ضد الأديان، إنه يهدمها من الأساس، ولم يبقَ أي داع للإيمان بالله، ولا أي لزوم للتوراة والإنجيل والقرآن، ولا لموسى وعيسى ومحمد، ولا للعلماء ورجال الدين المسلمين والمسيحيين، ولا للمساجد والكنائس ، كل ذلك وما إليه وجوده وعدمه سواء، لأن البشرية يمكن أن تعيش حياة أخلاقية طيبة دون عون سماوي ودون تعاليم إلهية، وقد عُرفت هذه العقيدة بديانة العقل، أو ديانة الطبيعة، وهي الكفر والإلحاد بعينه.

وفي صفحة ١٠٠ نقل هذا الحديث المنسوب إلى الرسول الأعظم: " أتاني آتٍ من أبي فأخبرني أن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.. وإن زنى وإن سرق ". وقال في صفحة ٩٨ : " إن الله يدخل جنته ، ويبسط رحمته على من يعلم أنه صادق طيب رشيد، ولو لم يؤدِ صلاة واحدة، ولم يعمل حسنة قط ".

ولا ندري هل نشفق على من يجرأ على إذاعة مثل هذا الكلام، أو نقسو عليه، أو نكتفي بالبراءة منه ومن آرائه؟! وبماذا نرد على من يغري الناس بالفاحشة، ويشجعهم على الجريمة، ويحرضهم على ترك العبادات، والأعمال الصالحات، ثم ينسب ذلك كله إلى كتاب الله وسنة الرسول، وهو

في نفس الوقت يرشد ويأمر – كما يدعي – بتهذيب الأخلاق وتزكية النفس وتربية الضمير ؟!.

أما حديث وإن زنى وإن سرق فهو موضوع، لأنه يتنافى مع صريح القرآن؛ وقد جاء في الحديث: " لا تقبلوا ما يخالف القرآن "، لأن الحديث تفسير وبيان للكتاب، وأخبار عن الله سبحانه، ولا اختلاف في كلامه ولا تناقض. وليس من شك أن الذي وضعه من الزناة واللصوص الكبار!.

أما قوله إن الله يدخل الجنة من لم يؤدِ صلاة واحدة فيرده الحديث الشريف: " الصلاة عامود الدين، إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها، وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نظر في عمله، وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله "، إلى غير ذلك من الأحاديث التي ثبتت بضرورة الدين وجميع المذاهب الإسلامية.

وهذا الكتاب الذي نشرته مكتبة الأنجلو مصرية، وبلغ ٢٢٣ صفحة مشحون بمثل هذه الافتراءات والدعايات الفاسدة! والغريب من أمر المؤلف أنه حين يدعو إلى تقويم الأخلاق يقول: إن فيها غنى عن فكرة اليوم الآخر، وحين يدعو إلى الفساد والفوضى يقول: إن في ترك الشرك غنى عن الأخلاق وتهذيبها، كما مرَّ عليك نقلاً عن صفحة ١٠٠ وصفحة ٩٨. وما أكثر التهافت والتناقض في كلام المؤلف! وأعجب وأغرب من تهافته وتناقضه أن تشجعه وزارة الأوقاف المصرية وتشتري من كتابه كمية وافرة بأموالها المخصصة لأعمال البر والخير، وتأييد الدين والتبشير بمبادئه وتعاليمه!

لقد تصدى المؤلف للكلام عن الأديان، وعقد لكل من اليهودية والنصرانية والإسلام فصلاً خاصاً، مع أنه لا يعرف عنها قليلاً ولا كثيراً! بل لا يعرف شيئاً عن الإسلام الذي ينتمي إليه ويدين به أجداده وآباؤه. إن الإسلام بشريعته وأخلاقه وجميع تعاليمه لا ينفصل عن الإيمان بالله واليوم الآخر الذي تستلهم منه الهداية، وتتجه إليه وحده، وتدلنا على أن الإنسان المتدين هو الذي يشعر بأنه يعمل تحت رعاية الله ومراقبته، وأنه يُعاقب إذا عصى، ويُثاب إذا أطاع.

ولسائل أن يسأل: لو أن إنساناً عمل للصالح العام، فشقَّ طريقاً، أو بنى مدرسة أو مستشفى وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فهل يُثاب على عمله هذا، ويُعد عند الله من الطيبين الأخيار؟

والجواب: إن الفعل الحسن مطلوب لذاته لا يغيره القصد عن حقيقته، ولا لون الفاعل عما هو عليه، فانتشار العلم وتطبيب المرضى، وتيسير المواصلات، كل ذلك وما إليه محبوب عند الله سبحانه، سواء أحصل من متدين أو جاحد، ولكن الذي لا يعترف بوجود الله ولا يعمل انقياداً لدعوته ليس له أن يطلب منه الأجر والجزاء مادام لم يقصد وجهه الكريم، كما أنه لا يجب عليه سبحانه أن يثيب من لا يشعر بقوته وجلاله، وهل تقدّر أنت من لا يراك شيئاً كائناً من كان؟!

إن هذا الرجل الذي فعل الخير لوجه الخير لا لشهرة ولا للدعاية إلى نفسه لاشكّ إنه إنساني يستأهل الحمد والثناء من الناس على مقاصده النبيلة، وعمله من أجل الإنسان، ولكن الفرق بعيد جداً بين من يعمل لخير الناس، وهو مؤمن بأنه فرض أوجبه عليه مبدأ أسمى، وأنه مسؤول عن العمل لا يجوز له تركه بحال، وبين من يفعله وهو لا يرى نفسه ملزماً بشيء أو مسؤولاً عن شيء. إن الثواب من الله لا يجب إلا مع قصد الطاعة له المقارن للتعظيم والإجلال، هذا إلى أن الله سبحانه لا يقبل إلا من المتقين الذين يؤمنون به وبلقائه في يوم الدين، وبهذا أنطق القرآن الكريم: " لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين.. ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا " (الزمر:٦٥/ البقرة:٢١٧ الصحيح فأولئك وليس أولئك/ الكهف:١٠٥ والصحيح فلا نقيم بدلاً من ولا نقيم !!) أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة ولا نعتدّ بهم ولا بأعمالهم، لأنهم أوقعوها على غير الوجه الذي يستحقون عليه الأجر والثواب.

ومهما يكن فإن كلاً من الإيمان وعمل الخير جزء متمم للثاني لا يُغني أحدهما عن الآخر، وبهذا صرَّحت الآية ٩٧ من سورة النحل: " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " إذن الإيمان بالله شرط أساسي لجزائه وثوابه.

إن من يؤمن بالله واليوم الآخر يقابل غداً بين حسناته وسيئاته، وينظر أيتها أكثر، فإن كانت الإساءة كان كمن لم يحسن، وإن كان الإحسان كان كمن لم يسيء، إذ الأكثر ينفي الأقل، وإن تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء، هذا فيما يعود إلى حق الله فقط، أما حق الناس كالزنى والسرقة

والعدوان، فالعقاب مستحق على كل حال، ولا تقارن وتوازن بين ما قلّ وكثر، أما الجاحد أما من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فلا يعد مطيعاً وعاصياً في آن واحد، بل هو عاص فحسب، لأن الجحود سيئة لا تقبل معها حسنة، وليس بعد الشرك إلا العذاب.

ومرة ثانية نعود إلى الشرقاوي لنقول له: ماذا تريد مما نقلته عن ابن رشد من أن مهمة الدين هي هداية العوام وإرشادهم، وإنه وضع للعامة التي لا تعقل؟! وما هو الهدف من تبريرك قتل خالد بن الوليد لمالك بن نويرة ودخوله بامرأته يوم مقتله؟! وأي شيء تقصد من تأييدك لما نسبته لأبي العلاء المعري من أن على الإنسان أن يكتفي بعقله هادياً ومرشداً؟ هل تريد أن نهجر القرآن وتعاليم الإسلام، أو تريد أن تكون عوناً للاستعمار الذي يشكك شبابنا في دينهم وتراثهم؟!

ومهما أردت فإنك لن تستطيع أن تفرق بين المسلمين وعقيدتهم التي يضحون في سبيلها بالنفس والنفيس، ولا يزيدهم كتابك وكتاب مصطفى محمود إلا تمسكاً بقرآنهم الكريم وسنة نبيهم العظيم.

والله سبحانه المسؤول أن يعيذنا من حبائل الشيطان ومكائده ومن غمزه ولمزه.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٦ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٧٨هـ الموافق ايار (مايو) ١٩٥٩م، ص(٨١٧-٨٢٠).

(٦٣) إلى علماء الشرع في جبل عامل

قاوم العامليون حكم الأتراك فقتل الجزّار رجالهم، وشرّد بهم في كل مكان، وساند العامليون استقلال لبنان فكانت النتيجة، نتيجة الجهاد الطويل المرير أن أصبح لهم مقعد في الوزارة، ورياسة المجلس؛ أما حقوق الطائفة فلا يعلم مكانها إلا الله والراسخون في الفقر والمرض والجهل، أما الليطاني، وما أدراك ما الليطاني فإلى الله المشتكى من شمعون ونواب شمعون.

قصدت جبع للصيف هذا العام، لأن القرى المجاورة لها بأمس الحاجة إلى مرشد ديني، وقد انتقلت بأهلي إليها في ٢٧- ٦- ١٩٥٩ وفي اليوم التالي بلا فاصل استأجرت سيّارة إلى عرمتى، ونزلت في الجامع، فرآني جماعة من أهلها، فقصدوني، وتحلقوا حولي، فأفهمتهم الغاية من رحلتي وزيارة بلدهم، فاستحسنوا الفكرة ورحّبوا بها، واجتمع عدد قليل لصلاة الظهرين، وازدادوا في صلاة العشاءين، وعند الزوال سألني أحدهم: هل دُعيت إلى الغداء؟ قلت: حتى الآن، إن رحلتي لله، ولذا نزلت في بيت الله، ومن قال تفضل على اسم الله كان صاحبي، فقال: إذن أنا هو. وفي اليوم الثاني ذهبت إلى قرية الريحان، وبقيت فيها ليلتين، عدت بعدها إلى الجباع، ثم استأنفت الرحلة إلى قرية اللويزة سيراً على قدمي، ومنها إلى مليخ، ثم إلى كفرحونة، وبت في كل قرية ليلة واحدة. وقد وجّهت اهتمامي لتعليم الأحكام الشرعية بوجه خاص، وإعطاء دروس من رسالة آية الله الحكيم "منهاج الصالحين الجزء الأول " وقد صحبته معي، أقرأ العبارة وأشرح الكلمات وأفسح المجال لكل سؤال، فكانوا إذا تحلقوا حولي قرأت عليهم مسائل التقليد والنجاسات والمطهرات، ومنافيات الصلاة، أو كيفية الوضوء والغسل، وما إلى ذلك، وكنت ألاحظ — إذا أطلت عليهم الدرس — تشوقهم إلى الموعظة والأحاديث، وبخاصة عن أهل البيت (ع)، وأحياناً يخاطبني أحدهم بقوله:" أي يا شيخنا حدّثنا عن الإمام " فأترك الرسالة إلى مناقب آل الرسول (ص)، ثم أنتقل إلى تفسير آية أو رواية في الترغيب أوالترهيب، وأحاول ما استطعت أن أفهمهم عقيدة التشيع وحقيقتها، وأنها ثورة على الظلم والطغيان، وأن هذه الثورة هي السبب لموالاة الشيعة أهل البيت، والإيمان بمبدئهم وتعاليمهم.

وكانوا يأنسون ويُكْبرون، وما سرّني أنسهم وإكبارهم بقدر ما سرّتني فائدتهم، وقد لمستها وتأكدت منها، ولله الحمد، فإن الكثير منهم قوي في

دينه متعصب لعقيدته، حتى اللامبالي تمكن هدايته، ورجوعه إلى الحق والصواب لو أتيح له مرشد حكيم يثابر على إرشاده وتنويره، وماذا ترجو من منطقة أهلها يُعدّون بالألوف كقرى جبل الريحان، يحيط بها من كل جانب قوم يخالفونهم بالعادات والطقوس الدينية، ماذا ترجو من هؤلاء، وليس بينهم مرشد يعلمهم حكماً واحداً من ضرورات الدين والمذهب ؟! وهل ينمو الزرع بدون ماء أو طل على الأقل.

ولا أعرف بلداً في الجنوب، ولا في أي جزء من لبنان أحوج من هذه القرى إلى رجل الدين. إن فيها طاقة كبرى، وممكنات هائلة لا يعوزها شيء سوى العناية والرعاية، سوى البيان والإرشاد، وقد رغب إليّ أهل عرمتى والريحان ومليخ وكفرحونة، وهذه القرى قريبة الجوار، لا تبعد الواحدة عن الأخرى أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام، وسكان القريتين الأخيرتين خليط من المسيحيين والمسلمين الشيعة " نصف ونصف " على التقريب، رغبوا إلي وطلبوا مني بإلحاح أن أختار لهم عالماً من معارفي يقوم بواجبات الدين والشرع، وأظهروا الاستعداد للقيام بنفقاته وسد حاجاته، على شريطة أن يكون قديراً ورمزاً للطائفة يعتزون به لدى الطوائف الأخر، وأن يكون من أبناء عاملة، وأبدوا من الحماس ما يغرر بغير العارف بهذه الاندفاعات، أما أنا فلم يخدعني حماسهم، ولم تستهوني أقوالهم، لأني بلوت الناس سنين طوالاً، وعرفت إقبالهم وإدبارهم، يرغبون فيما منعوا عنه، فإذا حصل نسوا ما كانوا عليه يتلهفون.

ومهما يكن ويكن فإن العالم المخلص الذي يهمه أمر الدين، ويرغب فيما هو خير وأبقى ينظر إلى العيش كوسيلة لا كفاية، ويتحمل الصعاب في سبيل الصالح العام والنفع الشامل

أفدي الأولى بذلوا للدين أنفسهم ملغين في جانب الله المحاذيرا

وعلى هذا المبدأ، مبدأ التضحية في سبيل الدين، ولكي تتحقق الغاية المنشودة على أكمل وجوهها ينبغي للعالم الذي يريد المكوث في بلد بقصد الإرشاد والتعليم أن لا يشترط على أهلها الشروط، ولا يأخذ عليهم المواثيق والعهود بأن يبنوا ويدفعوا عن يد، وهم شاكرون ذاكرون، بل يدعها سماوية تجري على قدر، كما فعل علماؤنا الأبرار من قبل ومن بعد، كان أحدهم يعود من النجف الأشرف إلى قريته أو أية قرية أخرى ترغب في إقامته

عندهم، فيسكنونه في بيتٍ بالإعارة أو التأجير، فإذا استقربه المقام هيأ الله له من حيث لا يحتسِب مكاناً للعمارة، ثم ثمن الأحجار لبناء غرفة أو أكثر. وهكذا شيئاً فشيئاً، وسنة بعد سنة تتم الدار وتتحقق الأوطار من حيث يدري ولا يدري، وقد حدث هذا بالفعل لكثير ممن نعرف من علماء الأمس واليوم.

وبالتالي، فإن غرضي الأول أن أبين لمن يهمهم الأمر هذه الحقيقة، والتي اكتشفتها بنفسي، وهي أن قرى جبل الريحان أكثر حاجة إلى عالم بشرطه وشروطه أكثر من أي بلد آخر. وإني على استعداد أن أتعاون بما أستطيع مع كل من يعمل لهذه الغاية، وأرجو من يرغب من الإخوان في القيام بهذه المهمة أن يعلمني برغبته إن شاء فسيجدني إن شاء الله من المناصرين.

لقد علمت أن بعض الوجوه في عاملة أرسل بعد اليأس من قومه كتاباً إلى شيخ الأزهر يطلب منه أن يرسل مبعوثين من خريجي الأزهر إلى جباع والقرى المجاورة لها، يعلمون الناس الحلال والحرام، لأن المنطقة خلو من العلماء ورجال الدين "الشيعة" ؛ فما رأي أولي الشأن في النجف وإيران وجبل عامل إذا تفضل شيخ الأزهر وتكرم بإجابة الطلب وبعث إلى جبل عامل علماء أزهريين؟! فهل يسكتون ويباركون أو يسخطون ويقاومون؟! فإن تكن الأولى فما هي الفائدة من تكدس العلماء والطلاب في مدارس قم والنجف ؟! ولماذا طلبوا العلم ؟! وإن تكن الثانية فلماذا لا يسدون الفراغ ؟!

إشـــارات

ومن الخير أن أختم هذه الكلمة بتسجيل الإشارات التالية:

١. إن زيارة العالِم لقرية ما وإن قصرت تترك أثراً حميداً، فإن أصل وجوده يذكر بالله واليوم الآخر، سواء أقصد ذلك أم لم يقصد، فمجرد دخوله إلى الجامع، وإقامة شعيرة الصلاة، وارتفاع صوت المؤذن بالتكبير والتهليل مظهر يحبه الله ورسوله مهما يكن الباعث، لأنه تأييد للدين وتصديق لسيد المرسلين. حين ذهبت إلى قرية مليخ قصدت الجامع وبعض السكان المسلمين لتأدية الصلاة، وكان الجامع مقفلاً لم يدخله أحد منذ أمد بعيد، وتحيط به بيوت المسيحيين من أربع جهاته، ولما فتحنا باب الجامع خرجت امرأة

مسيحية، وخاطبتنا قائلة: " ماذا حدث حتى زرتم الجامع، الله يلعن الشيطان ؟! " وقد اتخذت من قولها هذا موضوعاً لخطاب ألقيته بعد الصلاة، مع العلم بأن في القرية كنيسة وخوري يشرف عليها، ويقوم بالواجب.

٢. إن الشيوخ الصغار الذين نسميهم الفقهاء، وهم أصحاب العمائم على الطرابيش ممن لم يتعرفوا ويتعمقوا، إن هؤلاء قد يترتب على وجودهم في القرية فائدة يحسن السكوت عليها إلى حد ما، حيث يقومون ببعض الشؤون الدينية، كالأذان وإجراء صيغ العقود وتجهيز الأموات، وما إلى ذلك، فإن لم يكونوا قادة مدربين فجنودا متمرنين، ومهما يكن فإن القليل خير من الحرمان، وحبذا لو كان في كل قرية فقيه متدين يتفهم الرسالة العملية، وكلنا يعلم ماذا كان للمرحوم الشيخ خليل عسيران من أثر في صيدا.

٣. إن بعض الشباب بل والحجاج أيضاً يتحذلقون ويتشدقون بأن رجال الدين لم يقوموا بالواجب، لِمَ لا يزورون القرى ويرشدون الناس، ولكن إذا جاء العالم إلى بلدهم فروا منه فرار السليم من المجذوم، لقد رأيت بعض هؤلاء في إحدى القرى التي زرتها فأثنى علي الثناء العاطر، لأني الوحيد بزعمه الذي أدّى ما عليه.

قلت له: إن الغاية من زيارتي هي الإرشاد، وأود بنوع خاص أن أسمع من الشباب ما يدور بأفكارهم من الشبهات، فإن الدين يفسح المجال لكل سائل ومجادل، أود أن أسمع منهم، ويسمعوا مني، فإن أقنعتهم كانوا معي، أو أقنعوني كنت معهم، وإلا فلهم دينهم ولي دين.

قلت له هذا فوعد أن يأتي في " السهرة بقائمة من الأسئلة والشبهات " ولكنه ذهب ولم يعد.

٤. إن الكثير من أطفالنا في قرى الريحان يتلقون علومهم الابتدائية في المدارس القريبة من مساكن أهلهم، وكلنا يعرف أن بعض المدارس " الطائفية " في لبنان تضلل التلاميذ من غير طائفتها عن عقيدتهم وتشككهم بدين آبائهم وأجدادهم سفهاً منها وتعصباً، لمست ذلك حين كنت في بعض قرى الريحان، إذ سألني تلميذ ناشئ درس في إحدى هذه المدارس. قال بعد أن شجّعته على التساؤل والنقاش:

هل وجه الحي أفضل أو وجه الميت ؟.. وقبل أن يسترسل إلى آخر كلامه عرفت ماذا يريد أن يقول، أو ما أوحى إليه أستاذه على الصحيح. فقلت له أنا أتمم السؤال عنك، لقد قيل لك هكذا: إن

المسلمين يعتقدون أن المسيح حي، وأن محمداً قد مات، ووجه الحي خير من وجه الميت، إذن فعيسى خير من محمد .. أليس كذلك ؟!

قال: أجل.

قلت له: إن الميت هو الذي لا يعرفه أحد، ولا يخفق قلب بحبه، ولا يدور لسان بذكره، وإن تنفس وتحرك، وفعل وترك، أما محمد فقد صلى الإله عليه في محكم كتابه، واقترن اسمه باسم الله على المآذن والمنابر، وتردد مئات الملايين ذكره كل صباح ومساء في الصلوات وغيرها، فإذا قال المؤذن: أشهد أن لا إلى إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ارتفع صوت السامعين، ونحن معك من الشاهدين، وإذا رأى المسلم ما يبهج النفس ويلذ العين قال من حيث يشعر أو لا يشعر: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وإذا وضع المسلمون ميتهم تحت التراب لقنوه قائلين: إذا سُئلت عن ربك ونبيك فقل: الله ربي ومحمد نبيي. إن من يدور اسمه مئات السنين على ألسنة أربعمائة مليون طوال الليل والنهار، يدينون بمبدئه ويعملون بتعاليمه إلى أبد الآبدين، إن هذا ليس بميت، وإنما الميت حقاً من لقنك هذا القول.

وقال لي ثان من هؤلاء التلاميذ " الشيعة ": إن محمداً كان شهوانياً، لأنه تزوج كثيرا، أي أن عيسى عليه السلام غير شهواني لأنه لم يتزوج !.

قلت: لم يكن زواج محمد لشهوة، بل لمصلحة عامة أو خاصة تعود على من تزوجها بالذات. وقال ثالث: إن محمداً قتل واستعمل العنف.

قلت: أجل، استعمل العنف للقضاء على العنف، وقتل واحدا ليحجب دماء الألوف، وإن التاريخ ليثبت أنه قاتل ليدافع عن نفسه وعن مبدأ الحق والعدالة، ما عرف عنه أنه هاجم أحدا. إلى غير ذلك من أسئلة الدس الرخيص الخسيس.

وبعد أن انتهيت من زيارة قرى الريحان استأنفتها إلى قرى إقليم التفاح، راكبا في السيارة تارة، وعلى الحمارة أخرى، وثالثة سيرا على قدمي صاعدا جبلا وهابطا واديا، فزرت قرية كفرحتى، فقد مكثت فيها ليلتين، لأني رأيت أهلها في أمس الحاجة إلى معرفة الأحكام الضرورية، وقد أقبلوا وأصغوا إلى دروسها برغبة وشوق. أما عين قانا فرأيت فيها عجبا، دخلت مسجدها فجاء الحجاج والمتقدمون في السن، فجلسوا أمامي وإلى جانبي يستمعون إلى ما أقول، وإذا بطفل صغير لم يتجاوز الرابعة على ما أظن قد أخذ مكانا

بين الشيوخ، وأصغى متأدباً لا يحرك ساكناً، كأنه ابن الستين، فظننت أنه قصد أباه، واطمأنَّ إليه، ثم تبين أن والده غير موجود في مجلسنا، وأنه جاء ينشد الثواب والتفقه في الدين كالكبار، وأراد أحد الحاضرين أن يُعرفني بموهبته، فالتفت إليه وقال: أغربت الدنيا يا شيخ محمود – هكذا يُنادى – فقم إلى الأذان، فقام وصعد على الحائط، وابتدأ يقول: الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.. إلى النهاية حسب الأصول، ولكنه لم يحسن النطق لصغر سنه، وما سمعت شيئاً أوقع في النفس من لفظه، وهو ينطق بالشهادة، ويعترف لله سبحانه بالوحدانية، فكانت تخرج من فمه هكذا " أشهد أنيا اياه إيا اللياه". وحين أقيمت الصلاة جماعة انتصب مع المصلين في الصف الأول، وهو يحسن الصلاة بأجزائها وشرائطها ومقدماتها الواجبة والمستحبة، وبعد الانتهاء من الصلاة قال له أحد المصلين: أضحكتنا يا شيخ محمود. فأجابه على الفور: إن الضحك مبطل للصلاة، فعليك أن تعيد. وحين دُعيت إلى العشاء رغبت إلى معزبي أن يدعو الشيخ محمود معي فقال: رجوته فاعتذر!.

لقد جعل البيت من هذا الصبي المتمشيخ ساجداً متهجداً وناسكاً متعبدا، كما أنست البيئة شيعة روم كل عادة تمت إلى عقيدتهم وعقيدة آبائهم بسبب. إن الثلثين من سكان هذه البلدة مسيحيون، والثلث مسلمون جعفريون، ولكنهم تركوا أو كادوا واجباتهم وتقاليدهم الدينية، يمر شهر المحرم حتى اليوم العاشر منه ولا يشعر به أحد، أما الجامع فمقفر العرصات ليس لله فيه ذكر، وقد تصدّع من الزلزال، فلو بقي دون عناية وإصلاح لأصبح أثراً بعد عين:

والمسلمون بمنظر وبمسمع   لا جازع منهم ولا متوجع.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٧ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٧٩هـ الموافق أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩م، ص(٨١٧–٨٢٠).

(٦٤)الشيعة في فلسفة الدكتور الجر والأب فاخوري

ألّف الدكتور خليل الجر والأستاذ حنا الفاخوري رئيس كلية لبنان كتاباً في " تاريخ الفلسفة العربية "، فبلغت صفحاته ما يقرب من ٩٠٠ صفحة في مجلدين.

واسم الكتاب يدل على أنه يحكي عن عقول الماضين وعقائد الغابرين، وإذا احتاج الكاتب إلى كثير من الجهد والبحث والتنقيب ليعطي القارئ صورة صادقة عن الأفكار والتيارات في العصر الذي يعيش فيه ، فكيف به إذا أراد أن يرسم صورة كاملة لأهل الماضي البعيد الذين تعددت نزعاتهم واختلفت مذاهبهم ؟!.

قرأت فصولاً من هذا الكتاب بخاصة ما جاء فيه عن " الإمامية " لأني منهم في الصميم، فرأيت " أشياء " وددت أن لا تصدر عن دكتور في الفلسفة ورئيس لكلية لبنان، بلد النور والإشعاع. إن الإمامية من أكبر الطوائف في لبنان، وفيها علماء ورجال دين وأساتذة، والمؤلفان من لبنان أيضاً ولله الحمد، يعيشان مع الإمامية في بلد واحد جنباً إلى جنب، ومع ذلك يكتبان عنهم ما ليس لهم به علم، وما عهدوه عن الآباء والأجداد ! من ذلك ما جاء في الصفحة ١٤٠ ج ١ :

" يعتقد الإمامية أن الإمامة ركن من أركان الدين، وأن الإمامة جزء من الإيمان ". والإمامية الذين يتكلم عنهم الكاتبان يبرأون من هذه النسبة، لأن الإمامة عندهم ركن من أركان المذهب لا من أركان الدين، والفرق بين الدين والمذهب كالفرق بين الواقع والصورة الذهنية التي تتمثله. ومن هنا يكون الخطأ في المذهب لا في الدين.

إن الإيمان عند الإمامية هو نفس الإسلام القائم على الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، وهذه كتبهم في العقائد أصدق شاهد، منها شرح التجريد للعلامة الحلي، وكشف الفوائد للشيخ الطوسي، والقوانين للقمي، وغيرها عشرات.

وقالا في نفس الصفحة:

" أخذت الإمامية عن ابن سبأ قوله برجعة النبي لكنها حوّلتها إلى علي ".

إن الإمامية يكفرون ابن سبأ، ويلعنونه لعنة الشيطان، وقد نقلوا عن الإمام علي أنه حرق الغلاة بالنار فكيف يأخذون عنهم العقائد والأحكام؟! إن الرجعة ليست أصلاً من مذهب الإمامية، ولا فرعاً من فقههم، ومن أنكرها فهو إمامي عندهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، ولكن المؤلفين نقلا هذا القول عن خصوم الإمامية، وكان الأجدر بعلمهما وخبرتهما أن ينقلا عن كتب الإمامية أنفسهم ماداما يؤرخان للحق والفلسفة العربية، لا للكيد والدس على غير طائفتهما، كما فعل الغير.

وقالا في الصفحة ١٧٠ من المجلد الأول:

" والشيعة التعلمية يعتبرون أن الأساس الأول للمعرفة ليس في العقل ولا في النقل، بل في تعليم الإمام المعصوم ".

ولا نعرف فرقة من الفرق الإسلامية أوغيرها تقدس العقل وتعتمد عليه أكثر من الطائفة الشيعية، فلقد ألفوا فيه عشرات الكتب، وجعلوه الدليل الوحيد على إثبات الخالق والنبوات، وأحد المصادر الأربعة للتشريع: الكتاب والسنة والإجماع والعقل. وسدَّ غيرهم باب الاجتهاد وتركوه هم مفتوحاً على مصراعيه؛ كما رووا في فضله أحاديث لا تدخل تحت حساب، منها: " أمر الله الدين والحياء أن يكونا مع العقل حيث كان.. من لا عقل له لا دين له.. العقل حجة بين الله وعباده.. ما خلق الله شيئاً أشرف ولا أحب إليه من العقل ".

وقال علماء الشيعة: إذا تصادم ظاهر النقل مع العقل قُدّم العقل. وهذا أصل لا يحِيدون عنه في مبدأ من مبادئهم، ولا في حكم من أحكامهم، فكان على المؤلفين المخلصين إذا أرادا الكلام عن الإمامية أن يعتمدوا مصادر الإمامية، وينقلا عنها بالذات كما تقتضيه الأمانة، بل والاختصاص في الفلسفة.

وفي الكتاب أمثلة أخرى في هذا الميدان، وفي مختلف الميادين تركناها لمناسبة ثانية، ومهما يكن فنحن لا نتهم صاحبي الكتاب بالتجني وسوء القصد – حاشا – ولكن نعتب لهذا التهاون، ونعجب كيف رضيا أن تكون

هذه الهنات وأمثالها في كتابهما الكبير الخضير(١) الذي بذلا في سبيله غاية المجهود، مع أن النقل عن الإمامية لا يكلف أكثر من النظر في أحد كتبهم في العقائد.

والغريب أن الكاتبَين لم يسندا شيئاً مما نقلاه عن الشيعة إلى مصدر، وأغرب منه إهمالهما للكبار من فلاسفة الشيعة والمتكلمين منهم، كهشام بن الحكم تلميذ الصادق وأستاذ النَّظّام، والخوجة نصير الطوسي، وصدر المتألهين الشيرازي وغيرهم، مع أن صاحبي الكتاب ذكرا مَن دونهم شهرة وعلما.

وغريبة الغرائب كلها أن كل شيء في الدنيا قد تغيّر إلا طريقة الكلام والنقل عن عقيدة الشيعة وبخاصة الإمامية، فإنها مازالت كما هي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي جاهر بسب علي على المنابر، وأمر ولاته وأتباعه وخلفاءه باتباع هذه السنَّة حتى يشيب عليها الصغير ويهرم الكبير .. فإنا لله ! .

ونكرر القول ونؤكده بأننا لا نشك في نية المؤلفين الكبيرين ولكن نتساءل: كيف اعتمدا في النقل عن الشيعة على من لا أمانة له ولا علم ؟! .. وقديماً قيل: لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن، والشاهد الناطق بهذه الحقيقة قول المؤلفين في صفحة ١٩٧ ج ١ :
"اعتنق التشيع أقوام لم يتمكن الإسلام من قلوبهم فانتشروا في مختلف أنحاء الدولة، وأدَّى ذلك إلى تطور في المعتقد، وانضم إلى هذه الحركة عناصر مسيحية يهودية" .

نغمة عتيقة بالية قالها بغير علم ولا هدى رجال باعوا دينهم للحاكم الجائر، وقد علم كل من البائع والمشتري أنها كذب وافتراء، أجل، ثار الشيعة على الجور والظلم، وأول من قاد الثورة على البطل الإمام الشهيد الحسين بن علي، ثم تتابعت الثورات من بعده على كل من حاد عن كتاب الله وسنة الرسول، فنكل بهم المستبدون الغاصبون بحجة أنهم زنادقة

---

(١)هكذا وردت في الأصل، ومن معانيها اللون الأخضر والبحر وفصيلة من العصافير، ولا أظن بأن الشيخ أراد واحدا منها، وأتصور أن الصحيح "الخطير" حسب السياق ويقصد منه المهم في بابه، ويدل على هذا الجملة التي بعدها مباشرة، والأقرب أنه قد حدث خطأ مطبعي في الكلمة .

مرقوا من الدين، ووجد الحكام ذيولاً وأتباعاً يتقربون إليهم بالنفاق والرياء، فكتبوا عن الشيعة ما شاءت لهم أهواء المسيطرين، تماماً كما تفعل أكثر الصحف، وجاء المتأخر كأحمد أمين وغيره، فرأى الكلمة المطبوعة فسجد لها تقديساً، وتلقاها كوحي دون تمحيص وتحقيق.

وهكذا فعل الجر والفاخوري، قلدا أحمد أمين الذي قلّد من لا وجدان له ولا دين، وعلى أي حال، فإن عقيدة التشيع كانت ومازالت أداة إصلاح وخير للإنسانية جمعاء، ولولا عظمتها وقوتها لم تثبت للأحداث والصدمات المتوالية مئات السنين:

صالوا وصلت ولكن أين منك همُ   النقش في الرمل غير النقش في الحجر

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٧ الجزء ٥، الصادر في رجب سنة ١٣٧٩هـ الموافق كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠م، ص(٤٥٦-٤٥٨).

(٦٥) الأزهر وفقه الشيعة ❋

نشرت " رسالة الإسلام " المصرية في العدد الرابع من السنة الحادية عشرة كلمة لفضيلة الأخ العلامة الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة في الأزهر، ورئيس تحرير المجلة المذكورة، نشرتها بعنوان " رجّة البعث في كلية الشريعة ".

تحدَّث الكاتب عن اتجاه الأزهر إلى الإصلاح باستكمال ما كان ينقصه من تدريس الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية، وردَّ على الذين يعارضون أو لا يرحبون بإدخال فقه الشيعة إلى الأزهر، فذكر مزاعمهم وفنَّدها بالعلم والمنطق. ونلخص هذه المزاعم للتفكيه والتسلية:

١- كيف يدخل فقه الشيعة إلى الأزهر، وهم يعتقدون أن جبريل بُعث بالرسالة إلى علي فأخطأه؟

وردَّ سماحة العميد هذا الزعم بأنه لا أحد اليوم يقول هذا القول، والشيعة الذين يريد الأزهر تدريس فقههم هم الإمامية الذين يتمسكون بأصول الإسلام، تماماً كمذاهب السنة.

٢- إذا درس الأزهر مذهب الشيعة، فإما أن يكون هذا المذهب على خطأ، ويبين الأزهر زيفه وأخطاءه، فتقع الفتنة والعداوة بين السنة والشيعة، وإما أن يكون صوابا فيكون ذلك دعاية له، وإلقاء المتعلمين بين براثنه.

وردَّ العميد هذا الزعم بأن الباحث يجب أن يخلع ثوب التعصب، ويتجرد إلى الحقيقة، ويتبعها أينما كانت وتكون.

٣- إن تقليد غير المذاهب الأربعة غير جائز، فكذلك أيضاً لا يجوز أن يدرس غيرها.

❋ نشر الشيخ هذا المقال في كتابه " من هنا وهناك " والصادر عام ١٩٦٨م ، وبالعنوان نفسه، ولكنه غيَّر الكثير منه، وبدَّل الكثير من معالمه، حتى أضحى كأنه مقال آخر، فقد حذف فقرات منه عديدة، وأضاف عبارات لم تكن موجودة في أصل المقال، لذا ارتأيت أن أورد المقال بنصه الأصلي كما جاء في مجلة العلوم وليس كما جاء في كتابه، لأني أرى المقال في الأصل أقوى مادة، وفيه إضاءات قام الشيخ بحذفها لرؤية هو يراها.

وهنا ترك العميد الجواب لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شلتوت (١) حيث قال:

" إن تقليد غير الأربعة جائز شرعاً، وإن المتأخرين حين تحكمت فيهم روح الخلاف، وملكتهم العصبية المذهبية راحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم، وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفهاما يصح أن تناقش، فترد أو تقبل، إلى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها، أو يعتنق غيرها، وحرَّموا بذلك النظر في كتاب الله وسنة رسوله، أو حرَّموا العمل بثمرة النظر فيهما، ونشأ عن ذلك أن فترت الهمم، ووقف الفقه الإسلامي، واشتغل علماء المذاهب بالانتصارات المذهبية... وهكذا حرم الناس الفقه، وحرموا ملكة الفقه.. ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلده فيه ".

وإذ يناصر شيخ الأزهر الشيخ شلتوت، وعميد كلية الشريعة الشيخ المدني، إذ يناصران تدريس فقه الشيعة بالأزهر لا يفعلان ذلك من أجل الشيعة، ولا لترويج مذهب التشيع، ولا للدعاية إلى النجف وعلماء النجف، بل من أجل الأزهر نفسه، ومن أجل الإسلام قبل كل شيء. إن الذي يعارض تدريس الفقه المقارن بالأزهر لا يسيء إلى الشيعة ولا إلى النجف ولا إلى أحد، وإنما يسيء إلى الأزهر بالذات.

وكيف يؤدي الأزهر رسالة الإسلام إذا تعصب لمذهب ضد آخر؟ وهل يقدر الأزهر على توجيه الجماعة الإسلامية إذا جهل تراثها ومقدساتها؟ وإذا وجُد في الأزهر وغير الأزهر من لا يرحب بتدريس الفقه الجعفري في جامعته، فنحن الشيعة نتمنى أن يكون الأزهر موطن الثقافة العالمية لا تدريس الفقه المقارن فقط، نتمنى الخير للأزهر لا لشيء إلا لأنه يحمل شعار الإسلام، شعار ديننا وعقيدتنا، وهذا كافٍ وافٍ لأن يحمل كل شيعي على تقديس الأزهر وتعظيمه، حتى ولو لم يدرس فقه الشيعة، وحتى لو وجُد فيه ألف معارض ومعارض.

---

(١) اسمه محمود محمد شلتوت (١٨٩٣- ١٩٦٣)، وليس محمداً !!

والآن تعال معي واقرأ المثال التالي من الفقه المقارن لتتأكد أن ما من قول، وإن ضعف دليله، إلا ويفتح لك الاطلاع عليه باباً من أبواب المعرفة، أو يذكرك بحقيقة صرفك عنها مرور الزمن، أو يمرنك على التفكير، ويرشدك إلى منهج الدليل، أو يعطيك صورة عن حقيقة الأفكار الماضية على الأقل:

قال الله تعالى: " وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم – الآية ٥ المائدة ".(١)

اختلف فقهاء المذاهب فيمن يجب عليه التيمم مع فقد الماء: هل هو المريض والمسافر فقط؟ أو الأعم منهما ومن الحاضر الصحيح؟ وهل المراد من الملامسة الجماع أو كل لمس حتى اللمس باليد؟ وهل المراد بالماء خصوص الماء المطلق أو ما يشمل الماء المضاف؟

وهل المراد بالصعيد خصوص التراب أو وجه الأرض تراباً كان أو رملاً أو صخراً؟ وهل المراد بالوجه كله أو بعضه؟ وهل المراد باليد الكف فقط أو الكف والذراع ؟

١- قال أبو حنيفة: إن وجوب التيمم مختص بالمريض والمسافر اللذين لا يجدان الماء، أما الحاضر الصحيح الذي يفقد الماء فلا يسوغ له التيمم، وليس عليه صلاة (كتاب المغني لابن قدامة ج ١ ص ٢٣٤ الطبعة الثالثة، وكتاب بداية المجتهد لابن رشد ج١ ص ٦٣ طبعة ١٩٣٥).
حيث دلت الآية الكريمة على أن مجرد فقد الماء لا يكفي لجواز التيمم، وإنما الشرط في ذلك أن يكون في حال السفر أو المرض، وعليه فلا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم وإن فقد الماء، وبالتالي لا تجب عليه الصلاة، لأنه فاقد للطهور، ولا صلاة إلا بطهور. واتفقت بقية المذاهب على أن فاقد الماء يجب عليه أن يتيمم ويصلي، سواء أكان مسافراً أم حاضراً، صحيحاً أم مريضاً، للحديث الشريف:" إن الصعيد الطيب طهور المسلم ، وإن لم

---

(١)يعود الشيخ رحمه الله ويورد الآية خاطئة من حيث الترقيم ، فهي آية ٦من سورة المائدة وليست الخامسة كما يذكر في مقاله !!!.

يجد الماء عشر سنين ". وخرَّجوا ذكر السفر في الآية مخرج الغالب، لأن الغالب في الأسفار السابقة عدم وجود الماء، ومتى حمل الوصف على الغالب انتفت دلالته عما عدا الموصوف.

هذا، ولو تم ما نقل عن الإمام الأعظم لكان المسافر والمريض أسوأ حالاً من الحاضر الصحيح، حيث يجب التيمم والصلاة عليهما، ولا يجب عليه شيء.

٢- قال الشافعية: لقد دلّت الآية على أن لمس المرأة باليد تماماً كالمجيء من الغائط، ينقض الوضوء، ولكن خصصوا اللمس بامرأة أجنبية من غير حائل، أما إذا كانت المرأة زوجة أو أماً أو أختاً فلا بأس.. وقال المالكية والحنابلة: إذا كان اللمس بشهوة انتقض وإلا فلا. وقال الحنفية: لا ينتقض الوضوء إلا باللمس وانتشار القضيب معاً. وقال الإمامية: لا أثر للمس باليد طلقاً، وإنما التأثير الجماع.

٣- قال الحنفية: يجوز الوضوء بالماء المضاف، لأن معنى الآية إذا لم تجدوا ماء مطلقاً ولا مضافاً فتيمموا، لأن لفظ الماء يشملهما معاً، وعليه فمن كان لديه ماء مضاف يعد واجداً للماء. أما بقية المذاهب فقالت: إن لفظ الماء في الآية ينصرف إلى الماء المطلق دون المضاف.

٤- اختلفوا في معنى الصعيد، فقال الحنفية وجماعة من الإمامية: يشمل التراب والرمل والصخر دون المعادن كالملح والزرنيخ وما إلى ذلك. وقال الشافعية: يشمل التراب والرمل فقط ولا يعم الصخر. وقال الحنابلة: بل التراب فقط. وقال المالكية: يعم التراب والرمل والصخر والثلج والمعادن إذا لم تُنقل من مقرها، إلا الذهب والفضة والجواهر.

٥- قال الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة: المراد بالوجه جميع الوجه، وعليه يجب مسحه في التيمم مع ما يدخل فيه من اللحية، وإن طالت. وقال الإمامية: المراد بالوجه بعضه لا كله، لأن الباء في قوله تعالى فامسحوا بوجوهكم تفيد التبعيض بدليل دخولها على المفعول، وإذا لم تكن للتبعيض تكون زائدة، لأن امسحوا تتعدى بنفسها، والأصل عدم الزيادة.

٦- قال الأربعة المراد باليدين الكفان والزندان مع المرفقين، وعليه يكون الحد في التيمم هو الحد بعينه للوضوء. وقال الإمامية: المراد باليدين الكفان فقط، لأن اليد إذا أطلقت لا يفهم منها إلا الكف، فإذا قلت كتبته بيدي وأخذته بيدي وفعلته بيدي فهم السامع من لفظ اليد الكف لا الزند. وقال ابن رشد في كتاب البداية والنهاية ج ١ ص ٦٦ ما نصه بالحرف الواحد: " إن اليد في كلام العرب تُقال على ثلاثة معان: على الكف فقط،

وهو أظهرها استعمالاً، وتُقال على الكف والذراع، وتُقال على الكف والساعد والعضد " .

وكما تدل هذه الأقوال على أن الخلافات بين المذاهب الإسلامية إنما هي لفظية لا معنوية، وفي الفروع لا في الأصول، تدل أيضاً على مرونة الشريعة الإسلامية، وأنها تتسع للنظر والاجتهاد، وللتسهيل والتيسير، هذا، بالإضافة إلى الفوائد اللغوية والأصولية، وما إليها مما أشرنا إلى بعضه فيما سبق.

❁ مجلة " العلوم "، العدد ٤ الصادر في نيسان (ابريل) ١٩٦٠، السنة الخامسة، ص: (٢٢-٢٤).

(٦٦) مقتطفات من كتاب الجواهر

كتاب جواهر الكلام للمرحوم الشيخ محمد حسن أكبر وأعظم موسوعة فقهية عند الشيعة الإمامية، وقد عاش مع هذا السفر اليتيم ألوف المجتهدين، ورجع إليه كل مؤلف، وكل فاضل، وكل مرجع للطائفة بعد صاحبه. ومنذ سنوات نشرت كلمة أوضحت فيها عظمة الكتاب ومؤلفه، وتمنيت لو أعيد طبعه في المطابع الحديثة، وقد تحققت – ولله الحمد – هذه الأمنية على يد الفاضل العامل لله وعلوم أهل البيت (ع) الشيخ علي الأخندي، فلقد أخرج منه حتى الآن ١١ جزءا في طباعة أنيقة، وحلة قشيبة، وورق جيد، فله من الله الأجر والثواب، ومنا ألف حمد وشكر، وعلى من يهتم بإحياء مبادئ العترة الطاهرة أن يؤازر هذا الشيخ الطيب، ويتعاون معه على تحقق هذا الهدف النبيل الجليل.

لقد عشت مع هذا الكتاب الخالد دهراً طويلاً، واستفدت منه الكثير، وعاهدته منذ القديم أن لا أقطع برأي في الفقه إلا بعد مراجعته، واستطلاع ما لديه، ومازلت على العهد وفيا مكبرا، ومخلصا شاكرا. وها أنا الآن وفي كل آن بين يديه أقلب صفحاته صباح مساء، وأنا أكتب " الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة "، وقد نقلت عنه كثيرا، على الرغم من أن كتابي موجز يختصر على الفرع، ولا يشير إلى الدليل إلا نادرا، ولم أرَ بدا من نقل بعض آراء المؤلف التي لا يُعذر في إغفالها عارف، أوجَزَ أو أطنب. وإليك – أيها القارئ – نموذجاً مما لم أرَ ندحة في تركه.

تحاكم أهل الكتاب عند قاضٍ مسلم

ذكر صاحب الجواهر في باب الجهاد بحثاً مفيداً نلخصه بتصرف فيما يلي:

لو تحاكم غير المسلمين عند قاضٍ مسلم، فهل يحكم بأحكام الإسلام، أو بأحكام دينهم ؟

الجواب: على القاضي أن ينظر، فإن كان المتخاصمان ذميين، كان مخيراً بين أن يحكم بحكم الإسلام وبين الإعراض عنهما، وعدم سماع الدعوى، للآية ٤٢ من سورة المائدة: " فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم

فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بالقسط " (١)، وسُئل الإمام الصادق (ع) عن رجلين من أهل الكتاب بينهما خصومة ترافعا إلى حاكم منهم، ولما قضى بينهما أبى الذي قضى عليه، وطلب أن يحاكم عند المسلمين، فقال الإمام: " يحكم بينهما بحكم الإسلام ".

وإذا كانا حربيين يجب على القاضي أن يحكم بينهما، حيث لا يجب دفع بعضهم عن بعض، كما هي الحال عند أهل الذمة.

وإذا كانا ذمياً ومسلماً، أو حربياً ومسلماً، وجب على القاضي قبول الدعوى، وأن يحكم بينهما بما أنزل الله، لقوله تعالى في الآية ٤٩ من سورة المائدة: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك".

ولو استعدَت زوجة الذمي على زوجها قاضياً مسلماً حُكم عليه بحكم الإسلام.

وبالتالي فقد تبين من كل ذلك أن علينا — نحن المسلمين — أن نبني على صحة المعاملات التي تجريها الطوائف غير الإسلامية إذا كانت على طبق دينهم ماداموا لم يتقاضوا إلينا، أما إذا تحاكموا عندنا فيجب أن نحكم عليهم بحكم الإسلام في كل الأحوال، كما تستدعيه عموم الآيات والأحاديث الدالة صراحة على وجوب الحكم بالحق والعدل.

دعوى العنّين المقاربة بعد اعترافه بالعجز

قال في مسألة العنن: لو أقرَّ الزوج بالعجز عن إتيان الزوجة، وأجله الحاكم سنة كاملة، وبعد انتهائها قال: دخلت. وقالت هي: لم يدخل. يؤخذ بقول الزوج مع يمينه، كما لو لم يكن قد أقرَّ بالعجز من أول الأمر، واستدل بأدلة دقيقة محكمة قلَّ من يتنبه إليها، لأن دعوى الزوج القدرة بعد الإقرار بالعجز ينبغي أن لا تُسمع، لأنه يدَّعي شيئاً جديداً بحسب الظاهر، ولكن الشيخ أبعد نظراً من الذين لا يرون إلا الظواهر، وإليك ملخص ما استند إليه:

(١)يؤسفني أن أقول إن الشيخ أصبح معتاداً منه أن لا يذكر الآية بنصها الصحيح، فكما أخطأ في الكثير من الآيات السالفة فإنه هنا أيضاً يقع في خطأ، فصحيح الآية : " وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط "، فهو لم يورد بينهم كما جاءت في القرآن الكريم !!!

أولاً: إن إقراره بالعجز قبلٍ ضرب الأجل لا يثبت العنة، إذ العجز فيه قد يكون مؤقتاً، وقد يكون دائماً، ووجود العام لا يثبت الخاص، فإذا قلت: كتبت بالقلم، لا يدل قولك هذا على أن القلم الذي كتبت به قلم رصاص أو قلم حبر، فكذلك العجز لا يدل على العنة أو غيرها، فقد يكون لنقص في الخلقة، وقد يكون لسبب خارج عنها، واستصحاب العجز لا يثبت العنة إلا علىٍ القول بالأصل المثبت (١).

ثانيا: إن المنكر هو الذي لو سُكت عنه لسكت، والمدعي هو الذي لو سُكت عنه لم يسكت، وبكلمة إن المدعي هو الذي يأخذ بالخناق، ويثير الحروب، والمنكر هو الذي يطلب السلامة والخلاص. وليس من شك أن الزوجة لو سكتت عن دعوى العنة لسكت عنها الزوج، ولو سكت الزٍوج لم تسكت هيٍ.. فتكون والحال هذه مدعية عليها البينة، ويكون هو منكراً عليه اليمين.

ثالثاً: لقد ثبت في الحديث : " أن الرجل إذا تزوج المرأة الثيب، وزعمت أنه لم يقربها فالقول قول الرجل، وعليه أن يحلف بأنه قد جاء معها " ، فالحديث جعل اليمين على الرجل، ولم يفرق بين من سبق منه الإقرار بالعجز وغيره، ولو كان هناك فرق للزم تأخر البيان عن وقت الحاجة .

وأرى لزاماً أن أضيف إلى قول صاحب الجواهر التساؤل التالي مع جوابه:

كيف قال الإمامية هنا: إذا قال الزوج: دخلت. وقالت الزوجة: لم يدخل تكون هي مدعية وهو منكر، مع أنهم قالوا في مكان آخر: إذا اختلف الزوجان في الدخول، فقالت هي: لم يدخل، لتثبت أن لها حق الاقتناع حتى تقبض معجل المهر، وقال هو: دخلت، ليثبت أن امتناعها بغير مبرر شرعي يكون هو المدعي ، وهي المنكر، بل قالوا على سبيل القاعدة الكلية: إن القول قول من ينكر الدخول.

والجواب: إن النزاع في مسألة العنة يرجع إل النزاع في وجود العيب الموجب

---

(١)من الأصول الباطلة عند الإمامية الأصل المثبت، وهو ما يثبت الأثر باللزوم العقلي لا بالأصل الشرعي، فالاستصحاب حجة بالقياس إلى ما يترتب على المستصحب من أحكام شرعية دون لوازم العقل، فإذا استصحبنا إبقاء الليل في رمضان يبيح لنا هذا الاستصحاب تناول الطعام، ولكنه لا يثبت أن الساعة لم تبلغ الخامسة باعتبار أنها وقت طلوع الفجر. " مغنية"

لفسخ العقد، فقول الزوج لم يدخل معناه أن في الزوج عيباً، وأنه غير سليم، فتكون مدعية، وقوله هو دخلت معناه أنه سليم لا عيب فيه، فيكون منكرا، وكذلك لو ادَّعى الرجل وجود عيب في المرأة يكون هو المدّعي، أما النزاع في أصل الدخول مع افتراض سلامة الزوج والزوجة فهو نزاع في شيء حادث، والأصل يقتضي عدمه، فعلى من يدّعي حدوثه الإثبات.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٨ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٨٠هـ الموافق تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٠م، ص(١٦٩-١٧٢).

(٦٧) عقائد المفكرين في القرن العشرين

هذا العنوان اسم لكتاب ألَّفه الأستاذ عباس محمود العقَّاد، جمع فيه عدداً غير قليل من مفكري هذا العصر الذين يعتقدون بدافع من تفكيرهم وتجاربهم الخاصة بوجود قوة وراء الكون تدبره بحكمة ونظام، ولم يتأثر هؤلاء المفكرون ببيئة أو مدرسة أو كتاب يمت إلى الدين بسبب، وفيهم العلماء والأدباء والفلاسفة والأخلاقيون.

﴿ الدكتور الكسس كاريل ﴾

فمن العلماء الدكتور الكسس كاريل، ولد بفرنسا سنة ١٨٧٣، ومات فيها سنة ١٩٤٤، وهو طبيب متخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء، اشتغل بالطب علماً وجراحة وإشرافاً على معاهد العلاج، وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢، ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا.

يؤمن بأن الله لازم للإنسان لزوم الماء والأكسوجين، لأنه لاحظ من تجاربه أن كل خلية في الجسم تتهدى بالعقل الأبدي إلى موضعها من البنية المرسومة، وتعمل في كل خطوة من خطواتها كأنها ترى تكوين الجسم كله ماثلاً أمامها.

﴿ الصلاة ﴾

ووضع هذا العالم رسالة في الصلاة قال فيها:

" إن الصلاة تسامٍ إلى أوج اللامادية من الدنيا، وهي على أكثر ما تكون شكاية أو ابتهال أو صرخة أو استغاثة، وهي في بعض الأحايين تأمل خالص في أصل الوجود ومصادره، ويصلح أن يُقال: إنها ارتفاع إلى المقام الإلهي عنواناً للتوجه بالحب والعبادة إلى الذي منه صدرت الأعجوبة التي هي الحياة... وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله، ويداخل الله سريرته، وهي ضرورة لا غنى عنها لنمو الإنسان في أرفع حالاته " .

﴿ فرانز ويرفل ﴾

من الأدباء وكتّاب القصة العالميين الأديب النمسوي فرانز ويرفل، توفي سنة ١٩٤٥، قال في كتاب " بين السماء والأرض ":

" إن تفسير الكون بالقياس والتعقيب هو أنجح أحابيل الشيطان، لأن حجته التي تقوم عليها جميع المذاهب الوضعية المادية هي أن الشيء يساوي نفسه، والأمة وليد الإقليم الجغرافي، والفرد محكوم بظروفه، ومطالب الشعب تتوقف على حاجاته الاقتصادية، والفيل له جلد فيل، لأنه ضروري له... وقد نجح الشيطان في تزويغ الأصول الأولى من المسألة كلها، وهي أصول الخلق والكينونة ووجود الله... إن الله أعظم جداً من أن يحتوي كلام الإنسان برهانا على وجوده ".

(الدين بعد مليون سنة)

مازلنا نسمع ونقرأ أن مستقبل الدين في خطرٍ، والذين يقولون هذا القول منهم المؤمنون الذين يغارون على الدين حقاً، ومنهم الذين يعبرون عن أمنيتهم وعدائهم للدين. وتأتي كلمة العلم لترد على هؤلاء، وتبشر أولئك.

نقل الأستاذ العقّاد أن لداروين الشهير حفيداً اسمه السير شارل داروين، قد بلغ من العمر مبلغ الرياسة والأستذة، ألّف كتاباً اسمه " بعد مليون سنة " قال فيه :

" إن الإنسان سيحتفظ بالعقيدة الدينية في المليون السنة المقبلة قياساً على المعهود من تاريخه القديم والحديث... ولهذا كانت العقائد على جانب عظيم من الأهمية بالنظر إلى المستقبل، لأن العقيدة تبعث الأمل فعلا في دوامها بعد صاحبها، وفي سيطرة الإنسان على مصيره بفضلها ".

وبالتالي، فإلى كتاب " عقائد المفكرين في القرن العشرين " يا شباب هذا العصر، لتتبينوا أن موقف العلماء والأدباء والفلاسفة في عصر الذرة من الدين موقف التسليم والإذعان.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٨ الجزء ٤، الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠م، ص(٣٣٤-٣٣٥).

(٦٨) الشيخ أحمد عارف الزين

مثل أعلى في الإخلاص والجرأة والصراحة لكل صحفي في هذا الجيل وكل جيل.. ومات وشعاره : الحق أحق أن يُتَّبع .

" وقل ربي أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا " (الإسراء:٨٠).

لم أرَ آية تنطق بلسان الفقيد الكبير أظهر من هذه الآية الكريمة، فلقد كان صادقا في جميع أقواله وأفعاله، فلم يستعمل الكذب والدس والرياء لكسب الأموال، ولو أراد الشيخ عارف الأموال والمناصب لما عصيت عليه وامتنعت عنه، ولكنه أراد أن يكون المجاهد المخلص فتمَّ له ما أراد.

أراد الشيخ عارف أن يضرب مثلاً من نفسه على أن المصالح العامة فوق المنافع الشخصية، وأن الواجب أعظم من المناصب، وأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، لقد أراد، وعلى الأصح لقد أراد الله للشيخ عارف أن يكون المثل المحسوس الملموس للضمير الإنساني، وإذا أراد الله أمرا أن يقول له كن فيكون. لقد اختفى الضمير الإنساني في زحمة الأطماع إلا عند الصفوة الخالصة، ويأتي في طليعة هذه الصفوة المرحومان الشيخ أحمد رضا، والشيخ أحمد عارف الزين، والشيخ سليمان ظاهر.

لقد كان الشيخ عارف كاتباً، ولم يكن كاتباً كبيراً كطه حسين، وكان شاعراً، ولم يكن شاعراً عظيما كشوقي، وكان صحفياً، ولكن لم يكن صحفياً فنانا كعلي أمين ومصطفى أمين، ولكنه كان الكاتب الحر، والشاعر المخلص، والصحفي الحق المسؤول أمام الله والتاريخ. وإذا لم يكن الشيخ عارف قدوة في فن الصحافة فإنه يجب أن يكون المثل الأعلى في الإخلاص والجرأة والصراحة لكل صحفي في هذا الجيل وفي كل جيل، بل يجب أن يكون قدوة لرجال العلم والأدب في إيثار الحق على شهواته ونفسه وأولاده.

إن الشيخ عارف لم يفتح الممالك، ولم يؤسس المصانع والمعامل، ولم يقم بالثورات الدامية، ولا بالانقلابات الحكومية، ولكنه أسّس النهضات، ونشر الثقافات، وحُوكم وسُجن واضطهد لأنه ناصر الحريات، وجاهد من أجل العدالة والمساواة، لقد حمل الشيخ عارف رسالة التقدم والنضال، وأنهك

حمل هذه الرسالة قواه، واستنزف أمواله وميراثه من أبيه، ولكنه لم يعبأ، ولم يشك ويتبرم، لأنه يرى أن هذا بعض ما يجب عليه، وأن هذه هي مهمته، بل ومهنته.
ولو أن مصوراً قديراً أخرج للناس صورة تمثل جهاد الشيخ عارف لجاءت الصورة صرحاً شامخاً من جديد نافع زاهر، يقوم على أساس من ماض عريق بالمآثر والمفاخر.
إن إخلاص الفقيد لعقيدته، وإخلاصه لوطنه، وإخلاصه لقوميته وعروبته قد استبدّ بتفكيره، واستغرق عقله وقلبه وجميع أحاسيسه، وإذا بحثنا عن سر هذا الإخلاص والجهاد لوجدناه كامناً في صفاء فطرته، وفي ولائه لأهل البيت (ع)، فقد امتزج حبهم بلحمه ودمه، وسيطر على جوارحه وجوانحه، فكان يردد لمناسبة وغير مناسبة، ومن حيث يريد أو لا يريد

بنو هاشم رهط النبي وإنني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

والغضب لأهل البيت غضب لله، والرضى بهم رضاء بالحق ومبدأ العدل، وما أخلص أحد الولاء لأهل البيت، وقرأ سيرتهم وتاريخهم إلا تسربت إلى نفسه نفحة من أرواحهم الزكية، وأثر من آثارهم الدينية، وحسبك شاهداً على هذه الحقيقة سيرة الشيخ عارف، وقد كافأ أهل البيت الشيخ عارف فاختاروه إليهم، وضموا جسمه إلى أجسامهم الشريفة في تربة واحدة، وحسُن أولئك رفيقا.

وبالتالي، فإن التاريخ سيسطر للشيخ أحمد رضا والشيخ عارف الزين والشيخ سليمان ظاهر صفحات وصفحات من نور تقرأها الأجيال بخشوع وإكبار.

مات الشيخ عارف غريباً عند إمام غريب، مات وشعاره: الحق أحق أن يُتبع، وهذا هو مبدأ الأئمة الأطهار، مات الشيخ عارف وهو يقول بأفعاله قبل أقواله: الشريف من شرّفه الله، والعزيز من أعزّه الجهاد في سبيل الله، والعظيم من عظّمه الخلق المحمود عند الله، والخالد في هذه الحياة من خلّده العمل الخالص لوجه الله.

التلغراف — الطيار : العدد ٣٢٧٥ بتاريخ ١٩٦٠/١١/٢

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٨ الجزء ٥-٦، الصادر في رجب- شعبان سنة ١٣٨٠هـ الموافق كانون الثاني- شباط (يناير- فبراير) ١٩٦١م، ص(٥٠٠-٥٠١).

(٦٩) الإمام الصادق (ع)

رغب إليّ بعض الإخوان الأفاضل أن أكتب كلمة حول كتاب جديد اسمه " الإمام الصادق " لفضيلة الأستاذ العالم الشيخ محمد " أبو زهرة " وفي نفس الوقت طلب مني الأستاذ نزار الزين أن أكتب للعرفان مقالاً مستقلاً عن الإمام الصادق (ع)، لا أتعرض فيه لكتاب " أبو زهرة " لا تأييداً ولا تفنيداً، وحجته في تبرير هذا الشرط أن يعرف أصحاب مجلة (الرجس والدنس) الذين أسموها زوراً وبهتاناً " راية الإسلام " أن يعرفوا على أية عظمة تجرأوا، ومن أية قداسة نالوا، فيأتي المقال رداً ضمنياً بعد الرد الصريح الذي نُشر في العدد الثالث من العرفان لهذه السنة.

ومادامت هذه هي الغاية الأولى والأخيرة من هذا المقال، فإني أنقل للقراء ما ذكره الشيخ أبو زهرة من النعوت والأوصاف التي وصف بها الإمام الصادق في كتابه المذكور، هذا مع العلم بأن صاحب الكتاب أزهري، بل من شيوخ الأزهر الكبار، والمؤلفين المكثرين، والباحثين المعروفين. وقد بلغت صفحات الكتاب ٥٦٨ بالقطع الكبير، وكلها أو جلها أرقام وشواهد على إمامة الصادق في الدين والعلوم، وعلو منزلته في الفضائل ومكارم الأخلاق بأجمعها دون استثناء.

وقد اقتبست من مجموع صفحات الكتاب وسطوره كلمتي التالية مشيراً في آخرها إلى بعض الملاحظات، وسلفاً أقول: إنها لم تفِ بالغاية من عظمة الإمام الصادق التي صوّرها الشيخ في كتابه، فلقد أبرز من شخصية الإمام ما لا يفي به إلا كتاب ضخم في حجم كتابه الحافل، وليس من شك أن إيمانه بقوة شخصيته وغزارتها في الواقع قد أسعفاه وأمداه بهذه الصفحات الطوال، وعكسا في نفسه وعقله سطورها وكلماتها.

استمع إلى المؤلف وهو يقول في أول صفحة من مقدمة الكتاب: كتبنا عن سبعة من الأئمة الكرام، وتأخرنا في الكتابة عن الإمام الصادق تهيباً لمقامه.

ثم أن المؤلف الفاضل يوافق الإمامية الاثني عشرية عن علم وإيمان بكل ما يعتقدونه بالإمام، ولا يخالفهم إلا في أمرين: الأول في وجوب العصمة له، والثاني في أنه إمام سياسي كما أنه إمام ديني بالنص من إمام عن إمام، إلى أن ينتهي النص إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، إن الشيخ " أبو زهرة " يعتقد بإمامة الصادق في الدين والعلوم، وأنه الفصل والفارق بين

الحق والباطل، كما جاء في ص ١٨٤، ولكنه يختلف عن الإمامية بالاتجاه، وقد بيّن ذلك صراحة في ص ٨٤ حيث قال ما نصه بالحرف الواحد:

" ندرس الإمام الصادق بنظرنا وتفكيرنا وباتجاهنا، ولسنا بصدد تقرير ما يراه الذين حملوا اسم الجعفرية فقط، ولا ضير في أن يختلف نظرنا إلى الإمام عن نظرهم مادامت النتيجة هي بيان شأن الإمام، وبيانٍ علو قدره، وقد أعلوه بنظرهم، ونعليه بنظرنا، والغاية واحدة، وحسبه شرفاً أنه يصل إلى أعلى مراتب الرفعة باتجاهنا واتجاههم، ونظرنا ونظرهم ".

والآن وبعد هذا التمهيد تعالوا معي لنرى إلى هذه الشرارة من القبس الذي أتانا به المؤلف من نور الإمام الصادق وهديه:

نسبه :

ينتهي نسبه إلى سيف الله المسلول، وفارس الإسلام علي بن أبي طالب، وقد نال فوق هذا كله أكبر شرف في الإسلام بعد العمل الصالح، وهو أنه من عترة النبي الطاهرة.

وصفه الجسمي :

كان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، أبيض الوجه أزهر، له لمعان كأنه سراجٍ، أسود الشعر أجعده، أشم الأنف، قد انحسر الشعر عن جبينه فبداٍ مزهراٍ، على خده خال أسود، ولما تقدم في السن زاده الشيب بهاء ووقارا وإجلالاً وهيبة.

تسميته بالصادق:

قال ابن خلّكان في كتاب وفيات الأعيان: " لُقّب بالصادق لصدق مقالته "، وقال أبو زهرة: ومن يكون أصدق قولاً ممن لقبه الخصوم والأولياء والتاريخ كله بالصادق، وهو الإمام أبو عبد الله رضي الله تعالى عنه وعن آبائه الأكرمين الأبرار الأطهار، ومن الأئمة من اختلف فيه الناس بين موالٍ غالى في ولايته، وخصم غالى في خصومته، والإمام الصادق أجمع العلماءُ على فضله، وإذا غالى كثيرون في محبته فإنه لم يكن العكس بالنسبة إلى الإمام الصادق، حيث لم يغالِ أحد في عداوته، بل لم يعادِه أحد.

صفاته النفسية :

أما صفاته النفسية والعقلية فقد علا بها على أهل الأرض، وأنَّى لأهل الأرض أن يسامقوا أهل السماء ؟! سمو في الغاية، وتجرد في الحق، ورياضة للنفس، وانصراف للعلم والعبادة، وابتعاد عن الدنيا ومآربها، وبصيرة تبدد الظلمات، وإخلاص لا يفوقه إخلاص، لأنه من معدنه، من شجرة النبوة، وإذا لم يكن الإخلاص في عترة النبي، وأحفاد الإمام علي ففيمن يكون ؟!.

فلقد توارث أحفاد علي الإخلاص خلفاً عن سلف، وفرعاً عن أصل، فكانوا يحبون لله، ويبغضون لله، ويعتبرون ذلك من أصول الإيمان، وظواهر اليقين.

والصادق مصداق لقوله تعالى: " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا" (فاطر:٣٢) وهو من أولياء الله الذين قال فيهم: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (يونس:٦٢) وهو من الذين عناهم جده الرسول بقوله: " إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب ذا العقل الكامل عند حلول المشكلات " ومَن غير الصادق يبدد الشبهات بعقله النير، وبصيرته الهادية المرشدة ؟!.

وكان علي بن أبي طالب من أسخى الصحابة، بل من أسخى العرب، وقد كان أحفاده كذلك من بعده، فزين العابدين كان يحمل الطعام ليلاً ليوزعه على بيوت ما عرفت خصاصتها إلا من بعده، فلم يكن غريباً أن يكون الإمام الصادق النابت في ذلك البيت الكريم سخياً جوادا، فقد كان يعطي حتى لا يبقى لعيالهم شيئاً.

وكان حليماً لا يقابل الإساءة بمثلها، بل يقابلها بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: " ادفع بالتي هي أحسن " (المؤمنون"٩٦).

أما الشجاعة فقد كانت ملازمة لذرية علي، وهي فيهم كالجبلّة لا يهابون الموت، وبخاصة من يكونون في مثل حال أبي عبد الله الصادق الذي عمر الإيمان قلبه، وانصرف عن الأهواء والشهوات، واستولى عليه خوف الله تعالى وحده، ومن عمر قلبه بالإيمان لا يخاف أحداً إلا الله.

وكان ذا فراسة قوية جعلته ذا إحساس قوي يدرك مغبة الأمور، والفراسة من أخلاق المؤمنين، كما أن الله سبحانه قد أضفى عليه جلالاً ونورا من نوره، وذلك لكثرة عبادته وصمته عن اللغو، وقد راع أبا حنيفة منظر الإمام الصادق، واعتراه من الهيبة له ما لم يعتره من الهيبة للمنصور صاحب الطول والحول والقوة، والتقى به ابن أبي العوجاء وهو من دعاة الزنادقة

فارتاع، ولم يحر جواباً، فتعجب الصادق من أمره، وقال له: مالك ؟! فقال: ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فما داخلني قط مثل ما داخلني من هيبتك.

هذه بعض صفاته النفسية، وببعضها يعلو على الرجال، ويرتفع إلى أعلى المراتب، فكيف وقد تحلّى بهذه الصفات وغيرها ؟!

علومه:

انصرف الإمام الصادق بكله إلى العلم، فلم يشغل نفسه بشيء سواه، وكان مخلصاً لله في إحياء العلم ونشره، يرشد الضال، ويهدي إلى الحق، ويرد الشبهات، ويدفع الزيغ، ويعمل على تنقية عقائد المسلمين مما اعترى بعضها من الانحراف، ويبث روح التسامح ويمنع الطائفية، فكان بذلك الإمام الصادق حقاً، وحفيد الإمام علي، وسيد العترة الطاهرة.

وكان يدرس علم الكون، وما اشتمل عليه، ومن تلاميذه الكيميائي الشهير جابر بن حيّان، تلقّى عنده علم الكيمياء، ووضع فيه رسائل، طبع منها خمسمائة رسالة في ألمانيا قبل ثلاثمائة سنة، وهي موجودة في مكتبة الدولة ببرلين، ومكتبة باريس، ومما قاله الأستاذ أبو زهرة في ص ١٠١ و ١٠٢ : "إن الإمام جعفر كان قوة فكرية في هذا العصر، فلم يكتفِ بالدراسات الإسلامية وعلوم القرآن والسنة والعقيدة، بل اتجه إلى دراسة الكون وأسراره، ثم حلّق بعقله الجبّار في سماء الأفلاك ومدارات الشموس والقمر والنجوم، وبذلك علم مقدار نعمة الله على عبيده.. وقد عنى عناية كبرى بدراسة النفس الإنسانية، وإذا كان التاريخ يقرر أن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الإنسان، فإن الإمام الصادق قد درس السماء والأرض والإنسان وشرائع الأديان ".

كان في علم الإسلام كله الإمام الذي يُرجع إليه، وله في الفقه القدح المعلى، فهو أعلم الناس باختلاف الفقهاء، يعلم الفقه العراقي ومناهجه، وفقه المدينة وارتباطه بأدلته وآثاره، واعتبره أبو حنيفة أستاذه في الفقه، فقد سئل أبو حنيفة: من أين جاء لك هذا الفقه؟ فقال: " كنت في معدن العلم، ولزمت شيخاً من شيوخه " ويقصد بمعدن العلم الإمام الصادق.

وهيَّأ له أبو حنيفة أربعين مسألة بطلب من المنصور، فأجاب عنها الإمام بما عند العراقيين وما عند الحجازيين، وما ارتآه الإمام. فقال أبو حنيفة : " أعلم

الناس أعلمهم باختلاف الناس"، وأخذ عنه مالك ويحيى بن سعيد الأنصاري وسفيان الثوري وغيرهم كثير. وروى عنه أصحاب السنن: أبو داوود الترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطيني (١) ومسلم، وكثيرون غير هؤلاء من جمهور السنة.

حديث الإمام علي وأهل السنة:

وقد تساءل فضيلة الشيخ أبو زهرة وحقّ له أن يتساءل:

لماذا لم تروَ في كتب السنة أحاديث الإمام علي بن أبي طالب بالقدر الذي يتفق مع علومه وصحبته ومدة ملازمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقد لازمه قبل البعثة، واستمر معه إلى أن قبضه الله تعالى، فكان من الواجب أن يُذكر للإمام علي في كتب السنة أضعاف ما هو مذكور فيها؟!

وأجاب فضيلة الأستاذ بأن السببِ الأول والأخير لذلك هو الحكم الأموي، فليس من المعقول أن يلعنوا علياً على المنابر ثم يتركوا العلماء يتحدثون بعلمه، بل كانوا يخلقون الريب والشكوك حول، ولكن (يأبى الله إلا أن يتم نوره) (التوبة:٣٢) فإن علوم علي لم تختفِ ولم تذهب، بل أودعها عند ذريته الأبرار الأطهار، أذاعوها على العالم والناس أجمعين حين أتيحت لهم الفرصة، وبذلك ننتهي إلى أن البيت العلوي فيه علم الرواية كاملة عن علي، روى ذريته عنه ما رواه هو عن الرسول كاملاً، ورووا عنه فتاويه (٢)

---

(١)هكذا ورد اللقب في المصدر، وأظن انه خطأ من المجلة وليس من الشيخ، فمغنية لا يغيب عنه ألقاب وأسماء أصحاب السنن، واسمه الصحيح: علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله البغدادي **الدار قطني**، بدون الياء بعد الطاء كما ورد في المقال (٣٠٦- ٣٨٥ هـ) ، من أهل محلة دار القطن ببغداد. (تاريخ بغداد:٣٤/١٢ — ٤٠ ، الأنساب: ٢٤٥/٥- ٢٤٧ ، المنتظم: ١٨٣/٧- ١٨٤ ، معجم البلدان: ٤٢٢/٢ ، وفيات الأعيان: ٢٩٧/٣- ٢٩٩ ، طبقات السبكي: ٤٦٢/٣- ٤٦٦ ، طبقات الإسنوي: ٥٠٨/١- ٥٠٩ ، غاية النهاية في طبقات القرّاء: ٥٥٨/١- ٥٥٩ ، سير أعلام النبلاء: ترجمة رقم ٤٠٢٨) .

(٢)فتوى: مفرد جمعها فتاوٍ وفتاوى، ولذلك كان من الواجب أن يقول: فتاواه وليس فتاويه !.

كاملة، وفقهه كاملاً، واستكنوا بهذا العلم في كن من البيت الكريم. (١)

وهذا الذي قرَّره الشيخ الفاضل هو عين ما تقوله الإمامية في علوم أئمة أهل البيت دون زيادة، وقد كرَّروه وأكدوه في كتب العقائد والحديث والفقه والتفسير، ونظمه أحد شعرائهم فقال:

إذا شئت أن تبغي لنفسك مذهبا	ينجّيك يوم البعث من لهب النار
فدع عنك قول الشافعي ومالك	وأحمد والمروي عن كعب أحبار
ووالِ أناســا نقلــهم وحـــديثهم	روى جدنا عن جبريل عن الباري

وبهذا يتبن معنا أن قول الشيخ في ص ٧٠ : " إن الإمامية يقولون: إن علم الإمام جعفر إلهامي وليس بكسبي " من سهو القلم، ونسبة بلا مصدر. وإذا كان الإمامية لا ينسبون علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإلهام، بل إلى جبريل عن الله جلَّ شأنه، فكيف ينسبون علم أبنائه إلى الإلهام ؟!.

وهناك ملاحظات أخرى على الكتاب:

" منها ما ذكره المؤلف في ص ١١ أن الشيعة لا يجيزون الوصية لوارث مع أن المأثور عن الإمام الصادق خلافه ".

بل قد ثبت وصح عن الإمام الصادق جواز الوصية لوارث، فقال: يجوز. وفي الصحيح أيضاً عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله: تجوز الوصية لوارث؟ قال: نعم. وغير ذلك من الروايات التي يتفق مضمونها مع قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف " (البقرة:١٨٠) (١) حيث أمر الوصية للوالدين وهما أقرب الناس إلى الميت.

---

(١) كنن: الكن والكنة والكنان: وقاء كل شيء وستره، والكن: البيت أيضاً، والجمع أكنان وأكنة، وفي التنزيل العزيز: وجعل لكم من الجبال أكنانا، وفي حديث الاستسقاء: فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك، الكن: ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن، وقد كننته أكنه كنا، وفي الحديث: على ما استكن أي استتر، والكن : كل شيء وقى شيئاً فهو كنه وكنانه، والفعل من ذلك كننت الشيء أي جعلته في كن، وكنَّ الشيء يكنه كناً وكنوناً وأكنه وكنَّنه: ستره، واستكن الشيء: استتر (لسان العرب: ٣٦٠/١٣).

ومنها ما جاء في ص ٣٦: " إن المؤلف لا يستطيع أن يقبل روايات الكليني، لأن بعض رواياته لا يقول بصحتها كبار العلماء الاثني عشرية كالمرتضى والطوسي " .

إن التشكيك في بعض روايات الكليني لا يستدعي ترك رواياته كلها، وقد شكك كثير من الحفاظ ببعض الرواة الذين اعتمد عليهم البخاري في صحيحه، ومع ذلك لم يطرح أهل السنة كل ما في البخاري. نقل صاحب كتاب" أضواء على السنة المحمدية " ص ٢٧٥ دار التأليف سنة ١٩٥٨ أن الحفاظ ضعّفوا من رجال البخاري ثمانين رجلاً، ومن رجال مسلم مائة وستين، وبالرغم من هذا فهما من الصحاح عند السنة. وإذا جاز لنا أن نطرح جميع روايات الكليني لحديث واحد وأحاديث في موضوع من الموضوعات يجوز لنا والحال هذه أن نطرح جميع روايات البخاري ومسلم.

هذا وقد رجح البخاري صدق راوٍ ورجح مسلم كذبه كعكرمة مولى ابن عبّاس (٢) وفي نفس الوقت يعتبر أهل السنة كلاً من كتاب البخاري ومسلم صحيحاً. وبديهة أن الشيء الواحد لا يتصف بصفة ونقضها في آن واحد! فكذلك لا يمكن الالتزام وعدم الالتزام بقول رجل واحد في آن واحد !..
ومنها ما جاء في ص ٧٣: " أن النبي كان يجتهد، وكان في اجتهاده عرضة للخطأ.. بل ثبت أنه قد أخطأ، وعلمه رب الصواب ".

إن خطأ الأنبياء في الأحكام محال بحكم العقل ، لأن وقوع الخطأ منهم مناف لحكمة البعثة المقصود منها إرشاد الخلق إلى الحق ، إن قول النبي دليل قاطع الخطأ ، فإذا أخطأ انتفت عنه صفة الدلالة ، وبالتالي تنتفي عنه

---

(١)مع بالغ الأسف فإن الشيخ يعود لديدنه في إيراد الآيات خاطئة، وإلى الآن لا أدري ما السبب الذي يكمن وراء هذا السلوك الذي لا يليق بمقام الشيخ وعلميته المتفجرة وتثبته المشهود له ؟! فالآية كما جاءت في سورة البقرة هذا نصها: " كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين " فهو أضاف "يا أيها الذين آمنوا" وهي ليست جزءا من الآية !!

(٢)جاء في كتب السنة أن عكرمة هو الذي صدق البخاري وعمل بحديثه قد ملأ الدنيا كذباً ، وأنه كان يرى رأي الخوارج ، ويقبل جوائز الأمراء ، وجاء في كتب السنة أيضاً أن أبا هريرة كذبه علي وعمر وعائشة ومع ذلك يروي عنه البخاري ومسلم. انظر كتاب: أضواء على السنة المحمدية " (مغنية)

صفة النبوة والرسالة.

أما آية: " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض" (الأنفال:٦٧) التي استدل بها فضيلة المؤلف على خطأ محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أجاب عنها الرازي في تفسيره الكبير بأن هذه الآية تدل صراحة على أن الأسر كان مشروعاً بشرط الإثخان، والأصحاب قد أثخنوا وقتلوا يوم بدر خلقاً عظيماً، وأسروا بعد القتل جماعة، إذن فالأسر جائز بحكم هذه الآية، فكيف يُتمسك بها على أن الأسر كان ذنباً ومعصية ؟! ويدل على هذا التفسير الذي اختاره الرازي قوله تعالى: " فإما مناً بعد وإما فداء " (محمد:٤) (١)

بقيت ملاحظات غير هذه لا يتسع لها المقام، ومهما يكن فقد كان، ومازال ولن يزال العلماء عرضة للسهو والخطأ، ولم يحط ذلك من قدرهم ومكانتهم العلمية والاجتماعية، وسنفرد مقالاً مستقلاً حول ما نسبه فضيلة الشيخ من الآراء إلى الإمامية وناقشهم فيه .. فإلى العدد القادم .

---

(١) وظن فضيلة الشيخ أبو زهرة أن الدكتور محمد يحيى الهاشمي صاحب كتاب" جعفر الصادق ملهم الكيمياء" شيعي إمامي، والحقيقة أنه سني من أهل حلب. **"مغنية"**

❁ مجلة العرفان، المجلد ٤٨ الجزء ٧، الصادر في رمضان سنة ١٣٨٠هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٦١م، ص(٦٥٦-٦٦٢).

(٧٠) رواد الفكر الاشتراكي

تأليف ج. هول – ترجمة: منير البعلبكي
منشورات دار العلم للملايين، بيروت- ٥٣٠ صفحة

لم يحظ – في هذا العصر – أي موضوع بعناية المفكرين واهتمامهم كموضوع الاشتراكية، ذلك أن الاشتراكية على اختلاف معانيها، وتعدد الأقوال فيها يجمعها قاسم مشترك لا يختلفٍ فيه اثنان، وهو إقامة حياة أفضل، فلا بدع إذن أن ينتحلها، ويتخذها شعاراً المخلصون والانتهازيون على السواء من السياسيين وغير السياسيين، حتى موليه الذي اشترك مع الإسرائيليين في الاعتداء على بور سعيد يتزعم حزباً " اشتراكياً " .. وحتى هتلر الذي أشعل نار الحرب، وقتل الملايين كان ينادي بالاشتراكية... وهذا حزب العمَّال في إنكلترا يناصر الصهيونية والاستعمار، ويدَّعي الاشتراكية..

وأقبل حملة الأقلام على الكتابة في الاشتراكية يضعون فيها المجلدات الطوال والقصار، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات تلبية لرغبة القرّاء، وكتب عنها أكثر من واحدٍ، وهم لا يحفظون منها إلا الاسم، وكتبت أنا مقالاً مطولاً ومتسلسلاً سنة ٣٦ في بعض المجلات، ثم تبين لي أني كنت فيه كحاطب ليل، بعد أن أقبلت على قراءة كل كتاب أو مقال يحمل هذا الاسم، بخاصة إذا كان منقولاً عن لغة أجنبية، ومضيت في قراءة الاشتراكية أكثر من عشر سنوات، ثم تركت – متخيلاً – أنه لا جديد بعد الذي رأيت، حتى أهداني الأستاذ منير بعلبكي كتاب " رواد الفكر الاشتراكي " فاستأنفت، وقرأت منه الشطر الأوفى، فوجدته فريداً وجديداً في أسلوبه وتبويبه، وفي شموله وإحاطته بكل ما يتصل بالاشتراكية من قريب أو بعيد.

لقد حامت العقول – منذ القديم – حول الاشتراكية دون أن تكشف حقيقتها وأسسها، ثم توالت الحوادث على مر الأيام من الثورة الفرنسية، وإعلان حقوق الإنسان إلى الثورة الصناعية، وتكديس الثروات، وتجمع العمال، واستغلال الفرد للجماعات، فتبلور معناها شيئاً فشيئاً، وإن اختلف روادها في تحديدها، وما يُعتبر فيها وفي كيفية تطبيقها، والطريق الموصل إليها.

وهذا ما تصدى لعرضه ودراسته " ج . د . هـ . كول " في كتابه "رواد الفكر الاشتراكي" الذي نقله إلى العربية الأستاذ منير بعلبكي في ٥٣٠ صفحة بالقطع الكبير، ووضع له أربعة فهارس: الأول للشخصيات الرئيسية، والثاني للأعلام، والثالث للموضوعات، والرابع للمراجع العامة، وقد استغرق هذا الفهرست الأخير ٣٨ صفحة من الحرف الدقيق لأنه تعرض للسنة التي طبع فيها المصدر، ولعدد الطبعات وللغة التي ألف فيها، ونقل إليها، وجاء مرتبا ومبوبا حسب فصول الكتاب.

ابتدأ المؤلف بلفظة الاشتراكية: متى استعملت؟ ومن سبق إلى استعمالها؟ وأي معنى أريد منها في بدء الاستعمال؟ وهل هناك صلة بين معناها الأول وبين المعاني المتأخرة؟ ثم فرَّق بين أقسامها، وتكلم عن روادها وأحزابها، وعن الظروف والملابسات التي أحاطت بكل رائد، وأوحت إليه بأفكاره وآرائه، وعن صلة النظريات الاشتراكية بالثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، والفلسفة المادية، ونبَّه على أن كثيراً من الذين عدَّهم الناس من الاشتراكيين ليسوا منهم في شيء إلا في مشاركة الاشتراكيين بحب الخير والسعادة للجميع، وعدم الثقة بالنظم السائدة، كما بيّن السبب لنجاح من نجح، وإخفاق من أخفق من دعاة الاشتراكية، إلى غير ذلك من البحوث القيمة التي حواها هذا السفر اليتيم، والتي تعطي القراء صورة واضحة كاملة عن النظريات الاشتراكية وبواعثها، وأهدافها، وتاريخها، وصلتها بالأحداث والحركات، وما أحدثته من مفاهيم جديدة تتصل بحياة الناس والمجتمعات.

هذا إلى أن القارئ المثقف الفهيم يجد ما بين السطور وفيما يعرضه المؤلف من أقوال وآراء حلولاً لبعض المشكلات الفلسفية التي كانت تنتظر الحل منذ أمد بعيد، والملاحظ أن صاحب الكتاب قد عني بأقوال ماركس بصورة خاصة، فتتبعها جميعاً، وحرص كل الحرص على أن يرجعها إلى من تقدم عليه من قادة الفكر، حتى لم يدع له شيئاً مذكورا.

وإذا أردنا أن ندلل ونثبت صحة الترجمة ودقتها وروعتها فيكفي لذلك أن نذكر اسم الأستاذ منير بعلبكي الذي عرفه قرّاء العربية جيداً في سلسلة علّم نفسك، وغيرها من كتب الأدب والثقافة، وعرفوا فيه عبقرية الفكر، وصفاء الأسلوب، واحترموا في شخصه العلم والأمانة، وقدَّروا له ما أسداه للمكتبة العربية من خدمات في مجال المعرفة والثقافة.

ومن أهم ما يمتاز به الأستاذ منير أنه يتقمص روح المؤلف حين يترجم من الإنكليزية إلى العربية، ثم يضفي على أفكاره من ذوقه الأدبي السليم، وأسلوبه الرائع المبين، وليس من شك أن اسمه سيحتل الصدارة في تاريخ الترجمة، هذا إلى مكانه المرموق كمفكر، ومنتج، وأديب، بل أستاذ الأدباء، ينقل إليهم ثمرات العقول النيرة بأقرب السبل وأيسرها.

وبعد، فمن أراد أن يتفهم الاشتراكية، وتاريخها، وتطور تطبيقها في مختلف الأدوار فلا غنى له عن كتاب " رواد الفكر الاشتراكي " أما من يقتنع بالدون من ذلك فهو في غنى عنه.

❋ مجلة "الآداب "، العدد ١١ الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١، السنة التاسعة، ص : (٥١).

(٧١) جواب مغنية حول موقف العرب من التجارب النووية ❁

إذا أردنا أن نعرف الموقف الذي يتعين على الدول العربية اتخاذه تجاه هذه التجارب النووية الغربية والشرقية التي روَّعت كل إنسانٍ، وأخافت الكبير والصغير، والقاصي والداني على حاضره ومستقبله، والتي أنفق عليها ألوف الملايين، والناس هنا وهناك يموتون جوعاً وعرياً، والتي ملأت السموات والأرضين بغيومها وسمومها، إذا أردنا أن نعرف موقفنا منها فعلينا قبل كل شيء أن ننظر إلى البواعث والأسباب التي دعت إلى هذه الظاهرة الهستيرية، ثم ننظر إلى مؤهلات العرب والدول العربية، وإمكاناتها وظروفها وملابساتها، وفي ضوء هذين ينبغي أن يأتي الجواب:

ومهما كان الباعث، وبأي سبب تشبث الغرب أو الشرق لتبرير تجاربه فنحن نؤمن بأن مصلحة الغرب تقضي أن يبقى الوضع في ألمانيا على ما كان، وأن مصلحة الشرق تستدعي التغيير والتبديل، وبالفعل وضع الخطط لذلك، وصمم على التنفيذ، وأصر الغرب على موقفه، وأن يمنع خصمه من تنفيذ خططه، ولو أدَّى ذلك إلى الحرب، ثم أعد لها عدته، وحشد قوته، ووقف من خصمه وجهاً لوجه في برلين، فأخذ هذا يشرع السلاح، ويلوح به في الهواء، علَّ الغرب يجزع ويتراجع، ولكنه صمد، وشرع بدوره يلوح بسلاحه ، ويبرق ويرعد ، ومازالت الحال كذلك حتى الآن ١٩٦١/١١/١٣

❁ في العدد ١ من مجلة " العلوم " اللبنانية، الصادر في يناير ١٩٦٢ للسنة السابعة وجّهت المجلة السؤال التالي لمجموعة من المفكرين والعلماء، وكان الشيخ واحداً من هؤلاء العلماء، أما السؤال فهو :

" في حمى التجارب النووية التي تعصف بالعالم، شرقه وغربه، ما هو في نظركم الموقف الذي يتعين على الدول العربية اتخاذه من هذه القضية، أتُشارك في هذا السباق أم تنأى عنه، خاصة بعدما أذيع من أن إسرائيل تعمل جادة لإنتاج قنبلة ذرية ؟ وما هي السبيل التي تكفل للعرب تحقيق ما يصبون إليه من مواكبة التقدم العلمي في هذا المضمار وعدم التخلف عن ركبه الصاعد ؟ "

وقد ساهم في الإجابة عن هذا السؤال بالإضافة إلى الشيخ محمد جواد مغنية كل من: عبد الحليم منتصر – نوري جعفر – عبد اللطيف شرارة - زكي النقاش – محمد مجذوب – منير عطية – جبران مسعود – منح الصلح – جليل العريض .

يحاول كلٌ أن يثبت لعدوه أنه صاحب الحول والطول، وأنه المتفوق عدَّة وعدداً. وكلنا يعلم أن الحرب إذا وقعت – لا سمح الله – لا يقف ضررها على من أثارها، بل يعم الجميع، ولا ينجو منه أفريقي ولا آسيوي ولا أميركي، ولا أحد على وجه الأرض، ولو من ذرة غبار، وعندها لا يبقى للإنسانية علوم وحضارة، ولا شرائع وأنظمة.

وإذا كان خطر التجارب، وما يؤدي إليه يعمِ الجميعِ، ولا يختص بالعرب، فعلى جميع الدول والشعوب أن يقفوا صفا واحدا ضد تجارب الحروب ومثيري الفتن، وأن يبذلوا كل جهد للقضاء على الاستعمار، ومتى تم القضاء عليه تحقق السلم، واستتب الأمن، وانسد باب التسابق إلى التسلح، والتهديد بالتخريب والتدمير، هذا هو الحل، أما الوقوف موقف اللامبالاة فخطأ مادام الضرر عاما، وأما المشاركة في هذا السباق فتزيد الخرق اتساعاً، والنار اندلاعاً، هذا، إلى أن الدول العربية تعوزها الشروط والمؤهلات المادية والفنية للتسابق في هذا المضمار.

وبهذا يتضح الجواب عما جاء في السؤال: " من أن إسرائيل تعمل جادة لإنتاج قنبلة نووية ". إن إسرائيل ربطت مصيرها بمصير الاستعمار منذ يومها الأول، ولولاه لم يكن لها عين ولا أثر، كما أن الاستعمار يعتمد عليها مباشرة في صيانة مصالحه في الشرق الأوسط، ومن هنا رأينا أمريكا تمدها بالمال والدبابات الحديثة، وبريطانيا بالأسلحة البحرية، وفرنسا بالطائرات النفاثة، ومعنى هذا أن سلاح الاستعمار بشتى أنواعه النووي هو سلاح إسرائيل بالذات، أو لصالح إسرائيل، وهذا يحتم ما قلناه من لزوم التعاون بين العربِ وبين شعوب أفريقيا وآسيا، وسائر الشعوب المحبة للسلام، والعمل يدا واحدة للقضاء على الاستعمار.

فإذا أراد العرب أن يتسلحوا ضد إسرائيل حقاً فعليهم أن يوحدوا كلمتهم وسياستهم وجهودهم لخلاص الجزائر والبحرين وعمان، وكل قطر عربي، خلاصه من الاستعمار وشركاته واحتكاراته وسياسته وسائر آثاره، ثم يتفرغ كل قطر للعمل من أجل حياة أفضل له ولأبنائه، متعاوناً مع كل جهة تمده بعون غير مشروط، وتؤازره على تحقيق ما يريد دون أن تمس سيادته بشيء، أو تتدخل بشأن من شؤونه.

وبالتالي، فلا سلاح أقوى وأبقى لإسرائيل من اختلاف العرب بعضهم مع بعض، وتشتيت كلمتهم، وتخلفهم عن ركب الحضارة، ومهادنتهم للاستعمار وسياسته.

❁ مجلة " العلوم "، العدد ١ الصادر في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢، السنة السابعة، ص: (٨٢ - ٨٣).

(٧٢) أبو جعفر الطوسي

من أكبر علماء الإسلام وأعظم رياضييهم يغري هولاكو بإقامة مرصد مراغة العظيم، يُفوض في أمر الأوقاف فينفق ريعها على المدارس والمكاتب والعلماء.

هو محمد بن محمد بن الحسن الجهرودي نسبة إلى جهرود بلد من أعمال قم بإيران، بها قبر هارون الرشيد، وكانت ولادته في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هجرية. ويلقب بالخواجا نصير الدين.

وتوفي ببغداد سنة ٦٧٢هـ، وشيَّعه خلق كثير، منهم العلماء وكبار الدولة، ودُفن في مشهد الكاظم بجوار ضريح الإمام موسى بن جعفر.

(دراسته)

درس علوم اللغة وآدابها، والفقه والحديث على أبيه، والحكمة على خاله، والرياضيات على كمال الدين يوسف الموصلي، ومعين الدين المصري، ثم سافر إلى نيسابور، فحضر حلقة سراج الدين القمري، وقطب الدين السرخسي، وغيرهما، والتقى مع فريد الدين الداماد، وكثير من العلماء والأفاضل. وفي نيسابور ظهر نبوغه وتفوقه، واشتهر اسمه.

وقال مؤرخ العلم سارطون: " إن الطوسي من أعظم علماء الإسلام، ومن أكبر رياضيهم. وقال المستشرق " برِوكلمن ": " هو أشهر علماء القرن السابع الهجري، وأشهر مؤلفيه إطلاقا ".

ومن أشهر تلاميذه العلامة الحلي، ويوسف بن علي المطهر صاحب المؤلفات الكثيرة الشهيرة في الفقه وعلم الكلام، وقطب الدين محمود الشيرازي صاحب كتاب " شرف الأشراف " و " الكليات ".

(جامعة مراغة ومكتبتها)

بعد أن فوَّض هولاكو أمر الأوقاف إلى الطوسي قام بضبطها وحمايتها وتنميتها، وعيّن في كل بلد نائبا يستغل أوقافه، ويحمل ناتجها إليه، وكان الطوسي يصرفه على العلماء والحكماء وإقامة المعاهد العلمية وطلابها،

فأسّس مكتبة يربو عدد مجلداتها على الأربعمائة ألف، وقد احتوت كل نفيس ونادر من الكتب، وكانت الأولى من نوعها في العالم كله.

وأنشأ جمعية ضمَّت الكثير من الأساتذة والطلاب، وقد عيّن الطوسي راتباً لكل فيلسوف ثلاثة دراهم في اليوم، وللطبيب درهمين، وللفقيه درهما واحدا، وللمحدث نصف درهم، فأقبل الناس على الفلسفة والطب أكثر من إقبالهم على الفقه والحديث، وكانت الفلسفة في غير مكان تُدرّس سرا وخفية.

﴿ المرصد ﴾

أقنع الطوسي هولاكو أن يبتني مرصداً عظيماً يخلد ذكره، فخوّله أمر بنائه وتشييده، وجعل في تصرفه ما يحتاج إليه من الأموال، وجمع الطوسي لبناء المرصد جماعة من العلماء المشهورين، وأصحاب العقول النيرة من سائر الأنحاء، منهم المؤيد العرضي من دمشق، والفخر المراغي من الموصل، والفخر الخلاطي من تفليس، ومحيي الدين المغربي من حلب، والنجم دبران القزويني وغيرهم.

﴿ مؤلفاته ﴾

قال أصحاب أعيان الشيعة: كتب الطوسي ما يناهز مائة وأربعة وثمانين مؤلفاً، ثم عدَّ منها ثلاثة وثمانين، وذكر له صاحب " فوات الوفيات " أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفا.

وقال سارطون:" إن أقوال الطوسي مهّدت للإصلاحيات التي تقدم بها " كوبرتيكس " فيما بعد. وقد ترجم " كارادي فو " بعض الفصول من كتب الطوسي إلى الإفرنسية، وكذلك كتب " تارنري ورابر " عن الطوسي وبحوثه في الكرة السماوية، ونظام الكواكب وغيرها.

وكتابه " شكل القطاع " أول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك، ويجعلها علماً مستقلاً ، ويدلنا هذا الكتاب على أن الطوسي أوّل من استعمل الحالات الست للمثلث الكري القائم الزاوية.. ومن يطالع هذا الكتاب يجد أن العلماء فيما

بعد لم يزيدوا شيئاً هاماً على نظريات هذا الكتاب ودعاويه..(١) وقد ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والإفرنسية والإنجليزية، وبقي قروناً عديدة مصدر العلماء في أوروبا يستقون منه معلوماتهم.. وقد اعتمد عليه " ريجيو مونتانوس " كثيرا عند وضعه كتاب المثلثات.

---

(١) الصحيح أن يقول دعاواه، جمع دعوى.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥٠ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٨٢هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٦٣م، ص(٨٠٣-٨٠٥).

(٧٣) رجاء نرفعه إلى المراجع الكبار في النجف الأشرف

من المسائل التي درسناها في النجف الأشرف، وأجمع عليها المدرسون والمؤلفون، حتى أصحاب الرسائل العلمية، هذه المسألة : لا اجتهاد ولا تقليد في البديهيات واليقينيات، كوجوب الصوم والصلاة.

وقال آية الله الحكيم معلقاً على ذلك في أول الجزء الأول من " مستمسك العروة "، قال — ما معناه — (١): إن الاجتهاد هو بذل الجهد للبحث عن الحكم المجهول، والتقليد هو الأخذ برأي الغير فيما لا يعرفه المقلد، فإذا انكشف الواقع ، وظهر كالشمس لا يبقى مجال للاجتهاد، ولا للتقليد، كما هي الحال في وجوب الصوم والصلاة، والحج والزكاة.

وأيضاً من البديهيات التي لا مجال فيها للاجتهاد والتقليد، تماماً كوجوب الصلاة أن الحياة الدينية في عصرنا تتدهور يوماً فيوماً، ولحظة بعد لحظة في جميع البيئات والأوساط، سواء في ذلك أوساط الشباب والشيوخ، والنساء والرجال، والبيوتات الدينية بالقياس إلى ماضيها البعيد والقريب.

وأيضاً من اليقينيات التي لاشكّ فيها ولا ريب أن الهيئة الدينية يتحتم عليها أن تقوم بعمل ما.. حيال هذا التدهور.. وعلى الأقل أن تتفرغ للتأمل والنظر فيما ينبغي أن يعمل من أجل الدين في ضوء التطورات والأساليب التي أدَّت إلى ضعف الإيمان وسلطانه في النفوس.

لقد هلع المجتمع البشري من التجارب الذرية وإشعاعها المدمر، وغبارها الفتَّاك.. وإن خطر هذه النزعات الإلحادية، والتيارات الإباحية التي تستخف بالدين وبالقيم لا يقل عن أخطار الذرة وتجاربها.

وقد أحسّ بهذه الأخطار مسؤول كبير عن الحياة الدينية، فجزع وهلع، تماماً كما جزع من الذرة وأخطارها.. لذا اهتم وفكر في التدابير، وفي عقيدتي أنه اهتدى إلى طريق النجاح واستطاع أن يدل عليه بدون عناء،

---

(١) وهذه عبارته بالحرف الواحد: " من المعلوم أن الحكم الظاهري يختص جعله بحال الشك، فيمتنع جعل حجية رأس الغير مع العلم بالواقع " وما ذكرناه تفسير لهذه الجملة أو الفقرة. " مغنية "

حيث علِم عِلْم اليقين أنه لا يستطيع تبديل الحياة الاجتماعية، ولا تعديلها بحال، فانصرف إلى التفكير ووضع الخطط لتحسين الحياة الدينية وتقويتها، ودعمها، حتى تستطيع الصمود أمام جميع التيارات والنزعات، ما كان منها وما يكون.. ولتتأكد من هذه الحقيقة اقرأ معي هذا التصريح للبابا الجديد، فإني قرأته في صحف يوم ١٩٦٣/٨/١١ وقد جاء فيه :

" إن الحياة الدينية وصلت إلى مرحلة من الأزمة تتطلب تضحيات تدعو إليها اللحظات العظيمة " ..

إن المشكلة: هلِ سيؤدي التطور الاجتماعي إلى انهيار الحياة الدينية ؟.. إن انطباعاً قد تولد لدينا منذ أن بدأت ولايتنا بأن أحوال مجتمعنا تعرض الحياة الدينية للخطر والأزمة.. إن عصرنا الحاضر حاسم يدعو إلى بذل جهود كبيرة، تضع على كاهلنا مهمة الدفاع والتجدد كما تدعو إلى الإخلاص والتضحية التي تتطلبها اللحظات العظيمة.. فمن الضروري أن يتسم الإرشاد الديني بالوضوح والأصالة والحيوية.. فالضرورة تحتم علينا أن يعرف كل عامل بأنه محبوب من جانب الكنيسة ".

لاحظ البابا أن الحياة الاجتماعية في هذا العصر بأوضاعها ومحتوياتها تعرض الحياة الدينية للخطر، وأن عليه بمقتضى منصبه ومركزه أن يجاهد، ويضحي بإخلاص لدعم الحياة الدينية ومساندتها قبل أن تتصدع وتنهار، وأن الطريق الوحيد لحفظها واستمرارها وإقبال الناس عليها أن تتحقق أمور ثلاثة :

١- إبراز الحياة الدينية بلغة العصر الحديث، وأسلوب واضح يقربها ويحببها إلى النفوس والقلوب بعد أن تفهمها بدون جهد وعناء.
٢- دعم الإرشاد الديني بالمنطق المألوف لدى كل الناس.
٣- الحيوية، وقد أوضحها البابا بقوله أن يفهم كل عامل لخير كائناً من كان أنه محبوب ومقدر من جانب الكنيسة.

توصل البابا إلى هذه النتيجة بعد التأمل والدراسة العميقة الدقيقة للحياة الدينية في ضوء الحياة الاجتماعية وتطورها الحاضر الحاسم.. فما بالنا نحن المسلمين لا ندرس ولا نفكر ونحاول، كما حاول غيرنا؟ .. هل نعجز عن التفكير أو عن تحقق هذه العناصر الثلاثة: الوضوح والأصالة والحيوية؟.. وهل القصور أو التقصير فينا أو فيما نعتقد ؟.. كلا.. وألف

كلا.. إن الذي يعوزنا شيء آخر.. ويتضح هذا الشيء الذي نحتاجه من الحكاية التالية:

حدَّثني أخ كريم أن تاجراً طيباً غيوراً على الدين ذهب إلى مرجع من المراجع وقال له: إن لديّ حقاً ماليا، فهل تأذن بشراء كمية من الكتب الحديثة – التي أخذت على كاهلها الدفاع والتجدد، واحتوت على الوضوح والأصالة والحيوية – لتوزع على من يحتاج إليها ويستفيد منها بالمجان؟ فقال المرجع: كلا.. فقال التاجر المؤمن: هل تأذن أن أشتري منها كمية وأعرضها للبيع بنصف الثمن، ليسهل تناولها على الراغبين؟ قال المرجع: لا.

وبالمناسبة حدّثني الأخ المهذب السيد عبَّاس الخوئي نجل آية الله السيد أبي القاسم، قال: كنت ماراً في أحد أسواق بغداد أنا ورفيق لي، فرأينا الكتب المذكورة معروضة للبيع، وسمعنا رجلاً يخاطب آخرٍ بقوله: اشترِ من هذه الكتب، فإنها مفيدة من الوجهة الدينية.. فقال المخاطب: أنا أمي لا أقرأ ولا أكتب.. فقال صاحبه: وإن يكن..اشترها، وهبها لمن يقرأ، لتشجع المؤلف، كي يستمر في خدمة الدين والحق.

وهكذا الشرفاء الطيبون المجردون يناصرون الحق، ويشجعون أهله، لا لشيء إلا بدافعٍ من فطرتهم الصافية، وعقيدتهم الصادقة.. وكفى بهؤلاء قوة وأنصارا، فقد كانوا العدة والعمدة للأنبياء والمرسلين، والأئمة الطاهرين، وأصحاب الرسالة العاملين.

وبالتالي، فإن هذه خاطرة خطرة، وحسرة انطلقت من حيث لا أريد، لتنفس عن قلب مكلوم مما يسمع في المحافل والإذاعات، ويرى في الأسواق والطرقات، ويقرأ في الكتب والجرائد والمجلات.. وأقسم أني حاولت أن أحبسها وأكبتها، ولكني ضعفت أمامها وعجزت.. وأنا أقرأ كلمة البابا وأتأمل معانيها العميقة ومراميها البعيدة وأكرر في عقلي ونفسي وقلبي: " إن عصرنا الحاضر يضع على كاهلنا مهمة الدفاع والتجدد، وإن الضرورة تحتم أن يتسم الإرشاد الديني بالوضوح والأصالة والحيوية، وأن يعرف كل عامل أنه محبوب من جانب الكنيسة " .

وتمنيت متلهفاً لو سمعت هذه الكلمة من النجف التي أدين بولائها، وأضحي بحياتي من أجلها.. تمنيت أن أسمعها من النجف، لأفخر وأعتز، وأنشر وأذيع.. فلقد كنت ومازلت أقدس المبادىء الخيرة أينما كانت

وتكون.. وألف تحية وصلاة على من قال: " الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى كانت " والله سبحانه من وراء القصد.

رجاء لا اقتراح:

أن يخصص السادة المراجع في النجف الأشرف جائزة لمن ألّف أو يؤلف كتاباً في الإرشاد الديني، يتسم بالوضوح والأصالة والحيوية، على أن يكون المحكمون من رجال الدين وغيرهم، ومن أهل المعرفة والإخلاص.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥١ الجزء ٢، الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٨٣هـ الموافق آب (اغسطس) ١٩٦٣م، ص(١٣٥-١٣٧).

(٧٤) اضحك وابك

لا يمر يوم إلا وتردني فيه رسالة، أو أكثر، وهي على أنواع:

" منها " تأييد ورضى عما أكتب نثراً – أحياناً – ونظماً حيناً. و " منها " أسئلة شرعية. و " منها " اقتراحات أن أكتب في موضوعات خاصة. و " منها " ما تلقي عليّ مسؤولية ظلم الرؤساء وجور الحكام، وانتشار السفور، لأني لو كتبت ونشرت لارتدع الجائر، وتاب الفاسق. و " منها " مغفلة بدون توقيع، أو بتوقيع مجهول، لأنها تهديد ووعيد لدفاعي عن الشيعة والتشيع.

و " منها " وهي أكثرها جميعاً يطلب أصحابها أن أقدم لهم كتبي ما تقدم منها وما تأخر بالبريد المضمون هبة مجانية، ويختلف أسلوب كتابها باختلاف أمزجتهم، فأحدهم يقول: أنا فقير ، وثان من إيران يؤكد قوله : "أنا أموت إن لم ترسل إلي كتبك " وقال ثالث من العراق: " أنت تدعو إلى الخير وإهداء كتبك إلي خير.. إذن فعليك أن تهديٍ " ورابع من الكوفة ختم رسالته بعد أن بالغ وأبلغ في الموعظة، ختمها قائلا: " والسلام على من اتبع الهدى ".. وليس من شك أن المهتدي في مفهومه من يلبي طلبه، ويشبع رغبته.

وأغرب الرسائل وأطرفها جمعاء رسالة مضمونة، تناولتها يوم ١٩٦٣/١٢/٣٠م، وهي التي دفعتني قهراً إلى كتابة هذا المقال، رغم أني في شغل شاغل عن كل شيء، حتى نفسي، لأني منصرف بكلي ليلي ونهاري إلى وضع كتاب " " أصول الإثبات في الفقه الجعفري "، ولكن ما قرأت الرسالة حتى رأيتني أدع ما أنا فيه، من حيث لا أريد لأسطر كلماتي هذه.

والرسالة من البحرين، ويقول كاتبها فيما يقول: إن زوجته وأولاده قد ماتوا، وإن بيته قد هُدّم، وأن ديونه كثيرة، وبعد أن شرح ذلك مفصلاً ومطولاً قال ما نصه بالحرف الواحد:

" فأطلب من فضيلتكم إعطائي من الحقوق، لأداء ديوني، وبناء بيتي، وزواجي " ثم قال أيضاً ما نصه بالحرف والنقط:

" ملحوظة: الحجرة الواحدة في البحرين تساوي مبلغ ثلاثة آلاف روبية على الأقل، وبلغت المهور في البحرين خمسة آلاف روبية بدون شروط الصداق، ومبالغ ديوني متفرقة غير محصورة في عدد ".

وإذا أجرينا عملية الجمع لطلباته كان المحصل تسعة عشر ألف روبية على الأقل، لأن الثلاثة للحجرة، والخمسة للزواج، فهذه ثمانية، وشروط الصداق ألف على أقل التقادير، فهذه تسعة، والديون المتفرقة غير المحصورة قد تبلغ عشرات الآلاف، ولكن القدر المتيقن منها عشرة، فالمجموع ١٩٠٠٠ .

وتمنيت لو أستطيع الإجابة والتلبية لكل طالب، وكيف ؟! .. أما الكتب فليست بصلاً وفجلاً يزرعه المؤلف في حقله، ولا الورق يُوزع بالمجان، ولا العمال يشتغلون بدون عوض، ولا أصحاب المطابع يطبعون قربة إلى الله، ولا البريد يتقبل بلا طوابع، وإذا كانت هذه هي الحال بالقياس إلى الورق والعمال، فكيف بالنقود والأموال؟!

ودفعاً لكل التباسٍ، والتماس أعلن بصراحة أن الحقوق لا ترد إلي، ولست أقبض منها درهماً واحداً، ولا لأحد علي فضل ولا منة، ولله الحمد، حتى في أيام دراستي في النجف الأشرف، وما من طالب أو عالم في جبل عامل إلا قبض من مهاجر أو تاجر إلا من شذ، وأنا منهم ..

وحين كنت في قرية " طيرحرفا " كان قوام حياتي على الزراعة، تماماً كأهلها، ولم أزر بلدة، أو ثريا، أو أي إنسان رغبة في الحطام، وصادف أكثر من مرة أن عرض علي بعض المحسنين صدقات أموالهم، فرفضت، ولا أحسب أن أحداً يمد يده إلا وهو يشعر بالضعة، إن كان من أهل الشعور.

وإني أحمد الله سبحانه أن هيّأني إلى الكد والعمل أكثر من أي عامل ممن عرفت، حيث أعمل في اليوم ١٤ ساعة، وأنام متأخراً، وأقوم مبكراً، هذا وقد بلغت الستين، أشعر بالضعف والانهيار يوماً بعد يوم، حتى إذا فرغت من الكتاب دفعته إلى الناشر، لينقدني عشرة بالمائة، ولم أحصل علي ١٢ منها إلا منذ قريب، وإذا احتجت إلى كتاب من مؤلفاتي دفعت ثمنه سلفاً.

إذن، فليعذرني السادة الذي يلحون في الطلب، ولا يملون، على أني قد اضطررت مرات ومرات تحت الضغط والخجل أن أشتري نسخاً من كتبي، وأقدمها للذين يسألون إلحافاً، ولا يكفون.

إني لم أكلف أحداً بشيء، ولا تكلف لي أحد بشيء، فهل يكف عني من يطمع في كل شيء؟ وغريبة الغرائب أن البعض طلب قطعة أرض لي في جبل عامل، ورغب إلي أن أسجلها باسم ولده الذي يطلب العلم في النجف !.. وأغرب من ذا وذاك البحراني الذي دعاني إلى سد ديونه، وتزويجه وبناء

بيته، أغرب من هؤلاء جميعاً محتال من الكويت اسمه علي عمران علي يبيع الألمنيو في سوق الجث.

جاء هذا المحتال إلى لبنان في صيف سنة ١٩٦٢م، وقال لي: أتيت إلى هنا شوقاً إلى رؤيتك، وأبدى من التواضع والإخلاص ما لا يقبل المزيد، فعزَّزته وأكرمته، ودعوته إلى الغداء، وبعد عودته إلى الكويت كتب إلي أن أشتري له كتباً وأشحنها في البريد، على أن يرسل المبلغ لدى وصولها، فلبيت الطلب، ودفعت من مالي ١٤٦ ليرة لبنانية، وأرسل لي إشعارا بوصولها، ووعد بإرسال المبلغ، ثم تجاهل، وتنكر رغم التذكير والإلحاح.

وبالتالي، فإني أعتقد لو كنت من غير قومي لم يحتل علي أحد، أو يطمع في إنسان.. بل لكفوني ما يشغلني من أمر معاشي، واستغرقوا أوقاتي كلها لنشر مناقب العترة الطاهرة، ودحض الافتراءات، ولتأييد الدين والمذهب، ولهيَّأوا لي الكتب والمصادر، ورحلات التبشير والاشتراك في المؤتمرات والمجتمعات، لأذكر، وأنشر ما لدى أهل البيت وعلمائهم من مناقب وفضائل، وكنوز وجواهر.

ولا أريد بقولي هذا أن أمنَّ على إنسان، بل المنَّة لله عليَّ حيث يسرني إلى خدمة الحق وأهله، والرسول وآله، صلى الله عليه وعليهم.

❋ مجلة العرفان، المجلد ٥١ الجزء ٨، الصادر في شوال سنة ١٣٨٣هـ الموافق شباط (فبراير) ١٩٦٤م، ص(٨٢٠-٨٢٢).

٧٥) الشيخ موسى السبيتي

دافعٍ قوي وخفي يدفعني قهراً أن أكتب ولو سطراً واحداً عن المرحوم العلامة الشيخ موسى السبيتي.. (١) بل سوط يلهب ظهري ومتني، ويسوقني قسراً إلى أن أقول فيه ولو جملة واحدة.

والغريب أنه لا صداقة ولا علاقة بيني وبينه لا في النجف الأشرف، ولا في جبل عامل ولا في بيروت يوم كان مدرسا في الكلية العاملية.

إذن، ما هو السر – يا ترى – لهذا الدافع الذي لا أستطيع التخلص منه؟ ما هو السر لتأنيب ضميري على السكوت وإغرائي بالكلام والحديث عنه؟

الجواب واضح وبسيط، إن السر يكمن فيَّ أنا ، وفي الشيخ موسى بالذات، أما سره هو فروحه العلمية التي تنبض بالحركة والحياة، وتتطلع إلى النور أينما كان ويكون، وتنطلق على سجيتها متحررة من كل قيد لا يفرضه الدين ولا العقل، وإن فرضته العادات والتقاليد.

السر هو جِدّه الذي لا ينتهي إلى حد، وصبره الذي لا ينفذ على القراءة والاطلاع، السر هو وعيه وتقديره للعلم، وحرصه على أن يبقى مدة حياته متصلاً بأسبابه، هو عداؤه للجهل، كأشد ما يكون العداء، وأصدقه وأعمقه، هو إيمانه بأن المرء كلما ازداد معرفة كلما ازداد قوة وحياة في وجوده.

---

(١) الشيخ موسى بن جواد بن علي بن محمد بن أحمد السبيتي العاملي.

عالم مؤلف محقق، ولد في كفرة – جبل عامل – سنة ١٣٢٠هـ ، ونشأ بها على والده العالم المتوفى سنة ١٣٤٩هـ، قرأ مقدماته الأولية هناك ثم هاجر إلى النجف وأكمل دروسه به ثم حضر الأبحاث العالية على السيد أبي القاسم الخوئي وغيره، ودرَّس لمدة غير قليلة لبعض الفضلاء أمثال الشيخ جواد قسّام المتوفى سنة ١٤٠٣ وغيره، رجع إلى بلده وقام بوظائفه الشرعية وعكف على المطالعة والتأليف والتدريس في " الكلية العاملية " في بيروت، ونشر مقالاته القيمة وبحوثه الناضجة في الصحف اللبنانية وغيرها.

مؤلفاته: طُبع له: حياة الإمام الصادق (ع)، العلماء يسفهون الحملة المجرمة على آل البيت (ع)، علي فوق الفلاسفة، أخلاق آل محمد (ص)، كيف تفهم الإسلام.

وفاته: توفي ببيروت سنة ١٣٨٤هـ (المنتخب من أعلام الفكر والأدب :٦٧٧)

هو إنكاره لذاته، وزهده في المظاهر والمناصب وفي الألقاب، وفي كل شيء إلا في المعرفة، لم يحاول الفقيد في يوم من الأيام أن يطور ويجدد مظهره وملبسه، ولكنه ناضل وجاهد ليطور عقله، ويجدد نفسه، ويوسع من آفاقه.. كان يسكن غرفة أشبه بكوخ، أما محتوياتها فمن مخلفات الماضي البعيد، وفيها كان يقرأ ويطالع، ويفكر ويكتب، ثم ينطلق منها مزودا بطاقته وخياله يجوب الماضي والحاضر والمستقبل.. إنه شيخ بملبسه ومسكنه ومأكله، ولكنه بعقله وروحه أكثر شبابا من الشباب، وتقدما من أولئك التقدميين.

أما السر في أنا فهو إيماني بهذه الخِلال، وتقديسي لها، حيثما وُجدت وتُوجد، فإذا ما رأيت أثرا من إملائها، وظاهرة من وحيها سبَّح لساني وقلمي بحمدها من حيث أريد أو لا أريد، وقد كان حب الفضيلة، ومازال بخاصة العلم القاسم المشترك، والقرابة القريبة بين محبيه ومريديه، وألف الصلاة والسلام على من قال: " أصدقاؤك ثلاثة: صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك " .

إذن، الشيخ موسى صديقي، لأنه صديق صديقي، وعدو عدوي.

وبعد، فلو أن فناناً، ناقداً ومحللاً صدر تفكير الشيخ موسى، وأسلوبه في الحياة لرأى أهل الاختصاص في شخصيته نموذجا يستقل به عن حياة زملائه وأنداده الذين عاشوا في وعاش في عصرهم، تماماً كديجون صاحب المصباح الذي لم يشبه أحداً، ولم يشبهه أحد من فلاسفة اليونان.

وليس من غرض هذه الكلمة أن تترجم، أو تؤرخ للفقيد، وإنما القصد أن تشير إلى ناحية واحدة من مناحي حياته وشخصيته، وهذه الناحية هي التي أبرزته وميّزته، وزوَّدته بآلة يستقي بها من الأعماق، ويحلق بها في الأجواء، ويسير بها عبر البحار والقفار.. وهي حبه للقراءة، وبذله الجهد الجهيد لها.. لقد كانت القراءة في مفهومه ضرباً من الحاجة، لا للتسلية وقتل الوقت، وفرضاً يحتمه التفهم للحياة والمشكلات.

ولا أعرف مسؤولية تضاهي في أهميتها وعظمتها مسؤولية التفهم والتعلم، بخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه التيارات والاتجاهات.. ونحمد الله سبحانه على أن وسائل القراءة اليوم لا تحتاج إلى أكثر من الميل والإرادة، فهذه الكتب في واجهات المكاتب تتحدى الجميع.

وقد كانت الكلمة المكتوبة عند الفقيد أغلى من الذهب والإبريز، وأهم همومه، حتى في أيامه الثقال الشداد هنا وفي النجف، بل لم يكن له هم سواها، وكأني به إذا تراكمت عليه المشكلات، وانسدت طرق الحل لجأ إلى الكتاب، فإذا أخذه بيده ذهل عن كل شيء حتى عن نفسه، وكلنا يعلم أن القراءة هي الطريق لمعرفة الحياة، وحجر الأساس لجميع الحضارات، ولولا وجود من يكتب، ووجود من يقرأ، لما كان العلم والعلماء، ولا الأدب والأدباء، ولا الشرائع والأديان.. وبالقراءة انطلق الإنسان من كهفه إلى ناطحات السحاب، ومنها إلى القمر، وبكلمة لو فقدت الحياة القراءة لفقدت وجودها.

ومن هنا رأينا علماء الآثار ينقبون عشرات السنين، وينفقون الملايين ليقرأوا كلمة واحدة.. وفي البدء كانت الكلمة، ولم يكن معها شيء إلا خالق كل شيء.

وأيضاً من هنا كان من لا يقرأ ولا يطالع غريباً مستغرباً حتى عند نفسه، اللهم إلا كذبت عليه، وصدَّق أكاذيبها وعمي عن عيوبها، وإذا كان الأصل في الحياة الامتلاء فإن الأصل في الامتلاء أن يكون في القراءة.

" اقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم " (العلق:٣-٤-٥)

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥٢ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٨٤هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٦٤م، ص(١٧-١٩).

(٧٦) الدين ورجاله في جبل عامل

بين الأمس واليوم

تركت جبل عامل مهاجراً إلى النجف الأشرف منذ أربعين سنة، وكان فيه يومذاك الإيمان بالعلم والعلماء، وتقديس الدين وأهل الدين.

كان فيه علماء من " موديل " القرن الرابع والخامس الهجري، كالشيخ حسين مغنية، والسيد محسن الأمين، والسيد عبد الحسين شرف الدين.. وكان لكل واحد من هؤلاء الأقطاب صفة يمتاز بها، فلقد امتاز الشيخ وعُرف بمقدرته الفائقة على القضاء وفصل الخصومات.

كانت تُرفع إليه في اليوم عشرات الدعاوى، وقد تبلغ الخمسين، كما شاهدت ورأيت، فيتقبلها برحابة صدر، وبدون أجر إلا من الله جلَّ وعز، وبدون تأجيل إلى غد أو بعد غد إلا فيما ندر، وقد وفر على الناس مئات الألوف من الأموال التي يدلون بها اليوم إلى المحامين والحكام، كما جنَّبهم الأحقاد والأضغان، وكانت هيبته تملأ نفوس المتخاصمين، جلالة وهيبة لا تشبهها إلا هيبة الأنبياء والأولياء.

وكانت أحكامه تنفذ بقوة الرأي العام، لأنها الفصل بين الحق والباطل عند الجميع، ومن خالف، أو حاول نُبذ واحتقر وسقط من الحقوق المدنية والشرعية، والويل كل الويل لمن يُقال عنه: خالف حكم الشيخ حسين مغنية، فسرعان ما يتوارى عن الأنظار من الخزي والعار.

وأبرز صفات السيد الأمين أنه أثبت بالأرقام أن الشيعة هم واضعو اللبنات الأولى للتراث الإسلامي، وأن لهم أعمق الأثر وأبعده في الحركات العلمية والأدبية، وجميع التيارات الفكرية في كل دور من أدوار التاريخ، وأعلن ذلك على الملأ مدى الأجيال.. أما ذكاؤه فقد كان الخفي والجلي لديه سواء، وأقسم أني ما نظرت إلى وجهه إلا تذكرت عيني طاغور شاعر الهند وفيلسوفها.

وأبرز صفة بالسيد شرف لدين أنه رجل المباهلة، ومعنى قولي هذا أنه لو افترض وقالت الطوائف للمسلمين: تعالوا ندعو رجالنا ورجالكم، ثم ننظر من هم الأولى بالعزة والكرامة لانتُخِب شرف الدين بإجماع المسلمين،

وكان له ولأمته النصر والتفوق، لأن شخصيته من الصناعة الثقيلة تنتج، وتفرض نفسها وإنتاجها، حتى على أعدى أعدائه، وألد خصومه.

وأيضاً كان في جبل عامل فئة متفقهة بالدين تلي هؤلاء العلماء مباشرة، وكانت تدعم كيانهم كمناصرين وحواريين، مثل الشيخ جواد السبيتي، والشيخ عبد الكريم شرارة الثاني، والشيخ علي شرارة، والشيخ علي عز الدين.

وكانت تقوم هذه الفئة بدور هام في بث الدين، وإرشاد الناس إليه، وكان الرجال والنساء يرجعون إليهم في معرفة الفروع من الطاهر والنجس، والحلال والحرام، والصلاة وشروطها وشكوكها.

وأيضاً كان في جبل عامل فئة ثالثة، جعلت الدين نصب أعينها، لا تغض الطرف عنه ثانية فما دونها، تستضيء بنوره، وتتخذ منه مقاييس لجميع حركاتها وسكناتها.. وهذه الفئة هم الحجّاج المؤمنون حقاً، وكانوا قوة للفئة الأولى والثانية.

أما الأقانيم الثلاثة: رضا وظاهر والزين فقد بنوا هذا الصرح الشامخ من المجد والشهرة على أساس من التقوى، والثقافة الدينية.

وشكّلت هذه الفئات بمجموعها جهازاً واحداً يرمي إلى هدف واحد، ويسير في طريق واحد متكاتفين متعاضدين، وكانت النتيجة أو الحصيلة لهذا الجهاز أن قويت شوكة الدين وعظم سلطانه، واتجه العامليون إليه، وظهر أثره الطيب في كل بيت، حتى بيوت أبناء الدنيا من الزعماء والإقطاعيين، من حيث يريدون، أو لا يريدون، فكان الأفندي أو البك يؤدي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويقيم عزاء الحسين (ع)، ويلتحي بمقدار، ويجتنب الخمر والميسر، ويصون البنات والعيال عن التبرج والتفرنج.

ومادام العلماء أمثال الأمين ومغنية، والفقهاء من أمثال شرارة والسبيتي، والأدباء من أمثال ظاهر والزين، والزعماء محافظين متأدبين فمن الذي بعد هؤلاء يتخلف عن إقامة الشعائر ويتظاهر بالفسق والكبائر؟ .

عدت إلى جبل عامل أول سنة ١٩٣٦م، وأقمت في بعض قراه ١٢ سنة وأشهراً، وكان لم يزل لتلك الفئات الخيرة بعض الآثار والأنوار، وانتقلت إلى بيروت أول سنة ١٩٤٨م، وترددت إلى الجبل بين الحين والحين، حيث تدعو الضرورة

الملحة.. فرأيت ما لم أعهد، وسمعت ما لم أسمع.. فالعلماء والزعماء والحجّاج والشباب جميعاً من " موديل " القرن العشرين، نشاط دائب وتفكير مستمر، كيف يعيشون في رفاهية ورخاء ؟ وكيف يُذكرون بالمدح والثناء؟ وما هو السبيل والوسيلة؟ أبالتبعية لنائب ومتزعم، أم بالمشاريع وإنشائها؟ أم بإقامة الحفلات وخطبائها، أم بالمزاحمات، والتسابق إلى السخافات.

وينبغي أن لا ننسى أن الفئة السفلى تقلد الوسطى، وهذه تقلد العليا، وأن المظاهر تصبح شيئاً غير جدي ولا عملي إذا لم تعبر عن حقيقة واقعة.

وبعد، فإذا سمعنا بالأمس في قرى الجبل صياح الديكة، وخوار الثيران، ومواء القطط، ونباح الكلاب، وصفير الثعابين، وعواء ابن آوى، ولم نسمع صوت أم كلثوم وعبد الوهاب فلقد كنا نسمع إلى جانب تلك الأصوات التهليل والتكبير، والتسبيح والتحميد، وإذا كانت مساجد الأمس متواضعة من الخشب والطين فقد كانت عامرة بالعبادة والأدعية والزيارات، وإذا كانت النسوة بالأمس يحملن الروث على رؤوسهن إلى الحقل، أو يصنعن منه الوقود فلقد كنّ عفيفات مصونات، وإذا كانت بيوت الأمس أكواخاً ورجماً، فقد كانت محلاً للأوراد والأذكار آناء الليل، وأطراف النهار.

أما مجالس العلماء، والتذكير بالآخرة، أما حديث فضائل الآل ومناقبهم، أما دعاء كميل والافتتاح فقد أخذ مكانه صوت فيروز وصباح.

اللهم ألحقنا بصالح من مضى، واجعلنا من صالح من بقي، وخذ بنا سبيل الصالحين.

﴿ استثناء ﴾

تعني هذه الكلمة الأغلبية الكبرى، بخاصة أهل الدعايات والطنطنات، وإلا فإن في الزوايا خبايا، صامتون واقعيون نحبهم ونكبرهم نحن وكل من أحب الخير لوجه الله والخير.

❋ مجلة العرفان، المجلد ٥٢ الجزء ٢، الصادر في ربيع الآخر سنة ١٣٨٤هـ الموافق آب (اغسطس) ١٩٦٤م، ص (١٤٣-١٤٥).

(٧٧) النظام الاقتصادي في الإسلام

أو كتاب اقتصادنا للسيد الصدر

من المهم في هذا الوقت الذي تتحول فيه الأنظار نحو النظم الاقتصادية بعامة، والاشتراكية بخاصة، ويهتم كثيرون بمعرفة رأي الإسلام وحكمه فيها، من المهم جداً أن نقرأ الآن كتاباً شاملا في الاقتصاد الإسلامي، لا يكتفي بالنظرة السريعة السطحية، كما نراها في العديد من الكتب التي تعرض هنا وهناك، بل يتبسط في البحث، ويتوغل في استطلاع النصوص، ويستخرج الحقائق منها على نهج علمي محكم بتحليله ونقده ومقارنته، وبالتالي بحكمه الذي يحمل شارة إسلامية واضحة.

وقد طلع علينا اليوم، ولله الحمد، هذا الكتاب، وهو الجزء الثاني من "اقتصادنا " الذي ليس له ما يماثله – فيما أعتقد – ولا بدع فإن مؤلفه السيد محمد باقر الصدر من النماذج العليا لعلماء الشريعة الإسلامية الذين تنجبهم جامعة النجف الأشرف في فترات متباعدة.

وأول ما يلاحظه قارئ الكتاب أن للاقتصاد الإسلامي طابعاً متميزاً، وشخصية مستقلة، لا يشاركه في خصائصه أي نظام آخر.. فإذا كانت الرأسمالية تنظر إلى الإنسان العامل كوسيلة من وسائل الإنتاج، تماماً كالآلة والأرض، وتنظر إلى الإنتاج كغاية مقصودة لذاتها فإن الإسلام ينظر إلى الإنسان، أي إنسان كغاية كريمة، وهدف شريف، وكل ما عداه في هذه الحياة من إنتاج، وغير إنتاج وسيلة له، لا غاية.

وإذا ربطت الماركسية بين القيمة التبادلية والعمل، وأعطت العامل من إنتاجه وعمله بمقدار ما أدَّى من جهدٍ، لا تزيد عليه، ولا تنقص منه، فإن الإسلام يعتبر عمل العامل بما هو سبباً شرعيا للملك أو الاختصاص بصرف النظر عن القيمة التبادلية.. فمن أحيا أرضاً مواتاً – مثلاً – فهو أحق بناتجها في نظر الإسلام، حتى ولو كان هذا الناتج أضعاف ما قام به من عمل، ولا يحق لأحد أن يشاركه، أو يزاحمه، أو يعارضه في إنتاجه هذا مادام لم يشاركه أحد، ويستعين بأحد في جهده وعمله.

وعلى أساس أن الإنسان بما هو إنسان غاية لا وسيلة، وأن العمل من حيث هو سبب شرعي لاستحقاق العامل فسَّر السيد المؤلف أحكام الأراضي والمعادن في شريعة الإسلام، وإليك تفسيره ملخصاً بما يلي:

تنقسم البلاد التي استولى عليها المسلمون إلى أقسام، منها ما أخذوه صلحاً، ومنها ما أسلم أهله طوعاً، ومنها فتحوه بالسيف عنوة، والعامر بسبب العمل من أرض الأولى والثانية يظل في يد مالكه ما قام بعمارته واستنتاجه، وما لا يد لأحد عليه حين الصلح والإسلام فهو ملك للدولة، إلا إذا شمله عقد الصلح – في أرض الصلح – فيؤخذ بالشروط التي نصَّت عليها المعاهدة، أما الأرض التي أُخذت عنوة بالسيف فما كان في يد أهلها قبل الفتح فهو ملك لجميع المسلمين، من كان منهم ومن يكون، وما لا يد لأحد عليها فهي للدولة.

وفرَّق السيد الصدر بين الملكية العامة للمسلمين، وبين ملكية الدولة، بأن الأولى لا تتجاوز النطاق الإسلامي، وتُصرف في مصالح المسلمين خاصة، أما الثانية فتتعداه إلى النطاق الإنساني الشامل، ويجوز صرفها في مشاريع تعم المسلمين وغير المسلمين. وقد يُلاحظ بأن كل ما هو إنساني فهو إسلامي، أي يقره الإسلام، وبالعكس، مادام العمل لله وفي الله، فإن الإسلام يبارك الخير والإحسان أنَّى كان، ومن أيٍ كان، اللهم إلا أن يريد السيد الباقر التفرقة بين قسمين لقاسم واحد، وبين فردين لكلي واحد.

أما حكمة الفرق بين أرض الصلح، ومن أسلم طوعاً من جهة، وبين الأرض المفتوحة عنوة من جهة فقد بيَّنها السيد بأن من الضروري أن تترك الأرض العامرة لمن أسلم طوعاً، أو استسلم صلحاً، وأن تؤخذ ممن أرغم قهراً ترغيباً في استجابة الدعوة الإسلامية، والإذعان لها بالسلم لا بالحرب، وبالتفاهم لا بالتخاصم.

وعلى أية حال، فإن الأرض في نظر الإسلام واحدة من اثنتين، إما هي ملك عام، وإما تخص العاملين فيها، ومن مصادر هذا الحكم قول الرسول الأعظم: " إن الأرض لله تعالى، جعلها وقفاً على عباده، فمن عطَّل أرضاً ثلاث سنين متوالية لغير ما علة، أُخذت من يده، ودفعت إلى غيره ". وفي حديث آخر: " الأرض لله ولمن عمرها ".

أما المعادن فقسَّمها العلماء إلى نوعين: ظاهرة، وباطنة، والظاهرة هي التي تكون في متناول اليد، ولا يفتقر استثمارها إلى البحث والحفر، كالملح والقار ونحوه، وقد أعطى الإسلام هذه المعادن حكم المشتركات العامة، كماء الأنهار، وأشجار الغابات، يأخذ كل حسب حاجته، ولا يجوز لأحد حيازتها، ولا الاستيلاء عليها، ومنع الآخرين منها، أما المعادن الباطنة التي يحتاج استثمارها إلى البحث والعمل، كالحديد وما إليه فهو ملك للدولة عند جماعة من الفقهاء، كالكليني، والمفيد، والقمي، والديلمي، وغيرهم.

وبهذا يتضح أن الخيرات والمقدرات أياً كان نوعها ليست في نظر الإسلام إلا وسيلة لسد حاجات الإنسان، وخدمته ومصالحه، وما هي بغاية تُقدر وتُحتكر، كما يرى الرأسماليون، وإذا كانت هذه الخيرات في متناول اليد، ولا يحتاج الانتفاع بها إلى عمل وكد فهي لجميع الناس على السواء، وإن افتقرت إلى التعب فناتجها لمن استخرجه بكد اليمين، وعرق الجبين، بالغاً ما بلغ، وليس كما تدعي الماركسية بأن العامل يُعطى من نتاجه ما يساوي عمله، ويؤخذ منه الزائد عملاً بالقيمة التبادلية.

وبعد، فإن كتاب " اقتصادنا " قد بسط النظام الاقتصادي في الإسلام بسطاً واقعياً وافياً، وبحثه بحثاً دقيقاً من جميع جهاته، ومن قرأه بإمعان وتدبر يخرج بهذه النتيجة: إن النظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على أساس الأخوة الإنسانية والتعاون على صالح الجميع، وأن الناس سواء في خيرات الأرض والسماء، دون تفاضل بين إنسان وإنسان، كائناً من كان إلا بالجهد والعمل في كل ما يحتاج إلى جهد وعمل.

وأحسبني غير مخطئ، ولا مبالغ إذا قلت: إن الجزء الثاني من اقتصادنا هو كتاب الموسم بعد أن كشف عن عظمة الشريعة الإسلامية بجلاء، وقدَّم الشواهد والبيِّنات على أنها تقوم على ركائز علمية تميزها وتفضلها على جميع الشرائع، ولست أعرف وسيلة أجدى وأنفع لخدمة الدين والإسلام — في عصرنا هذا — من نشر الشريعة السمحة الغراء، والكشف عن كنوزها وفوائدها، بخاصة فيما يتصل بالاقتصاد الذي هو عصَب الحياة، ويحتل اليوم المركز الأول في الجامعات وسائر الدراسات.

وأيضاً أخالني غير مخطئ، ولا مبالغ إذا قلت: إن الفكر الاقتصادي عند المسلمين لم يقم على تحليل علمي يجعل من دراسته علماً مستقلاً قبل السيد الصدر، وإنما كانت مسائله تأتي تبعاً، وفي أثناء الدراسات الفقهية

والتاريخية، والسيد هو الذي جعل منه علماً اقتصادياً إسلامياً مستقلاً. أما تلك الكتب التي تحمل اسم الاقتصاد، أو الاشتراكية في الإسلام فإنها مجرد محاولات لا ترتكز على أصل معقول، أو ثبت منقول.

❁ مجلة " العلوم "، العدد ١ الصادر في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥، السنة العاشرة، ص: (٧٤ – ٧٥).

(٧٨) علي بن أبي طالب

ودراسة التاريخ الإسلامي في القرن العشرين

منذ أقدم العصور، حتى اليوم، والناس يتحدثون ويكتبون عن الإمام علي بنٍ أبي طالب "ع"، ومنهم من قال وكتب عن جهل وولع أعمى، فأضرّ كثيرا، ولم يأتِ بنفع، ووددت لو أني حرقت كل كتاب فيه صورة مشوهة، تنفر ولا تبشّر، ومنهم من كتب عن دين وطلباً لمرضاة الله جل وعز، ومنهم من كتب لا عن دين ولا رغبة في شيء سوى أنه رأى بتجرد ودقة وعمق، ثم تحولت هذه الرؤية إلى أحرف نطق بها، أو رسمها على الصفحات، وبالأصح إلى علم ينفع الناس، ويخدم الحياة.

وأقدّم الآن مثلاً جديداً من هذا العلم النافع، وتلك الصفحات المتحررة التي رسم فيها الكاتب صورة سليمة عن منهج علي في الحياة، وإرادته الحديدية في جنب الله والحق، رسمها عن معرفة ودراية، وبأمانة وإخلاص، كما هو شأن العالم المتحرر.. وندر أن يتحقق هذا الإنسان.

قرأت في مجلة الكاتب المصرية مقالات خمس نُشرت تباعاً في عدد كانون الثاني وشباط وآذار ونيسان وأيار من سنة ١٩٦٥م بعنوان " الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام " بقلم الكاتب الكبير الأستاذ أحمد عبّاس صالح، أذكر منها هذه المقتطفات (١).

(علي وبيعة أبي بكر)

قال الكاتب في عدد كانون الثاني ٦٥ ص ٤٤ وما بعدها:

" عارض علي بنِ أبي طالب، والمجموعة التي تمثل الجماهير في البيعة لأبي بكر، بل إن عليا اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمر من جانب عمر بن الخطّاب.. كان علي وصحبه إلى جوار النبي يبكونه، ويعدّون العدّة لدفنه،

---

(١) الأستاذ أحمد عبّاس صالح مصري، من كبار الأدباء في هذا العصر، وهو رئيس تحرير مجلة الكاتب المصرية، وأحد المحررين الكبار في جريدة الجمهورية، ومن الغريب أنه لم يقرأ كتاباً للشيعة، وأن جميع معلوماته من مصادر السنة. " مغنية "

وعلى حد تعبير بعض المؤرخين كانت جثة النبي لم تبرد، حتى اندفع عمر بأبي بكر إلى السقيفة، ليبتّوا في أمر خليفة رسول الله، وحين أبلغ علي بالنبأ ثار، ورفض البيعة، ورفضها معه حزبه وأنصاره، واستمر علي وصحبه ممتنعين عن البيعة ستة شهور كاملة.

وكانت غالبية المسلمين مع الاتجاه الذي يمثله علي وأصحابه، أعني أن جماهير المسلمين العريضة كانت مع هذا الاتجاه، لأن النبي نفسه كان زعيمه، وواضع مبادئه الأساسية، وأي اتجاه مضاد سيقابل بالعنف، وكان سيُقضى عليه في المهد، لذلك جاءت خلافة أبي بكر فرصة ليستجمع فيها اليمين قواه، وترتب للوثوب على الحكم بعد أن قضى النبي الذي لم يجرأ أحد في حياته أن ينحرف بالدعوة إلى اتجاه غير اتجاهها " .

ثم قال الأستاذ صالح في عدد شباط ٦٥ ص ٢٦ ما نصه بالحرف: " كان حزب كبير من أحزاب المسلمين يعتقدون أن علياً كان أولى بالخلافة من أبي بكر، ثم أولى بها من عمر".

﴿ علي والحق ﴾

وقال في عدد آذار ٦٥ ص ٥٤ :

" وقد كان المسلمون جميعاً يؤمنون بأن علياً أهم رجل في عصره، وبين أقرانه من قادة المسلمين ".

وقال في ص ٥٧ من العدد المذكور: " وكان علي يمثل في نظر غالبية المسلمين الرجل الوحيد الأقرب إلى روح الإسلام وأصوله الصحيحة، ولكنه في نفس الوقت يمثل السياسي المتشدد، وهذه هو السر الذي جعل الكثيرين من القادة والطامحين والمستفيدين ينظرون إلى تولية علي نظرة حذر وتردد " .

وقال في ص ٣٦ من عدد نيسان: " لو أن علياً كان أقل التزاماً لمثاليته الإنسانية لكسب جولته مع اليمين ".

﴿ علي والسياسة ﴾

منذ أكثر من ألف سنة قال جاهل أو متحامل: إن علياً لا يعرف السياسة، لأنه سقى الماء لأعدائه بعد أن منعوه منه، وعفا عن مروان بن الحكم الذي

قاد عليه الجيوش مع من قادها في وقعة الجمل، وظفر بابن العاص، وأخلى سبيله، وهو العدو الأول وأصل البلاء، ولم يترك معاوية في الحكم والظلم، قال هذا جاهل أو متحامل اليوم وقبل اليوم، وأجاب عنه من أجاب بألف وجه وتوجيه، أما قول الحق والفضل، وجواب العلم والعدل فهو عند الأستاذ أحمد عبّاس صالح، ويتلخص بكلمة واحدة، وهي أن علياً لو لم يتشدد في الحق لما عمل به عامل إلى يوم يبعثون، وهذا جوابه بالحرف الواحد في عدد نيسان ص ٣٧: " ولو لم يسر علي سيرته المثالية هذه أكانت تبقى تلك الجذوة – يريد جذوة الحق – مشتعلة وكامنة في النفوس ؟ .. ومن الغريب أن ما من فكرة عظيمة تبقى في الأرض وتؤتي ثمارها إلا بالتضحية والفداء، بل وبالعذاب أقسى ما يكون العذاب، وهذا النوع من الرجال العظماء هو الذي قدّر له أن يخوض التجربة حتى النهاية، وأن يُمتحن بكل أنواع العذاب دون أن يتردد أو يتراجع، وكأن دوره الوحيد أن يكون مثالاً في التاريخ البشري، كأنه علامة من علامات الطريق ".

﴿ بنو امية ﴾

قال في عدد كانون الثاني ص ٤٩ : " وثبت أمية التي كانت تناضل منذ الجاهلية، لتسيطر على مكة، حتى إذا جاء الإسلام عدَّته محاولة لهدم سلطانها، والاستئثار به دونها، ثم لم تلبث هي وأحلافها أن غيَّرت خطتها، وأصبح التسلل إلى مركز الصدارة هو غايتها ".

وقال في عدد نيسان ص ٤٣: " قاد معاوية جيش الشام، وهو الرجل الذي يمثل النقيض من علي تماماً، هو شخصية فريدة، جمعت فيه كل خصائص الرجل الذي لا تشل حركته أية قيمة من القيم الدينية والإنسانية.. إنه ابن أبي سفيان الشهير، وابن تلك المرأة التي مضغت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلاً.. إن في نفس معاوية إرادة الانتصار الشخصي والغلب.. إن فيه قسوة الإعصار، وعبقرية القدر الغاشم.. إنه قطب السلب المطلق الذي يصطرع في قلب الإنسان، كما يصطرع في قلب الكون، والسلب في الكون يتجه إلى الشر، والإيجاب يتجه إلى الخير، وقد تصادم القطبان السالب والموجب بقدر ما تتيح الإمكانية البشرية أن تكون سلباً مطلقاً، أو إيجاباً مطلقاً " . أي أن علياً فيه جميع إمكانيات الخير والحق التي يمكن أن توجد في الطبيعة البشرية، كما أن معاوية فيه جميع إمكانية

الشر والباطل التي يمكن أن تُوجد في الطبيعة البشرية، وقد تصادما، وكلٌ على صفته.

ثم قال الكاتب: " لقد تربى معاوية في حجر أبي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة، وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمل النبوة من فداء وتضحية وإيجابية للخير المطلق".

وأكتفي الآن بهذه المقتطفات وسأعود إلى الموضوع مرة ثانية، وبصورة أشمل وأكمل حين أشرع بتأليف كتاب " العقيدة الإسلامية وأصولها " وذلك بعد أن أفرغ من كتابٍ " فقه الإمام جعفر الصادق " (١) الذي خرج إلى الأسواق منه جزءان، وقريبا الثالث إن شاء الله، وكل جزء في ٣٠٠ صفحة بقطع العرفان، ويبلغ مجموع أجزائه ٦ تحتوي على دورة كاملة للفقه الجعفري من ألفه إلى يائه، مع ذكر الدليل على كل فرع ومسألة من كلام الإمام الصادق بالذات، والتزمت نشره دار العلم للملايين ببيروت، وقد توخيت التوضيح والتيسير على القارئ جهد المستطاع، والله سبحانه ولي التوفيق.

---

(١) بعد كتابه " فقه الإمام الصادق " أخرج الشيخ كتابه " التفسير الكاشف " ولم يخرج له كتاب بعنوان " العقيدة الإسلامية وأصولها " ولعله كان واحداً من مشاريعه الفكرية المؤجلة، ولم يسعفه الوقت والجهد على إتمامه أو الشروع في كتابته، وهو كثيراً ما يخطط لكتب ولكنه لا يوفق لكتابتها أو يتراجع عنها لأسباب كثيرة خارجة عن إرادته، كما يبين في مواضع كثيرة.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥٣ الجزء ١، الصادر في ربيع الأول سنة ١٣٨٥هـ الموافق تموز (يوليو) ١٩٦٥م، ص (١٧-١٩).

(٧٩) الكلية العالمية السيارة

نفثة مصدور:

ماذا أصنع بهذا القلبِ الذي يتفطر دماً كلما رأى أو سمع أو قرأ منكراً، أو شاهد في قومه تأخرا؟ ماذا أصنع به، وقد تمرد عَلي وعلى الخلص من إخوانه، وأبى إلا أن يحس ويشعر ويتوجع ويتألم من الباطل وأهله، ومن الادعاءات الفارغة الكاذبة وذويها، حتى أمرضني وأمرض نفسه، ودخلت المستشفى بسببه ولمعالجته.. حاولت أنِ أجنبه الاهتمام بالناس ومشاكل الناس، من أي نوع كانت أو تكون، وأن أشغله بشيء ينسيه كل شيء.

فاخترت الكتابة في فقه الإمام الصادقِ "ع" ، هذا البحر الزاخر الذي له أول بلا آخر، على أن أخرجه في أجزاء مرتباً أبوابه على طريقة الفقهاء من أول الطهارةِ إلى آخر الديات عرضاً واستدلالا، وأن أقضي معه جميع أوقاتي منصرفاً عن غيره انصرافاً تاماً.. وبالفعل باشرت بالكتابة، وكان عملي في اليوم والليلة يستغرق ست عشرة ساعة في أغلب الأحيان، وأخرجت المطبعة الجزء الأول والثاني والثالث بسلام، ولله الحمد، وفي نفس اليوم الذي سلمت فيه الجزء الرابع لدار العلم للملايين، بل وبعد ساعة بالضبط أصابتني نوبة قلبية حادَّة كادت تودي بحياتي لولا لطفه وعنايته جلَّ وعز، ولم تهدأ إلا في المستشفى، وبين يدي الأطباء، وإلا بالحقن المخدِّرة، وقد استمرت أكثر من خمس ساعات.

سكن الألم، والفضل لله وحده ، ولكن بقي الجرح عميقاً في القلب ، واستمر التدقيق والفحص على الأشعة وتخطيط القلب والعلاج مدى أسبوع كامل ، وبعده مرَّة في الأسبوعين ، وآخر تخطيط أجراه أقدر وأشهر طبيب في القاهرة ، وبعد التحقيق والتدقيق الشامل الكامل قال : القلب في تحسنٍ ، ولكنه مهيأ في كل حين للنكسة ، وهي أصعب من الداء ، وأشد خطرا ، فاحذر وتحفظ ، ثم أعطاني " روشتة " الدواء من أربعة أصناف ، وكتب على ظهرها بخط يده ما نصه بالحرف :

" تجنب كل مجهود جسمي وعقلي والانفعالات النفسية، لا تتعرض للبرد، ولا تملأ المعدة بالطعام، قلل من الملح، امتنع عن البيض واللبن ومشتقاته، والكبد والكلاوي والمخ، كل المسلوق من غير سمن، وضع عليه الزيت الفرنساوي، امتنع بتاتا عن التدخين ".

وليس من شك أن إصدار الأوامر سهل يسير.. أما العمل بها فحمل ثقيل، بخاصة إذا خالفت الهوى والمعتاد، والفرق بينهما تماماً كالفرق بين الأقوال والأفعال.. وإليه سبحانه أسلم أمري، وبه أستعين.

ومن السهل أن أدع أكل الكبد والمخ والبيض واللبن ومشتقاته كالزبد والجبن، حيث لا صحبة لي معها من قبل، ولكن كيف بالسيكارة، وقد مضى عليّ بصحبتها ٤٧ عاماً، ولم أدعها إلا لبضع دقائق، وعند النوم والطعام؟ وفقه الإمام الصادق "ع" هل يدعني، وبقي منه الجزء السادس، وشطر كبير من الخامس ؟ وإذا استطعت أن لا أكتب فمن أين لي بقلب لا يتململ، وعقل لا يذهل، وأعصاب لا تهتز إذا سمعت أو قرأت عن المجازر في إفريقيا وشرقي آسيا، وعن الفضائح في البلاد العربية، وإذا رأيت أو سمعت شخصاً يتكلم باسم الله والقرآن ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام، ثم لا يهتم بأمور المسلمين، ولا يعمل من أجلهم، ولا يضحي في سبيل مصالحهم.. ومن عرف مبادئ الإسلام وحقيقتها وأهدافها، وفهمها فهماً صحيحاً يعرف أن مجرد حفظ المتون والشروح والحواشي، وما يرد عليها من الاعتراضات مع الأجوبة لا يخول الإنسان أن يتكلم باسم الإسلام، حتى يعمل لإعزازه، ويبتلي في نصرته، ويساهم بقسط في هداية ضال، أو رد ظلامة، أو إصلاح فساد، أو إشباع جائع، وكسوة عار، أو شفاء مريض.. لقد قرأت مئات الكتب الإسلامية في العقيدة والشريعة، والتفسير والحديث والتاريخ والتراجم فخرجت بهذه النتيجة: إن " العالم " الذي يعيش في هذه الحياة عشرات السنين أو دونها، ثم يموت دون أن يساهم، ولو بلبنة واحدة في بناء العلم والعدل، ولم يهدم ولو حجراً واحداً من كيان الظلم والجهل، إن هذا ليس بشيء في نظر الإسلام، ولا يحق له أن يتكلم باسمه بالغاً ما بلغ من العلم والزهد والعبادة.

هذه نفثة مصدور ما قصدتها بالذات، وإنما أردت الكتابة عن الكلية العالمية السيارة، ولكن رأيتني أساق قسراً إلى هذه الكلمات، وإذا لم يكن من علاقة بينها وبين الكلية فإنها تتصل اتصالاً وثيقاً بظروفي التي أعيش فيها الآن.

الكلية العالمية السيارة :

يُقال: إن في الولايات المتحدة أربعين ألفاً، أو يزيدون من الذين يملكون مئات الملايين لا عشرات فقط.. وأراد أحد هؤلاء أن يفعل شيئاً من نوع جديد يُذكر به حياً وميتاً، فأنشأ كلية أسماها الكلية العالمية، تضم عدداً

محدوداً وقليلاً من الطلاب، يتخصصون بعلم الاجتماع، على أن تكونٍ سيارة لا تستقر في مكان وبلد واحد، بل تجوب البلدان أستاذة (١) وطلابا، يتلقونٍ الدروسٍ في أوقاتها، وهم ينتقلون من بلد إلى بلد بعد أن يمكثوا فيه شهرا كاملا، يتصلون أثناءه بفئاته وبعض شخصياته، ويتعرفون على شؤونه وأحواله، وبهذا تتوافر للطلاب أسباب المعرفة الحسية لعلم الاجتماع، ويدرسون السلوك الخارجي عملياً لا نظرياً، وفي الأفراد والجزئيات، لا في الكليات والعمومات.

وكان لبنان من بين البلدان التي وصلوا إليها. وقد هيَّأت لهم الجامعة الأمريكية ببيروت شقة خاصة لمتابعة الدروس فيها، والاستماع إلى المحاضرات من الشخصيات العلمية بلبنان، ومهّدت لهم سبيل الاتصال والتعرف بمن يريدون، وما يريدون، ومن الذين حاضروا على طلاب هذه الكلية العالمية النائب المعروف الأستاذ كمال جنبلاط، والدكتور شارل مالك.

وفي الأسبوع الأول من كانون الثاني سنة ١٩٦٦ – لا أتذكر اليوم بالضبط – اتصل بي الأستاذ حلمي حسن مروة، وقال لي فيما قال: إن طلاب الكلية يريدون الاستماع من أحد رجالات الإسلام، وبعد التداول والتدارس مع بعض الشخصيات، ومنهم الأستاذ شوكت الملا رئيس التفتيش القضائي وقع عليك الاختيار، فماذا ترى؟ قلت: حاضر لكل طلب من هذا النوع، ثم افترقنا دون أن يأتي أحدنا على الموضوع الذي ينبغي الحديث عنه.

وفي اليوم التالي جاءني الأستاذ حلمي، ومعه الأستاذ نزيه زيدانٍ، وقالا: تفضل، الطلاب بالانتظار، فذهبتٍ معهما، ولم أكن قد هيّأت شيئاً، لأني لا أعلم عن ميولهم ورغباتهم كثيراً ولا قليلاً، وفي الطريق سألني مروة بماذا تتكلم؟ قلت: لا أدري، أدع الخيار لهم وللمناسبات.

وحين وصلت إلى المكان المعد وجدت الأستاذ شوكت الملا، والأستاذ طلعت الزين، وبعد التحية أخذ الطلاب مكانهم، وأخذت مكاني في الصدر، وجلس

---

(١) في المقال وردت أستاذة بدلاً من أساتذة، ولكني استبدلتها لأساتذة، لأنها الأنسب حسب سياق الجملة، وأظنه خطأ من المطبعة.

إلى جانبي المترجم الأستاذ نزيه زيدان، وابتدأتهم بقولي:أتمنى لكم الراحة وأن تكون رحلتكم هذه طيبة وموفقة، وخالصة لوجه العلم والثقافة التي تعود نتائجها بالخير عليكم، وعلى الإنسانية.. وقبل كل شيء أود أن أعرفكم بمؤهلاتي، والعلم الذي درسته وتخصصت به، ليبقى الحديث داخل إطاره رغم أنه إطار مرن ومتحرك، إن معرفتي كدراسة واختصاص تنحصر بالفلسفة الإسلامية الإلهية، وبالفقه الإسلامي وأصوله.. أجل، إن لي مطالعات في التشريعات والنظم الاقتصادية الوضعية، وفي الفلسفة الحديثة، والأدب والتاريخ والسياسة، ولي تجارب ومشاركة اجتماعية كأي إنسان يحس ويدرك ما حوله، إذن، بالإمكان أن لا نخرج عن إطار التشريع والإلهيات بالمقدار الذي أدركه وأحسه.

لقد سمعتم أن لبنان بلد الطوائف، وأحب أن تعلموا أن الطائفية فيه من جملة البواعث على التسابق إلى الخيرات، بخاصة في ميدان التربية والتعليم، فإذا ما أنشأ المسيحيون معهداً بادر المسلمون إلى إنشاء مثله، وإذا بنى هؤلاء مسجداً أسرع أولئك إلى بناء كنيسة، وهكذا فيما يعود إلى الخدمات الاجتماعية، والأعمال الإنسانية. هذا، إلى أن كلاً من الطائفتين تشترك في أعيادها مع الطائفة الأخرى، وإذا حدث ما يعكر الصفو فسرعان ما يزول، ويعودون جميعاً إلى الوحدة الوطنية، والأخوة الإنسانية. وإن السلام والأخوة والمحبة بين الناس كافة، لا بين المسلمين والمسيحيين تتفق والأهداف العليا لجميع الأديان السماوية، فقد ثبت عن الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:" الأنبياء أخوة، أمهاتهم شتَّى، ودينهم واحد" وهو دين المحبة والسلام، والعمل لخير الإنسان، والسمو به على الأحقاد والأضغان إلى الصفاء والإخاء الذي يؤهله للعمل الصالح ليحيى حياة طيبة خالصة من كل شائبة.. هذا إلى أن الإيمان بالله واليوم الآخر، وبكتبه وبرسله من أركان الإسلام والمسيحية معا، فمن أنكر شيئا من ذلك فما هو منهما في شيء، أجل.. إن الإسلام يخالف المسيحية في أشياء." منها ": أن المسيحية لم تُوجب الزكاة في أموال الأغنياء، بل دعت هؤلاء أن يحسنوا ويتفضلوا على الفقراء، أما الإسلام فقد جعل الفقير شريكاً للغني، وقال – كما جاء في القرآن الكريم - : " وفي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم " (المعارج:٢٥) (١) .. وفي الآية ٣٨ من سورة الروم:

(١)هنا أيضا يخطئ الشيخ في نص الآية المباركة، فنصها كالتالي : " والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم " (المعارج : ٢٤-٢٥) !!

" فآتِ ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل". بل اعتبر الإسلام الزكاة ركناً من أركان الدين، وقرن وجوبها بوجوب الإيمان بالله، وقاتل مَن منعها (١) وأخرج من أنكرها من الإسلام.. ولم يشرّع الزكاة لسد حاجة الفقير وكفى، بل لذلك ولحفظ التوازن الاقتصادي، وإضعاف الفروق بين الفئات، ولإشاعة روح التعاون والمحبة والإخاء.

و " منها ": أن الإسلام يقيم العقيدة الدينية، ويدعمها بالعقل، ويجعله المصدر الوحيد للإيمان بالله وصفاته، وأن كل ما يرفضه العقل ويأباه فهو كفر وضلالة، وقد ندّد القرآن بمن يقلد الآباء والأجداد، وقال عزَّ من قائل: " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ١٦٥ " (البقرة:١٧٠) (٢).

و " منها ": أن الإسلام لم يأمر بعبادة الله وكفى، بل أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم شريعة تنتظم فيها جميع ما يفعله الإنسان باختياره وإرادته منذ بلوغه وإدراكه، حتى يومه الأخير، وقسّمها إلى حلال وحرام، ليفعل الإنسان ويترك على أساس سعادته وسعادة المجتمع الإنساني، وبهذه الرابطة القائمة بين الدين والحياة تميزت دعوة الإسلام عن غيرها من الدعوات.

وهنا وجّه أحد الطلاب إلي هذا السؤال: إذا كان الإسلام يربط بين الدين والحياة، فما هي العلاقة بين الصوم والصلاة، وبين رقي الإنسان وتقدمه في هذه الحياة؟

قلت: إن هذا السؤال أو الإشكال إنما يُوجه إلى الدين الذي اقتصر على العبادة، وسكت عن الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أما الدين

---

(١)وبهذا تختلف الزكاة عن الضرائب وسائر الموجبات المالية، كالجزية، وما يضعه الإمام على الأرض المفتوحة عنوة، والنذور والكفارات، بل والخمس أيضا، لوجود الشبهة بعدم وجوبه في هذا العصر، حيث ثبت عن أهل البيت "ع": " ما كان لنا فهو لشيعتنا " والبيان المفصل في الجزء الثاني من كتابنا " فقه الإمام جعفر الصادق " باب الخمس. " مغنية ".

(٢) ذكر الشيخ – عليه الرحمة – في مقاله أن الآية رقمها ١٦٥، ولم يذكر اسم السورة، وكلا الأمرين منه تقصير.

الذي قال بلسان كتابه المجيد:" وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين – القصص ٧٧ ".. والقائل بلسان نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم: " المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ".. وبلسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .. وبلسان حفيده الإمام جعفر الصادق: " كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز، وكل ما فيه فساد للناس بجهة من الجهات فهم محرم " أما هذا الدين فلا يتجه إليه هذا السؤال.. لقد أمر الإسلام بعبادة الله سبحانه، إلى جانب أمره بالجد والعمل، لأن عبادته جلَّ وعلا تتيح للإنسان أن يخلو إلى خالقه وضميره، وتروض نفسه على الكف عن الشهوات والنزوات، وأمره بالعمل الذي تتقوم به حياته وحياة المجتمع، وقد بيَّن القرآن الكريم الغاية من الصلاة في الآية ٤٤ من سورة العنكبوت: " وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون" (١) فالغرض من الصلاة هو ذكر الله، والخوف من عقابه الذي يردع المصلي عن المحرمات والمنكرات.

ثم ذكرت لطلاب الكلية العالمية ما جاء في بعض الروايات من أن الإمام علي بن أبي طالب مرَّ بأعرابي، معه ناقة جرباء، فقال له الإمام: لماذا لا تداوي ناقتك هذه؟ فقال الأعرابي: بلى يا أمير المؤمنين، إني أداويها، قال الإمام: وبماذا ؟ قال الأعرابي: بالدعاء يا أمير المؤمنين، فقال له الإمام: ضع مع الدعاء شيئاً من القطران.. ثم بيّنت لهم الفرق بين التوكل والإيكال،

---

(١)لا أدري ما الذي بين الشيخ وبين آيات القرآن ؟!! فلم يورد في مقالاته آية صحيحة، وإذا أوردها صحيحة أخطأ في رقمها، وإذا جاء بالرقم صحيحا أخطأ في السورة !! تارة يورد الآية مبتورة، وتارة أخرى يضيف لها شيئا ليس من بنيتها، وثالثة يدخل آية في آية، مع أن القرآن أمامه، وكان الأولى به أن لا يسطر سطرا إلا بعد أن يتثبت ويتحقق، أما أن يكتب من الذاكرة أو نقلا عن الآخرين ربما أو اعتمادا على العجلة والتسرع فهذا ما لا يليق بالقرآن ولا بمقام الشيخ نفسه، والذي لم نكن نحبذ وجوده في أعماله العلمية المشرقة والتي تمتاز بالحيوية والتدفق والخلود .. أقول هذا لأن الآية ليس ترتيبها كما ذكر الشيخ ٤٤ من سورة العنكبوت، بل ٤٥ من السورة المذكورة !!! فتأمل وتعجب أيها القارئ الكريم !!

وأن الإيكال هو ترك العمل والاعتماد على الغير، أما التوكل فهو العمل مع طلب التوفيق من الله سبحانه على أن يجعله عملاً منتجاً، لا عقيماً، ونهى الإسلام عن الاتكال، وأمر بالتوكل، فقد تواتر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم : " أعقلها وتوكل ".

وسألني طالب آخر: هل الخير والشر من الله، أو الإنسان ؟

فأجبته بما ذكرته مفصلاً في كتابي " مع الشيعة الإمامية "، وكتاب " معالم الفلسفة الإسلامية " ومجمله أن أفعال الإنسان منها ما هو خارج عن إرادته واختياره، ولا يستطيع التخلص منه، وهذا النوع لا يتصف بخير أو شر، ولا بحسن أو قبح، ومنه ما يفعله برضاه ومشيئته، وهو الذي يتصف بالخير أو الشر، والحسن أو القبح، فإذا فعل الإنسان خيراً نُسب إليه وإلى الله معاً، أما نسبته إلى الله سبحانه فلأنه هو الذي أقدر الإنسان عليه، ومكنه منه، وأمره به، أما نسبته إلى الإنسان فلأنه قد أتى به، وهو قادر على تركه، كما هو الغرض، أما إذا فعل الإنسان الشر فإنه يُنسب إليه وحده، ولا تجوز نسبته إلى الله جل وعز، لأن الإنسان فعله بإرادته، وكان باستطاعته أن يتركه، ولا يُنسب إلى الله، لأنه قد نهاه عنه، وأمره بتركه.. وبهذا يتبين معنا أن الخير في أفعال الإنسان يُنسب إليه وإلى الله تعالى، وأن الشر في أفعاله يُنسب إليه وحده، ولا تجوز نسبته إلى الله.

وإليك مثالاً يوضح الفكرة ويقربها إلى الأذهان:

أعطيت ولدك ديناراً، وأمرته أن يشتري به كتاباً، ونهيته أن يلعب بالقمار، فإذا اشترى الكتاب ممتثلاً ما أمرت نُسب الشراء إليك، لأنك مكنته منه، وأمرته به، ونُسب إليه أيضاً لأنه ترك القمار مع قدرته عليه، وآثر شراء الكتاب.. وإذا ترك الكتاب ولعب بالقمار فإن القمار يُنسب إليه وحده، حيث فعله وهو قادر على تركه، ولا ينسب إليك، لأنك نهيته عنه ولم ترضَ به.

وإذا سألت: لماذا أعطى الله الإنسان القدرة على الشر مادام لا يريده؟

أجبنا: بأن الله سبحانه أعطى الإنسان القدرة على الخير والشر معاً حذراً من الإلجاء وسلب الاختيار الذي لا يتصف الفعل معه بخير أو شر، كما قدّمنا، ولا بحق أو باطل، ولا يبقى مجال لتمييز الخبيث من الطيب، لا للثواب والعقاب، وبهذا يفقد الدين دعوته، والإنسان إنسانيته.

وانتهى الحديث بنا عند هذا الحد، وقد استغرق مع الترجمة والتفصيل والتوضيح ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة.. وسمعت بعد ذلك أن طلاب الكلية الأمريكية السيارة قالوا: لقد أعطانا هذا الشيخ صورة عن الإسلام نستطيع بها أن نميز بينه وبين غيره من الأديان، ولم نكن على معرفة بشيء منه، فتمنيت أن تكثر السبل التي تمهد للعارفين بالإسلام وحقيقته أن يتصلوا بغيرهم، لا بقصد التبشير والدعاية، بل لبيان ما هو الإسلام في جوهره، وعندئذٍ يحصل التبشير تلقائياً، ومن غير قصد.

□

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥٣ الجزء ٩، الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٨٥هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٦٦م، ص (٨٥٤-٨٦٠).

(٨٠) القرآن والقمر والحياة

ما إن قفز الإنسان قفزته الجبّارة إلى القمر، ووضع عليه قدميه حتى أخذ الناس يتحدثون ويتساءلون: هل هذه القفزة معجزة من الخوارق، أو هي اكتشاف جديد كغيره من الاكتشافات العلمية؟ ثم ما هو رأي الدين في ذلك؟ وهل يتضارب مع ما جاء به الإسلام؟ وهذا السؤال الأخير وجَّهه إلي أكثر من واحد يؤمن بالله وكتبه ورسله.

وما من شك أن الصعود على القمر تقدم علمي رائع وعظيم وليس معجزة من الخوارق، كيف ووسائله معروفة وأسبابه مكشوفة، يستطيع كل واحد إذا مارسها أن يطأ على القمر تماماً كما فعل " ونج " و " أدوين " ، أما رأي الدين في ذلك، أما تضارب هذا التقدم العلمي وتنافره مع ما جاء به الإسلام فلا يقوله إلا جاهل أو عدو لدود لدين الإسلام.. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الصهيونية العالمية بعد حرب حزيران شنَّت حملة افتراءات ضد الإسلام حتى بلغت بها الجرأة والقحة أن تحرف كلمات القرآن وتطبع الألوف من النسخ المحرفة وتوزعها عن طريق العملاء بالمجان.. ونحن لا نشك في أن الصهيونية تحاول الآن طعن الإسلام وكتاب الله عن طريق إشاعة القول بأن الصعود إلى القمر لا يقره القرآن ودين الإسلام.

وكل الناس يعلمون أن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومعنى هذه الشهادة في حقيقتها وواقعها هو أن يستجيب المسلم لدعوة الله ودعوة رسوله محمد بن عبد الله، وقد حدّد القرآن هذه الدعوة وهو المصدر الأول للإسلام والمقياس الصحيح لما جاء به، حدد دعوة الله ورسوله في الآية ٢٣ من الأنفال: " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " (١) فدعوة اله والرسول — إذن — تتركز على العمل من أجل الحياة، وتسير معه جنباً إلى جنب.. وعلى هذا فكل مبدأ أو قول أو

---

(١) آهٍ ثم آهٍ من الشيخ !!! لا أدري ماذا أقول في شأنه، فقد حيّرني وأتعبني معه، فحين يكتب البحوث والدراسات الفقهية والعقائدية والجدل المذهبي فإنه لا يغفل عن التوثيق الدقيق، وما إن يأتي إلى القرآن وآياته لا أدري ماذا يحدث له !! فهنا أيضاً يخطأ في رقم الآية المباركة من سورة الأنفال ، فهي آية رقم ٢٤ وليس ٢٣ كما ذكر في مقاله، ومن أحبَّ فليراجع القرآن الكريم!!! .

عمل يضر بالحياة من قريب أو بعيد ما هو من الإسلام في شيء، وكل إنسان كائناً من كان يعمل من أجل الحياة وخيرها فإن عمله هذا يلتقي مع الإسلام ودعوة الله والرسول، أراد ذلك أو لم يرد، وإن من يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو عدو الله والرسول، وإن قام الليل وصام النهار. وبداهة أن الطريق الوحيد للحياة في هذا العصر هو العلم، ولا يمكن أن تتحقق الحياة بدونه.... مستحيل إلا إذا رجع الإنسان إلى ما قبل العصر الحجري وعاش في الغاب مع الوحوش والسباع – إذن – فدعوة الإسلام إلى الحياة هي عين الدعوة إلى العلم، ومن أجل هذا أكثر الإسلام من الحث على طلب العلم، وأثنى على الراسخين فيه في العديد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واعتبره فرضاً كفائياً على كل مسلم ومسلمة، بل ديناً يدان به كما قال الإمام علي عليه السلام.

فعل بعد هذا يقول عاقل: إن الإسلام عدو العلم؟ وهل يرفع العدو من شأن عدوه، ويتخذه عقيدة يدين بها؟ .. ولا شيء أدل على أن الإسلام يتسع لجميع أنواع العلم من أنه كلما تقدم خطوة إلى الأمام ظهرت قوة الإسلام وعظمته في تعاليمه ومبادئه عقيدة وشريعة.. أجل شيء واحد يفرضه الإسلام، ولا يتسع له، وهو أن يُستغل العلم لأغراضٍ عدوانية وأهواء شيطانية.. إن الإسلام مع العلم الذي يفتح لبني البشر آفاقاً جديدة، ويسخر الكون بأرضه وسمائه لخير الإنسان وحياة أفضل وأكمل، سواء أكانت هذه الحياة في الأرض ومن الأرض أم القمر أم المريخ أم في أعماق البحار..

أما قوله تعالى: " يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان " الرحمن -٣٣ ، أما هذه الآية فإنها تؤيد ما قلناه، لأن المعنى المقصود منها هو الردع والزجر عن القول والجدال في خلق السماء والأرض، وأصل تكوينهما من غير علم ودليل، مثل القول بأن الأرض قائمة على قرن ثور، وأن السماء لها نوافذ وأبواب تفتح وتغلق وتقفل بمفاتيح في أيدي الملائكة، نهت الآية الكريمة عن هذا الجهل، وأمرت أن نقول عن السماء والأرض بسلطان، ومعنى السلطان الحجة والبرهان، وأي برهان أقوى من الصعود إلى القمر، ولمسه باليد، وتحليل تربته في المختبرات ؟ إذن ، الآية تبارك هذا الصعود وتآزره.

وبعد.. فإن العلم مهما تقدم واتسع فإن الإسلام أوسع من أن يضيق به ، وهل يضيق الحق بالحق ؟ إن الدين الذي يضيق بالعلم هو دين الجهل والتضليل

والخرافة والأساطير.. إن الدين الحق يدعو إلى الإيمان بخالق الكون، والعلم يكشف عن أسراره التي تدل على وجود المكون وعظمته، وتزيد الإيمان به قوة ورسوخا.

وأخيراً نوجه هذه الأسئلة للذين يشككون في وجود الخالق ولا يؤمنون إلا بالعلم الذي اخترع المركبة الفضائية. نسألهم: هل المركبة التي أوصلت الإنسان إلى القمر أعظم أو العقل الذي اخترعها ؟ وهل العقل المخترع أعظم أو الذي خلق العقل ؟ وهل المادة بما هي تنشئ العقل والعلم ؟ ولماذا أنشأتهما في الإنسان دون غيره من الكائنات المادية ؟ وفي أنفسكم أفلا تبصرون — ٢١ الذاريات.. صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم.

❁ مجلة العرفان، المجلد ٥٧ الجزء ٤، الصادر في جمادى الثانية سنة ١٣٨٩هـ الموافق آب (اغسطس) ١٩٦٩م، ص (٤٢٨-٤٢٠).

الفهرست

صدر للمؤلف:

محمد جواد مغنية	1997
متناقضات القرآن: رد على مزاعم المستشرقين	1999
قتل الشعراء	2003
مشروع الاسكافي في ربع قرن	2005
شاعر وقصيدة	2007
سرقات علمية وأدبية معاصرة	2010
محمد جواد مغنية ـ معاركه ومساجلاته العلمية	2011
شخصية الرسول في كتاب (عبقرية محمد) للعقاد	2013

تصميم الغلاف: فاطمة فضل